مَوسُوعَة أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى

وَأثرُهَا في اسْتِخلَافِ الإنسَانِ فِي الأرضِ

تَـأليفُ

أ. د عقيل حسين عقيل

جَامِعَة الفَاتِح - كليَّة الآدَاب

ليـبـيـا - طرابلس الغَرب

الجُزء التَّاسِع

المُنْتَقِم العَفُوُّ الرَّؤوف مَالِكُ المُلك ذُو الجَلال والإكرَام

المُقسِطُ الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ

دَار ابْن كَثِير

دِمَشق - بَيرُوت

مَوسُوعَة
أسماء الله الحسنى
وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين عقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْــرِسُ ٱلمَوْضُوعَات

الموضوع	رقم الصفحة
المنتقِم	7
العفوُّ	61
الرَّؤوف	99
مالكُ المُلْك	153
ذو الجلال والإكرام	205
المُقْسِط	277
الجامع	333
الغنيُّ	399
المُغني	439
المَانِع	481

المُنتَقِمُ جلّ جلاله

المنتقم : « هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب علىٰ الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال ، وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة » [1] .

المنتقم : هو محق الحق ومزهق الباطل ؛ ولذا فهو لا ينتقم إلا لحق وبحق وهو لا يظلم أحداً . والمنتقم لا ينتقم من أحد إلا لأجله ، فالانتقام من الظالمين حق لهم وحق عليهم : من حيث كونه حقاً لهم لأجل أن يتذكروا لعلَّ الذكرىٰ تنفعهم فيُكفِّرون عن سيئاتهم ، ومن حيث كونه حقاً عليهم ليزداد المتقون تقوىٰ ، ويزدادوا تمسكاً بالحق وثباتاً عليه . وبهـٰذا الأمر يقتدي المنتقم له والمنتقم منه بأن الحق لابد له وأن يحق .

وعليه فنحن نجزم بأن اسم المنتقم من أسماء ٱلله تعالىٰ كما سيتضح لاحقاً .

يتساءل البعض عن جواز أن تكون من صفات ٱلله عز وجل الانتقام الذي يدل علىٰ اسمه (المنتقم) ! وللإجابة عن ذلك علينا أن نعرف من هو المنتقم ، ثم نحصي ممن انتقم ولماذا ؟ وكيف ؟

المنتقم : هو الذي بيده مقاليد القوة والقدرة المُمكِّنة من الانتقام ،

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 139 .

والانتقام فعل قوي في مواجهة فعل أو أفعال سابقة العمل بغير حق ، فيها من المظالم ما لا يرضي العباد وخالق العباد ، والانتقام نتيجة لأسباب وعلل مفسدة لما يجب أن يكون صالحاً ، فالمنتقم الحق هو من ينتقم من المنتقمين (الذين هم علىٰ الباطل) ، ولذا فهو الحق ، أي صفة حميدة ومحببة لأجل أفعال الصفات الحسان .

إذاً المنتقم الحق هو فاعل الحق ، أي أنه محق الحق ومزهق الباطل ، ولذا فهو ٱلله جل جلاله ، وفي هـٰذا الأمر يكون التطابق والتماثل في آيات ٱلله المؤكدة علىٰ ترسيخ الصفات الحسان . كقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [4] .

ولأن المنتقم هو محق الحق ومزهق للباطل ، إذاً الانتقام لم تكن أسبابه ظالمة ، ولم يكن بذلك ظلماً ، بل إنه عدل لا يحقُّهُ باطل . وعليه فالانتقام من الباطل عدل في سبيل الإصلاح والفلاح والإعمار ، والخليفة هو الذي ينتقم من الظلم والظالمين لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

المُنْتَقِم : هو العادل في العقوبة لمنْ يشاءُ [5] . غير أنه قد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية الآتي : « في أسماء ٱلله تعالىٰ (المُنْتَقِم) هو المُبالغ في العقوبة لمن يشاء » وليس في أسماء ٱلله الحسنىٰ اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ

---

(1) الأنفال ، 30 .
(2) الطارق ، 15 ـ 16 .
(3) السجدة ، 22 .
(4) الدخان ، 16 .
(5) النهاية في غريب الأثر ، ج 5 ، ص 231 ، ولسان العرب ، ج 12 ، ص 590 .

ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [4] ، فبين سبحانه أن بطشه شديد ، وأنه هو الغفور الودود » [5] .

المنتقم أفعاله الانتقامية نتائجها لا تعود عليه مباشرة ، بل تعود بشكل مباشر علىٰ من ظلموا ولم يستطيعوا ردع الظلم والظالمين ، ولا يستطيعون إحقاق الحق ، ومن يتوب بعد ظلم ويصلح ما أفسد فإن ٱلله غفور رحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [6] . أما أولئك الذين لا يتوبون فإن ٱلله شديد العقاب ، ولهـٰذا فجزاء السيئة سيئة مثلها ومن عفا وأصلح فأجره علىٰ ٱلله وما ربك بظلام للعبيد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [7] . إنَّ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا

---

(1) الحجر ، 49 ـ 50 .
(2) الأعراف ، 167 .
(3) المائدة ، 98 .
(4) البروج ، 12 ـ 20 .
(5) جامع الرسائل ، ج1 ، ص356 .
(6) المائدة ، 39 .
(7) الشورىٰ ، 40 ـ 44 .

عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولمن انتصر بعد ظلمه ، أي بعد أن انتقم من الظالم أو الظالمين ، وهم لن يستطيعوا بعد ذلك ارتكاب مظالم فلا سبيل للانتقام منهم بغير حق ، لقد تم الانتقام الذي هو إحقاق للحق وإزهاق للباطل ، وسيظل السبيل مفتوحاً أمام المنتقم للحق إذا استمر الظالم في ظلمه وهو يبغي الإفساد في الأرض التي جعل ٱلله فيها الإنسان خليفة ، ولذا فالعذاب سيظل لأولئك الظالمين حق في الدارين وهٰذا الانتقام لا ظلم فيه وذلك لأنه حق في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

المنتقم : يعلم بالمظلمة وبالظالم الذي اقترف ظلماً ، وهو رافض لكل مظلمة ، وهو قادر علىٰ إحقاق الحق ، وقادر علىٰ تمكين المظلوم من بلوغ الانتصار والفوز المؤزر ، وهو الذي لا يتأخر عن ذلك كلما شاء .

المنتقم المطلق هو ٱلله جل جلاله القادر العادل القوي الجبار المهيمن الحفيظ سبحانه جل جلاله الذي ينتقم من المجرمين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [1] . والمجرمون هم الذين ذُكِّروا بآيات ٱلله ثم كفروا بها وأشركوا وظلموا الناس ، هٰؤلاء منهم ٱلله تعالىٰ منتقم ، وانتقام ٱلله من الكفرة إدخالهم جهنم . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2] .

والمنتقم بالإضافة هو المهتدي إلىٰ صراط الحق المستقيم فلا يظلم

---

(1) السجدة ، 22 .

(2) الزخرف ، 39 ـ 43 .

أحداً ، ولا يتأخر عن مناصرة المظلومين ، يثأر للحق حتىٰ يُزهق باطل القول والفعل والعمل ، ويُقدِم علىٰ أداء فعل الخيرات ، وهو الذي ينتقم من الذين يظلمون ، وهو الذي يكيد كيد الكائدين ويمكر بمكر الماكرين مصلحاً ومُعمِّراً ومفلحاً في الأرض التي استخلفه ٱلله فيها .

المنتقم : هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة والجبارين ويشدد العقاب علىٰ الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة .

المنتقم هو الذي يَغلِب ولا يُغلَب ، وذلك بأسباب امتلاكه لمعطيات الحق ، أما الذي يُغلب فهو ضعيف القول والحجَّة ، وضعيف القدرة والقوة ، ولهـٰذا من يستند علىٰ الحق استند علىٰ القوة والقدرة ، ومن استند علىٰ باطل استند علىٰ ضعف ووهن .

والمنتقم انتقامه حق لأنه ينزل فعل الانتقام بعد استنفاد السبل الكفيلة بالهداية والتنبيه ، والمؤدية للعودة إلىٰ الطاعة ، فالمنتقم هو المنذر أي هو الذي أنذر الناس من عقوبته وبطشه وانتقامه بالرسل أولاً قبل أن ينتقم منهم ، ولهـٰذا فالانتقام فعل مترتب علىٰ أفعال ، قال تعالىٰ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (1) ، مكانة المستخلفين في الأرض عالية عند ربهم ، أما الكافرون فلا مكانة لهم إلا العذاب الذي هو انتقام منهم علىٰ ما يفعلون بغير حق ، ولهـٰذا فالانتقام مخصوص بهم وبعذاب أنذرهم المنتقم منه : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) ، وإنذار المنتقم موجه للغافلين علىٰ وجه العموم ، ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ

---

(1) يونس 2 .
(2) نوح ، 1 .

فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [(1)] ، والغفلة هي متابعة النفس غير المهتدية علىٰ ما تشتهيه ، فأما متابعة النفس فبالهوىٰ الذي نبه المنتقم عباده من سوء عاقبته فقال لخليفته منبهاً ، ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [(2)] . هنا وجب علىٰ الخليفة الانتباه إلىٰ خطورة اتباع الهوىٰ لأنه يؤدي إلىٰ الغفلة المهلكة التي تؤدي بالعبد إلىٰ نقمة المنتقم سبحانه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [(3)] ، فالمتبع لهواه هو المعرض عن التمسك بما آتاه ٱلله من نعم وفضائل وآيات حسان ، وذلك لأنه تعالىٰ بعد أن خص هـٰذا الرجل بآياته وبيناته ، وعلمه الاسم الأعظم ، وخصه بالدعوات المستجابة ، لمَّا اتبع الهوىٰ انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب ، وذلك يدل علىٰ أن كل من كانت نعم ٱلله في حقه أكثر ، فإذا أعرض عن متابعة الهدىٰ وأقبل علىٰ متابعة الهوىٰ ، كان بعده عن ٱلله أعظم ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ﴾ ، واعلم أن هـٰذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب ، وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وأخس الحيوانات هو الكلب ، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث ، فمن آتاه ٱلله العلم والدين فمال إلىٰ الدنيا ، وأخلد إلىٰ الأرض ، كان مشبهاً بأخس الحيوانات ، وهو الكلب اللاهث ، فكذلك من آتاه ٱلله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس ، ثم إنه يميل إلىٰ طلب الدنيا ، ويلقىٰ نفسه

---

(1) يس ، 6 .

(2) ص ، 26 .

(3) الأعراف 175 ـ 178 .

فيها ، كان حاله كحال ذلك اللاهث ، حيث واظب علىٰ العمل الخسيس ، والفعل القبيح ، لمجرد نفسه الخبيثة ، وطبيعته الخسيسة ، لا لأجل الحاجة والضرورة [1] ، وهـٰذا هو الهوىٰ المؤدي لاتباع النفس علىٰ ما تشتهيه ، وهو ما لا يريده المنتقم لخلفائه فجعلهم من المنتهين عما نهىٰ عنه ولهـٰذا حثهم علىٰ اتباع الحق وفعله والإكثار من أفعال الخيرات الحسان ، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [2] . المعادلة واضحة بيِّنة ، فمن طغىٰ وآثر الحياة الدنيا فمأواه جهنم ، ومن اتقىٰ ربه عز وجل ونهىٰ النفس عن رغباتها غير المحمودة فيفوز بالجنة ، وهي نتاج الجزاء الأوفىٰ .

ولهـٰذا لا ينبغي الإغفال عن أهمية قضاء الوقت فهي غفلة مصدرها الأمل بغير حق وذلك بإرجاء الطاعة إلىٰ أجل يتوهمون معرفته فيقول القائل منهم غداً ، أو الشهر القادم ، أو العام القادم وهـٰكذا ، هـٰؤلاء يقول عنهم المنتقم جل جلاله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، فهم في غفلة المتوهم الذي يظن أنه آمن من مكر ٱلله ، ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [4] ، ولأن مكر ٱلله حق فهو وجوباً لابد وأن يحدث ، ومن يظن أن مكره لن يحدث سيكون من الخاسرين لا محالة ، ولهـٰذا يمكرون ويمكر ٱلله وٱلله خير الماكرين ، أي مهما مكر الماكرون من مكر ، فإن ٱلله سيكون منتقماً من مكرهم بمكره جل جلاله ، ومكر ٱلله دائماً خير ، لأنه مبطل لكل مكر يمكرونه .

إن الغافلين عن الحق ، هم غافلون عن الموجبات ، ولـٰكن لكل أمة أجل

---

(1) تفسير الرازي ، ج 7 ، ص 299 .
(2) النازعات ، 37 ـ 41 .
(3) الحجر ، 3 .
(4) الأعراف ، 99 .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) ، وعلىٰ الخليفة أن لا يقع في مثل هـٰذا الوهم فيتواكل ويتخاذل عن القيام بما أمره ٱلله به من أمر الخلافة بل عليه أن يدرك ويوسع إدراك من استخلف عليهم بأهمية قضاء الوقت في طاعة ٱلله رغبة في رضاه وخوفاً من انتقامه ، وآخر أنواع الغفلة هي النسيان وكتب المنتقم علىٰ نفسه غفرانها بشرط الاستغفار والعودة وعدم الإصرار : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (2) ، ويلاحظ أن الإنسان جُبل علىٰ هـٰذه الصفة فهو نسي ، لذا جعل المنتقم هـٰذا النوع من الغفلة قابلاً للتوبة والتراجع ، وعلىٰ الخليفة مع ذلك أن يحذر السهو والنسيان اقتداءً بٱلله الذي لا يضل ولا ينسىٰ : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (3) .

وينذر المنتقم بالآيات ، لأجل أن لا يكون العباد في غفلة من أمرهم ، ولا يكونون بعدها نادمين كما هو حال الكفرة الفجرة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ (4) ، وينذر ببعض أمثلة الانتقام فيشير إلىٰ الصاعقة في قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (5) ، فالإنذار هو آية المنتقم للعباد فمن يتجاهله يصبه الانتقام : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (6) .

والمنتقم يتبع الإنذار بالتذكير الذي يلي إرسال الرسل المنذرين بالكتب السماوية قال تعالىٰ : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

---

(1) الأعراف ، 34 .
(2) طه ، 115 .
(3) طه ، 52 .
(4) النبأ ، 40 .
(5) فصلت ، 13 .
(6) القمر ، 36 ـ 37 .

وَعِيدِ ﴾ [1] ، وهو الذي يلي الآيات أيضاً : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [2] ، والتغافل عن الذكر من عجيب الأمور التي يقع فيها الإنسان ولا يجد لها اللب تفسيراً إلا الكفر والنكران ، ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [3] ، وهو من موجبات الانتقام في الدنيا وذلك بتسخير شيطان بسوء عمله ليكون قرين هـٰذا المتغافل عن ذكر الرحمـٰن فيحمله من الذنوب ما توجب إيقاع الانتقام به ، ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [4] ، كذلك الأمر في الآخرة فإن المعرض عن الذكر له من عذابها الشديد ، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [5] .

والمنتقم هو الممهل والإمهال تفضل من المنتقم لإعطاء الفرصة للاستغفار والتوبة ، لأن فعل المستحق للانتقام موجب للرد لـٰكن المنتقم بالحق رحيم فمنحهم المهلة التي لا تعني التغافل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [6] ، لـٰكنها مهلة العليم بعباده ، الحكيم في ما قضىٰ ، فلو انتقم من كل مستحق بدون مهلة التراجع لما كان هناك تائب ولما كان هو تواباً ، ولـٰكنه جعل المهلة رحمة منه عسىٰ أن يعود من يعود ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [7] ، ويتوجب علىٰ الخليفة أن يعمل بعمل من استخلفه في

(1) ق ، 45 .
(2) السجدة ، 22 .
(3) الأنبياء ، 50 .
(4) الزخرف ، 36 .
(5) الجن ، 17 .
(6) إبراهيم ، 42 .
(7) النحل ، 61 .

الأرض فيمهل العباد بغية منحهم فرصة للتراجع عن سالف ذنوبهم ، وهـٰذه المهلة كما هي رحمة لمن أراد العودة فهي نقمة من المنتقم علىٰ المصر : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (1) ، وقد يقول القائل : لـٰكنهم يأكلون ويشربون وينعمون بنعم ٱلله كلها وبعض المطيعين محرومون من كثير مما عند هـٰؤلاء الكافرين ! لا عجب فهم إنما في هـٰذا الحال ليزدادوا إثماً فيشتد الانتقام منهم ، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (2) ، فمتىٰ هـٰذا الانتقام . إنه يوم الفصل بين المؤمنين والكافرين ، ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (3) ، ومما يُشعر بشدة الانتقام الإيجاز بنص التهديد فكلمة ويل موجزة من حيث النطق الصوتي لـٰكنها في غاية السعة من حيث تخيل شكل الانتقام وطبيعته ، ومن المهم الوقوف مع صورة من صور هـٰذا الانتقام لتبين طبيعته ، والآيات تتحدث عن المشركين الذين أصروا علىٰ الإشراك بٱلله من غير علم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (4) ، يقول وأما المجرمون فمسوقون إلىٰ جهنم ورداً كما تساق القطعان ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ . ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدَّم عملاً صالحاً فهو عهد له عند ٱلله يستوفيه . وقد وعد ٱلله من آمن وعمل صالحاً أن يجزيه الجزاء الأوفىٰ ، ولن يخلف ٱلله وعداً ، ثم يستطرد السياق مرة أخرىٰ إلىٰ مقولة منكرة من مقولات المشركين . ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات ٱلله . والمشركون من اليهود : عزير ابن ٱلله . والمشركون من

(1) الطارق ، 17 .

(2) آل عمران ، 178 .

(3) المرسلات ، 12 ـ 15 .

(4) مريم ، 86 ـ 91 .

النصارىٰ : المسيح ابن ٱلله . فينتفض الكون كله لهـٰذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ (1) .

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴾ الرحمـٰن جل جلاله الذي خلق الكون وما فيه وخلق الشيء من الشيء حتىٰ تعددت المخلوقات وبلغت إلىٰ ما لا نهاية ، يقال عنه قد اتخذ ولداً ، أستغفر ٱلله إنه ليس في حاجة للولد ، وكيف تكون له حاجة للولد ، وهو لم يولد ! الذي يكون في حاجة للولد هو الذي سبق وأن جاء من صلب والد ، أو أنه يحتاج للرعاية والعناية ويخاف خاصة حين يظلم غيره كيف يكون ذلك وٱلله القوي القادر مالك الملك وبيده الأمر ، فإذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، من بيده القوة والملك لا يحتاج لأحد وكل أحد هو في حاجة إليه ، قال تعالىٰ في صورة الإخلاص : ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ ، ولأنه خالٍ من الشبيه والمماثل فكيف لنا بالقول : أنه اتخذ ولداً ؟ فالرحمـٰن لم يلد ولم يولد ولم تكن له الصاحبة والولد ، إنه الخالق بالمطلق ، والخالق لا يحتاج للولد أبداً ، وما المسيح إلا عبداً للرحمـٰن ، وعباد الرحمـٰن هم المخلوقون خلقاً ، ولهـٰذا لقد كفر الذين قالوا إن ٱلله هو المسيح عيسىٰ ابن مريم . قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ

(1) مريم ، 88 ـ 95 .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (1) . من يقول أن الرحمـٰن قد اتخذ ولداً أشرك بقوله منكراً لا تعقله القلوب ولا العقول ، أمراً لا تدركه الأبصار ولا يثبته واقع ، وكيف تقبل عقول البعض هـٰذا القول المنكر وهم يعلمون أن عيسىٰ هو ابن مريم ، وأن لمريم أباً سابقاً عليها ، وإذا كان عيسىٰ هو ابن ٱلله أو إنه ٱلله كما يدعون ، إذاً ماذا يقال علىٰ آدم الأول المخلوق خلقاً ؟ فكيف يقرون بخلق آدم ولا يقرون بخلق عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وينسبونه إلىٰ ٱلله ولداً ؟! ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ شيء منكر عظيم لا يغتفر ، ولذا سيكون الانتقام من الذين قالوا هـٰذا القول المنكر . وسيحق القول عليهم جميعاً إن لم يتداركوا أمرهم استغفاراً وتوبة لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولم تكن له الصاحبة ولا الولد .

والمنتقم هو العالم الذي لا يخفىٰ عليه شيء ، وهو المحصي الذي لا يفوته قول أو فعل ، فانتقامه حق : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (2) ، وفي هـٰذه الآية يمكن استشعار أحقية الانتقام فهي تدل ولاشك علىٰ حقيقة أنه ما من انتقام دون علم وإحصاء للظاهر والمخفي من القول أو الفعل ، فإذا وصل العبد بهما حد الانتقام حل به لا محالة ، وإن لم يصل بتلك الأفعال والأقوال لهـٰذا الحد وتراجع يجد المنتقم غفوراً رحيماً ، هنا تظهر أدق صور العدالة التي تجعل الانتقام حقاً .

الانتقام عدل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3) . وهو أجل وجوه العدل ، فقد جعل المنتقم الجزاء

---

(1) المائدة ، 72 ـ 75 .
(2) آل عمران ، 4 ـ 5 .
(3) يونس ، 44 .

بقدر الفعل في الدنيا تحقيقاً للعدل في الانتقام فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (1) .

ومن غايات الانتقام الانتصار للمظلوم الذي أعيته الحيلة للانتصار لنفسه ، فالانْتصَارُ من الظالم الانْتِصاف والانْتِقام ، وانْتَصَر منه انْتَقَم : قال ٱللهُ تعالىٰ مُخْبِراً عن نُوح علىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام ودعائِه إياه بأَن يَنْصُره علىٰ قومه : ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (2) .

أما القادر علىٰ الانتقام لنفسه من ظلم الغير فقد نزه المنتقم فعله فقال عز من قائل : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ (3) ، وانتقام هـٰؤلاء فعل محمود لأن فيه تحقيقاً للعدل ومحاربة للبغي ، وسدّاً لأبواب المظالم : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (4) ، أي : ينتقمون ممن بغىٰ عليهم علىٰ ما جعله ٱلله تعالىٰ لهم ولا يعتدون ، ومعنىٰ الاختصاص أنهم الأخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز ، ولا يراد أنهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو وقوله السابق : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (5) . التسامح بين الناس رحمة ، فمن غفر لأخيه ذنباً غفر ٱلله له ذنوباً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾

---

(1) المائدة ، 45 .
(2) القمر ، 9 ـ 13 .
(3) الشورىٰ ، 41 .
(4) الشورىٰ ، 39 .
(5) الشورىٰ ، 37 .

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [1] .

كذلك يكون الانتقام لإحقاق الحق بالانتقام من الباطل ومرتكبيه : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [2] ، وهي من أبرز غايات الانتقام التي أشار ٱلله إليها في محكم كتابه ، لأن في ذلك نصرة للحق الذي يجب أن يسود لأن الخالق هو الحق : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [3] ، فالخليفة ملزم هنا بجعل الحق نصب عينه ، فلا يغفل عن السعي لتحقيقه في كل الأمور صغيرها وكبيرها ، وفي كل الأوساط وذلك بإشاعة ثقافة الحق التي تتمثل في عدة أمور منها :

1 ـ **عدم كتم الحق ولو علىٰ النفس** : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

2 ـ **تعليمه في أوساط من يجهل الحق** : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [5] .

3 ـ **القول بالحق ولا غيره** : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [6] .

4 ـ **العمل بالحق** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

---

(1) الشورىٰ ، 39 ـ 44 .
(2) الأنفال ، 8 .
(3) الحج ، 62 .
(4) البقرة ، 42 .
(5) البقرة ، 144 .
(6) الأعراف ، 105 .

فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (1) .

5 ـ **نصرة الحق على الباطل ولو كان ذلك مغضباً لكثير ممن لا يعلمون** : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (2) .

6 ـ **عدم التعصب فيه إلىٰ حد ما يكره الحق سبحانه** : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (3) .

وقد يكون الانتقام لتعذيب الكافر بالآلام في الدنيا والآخرة فليظهر فيه مقتضىٰ اسمه المنتقم ، في الدنيا يكون الانتقام علىٰ عدة صور منها أن المنتقم ينصر المؤمنين علىٰ الكافرين مع غير توقع أي أن يكون الكافرون أكثر عدداً وأقوىٰ عدة بما يخلق في نفوسهم يقيناً بالنصر إلا أنهم يخذلون بانتقامه سبحانه منهم بأيدي عباده المؤمنين فحيل بهم عذاب الانتقام الدنيوي : ﴿ لَقَدۡ

(1) البقرة ، 282 .
(2) الأنفال ، 8 .
(3) المائدة ، 77 .

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، وقد يكون الانتقام في الدنيا بإلحاق الخزي بالكافرين : ﴿ فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ، وقد يكون بإرسال الشياطين عليهم لتفسد أعمالهم وتجعلهم في ضلالة علىٰ ضلالتهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (3) ، أما في الآخرة خصص له المنتقم عذاباً مهيناً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (4) .

ويكون الانتقام ليشقي عبداً عاداه ويسعد آخر والاه وذلك بأن يجعل بعض انتقامه ينزل بالمعتدي في الدنيا كالذل : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ (5) ، وكذلك بإلحاق اللعنة بهم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (6) .

---

(1) التوبة ، 25 ـ 26 .
(2) التوبة ، 2 .
(3) مريم ، 83 .
(4) النساء ، 150 ـ 151 .
(5) البقرة ، 61 .
(6) المائدة ، 78 ـ 79 .

وكذلك للمحافظة علىٰ التوازن بين قوىٰ البشر بإيقاف الطغيان عند حده وذلك بالانتصار لأصحاب الحق فيفرح ويسعد بذلك المؤمنون : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (1) ، والخليفة دوره يتمثل في فهم غايات الانتقام للعمل بها ، فلا يكون انتقامه من أعدائه إلا حقاً وليس بدافع الهوىٰ كرهاً في بعض وحباً لبعض ، وعليه إدراك دوره في المحافظة علىٰ التوازن بين قوىٰ الناس متذكراً صفة البطش التي يعمل بها بعض العباد فيكون لهٰؤلاء نداً لنصرة المستضعفين وحفاظاً علىٰ حياة متوازنة لا يطغىٰ فيها أحد علىٰ آخر ، ويحرص علىٰ أن يُعمل بالحق .

وانتقام المنتقم يحل بالمستحق لأن اسمه المنتقم يقتضي وجود من يستحق الانتقام ، فمن هو المستحق للانتقام ولماذا ؟

يجب أن نعرف أولاً أن الداعي الأول لانتقام المنتقم هو إغضابه بفعل أو قول ، فعندما يرتكب العبد ما يغيظ ٱلله سبحانه وتعالىٰ يحل به الانتقام ، والغيظ هو شدة الغضب الكامن (2) ، وإذا وصف به ٱلله سبحانه فإنه يراد به الانتقام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (3) ، أي : غائظون بغضبهم ، ويحمل المعنىٰ الدلالي للفظة الغيظ فهماً دقيقاً لمعنىٰ الانتقام ، فهو شدة الغضب مما يدل علىٰ كثرة الكفر والعصيان من قبل العبد المستحق للانتقام ، وكذلك يدل علىٰ شدة تمسك وإصرار هٰذا العبد علىٰ تلك الأفعال ، كما تدل لفظة الكامن علىٰ التأني الذي يوحي بالمهلة والتي فيها ينذر المنتقم عباده

---

(1) الحج ، 40 ـ 41 .

(2) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، إبراهيم اليازجي اللبناني، ج 1 ، ص 168 .

(3) الشعراء ، 55 .

ويذكرهم ، كما فعل سبحانه مع فرعون وقومه فقد أرسل إليهم موسىٰ عليه الصلاة والسلام داعياً إلىٰ الحق ومنذراً من انتقام المولىٰ عز وجل : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (1) ، ثم ذكرهم بالآيات التي تناسب فهمهم وما كانوا يؤمنون به علىٰ أنه حجة وبرهان : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) ، فلما واجهوا ذلك بالكفر والإصرار بلغ غضب المنتقم حد الغيظ فاستوجب الانتقام من هـٰؤلاء علىٰ كفرهم وإصرارهم : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (3) ، فَلَمَّا آسَفُونَا أي : أسخطونا ، وفي معناه ما قيل أي أغضبونا أشد الغضب أي بأعمالهم ، والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل .

---

(1) الأعراف ، 104 ـ 105 .
(2) الأعراف ، 106 ـ 124 .
(3) الزخرف ، 55 .

وذكر الراغب أن الغيظ هو الأسف ، الحزن والغضب معاً [1] ، وعلىٰ الخليفة أن يستقي فهمه للانتقام من هـٰذه الآيات حتىٰ يكون انتقامه حقاً لأن الفرق بين الانتقام الحق والانتقام الباطل هو في دلالته التي علمها المنتقم لخليفته ، فعندما يكون الانتقام لفورة غضب ولفعل واحد يكون باطلاً ، وعندما يكون بلا إنذار ولا تذكير يكون باطلاً ، وعندما تكون غايته شخصية بحتة وليس لغاية عامة يكون باطلاً ، من هنا وجب علىٰ الخليفة التمييز والعمل بالانتقام الحق .

ولابد لنا أن نستعرض من حل بهم الانتقام لنعرف بمن يحل ويحل :

1 ـ **المشركون** : وهم الذين يقرون بوجود ٱلله إلا أنهم يقولون بوجود إلـٰه غيره ، وباختلاف المسميات ، فمنهم من جعل آلهة سماها من قبيل هواه : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [2] ، ومنهم من جعل له شركاء في الملك من الجن : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [3] ، أو من خلقه بشراً كانوا أم ملائكة : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [4] ، وهم في كل

(1) تفسير الآلوسي ، ج 11 ، ص 152 .
(2) النجم ، 19 ـ 23 .
(3) الأنعام ، 100 .
(4) النساء ، 171 .

تخرصاتهم هـٰذه إنما يدّعون حُجَّةً واهيةً ليس لهم فيها وجه حق ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [1] ، هنا يحق الانتقام علىٰ هـٰؤلاء المدّعين بغير حق ولا علم ، وهو ما تكفل به المنتقم فقال لرسوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] ، يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ : لا يحزنكَ ، يا محمد ، قول هـٰؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون ، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام فإنّ العزة لله جميعًا ، يقول تعالىٰ ذكره : فإن ٱلله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة ، لا شريك له فيها ، وهو المنتقم من هـٰؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون ، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ ، لأنه لا يُعَازُّه شيء وهو السميع العليم ، ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه ، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه ، وهو عالم الغيب والشهادة لا إلـٰه إلا هو .

والغاية من هـٰذا الانتقام وضع حد لكل الادعاءات الباطلة تجاه الحق البيِّن ، وهنا يأتي دور الخليفة في فهم هـٰذه المسألة فيجب عليه وضع حد للمدعين لما لهـٰذه الادعاءات من تأثير سيء علىٰ العباد وهم يقومون بما أمرهم ٱلله به من عبادة وإعمار للأرض ، فيخصص لكل مدعٍ منهم انتقاماً يوقفه عند حد الحق الذي يجب علىٰ الخلفية أن يحرص علىٰ سيادته .

2 ـ **المُصرّون علىٰ أفعال الفواحش والمنكرات** : وهـٰذا الإصرار غالباً ما يحصل بعد سابق الإنذار عند ذاك وجب الانتقام من هـٰؤلاء المصرين لما في

---

(1) الزمر ، 3 ـ 4 .
(2) يونس ، 65 .

إصرارهم من تحدٍ لإرادة المنتقم الذي نبه وأنذر ورغّب من أجل أن لا يقع العبد في الإصرار علىٰ فعل الفواحش : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، أما المستغفرون بعد فعلها سيجدون ٱلله غفوراً رحيماً ، لـٰكن الكثير من العباد يُقبل علىٰ الإصرار أكثر من إقباله علىٰ الترك فينزل به انتقام المنتقم : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (2) .

ومن وجوه الإصرار المؤدي إلىٰ الانتقام التعمد مع النهي المسبق ، يقول المنتقم جل وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (3) ، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمّداً مذكور في معرض الشرط ، وعند عدم الشرط يلزم عدم المشروط فوجب أن لا يجب الجزاء عند فقدان العمدية قال : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ ، ومن لم يعد فعفىٰ ٱلله عما سلف ، والانتقام إنما يكون في العمد دون الخطأ وقوله : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ المراد منه ومن عاد إلىٰ ما تقدم ذكره ، وهـٰذا يقتضي أن الذي تقدم ذكره من القتل الموجب للجزاء هو العمد لا الخطأ (4) ، وهـٰذه الآية تعطي توضيحاً دالاً علىٰ الانتقام الحق فتجعل التعمد شرطاً أساساً للانتقام وبدونه يسقط كل عمل لم يكن العمد فيه أصلاً له من حد الانتقام .

3 ـ **الطغاة** : وهم الذين لا يحمدون علىٰ نعم هم فيها ويتجاوزون الحدود دون مراعاة للآخر ، يرون في أنفسهم كل شيء وهم نواقص ، وهي

---

(1) آل عمران ، 135 .
(2) الشعراء ، 172 ـ 173 .
(3) المائدة ، 95 .
(4) تفسير الرازي .

صفة تقترن في الغالب بمُلك أو بكثرة مال أو بقوة بدن ، مع عدم اعتبار للعباد ، ولنأخذ حال فرعون الذي طغىٰ في الأرض التي خلقت ليكون الإنسان عليها خليفة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (1) ، الذي طغىٰ مستنداً إلىٰ ملكه : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (2) ، وقد ينظر الإنسان إلىٰ كثرة ماله فيتوهم أن فيه قوة فيقع في الطغيان ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (3) ، وقد يكون لقوة البدن أثر في وقوع الإنسان في الطغيان ، ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (4) ، وكل هٰذه المعطيات الثلاثة إنما هي من نعم ٱلله ، فأساء كل منهم التصرف في هٰذه النعمة التي خوله ٱلله إياها فجعلها لخدمة هواه ، فحق عليه الانتقام كونه عمل لدنياه ونسي آخرته ، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (5) ، حيث حول الطغيان هٰذه النعم إلىٰ دروب الفساد الذي يؤدي بعضه إلىٰ بعض ، ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (6) ، ولهٰذا علىٰ الخليفة أن يتجنب الطغيان وأن يحاربه فهو فتنة بأسباب المذلة والاستعباد وعدم احترام الآخرين

(1) طه ، 24 .
(2) الزخرف ، 51 .
(3) العلق ، 6 ـ 7 .
(4) المائدة ، 27 ـ 30 .
(5) النازعات ، 37 ـ 39 .
(6) الفجر ، 11 ـ 14 .

وتقديرهم . والخليفة بطبيعته الإيمانية متقٍ لله تعالىٰ ، طائع له سجوداً وركوعاً ، وقولاً وفعلاً ، مبشر بالخير وداعٍ له ومصلح في كل أمر ، وعادل بين الناس إن دعوه لحكم ، عازماً علىٰ أن يكون من الوارثين في الجنة ، ولهـٰذا فمخافة ٱلله بين عينه في كل ما يرىٰ ، وعلىٰ لسانه في كل ما يقول ، وفي سمعه وحسه كلما استمع لشيء يُذكِّره بفضل ٱلله عليه ، وكل ذلك لأنه يعلم وهو مؤمن بقول المنتقم جل جلاله ، ﴿ هَـٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (1) .

أما علىٰ صعيد المال فالخليفة مكلف بالإنفاق من هـٰذا المال دون أن يطغىٰ ، والطغيان في المال علىٰ وجهين ، إما أن يستأثر به لنفسه بخلاً من عند نفسه فلا يتصدق ولا يحسن العمل فيه مما يؤدي به إلىٰ الفساد ثم الطغيان الموجب للانتقام ، ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾ (2) ، وإما أن ينفقه في غير ما أمره ٱلله فينفقه علىٰ الملذات والمفاسد فيصبح عند ذاك من المسرفين ، والمنتقم لا يحب

---

(1) ص ، 55 ـ 56 .

(2) القصص ، 76 ـ 81 .

المسرفين : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [1] ، أو قد يصبح من المبذرين وهو من إخوان الشياطين كما وصفه المنتقم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [2] ، لا حول ولا قوة إلا بٱلله ، اللهُمَّ اجعلنا من الطائعين المستخلفين فيها ولا تجعلنا من المفسدين والطاغين علىٰ العباد ، وهب لنا من لدنك رشداً ! من الآية الكريمة السابقة العلاقة واضحة بين التبذير وأعمال الشياطين التي تهتز منها الأبدان ، ولذلك فإن الطاغين ملعونون مثل ما تُلعن الشياطين ، حفظنا وإياكم منها ومن وسوستها وفتنها وحفظ أولادنا وأزواجنا وأخوتنا ومن له حق علينا بالدعاء وحفظ أموالنا من اعتداءاتهم وتخريبهم .

وعلىٰ الخليفة أن يعلم علم اليقين أن قوة البدن من نعم ٱلله سبحانه يجب توجيهها في طاعة ٱلله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وفي إحقاق الحق ومحاربة الظلم : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

ويجب علىٰ الخليفة أن يوقن بأن جزاء الطغيان هو الانتقام في الدنيا كما حصل مع فرعون : ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ

(1) الأنعام ، 141 .
(2) الإسراء ، 26 ـ 27 .
(3) البقرة ، 247 .

بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (1) ، وانتقام في الآخرة من كل الطغاة ، ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴾ (2) .

4 ـ **الظالمون** : الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء : وضع الشيء في غير موضعه المختص به ؛ إما بنقصان أو بزيادة ؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه ، والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرىٰ نقطة الدائرة ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ولهٰذا يستعمل في الذنب الكبير ، وفي الذنب الصغير ، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (3) ، وعليه فمن يُنهىٰ عن شيئاً ضار ولم ينته عنه سيكون من الظالمين ، ومن يعرف شيئاً ضاراً وهو لا يتخذ الحيطة والحذر تجاهه سيكون من الظالمين أنفسهم ، ولهٰذا فالظلم يمكن أن يكون للنفس ويمكن أن يكون للآخرين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ

---

(1) يونس ، 90 ـ 92 .
(2) النبأ ، 21 ـ 22 .
(3) البقرة ، 35 .

عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (1) .

والظلم ثلاثة أنواع :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين ٱلله تعالىٰ ، وأعظمه : الكفر والشرك والنفاق ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ (2) ، وإياه قصد بقوله : ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (3) .

والثاني : ظلم بينه وبين الناس ، وإياه قصد بقوله : ﴿ وَجَزَـٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (4) ، وبقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ (5) .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه ، وإياه قصد بقوله : ﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ (6) ، وقوله : ﴿ ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾ (7) .

هـٰذه مظالم يترتب علىٰ مرتكبيها ملاقاة أفعال الانتقام من ٱلله المنتقم جل جلاله ، وإلا هل يعقل أن يكفر الإنسان بربه أو يشرك به أو يفعل ظلماً ويتركه هـٰكذا يعبث دون أن يراعي حرية الآخرين وكرامتهم ، إنه العادل في ملكه ، ولهـٰذا الانتقام من الظالمين فعل خير يقوم به الخليفة فيجازيه ٱلله عليه حسنات كثار ، ولذا فمن العيب أن يسكت الخليفة علىٰ أفعال وأعمال الطغاة العابثين

---

(1) الأعراف ، 23 ـ 30 .
(2) لقمان ، 13 .
(3) هود ، 18 .
(4) الشورىٰ ، 40 .
(5) الشورىٰ ، 42 .
(6) فاطر ، 32 .
(7) النمل ، 44 .

في الأرض فساداً ، كيف يسكت وٱلله تعالىٰ استخلفه ليصلح فيها ولا يفسد ، ولأنه المهتدي بالحق للحق فلا يمكنه أن يسكت علىٰ أعمال المفسدين ، فإن سكت علىٰ ذلك قد تلاحقه اللعنات كما تلاحق أولئك الشياطين الذين ربط المعنىٰ بينهم كما سبق ذكره وبين الطغاة والظالمين .

الخلفاء هم الذين يقمعون الطاغين والمفسدين والظالمين وسافكي الدماء في الأرض بغير حق ، ولأن الظالمين هم منكرون للحق والعدل واعتبار الآخرين من بني جنسهم وهم أيضاً منكرون لفضله عليهم بالنعم الواسعة وإشراك بٱلله ، وإنكار ما جاءت به الرسل تبشيراً وإنذاراً جعل الانتقام موجباً بحقهم ، وهم كثر ذكرهم المنتقم في كتابه ليكونوا عبرة للمعتبر : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (1) ، والكثير منهم حلَّ الانتقام بهم في الدنيا قبل الآخرة ، كأصحاب شعيب : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (2) ، وقد نجي صالح والذين معه وكان انتقامه في مقابل ذلك من الظالمين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (3) ، وغيرهم ممن أصابهم الانتقام لظلم عظيم وقعوا فيه وهو الإشراك بٱلله العزيز الحكيم .

---

(1) هود ، 66 ـ 68 .

(2) هود ، 94 .

(3) هود ، 66 ـ 68 .

قال تعالىٰ : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ (1) ، وقد يكون الانتقام من هـٰؤلاء باختيار الفتنة لهم لتزيدهم ظلماً فيزيدهم جزاء ذلك انتقاماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (2) ، فالفتنة تصيب الظالمين خاصة وقد تصيب بعضاً من المؤمنين علىٰ سبيل الاختبار والامتحان .

5 ـ **المجرمون** : هم الذين يرتكبون الأفعال والأعمال المحظورة ديناً أو عرفاً ، وفي هـٰذا تعدٍ علىٰ أصول الفضائل والقيم الخيرة التي يرتضيها الناس ، وفي ذلك تعدٍ لحدود ٱلله تعالىٰ أو حدود الناس وهـٰذه الذنوب التي يرتكبها المجرمون فيحق عليهم الانتقام ، فقد يكون ذنب المجرمين التكذيب مع وجود الآية الدالة علىٰ المصدق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (3) ، وقد يكون الذنب الإعراض بمعنىٰ عدم الاهتمام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (4) ، وربما يكون الذنب الموجب للانتقام هو الافتراء الباطل : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) ، وهـٰذه كلها من

(1) الإنسان ، 31 .
(2) الأنفال ، 25 .
(3) الأحقاف ، 24 ـ 25 .
(4) السجدة ، 22 .
(5) هود ، 50 ـ 53 .

صور انتقام المنتقم في الدنيا ، وليس ذلك أقصىٰ ما يستحق هـٰؤلاء فهناك انتقام الآخرة الذي يصفه المنتقم بآيات يذهل لها اللب ، ويدمي منها الفؤاد لسوء ما اختار المنتقم للمجرمين من منقلب : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (1) .

المجرم هو المتنصل من الأخلاق والمتجني عليها ، رافضاً ومتمرداً أو قاتلاً بغير حق وكذلك يؤفكون ، والمنصوص عليهم في الآية من المفترين علىٰ ٱلله الكذب ، إذ جعلوا لله ولداً بهتاناً من عند أنفسهم ، وأصروا علىٰ ذلك مع شدة التنبيه والتوبيخ والزجر ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (2) ، وعلة الانتقام ليست في كونهم ادّعوا ابناً لله فقط وإن كانت كافية للانتقام ، بل في إشراكهم بٱلله فجعلوا هـٰذا الابن إلـٰهاً يعبدونه : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (3) .

وقد يكون التكذيب المطلق وعدم الاستماع لما جاء من الحق من كتب الرسل من ذنوب المجرمين التي تجعل الانتقام يحل بهم ، ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ (4) ، وصورة الانتقام البادية في

(1) مريم ، 86 ـ 93 .
(2) التوبة ، 30 .
(3) المائدة ، 116 .
(4) الفرقان ، 36 .

الآية تتضح في قول المنتقم فدمرناها أي تدميراً عجيباً هائلاً لا يُقدّر قدره ولا تُعرف حقيقته ، فهو أعلىٰ درجات الهلاك الذي ليس بعده جبر أو إصلاح .

6 ـ **الكافرون** : هم الرافضون المنكرون للشيء مع أن وجوده بيِّن لا تخفيه خافية ، فهم يحاولون إظهار الباطل علىٰ حساب الحق ، وفي ذلك معصية لا تجد إليها سبيلاً إلا في جهنم ، أجارنا ٱلله وإياكم منها . والكُفرُ : نقيض الإيمان . وكَفَروا ، أي : عصوا وامتنعوا ، وهو أيضاً نقيض الشكر ، والكُفرُ أربعة أنواع :

النوع الأول : كُفرُ الجحود مع معرفة القلب : مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (1) .

والنوع الثاني : **كُفْرُ المعاندة** : وهو أن يعرف بقلبه ، ويأبىٰ بلسانه .

النوع الثالث : **كُفْرُ النفاق** : وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر .

النوع الرابع : **كُفْرُ الإنكار** : وهو كُفْرُ القلب واللسان (2) .

كل هـٰذه الأنواع موجبة للانتقام ، ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ (3) ، للكافرين أمثالها بمعنىٰ أن الانتقام حاضر لكل من يكفر بٱلله في أي زمان وفي أي مكان .

والكفر بكل أنواعه مما يمقته ٱلله في عبده وذلك لعلة هي ، أن ٱلله اصطفىٰ آدم ليكون خليفة في الأرض وفضله علىٰ كل مخلوقاته للقيام بهـٰذا الأمر فإذا به يكفر وينكر ويعاند ويجحد ، وهو الخسران في الدنيا والآخرة ،

---

(1) النمل ، 14 .
(2) معجم العين ، ج 1 ، ص 440 .
(3) محمد ، 10 .

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (1) ، ومن يمقته ٱلله ينزل به الانتقام لامحالة .

ومن وجوه الكفر الموجبة للانتقام هو مشايعة الكافرين ، بمعنىٰ القول بقولهم أو الفعل بفعلهم صغيراً أم كبيراً ، لأن في ذلك مناصرة للباطل علىٰ الحق والآية الدالة علىٰ ذلك تلك التي تشير إلىٰ ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ (2) ، فمشايعة الكفار مما نهىٰ عنه المنتقم ، فلا نتخذهم أولياء : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (3) ، وصيغة التحذير الواضحة في الآية تنبه المصرين علىٰ هـٰذا التولي إلىٰ عاقبة ذلك ، وتذكرهم بغضب ٱلله الموجب للانتقام : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ (4) .

وقد يكون الانتقام من الكافرين بيد عباد ٱلله المؤمنين آية من المنتقم علىٰ قدرته علىٰ الانتقام من الكافرين بكل السبل : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (5) .

---

(1) فاطر ، 39 .
(2) هود ، 41 ـ 43 .
(3) آل عمران ، 28 .
(4) الممتحنة ، 13 .
(5) البقرة ، 250 .

7 ـ **الماكرون** : المكر بين الناس ، مخادعة من ورائها فتك وتهلكة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ (1) ، ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل ، وهم الذين ذكر ٱلله أنّ عيسىٰ أحسّ منهم الكفر ، وفي مقابل مكرهم مكر ٱلله بهم ، بأن سلّم ٱلله عيسىٰ من أن يؤذوه ، وعلىٰ ذلك قتلوا الشبيه وهم يُرَوْنه وكأنه عيسىٰ وصَلبوه ، فذلك قول ٱلله عز وجل : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ (2) . أي : ما يودونه من مكر بموسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يتحقق وذلك برفع ٱلله إليه سالماً ، وأما مكر ٱلله بهم : فإنه إلقاؤه شبَه عيسىٰ علىٰ بعض أتباعه حتىٰ قتله الماكرون بعيسىٰ ، وهم يحسبونه عيسىٰ ، وقد رفع ٱلله عز وجل عيسىٰ قبل ذلك ، وعليه فالمنتقم جل جلاله لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو يعلم السر والنجوىٰ ، ولهـٰذا مكر بمكرهم فأبطله ودمغه بالحق فإذا هو زاهق ؛ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ بمعنىٰ أن مكر ٱلله دائماً هو لأجل الخير ، ومن هم غيره مخلوقون ، والمخلوق لا يقارن بخالقه أبداً ، والخالق خَلق كل شيء من أجل الخير ، والمخلوق في كثرته يفسد ما يراد له أن يكون من أجل الخير إلا المستخلفين فيها فهم مصلحون .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ (3) ، إنه مكر الكافرين بمحمد عليه الصلاة والسلام ، لأجل أن يعيقوا مسيرته في الدعوة والهداية للحق ، سواء بسحرك يا محمد أو بقيدك وسجنك أو قتلك ، وهـٰذه

(1) آل عمران ، 54 .
(2) النساء ، 157 .
(3) الأنفال ، 29 ـ 30 .

بدائل يظنون أنها الكافية بذلك ، ولـكن يريد ٱلله أن يتم دينه ونوره ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون والفاسقون مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [2] ، مهما مكر الماكرون بالفاعلين للخيرات لن ينجحوا في مكرهم ، فمكرهم لابد وأن يفشل ويبور ولا يتحقق له النجاح ، فالنجاح لا يتحقق إلا بالعمل الصالح . وعلىٰ الخليفة أن يعمل صالحاً في مرضاة ٱلله ولا يخشىٰ أحداً في ذلك مهما مكر الماكرون فالحق لابد وأن يدمغ الباطل حتىٰ يزهقه والحمد لله رب العالمين .

8 ـ **المكيدون** : قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [3] . الذين يحيكون المكائد للرسول والذين آمنوا ، من أجل أن يعيقوا مسيرتهم وهم مبشرون ومنذرون وداعون للدين الحق ، وأولئك المعوقون هم الذين أصبح كيدهم في نحرهم ، أي أن ٱلله ناصر جنده ولا يخلف وعده ، فكان كيده لكيدهم آية ، فآمن من لم يُعتقد أن يؤمن ، فمهلهم يا محمد قليلاً سيرون العذابين في الدنيا علىٰ يديك والمؤمنين وفي الآخرة عذاب الحريق ، وسيرون النتيجة أنك المنتصر ومن معك بإيمان وأنهم لمهزومون .

9 ـ **آكلوا الربا** : قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ

---

(1) الأنفال ، 7 ـ 8 .

(2) فاطر ، 10 .

(3) الطارق ، 15 ـ 17 .

ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) ، فلننظر العلاقة القوية بين الذين يأكلون الربا وبين الذين يتخبطهم الشيطان من المس ، أي سيكون الانتقام منهم كما ينتقم الشيطان من الذي مسه فيجعله يتخبط لا يملك زمام أمره فيضل سبيله وهو فاقد للإرادة التي تمكنه من أن يدرك حاله . قال تعالىٰ : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ المحق : إنقاص مع احتقار وتقليل شأن ، فٱلله يقلل الربا ويحتقر صاحبه المنقوص عن الهداية للحق ، ولذلك نهىٰ ٱلله عز وجل عن التعامل بالربا وبارك في الصدقات لتتضاعف حسناتها ، وأحل البيع الذي فيه مكارم الأخلاق ، ومن لم يهتدِ وعاد إلىٰ ما كان عليه من كفر بالنعمة وحقوق الناس فالمنتقم سيكون له بالمرصاد فيجعل أولئك المتعاملين بالربا في نار جهنم وهو أعظم انتقام ، وفي مقابل ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فالذين سيحزنون هم أولئك الكفرة الفجرة الذين يتعاملون بالربا ، فهـٰؤلاء كمن يأكل في بطنه ناراً .

وبعد الإيمان يجب أن لا يتعامل المؤمن بالربا ، فعليه بالاستغفار والتوبة ولا يعود إليه ثانية فٱلله غفور رحيم ، ومن لم يتب بعد ذلك فسيكون حسابه عسيراً في الدارين في الدنيا من ٱلله ورسوله والمؤمنين حقاً ، وفي الآخرة

---

(1) البقرة ، 275 ـ 281 .

سيكون من الخاسرين الذين خسروا الجنة التي يفوز بها من اتقىٰ ربه في الدار الدنيا .

10 ـ **العصاة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [1] ، المنتقم جل جلاله باء بغضبه الكفرة وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، ولذلك فالغضب الحق يؤدي إلىٰ الانتقام المحق للحق . قال تعالىٰ : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [2] . اللعنة حكم مستمر حتىٰ تنفيذ الحكم كفعل وهو العقاب الشديد وبذلك يحق الحق ، ثم يكون العقاب بعد الحساب العادل والحمد لله رب العالمين .

11 ـ **المطففون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [3] . الويل ضمان لحصول العقاب لا محالة ، وهو حكم صادر في انتظار التنفيذ الذي لا يمكن أن يفلت صاحبه منه ، والمطففون هم الخاسرون الذين يقللون في الوزن والمكيال . ولهٰذا فالخليفة هو الذي يتقي ٱلله خوفاً من أية مظلمة ، وهو الذي يعلم علم اليقين أن

---

(1) البقرة ، 61 .

(2) المائدة ، 78 ـ 81 .

(3) المطففين ، 1 ـ 6 .

المطففين هم الخاسرون ، فلا يطفف في الميزان ولا ينقص المكيال ، وإذا حكم بين الناس حكم عدلاً .

12 ـ **الفاسقون** : الفِسْقُ : الترك لأمر ٱلله ، الفِسْقُ ، بالكسرِ التَّرْكُ لأَمْرِ اللهِ تعالىٰ ، والعِصْيانُ ، والخُروجُ عن طَرِيقِ الحَقِّ [1] ، وهو في الغالب الأعم يأتي بعد نعمة وفضل كبيرين ينعم بهما رب العزة ويقابلها بالجحود لا بالشكر ، فالانتقام علىٰ هـٰذا يأتي بعد عمل مستَحق للانتقام كمثل الخروج علىٰ النعمة مع عظم فضلها ، فالعبد محتاج أيما حاجة إلىٰ نعم ٱلله فإذا رزقه البارئ حاجته ثم زاده وتفضل عليه بالبركة والزيادة نسي وأنكر ثم زاد بالخروج علىٰ أمر ٱلله فسقاً ، ويفصل لنا المنتقم هـٰذه المسألة التي تفسر الانتقام من الفاسقين : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا﴾ [2] ، وفي هـٰذه الآية مسائل :

المسألة الأولىٰ : قوله تعالىٰ : ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ في تفسير هـٰذا الأمر قولان :

القول الأول : أن المراد منه الأمر بالفعل ، ثم إن لفظ الآية لا يدل علىٰ أنه تعالىٰ بماذا يأمرهم فقال الأكثرون : معناه أنه تعالىٰ يأمرهم بالطاعات والخيرات ، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون ، وقال صاحب « الكشاف » : ظاهر اللفظ يدل علىٰ أنه تعالىٰ يأمرهم بالفسق فيفسقون ، إلا أن هـٰذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال : والدليل علىٰ أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله ؛ ﴿فَفَسَقُواْ﴾ يدل عليه ؛ لأنا نقول : إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له ، ففسق يدل علىٰ أن المأمور به شيء غير

(1) القاموس المحيط ، ج 3 ، ص 3 .
(2) الإسراء ، 16 .

الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأموراً بها ، فوجب أن يدل هٰذا اللفظ علىٰ أن المأمور به ليس بفسق ، والمعنىٰ أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عناداً وأقدموا علىٰ الفسق أو أصروا علىٰ أفعاله .

القول الثاني : في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ أي أكثرنا فساقها . وأما المترف : فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله به : ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ﴾ يريد : استوجبت العذاب ، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله تعالىٰ : ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ ولهٰذا فالتدمير حق لأنه في مواجهة فسق ، وعلىٰ المستخلفين في الأرض أن لا يتأخروا عن أعمال الخير بما فيها تدمير الفاسقين والمفسدين وأوكار الفسق والفساد ، أي أهلكناها إهلاك الاستئصال . والدمار هلاك علىٰ سبيل الاستئصال .

وظاهر الآية يدل علىٰ أنه تعالىٰ إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون ، وتدل سائر الآيات علىٰ أنه تعالىٰ لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ (3) ، ولهٰذا الإهلاك هو للمظالم والمفاسد ولأعمال الفسق في الأرض ، فكل هٰذه الآيات تدل علىٰ أنه تعالىٰ لا يبتدئ بالإضرار ، والحاصل أن المعنىٰ : وإذا أردنا أن

(1) الرعد ، 11 .
(2) النساء ، 147 .
(3) القصص ، 59 .

نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا علىٰ المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم ، بل أمرنا مترفيها ففسقوا ، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به (1) .

وجزاء الفسق الانتقام كما يخبرنا المنتقم في محكم آياته : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) .

والنفاق هو وجه آخر للفسق ، ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (3) ، فالمنافقون هم الذين يظهرون ما لا يبطنون ، وهٰكذا أظهر البعض إيماناً وهم يكنون في صدورهم كفراً وشركاً ، وفي هٰذا الإظهار والبطون مخادعة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (4) . فالمنافق إنما يمكن له أن يخدع الكثير من المؤمنين بإسراره الكفر ، مما يوقع الوهم في نفوس من حوله من

---

(1) تفسير الرازي ، ج 10 ، ص 21 .
(2) الزخرف ، 54 ـ 55 .
(3) التوبة ، 67 .
(4) البقرة ، 8 ـ 16 .

المؤمنين ، وقد يتمكن المنافق من إدخال الوهن إلىٰ نفوس المؤمنين فيثبطونهم عن القيام بما أمرهم ٱلله به من طاعة ومعروف ، لذلك كان انتقام العزيز الحكيم منهم شديداً مخيفاً ترتجف عند ذكره القلوب ، يقول المنتقم محذراً ومخوفاً : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [1] .

الانتقام وأنواعه :

الانتقام هو سلب النعمة بالعذاب [2] ، أي أن الانتقام يلي نعمة سابقة من منعم ، ثم تُسلب هـٰذه النعمة عقاباً علىٰ ذنب عظيم ، ويمكن تلمس الجحود والإنكار من قبل المُنعَم عليه تجاه المُنعِم بنكران النعمة التي خوله إياها ، وهـٰذا ما استشعره الصالحون فوقفوا عند حده إحساساً منهم بقدرة المنتقم علىٰ سلب النعم ، فعندما أدرك سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام بإمكان نكران النعمة بالنسيان والتغافل خاف المنتقم ففعل ما يوجب الشكر وذلك بالعودة عن ملاهي الدنيا إلىٰ عبادة يتزود بها للآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [3] .

وهـٰذه النعم التي خول ٱلله الإنسان الاستفادة منها سبقها عدم وفقر وعوز ، ثم رزق ٱلله الإنسان من نعمه ، فإذا يقابلها كثير من الخلق بالنكران : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [4] ، هـٰذه العلاقة بين المعطيات الثلاثة

---

(1) النساء ، 145 .
(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 77 .
(3) ص ، 30 ـ 33 .
(4) الزمر ، 49 .

(عدم ـ نعمة ـ نكران) توضح المسبب الأساسي لانتقام المنتقم بسلب هـٰذه النعمة التي وهبت لمن عدم امتلاكها .

عليه يتضح أن فعل الانتقام مقصور علىٰ من وقع في مثل هـٰذا السياق من الفعل ، وأما من شكر ورضي وعبد فأولئك لا يصيبهم الانتقام : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) .

وهـٰذا الانتقام عندما يحل فإنه لا يدفع بأي وسيلة من الوسائل ، فلا يمكن للمُنتقم منه أن ينتصر بأي حال من الأحوال ، فلا يستطيع الانتصار لنفسه : ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ (2) ، ولا يمكن لغيرة أن ينصره وإن رغبوا في الانتصار له : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (3) ، والمنتقم يتحدىٰ من يتحداه فينزل انتقامه بالمستحق من عباد وهو يعلم أنه لا يرد ، وفي آيات الانتقام تحدٍ واضح لمن يريد أن يكفر بأنعم ٱلله ، وفيها أيضاً عبرة للمؤمنين تجنبهم الوقوع فيما وقع فيه المستحقون للانتقام ، فهـٰذه نعمتنا وهـٰذا انتقامنا وتفكروا يا أولي الألباب ، ولعل القصة التي يذكّرنا بها المنتقم في سورة الكهف حجة دامغة علىٰ استحقاق الانتقام بكل صوره لمن يكفر بٱلله : ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

(1) الأنفال ، 3 ـ 4 .
(2) الذاريات ، 44 ـ 45 .
(3) القصص ، 81 .

وَلَبِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ (1) ، فهـٰذا العبد كفر بنعمة ٱلله التي خوله إياها وتفضل عليه دون غيره ، ثم قابل ذلك بنكران وإجحاف ، هنا الانتقام منه حق لرد الاعتبار للمؤمن الذي حُرم من ذلك وهو في شكر مستمر لربه الرحمـٰن الرحيم .

ولهـٰذا الانتقام صور غاية المنتقم من ذكرها إعطاء خليفته علىٰ الأرض حجة التذكير والتخويف والردع عن كل ما يكره المنتقم ، وبالتالي يمكن له أن يتجنب هو ، ويسعىٰ لأن يتجنب غيره كل موجبات الانتقام .

وأول ما يشير إليه المنتقم سبحانه هو أن نوع الانتقام من جنس العمل الموجب له ، كما ينص عليه المنتقم في كتابه الحكيم : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) ، وأنواعه التي ذكرها المنتقم في هـٰذه الآية الكريمة هي :

1 ـ **الحصب** : الريح العاصف التي فيها الحصىٰ الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصباً ، ومنه قول الأخطل :

وَلقـدْ عَلِمْـتُ إذا العِشـارُ تَـرَوَّحَـتْ   هَـدَجَ الـرِّئـالِ يَكُبُّهُـنَّ شَمـالا

---

(1) الكهف ، 32 ـ 43 .

(2) العنكبوت ، 40 .

تَـرْمـي العِضَـاهَ بحـاصِـبٍ مِـن ثَلْجِهـا حتــىٰ يَبِيــتَ علــىٰ العِضَــاهِ جُفــالا

وقال الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِيــنَ شَمــالَ الشَّــأْمِ تَضْــرِبُنــا بحــاصِــبٍ كَنَـدِيـفِ القُطْـنِ مَنْثُـورِ

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم قوم لُوط الذين أمطر ٱلله عليهم حجارة من سجّيلٍ مَنضُود .

2 ـ **الصيحة** : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [1] ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [2] ، ويلاحظ أن الانتقام بالصيحة يقترن بالإفاقة فهو في الصباح وبعد الشروق ولعلنا نلتمس لذلك تأويلاً ، فهو يحل بهم وقت انتباههم ليعلموا : أنه هو الحق من ربهم ، ولو حل بهم ليلاً وهم نيام لأصابهم الهلاك من هول الصيحة ولما يعلموا حقيقة ما أصابهم من انتقام المنتقم .

3 ـ **الخسف** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ الذي خسفت به الأرض هو قارون .

4 ـ **الإغراق** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ يعني : قوم نوح عليه الصلاة والسلام ، وقد يكون أيضاً فرعون وقومه الذين اتبعوه علىٰ الضلال .

هـٰذه أنواع من الانتقام الشديد ، والمتأمل علىٰ سبيل تخيل وقوعه ليجزع جزعاً شديداً وليمتلكه خوف بادٍ مع يقين بأحقية هـٰؤلاء لمثل هـٰذا الانتقام ، فقوم لوط كانوا يصرون علىٰ الإتيان بما يخالف ٱلله ، وما يخالف فطرتهم التي

(1) الحجر ، 72 ـ 73 .
(2) الحجر ، 83 .

ذكرهم بها نبيهم : ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (1) ، ولابد من تفسير عرض لوط عليه الصلاة والسلام بالتفصيل رداً علىٰ ما يدعي بعض أعداء الإسلام من السوء علىٰ أنبياء ٱلله ، والمراد نساء أمته ؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة ، ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : إن إقدام الإنسان علىٰ عرض بناته علىٰ الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء .

الوجه الثاني : وهو أنه قال : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم . أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل . كما صحت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا ، وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات علىٰ البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة . وقد دعاهم عليه الصلاة والسلام إلىٰ التزوج بهن ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه دعاهم إلىٰ التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان .

والثاني : أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته ، وهٰكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه الصلاة والسلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (2) ، لٰكنهم أبوا وعصوا أمر الرسول فحق الانتقام من

---

(1) هود ، 78 .

(2) البقرة ، 221 .

هـٰؤلاء : ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [1] ، وميزة هـٰذا الانتقام ـ إضافة إلىٰ ما ذكرنا من شدة وهول ـ أنه حاضر لكل من يخرج عن طاعة ٱلله ظلماً وعدواناً علىٰ حدود ٱلله وحقوق العباد وفي كل زمان ومكان ، وهـٰذا ما يخبر به المنتقم منبهاً ومخوفاً للنفوس المريضة وواعظاً للخليفة ومن معه من أصحاب النفوس المؤمنة : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [2] .

وقد يكون يحل انتقام الرجم دون القلب كما حدث مع أصحاب الفيل وفي ذلك تقدير من العزيز الجليل ، فالمكان الذي حل الانتقام بهم فيه بالقرب من مكة ولا يمكن أن يصيبه أمر القلب لأن فيه بيت ٱلله ، كما أن الذنب الموجب للانتقام مخصوص بمرتكبيه وهم أصحاب أبرهة ، أما أهل مكة فليسوا ممن ارتكب هـٰذا الجرم العظيم لذلك لم يصبهم ، ومن هنا نتبيَّن أن الانتقام لا يكون إلا حقاً لمن يتعدىٰ حدود ٱلله فكان الانتقام بالرجم بحجارة السجيل فقط مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [3] .

وإلىٰ جانب ما ذكرناه هناك جنود مسخرون دائماً لتنفيذ أمر ٱلله بالانتقام ممن يحق القول عليهم بالنار وهـٰؤلاء الجنود الكرام كثرة لا يعلمها إلا هو عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [4] .

وكذلك المطر ، وهو من نعم ٱلله علىٰ البشر وهو في نفس الوقت من جنوده التي لا يعلمها إلا هو من كثرتهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا

(1) الحجر ، 74 .
(2) هود ، 82 ـ 83 .
(3) الفيل ، 4 .
(4) المدثر ، 31 .

﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ [1] ، وذلك إرسال ٱلله عليهم حجارة من سجيل من السماء . ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذّبوه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾ إن في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا ، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد ، يتعظون بها في تكذيبهم إياك . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴾ [2] .

وكذلك الصاعقة : التي تسقط من السماء فتضر بمن تقع عليه ، وهي الصوت الشديد المكهرب ، وقد اختص بها المنتقم قوماً بعينهم وهم قوم ثمود الذين هداهم ٱلله فلم يستمعوا ولم يعوا بالرغم من إنذار نبيهم المسبق من هـٰذا الانتقام ، لـٰكنهم أصروا وأبدلوا الهدىٰ بالضلالة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [3] ، وهو انتقام مذهل في كونه يحل بالتوازي مع الذنب في إشارة لا تخفىٰ علىٰ المؤمن علىٰ أنه انتقام العليم الخبير ، فأصحاب موسىٰ تكلموا ورفعوا أصواتهم مطالبين برؤية ٱلله جهرةً ظلماً من عند أنفسهم فحل بهم الانتقام موازياً لذنبهم بصوت الصاعقة الذي لا يوازيه في قوته صوت : ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [4] .

وانتقام الصاعقة كما يصفه المنتقم شديد وخاطف ولا يرد ، إنذاراً من المنتقم للعباد لكي يحرصوا علىٰ عدم العمل بموجبات حلوله فيهم : ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا

(1) النمل ، 58 .
(2) الفرقان ، 40 .
(3) فصلت ، 17 .
(4) البقرة ، 55 .

ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ (1) .

وكذلك الريح التي انتقم بها المنتقم من أعدائه أنواع ، فمنها الريح الصرصر وهي الشديدة البرودة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (2) ، وشدة هـٰذه الريح تُبيِّن نوع الذنب الموجب لمثل هـٰذا الانتقام ، فهي شديدة لتوازي شدة إصرار القوم علىٰ الكفر والعصيان بعد الآيات والنذر : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (3) ، ونوع آخر هو الريح العقيم التي لا تُلْقِحُ شجراً ولا تَنْشِئ سَحاباً ولا مَطَراً (4) : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (5) . إنها الريح التي تدمر ولا تعمِّر ، لم تكن تلك المسخرة بحبيبات اللقاح أو المشبَّعة بالماء أو الناقلة السحب للأرض الجرز . ومع ذلك فإن النتائج المترتبة علىٰ الريح العقيم هي رحمة من الرحمـٰن الرحيم علىٰ عباده المستخلفين فيها ، وذلك لأنها هالكة للمهالك والذين وراءها ، فهي لم تكن مرسلة علىٰ المستخلفين فيها ، بل هي المرسلة علىٰ المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق ، وهـٰذه رحمة من المنتقم العظيم .

وكذلك البطش وهو الأخذ الشديد في كل شيء : بطش به . وٱلله ذو البطش الشديد ، أي : ذو البأس والأخذ لأعدائه (6) ، وهـٰذا النوع من الانتقام

(1) الذاريات ، 43 ـ 45 .
(2) فصلت ، 16 .
(3) الحاقة ، 6 ـ 8 .
(4) معجم العين ، 1 ، 41 .
(5) الذاريات ، 41 ـ 42 .
(6) معجم العين ، ج 2 ، ص 236 .

موازٍ لذنب يرتكبه العتاة من البشر كما وصفهم المنتقم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (1) ، فكان الانتقام ببطش أشد من بطشهم : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (2) .

وبعد فانتقام المنتقم ما حل بقوم إلا بعد نعم أنعمها ثم قوبلت بالكفر ، وأمثلته كثيرة منها ما حل بقوم سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (3) .

ومنهم قوم نمرود : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (4) ، ومعنىٰ أتىٰ ٱلله بنيانهم استعارة بتشبيه القاصد للانتقام بالجاني نحو المنتقم منه ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ تمثيل لحالات استئصال الأمم ، فالبنيان أي المبنىٰ ، وهو هنا مستعار للقوّة والعزّة والمنعة وعلوّ القدر . وفي إرسال سيل العرم عَليهم آية علىٰ انفراده تعالىٰ بالتصرف ، وعلىٰ أنه المنتقم وعلىٰ أنه واحد ، فلذلك عاقبهم علىٰ الشرك وما ارتكبوا من مظالم ومفاسد في الأرض .

والمنتقم يوعد من يعاديه بانتقام في الدنيا وفي الآخرة ، وصور انتقام الآخرة أكثر هولاً من صور انتقام الدنيا ، يقول المنتقم سبحانه : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (5) ، والأنكال هي القيود التي

---

(1) الشعراء ، 130 .
(2) الدخان ، 16 .
(3) سبأ ، 15 ـ 16 .
(4) النحل ، 26 .
(5) المزمل ، 12 ـ 13 .

لا يفلت منها فالت ، والجحيم من حطب جهنم ، والطعام ذو الغصة لِما فيه من معطيات الرفض لتناوله ، الذي يمزق الحلوق مع شدة الألم ومرارة المذاق وصعوبة البلع ، والعذاب الأليم ، هو العذاب الشديد المملوء بالأوجاع القاسية علىٰ أن تطاق ، وهـٰذه كلها جزاء مناسب لأولي النعمة ، الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم عليهم بها .

ولأن في الآيات السابقة القول الرباني موجه إلىٰ سيدنا محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه فقال له بما في معناه : فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً ، ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيماً تجحمهم وتصليهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم مخيف ، ثم يرسم مشهد هـٰذا اليوم المخيف فيقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (3) ، وصفهم المنتقم جل جلاله ، بالصمم والعمىٰ وما أحسن هـٰذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلىٰ الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلىٰ أن يصير أعشىٰ ، فإذا واظب علىٰ تلك الحالة أياماً أخرىٰ انتقل من كونه أعشىٰ إلىٰ كونه أعمىٰ ، فهـٰذا ترتيب حسن موافق لما ثبت

(1) المزمل ، 14 .
(2) الزخرف ، 40 ـ 41 .
(3) الزخرف ، 36 .

بالبراهين اليقينية ، روي أنه ﷺ كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً علىٰ الكفر وتمادياً في الغي ، فقال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلىٰ حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم ، وهـٰذه علامة كفر تستوجب الانتقام ، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمىٰ ، ثم بيّن تعالىٰ أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين .

ولما بيّن تعالىٰ أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال : ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ ﴾ يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم ﴿ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون علىٰ ذلك ، واعلم أن هـٰذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه الصلاة والسلام لأنه تعالىٰ بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدىٰ الراحتين ، ثم بيّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته ، وذلك أيضاً يوجب التسلية ، فبعد هـٰذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالىٰ ، فقال : ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيۡكَ ﴾ [1] ، أي : استمسك بالحق المبين الذي لا يدخله باطل وتوكل علىٰ ٱلله في تمسكك به .

ويأتي الانتقام بصيغ غير مباشرة ، وبغير لفظة الانتقام ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ [2] ، قال سفيان الثوري : وهو شديدُ المِحال بمعنىٰ شديد الانتِقام [3] .

وقد يشار إلىٰ معناه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ

(1) الزخرف ، 43 .
(2) الرعد ، 13 .
(3) لسان العرب ، ج 11 ، ص 616 .

يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴾ (1) ، والمعنىٰ نهاهم عن الطمع الذي يحملهم علىٰ الحيف والظلم علىٰ المستضعفين من النِّسْوان واليتامىٰ ، وبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم ٱلله ، فَمَنْ راقب ٱلله فيهم لم يخسر علىٰ ٱلله بل يجد جميل الجزاء ، ومن تجاسر عليهم قاسىٰ لذلك أليمَ البلاء (2) .

وبعد فإن الانتقام حق ، له شروطه ليكون حقّاً ، وله صوره ولكل مستحق انتقامه الذي يليق بفعله ، لذا فإن الخليفة مكلف بالقيام بالانتقام الحق الذي يتبع خطوات المنتقم الحق ، في غاياته وصوره ، ويجب أن يعرف أن هناك انتقاماً باطلاً يجب أن يحذر الوقوع فيه فيكون من الذين كذبوا بالحق فيحل عليه انتقام المنتقم الحق جل جلاله : ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (3) .

الانتقام في أساسه فعل لإحقاق الحق ، فمن اتبع الحق في انتقامه كان من المستخلفين فيها الذين يصلحون ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حق ، ولا يجوز تسمية من يقترف ذنباً ويظلم به آخرين أن نسميه انتقاماً ، بل إن صفة الفعل التي تنطبق معه هي الظلم وفاعله ظالم ، ولهـٰذا المنتقم هو الذي لا يظلم أحداً ، أما الظالم فهو الذي يتجنىٰ علىٰ الآخرين بغير حق ويرميهم بما ليس فيهم ويرميهم بما لم يرتكبوا ، مما يستوجب الانتقام منه لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

ولأن الانتقام فعل خير فهو المستمد من المنتقم المطلق لكل خير ، ٱلله

---

(1) النساء ، 127 .

(2) تفسير القشيري ، 2 ، 43 .

(3) الزخرف ، 25 .

تعالىٰ لا يمكن أن يظلم أحداً ، الذي يظلم هو الذي لم يهتد إلىٰ الأفعال الحسان ، ولهـٰذا فالفرق كبير بين من يفعل الأفعال الحسان حتىٰ يتصف بها ، وبين الذي يرتكب أفعال المظالم حتىٰ يتصف بها ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) ، جاء استفسار الملائكة المكرَّمين للتبيان من الذي سيكون خليفة المصلح أم المفسد ! وهم بهـٰذا التساؤل ولثقتهم بأنفسهم أنهم لم يكونوا من المفسدين ، والأرض بطبيعتها تتطلب المصلحين ، فكانت الإجابة ، في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وعليه فالخليفة هو من التزم بتعاليم ٱلله ، وهي التعاليم الثابتة التي نزلت آيات مفصَّلات لأولي الألباب ، وهي المحتوية والمتضمنة في الكتاب

(1) البقرة ، 30 ـ 37 .

المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (1) .

ولأن الانتقام رحمة فمن فعله نال من الدرجات الحسان التي يثيب ٱلله عليها ، اللهُمَّ اجعلنا من المحسنين ولا تجعلنا من المفسدين فيها ولا سافكي الدماء بغير حق ، واجعل لنا الحق واجعلنا لإحقاقه ناصرين ، ولا تجعلنا من المنتقم منهم واجعلنا من الذين ينتقمون من الباطل حتىٰ يُحق الحق ولا يظلم ربك أحداً !

المنتقم عزيز والعزيز لا يقدم علىٰ الأفعال غير المبررة بموجبات الانتقام ، ولذا فهو المُقدِم علىٰ الأفعال العظام ، التي علىٰ رأسها إحقاق الحق وإزهاق الباطل . ولذا فالانتقام فعل خير لا يقدم عليه إلا خيرون ، والخيرون هم المصلحون في الأرض أي أنهم المستخلفون فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(1) فصلت ، 40 ـ 46 .
(2) يونس ، 65 .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] . رب العزة لا يستخلف إلا عزيزاً ، والعزيز يأبىٰ أن يكون كافراً ولا مشركاً ولا ظالماً ولا مجرماً ، بل إنه العادل الحق بما أمره ٱلله تعالىٰ والمنتهي عمّا نهاه عنه .

اللهُمَّ يا المنتقم اجعلنا علىٰ الانتقام من المفسدين في الأرض ، واجعلنا قادرين علىٰ الانتقام من الذين يريدون الانتقام منا ! اللهُمَّ يا المنتقم اجعلنا علىٰ القوة التي بها نتمكن من الانتقام من ضعفنا وجهلنا وهفواتنا وما يوسوس به الشيطان لنفوسنا ! اللهُمَّ أنت بيدك الملك ، ونحن صنعتك ، تعلم ما فيه الخير لنا ما لا نعلمه لأنفسنا ، وترىٰ منّا ما لا نراه في أنفسنا ، ليس في صفاتك الحسنىٰ شر تعاليت علىٰ ذلك علواً كبيراً ، فسميت نفسك المنتقم ، ونحن نثق أن انتقامك عين نفعك ، فنسألك يا ٱلله أن تنتقم لنا ممن بغىٰ علينا وأراد بالإسلام وبنا وبخلقك سوءاً ! اللهُمَّ إن أعداءك يكيدون كيداً فكد بهم كيداً ، وأبطل كيدهم ، واجعل تدبيرهم تدميرهم ، ونعوذ بك من فجورهم وشرورهم ، ونجعلك ربنا في نحورهم ، وبانتقامك اسلبهم مدد الإمهال ، وأرسل عليهم ألوان الوبال ، إنك أنت المنتقم سبحانك عليك توكلنا ولك الحمد جل جلالك !

✍ ✍ ✍

(1) الصافات ، 180 ـ 182 .

العفوّ جلّ جلاله

العفُوُّ : هو من بيده أمر تحقيق الفعل في المعاقبة أو المحاسبة أو المساءلة والعذاب تجاه من لا يستجيب للأمر ، ومع ذلك يغفر للمذنب بعدم إنزال العقاب مع أن المذنب يستحق ذلك ، ولهٰذا فهو العفُوّ بمغفرته ورحمته ، أي أنه المتجاوز عن السيئات والأخطاء بإعطاء الفرصة للتوبة وبما تعمل أيدي العباد من حسنات مما يجعل الحسنات يذهبن السيئات مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (1) .

الْعَفُوُّ : هو « الْوَاضِعُ عَنْ عِبَادِهِ تَبِعَاتِ خَطَايَاهُمْ وَآثَامِهِمْ ، فَلا يَسْتَوْفِيهَا مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِذَا تَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا ، أَوْ تَرَكُوا لِوَجْهِهِ أَعْظَمَ مَا فَعَلُوا لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ مَا فَعَلُوا بِمَا تَرَكُوا ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ كَرَامَةً لِذِي حُرْمَةٍ لَهُمْ بِهِ وَجَزَاءً لَهُ بِعَمَلِهِ » (2) .

في أسماء ٱلله تعالىٰ العَفُوُّ وهو فَعُولٌ من العَفْوِ وهو التَّجاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العِقابِ عليه ، وأَصلُه المَحْوُ والطَّمْس ، قال الليث : العَفْوُ عَفْوُ اللهِ عز

---

(1) هود ، 114 ـ 117 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 148 .

وجل عن خَلْقِه وٱلله تعالىٰ العَفُوُّ الغَفُور ، وكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبةً فَتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه [1] .

وفي النونية :

وهـو العفـو فعفـوه وسـع الـورىٰ لـولاه غـار الأرض بـالسكـان [2]

والعفوُّ : « هو الذي له العفو الشامل الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب ، ولا سيما إذا أتوا بما يسبب العفو عنهم من الاستغفار ، والتوبة ، والإيمان ، والأعمال الصالحة ، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وهو عفو يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه : من السعي في مرضاته ، والإحسان إلىٰ خلقه » [3] .

واسم ٱلله العفو يدل علىٰ ذات ٱلله وعلىٰ صفة العفو بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن ، وعلىٰ صفة العفو بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم علىٰ الحياة والقيومية ، والسمع والبصر ، والعلم والمشيئة ، واللطف والرحمة ، والحلم والقدرة ، والعدل والحكمة ، وغير ذلك من أوصاف الكمال ، واسم ٱلله العفو دل علىٰ صفة من صفات الأفعال ، وفي دلالة اسم ٱلله العفو علىٰ الصفة قال تعالىٰ : ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [4] ، كذلك قوله : ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [5] .

العَفُوُّ من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، والعفو كثير العفو عن عباده ، والاسم

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .
(2) القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ج 2 ، ص 16 .
(3) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 56 .
(4) الشورىٰ ، 25 .
(5) الشورىٰ ، 30 .

العفو مكون من مقطعين صوتيين هما : (عـَ + فَوو) ، والمعروف عن صوت العين أنه أعمق أصوات الحروف العربية فهو يصدر من الجوف ، وفي هـٰذا إيحاء بالصدق وبالرغبة وبالحرص لأن ما يصدر من الأعماق يهدف إلىٰ مثل ذلك ، أما المقطع الثاني فإنه يحمل دلالة لا تخفىٰ علىٰ المتوسم لفعل ٱلله تتمثل في الدلالة الهوائية للمقطع ، ولو عدت لتكرار المقطع عدة مرات لوجدت نفسك تنفث ريحاً وفي ذلك مقاربة المعجزة بين الاسم والمسمىٰ ، إذ يقال عَفَا ٱلله عن العبد مأْخوذ من قولهم عفَت الرياحُ الآثارَ إِذا دَرَسَتْها ومَحَتْها [1] ، والمقاربة واضحة بين فعل العفوّ في محو ذنوب العبد وفعل الرياح في الأثر والذهاب به مع صوت المقطع (فوو) في الاسم الكريم .

وقد وصف ٱلله نفسه بالعفو والغفران فقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [2] ، وفي (كَانَ) الواردة في الآية ثلاثة أوجه :

الأول : كان قبل أن خلق الخلق موصوفاً بهـٰذه الصفة .

الثاني : أنه قال (كَانَ) مع أن جميع العباد بهـٰذه الصفة والمقصود بيان أن هـٰذه عادة ٱلله تعالىٰ أجراها في حق خلقه .

الثالث : لو قال : إنه تعالىٰ عفو غفور كان هـٰذا إخباراً عن كونه كذلك فقط ، ولما قال إنه كان كذلك كان هـٰذا إخباراً وقع مخبره علىٰ وفقه فكان ذلك أدل علىٰ كونه صدقاً وحقاً ومبرأً عن الخلف والكذب . وهـٰذه الآية تدل علىٰ أنه تعالىٰ قد يعفو عن الذنب قبل التوبة فإنه لو لم يحصل ههنا شيء من الذنب لامتنع حصول العفو والمغفرة فيه ، فلما أخبر بالعفو والمغفرة دلّ علىٰ حصول الذنب ، ثم إنه تعالىٰ وعد بالعفو مطلقاً غير مقيد بحال التوبة فيدل علىٰ ما ذكرناه [3] .

---

(1) لسان العرب ، 15 ، 72 .
(2) النساء ، 99 .
(3) تفسير الرازي ، 5 ، 353 .

والعفوُّ بقدرته علىٰ العفو وهو القادر علىٰ فعل كل شيء بعباده ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [1] ، هَذِهِ الآيَة تَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْعَفْوِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالتَّبَارُكِ وَالْجَلاَلِ وَالإِكْرَام ، فَالْعَفُوُّ الَّذِي هُوَ اسمهُ تَعَالَىٰ ؛ مَعْنَاهُ : الْمُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ تَابُوا إِلَيْهِ وَأَنَابُوا ، وَلَمَّا كَانَ أَكْمَلُ الْعَفْوِ هُوَ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ تَامَّةٍ عَلَىٰ الانتقام وَالْمُؤَاخَذَةِ ؛ جَاءَ هَـٰذَانِ الاسمانِ الْكَرِيمَانِ : الْعَفُوُّ وَالْقَدِيرُ مُقْتَرِنَيْنِ فِي هَـٰذِهِ الآيةِ [2] .

وفي قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [3] ، دل بذكر فعل العفو والغفران أنه قادر علىٰ العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر علىٰ ضده ، فالمذنبون مستحقون للعذاب والعفوّ قادر علىٰ عذابهم ، يقول جل وعلا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [4] ، لـٰكنهم بعفوه يمهلهم وهو قادر علىٰ ذلك فيذكرهم بذكر يسير قريب للإفهام ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [5] ، ويضرب لهم الأمثال المختلفة التي تترك عند العاقل أثراً بليغاً لا يمكن محوه فيتعظ ويرجع وينتهي فيصيبه عَفْوُ العفوِّ سبحانه وتعالىٰ من إلـٰه رحيم عفو كريم ، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [6] .

الخليفة عليه إذاً أن يتبع نهج العفوّ سبحانه الذي استخلفه في الأرض

---

(1) النساء ، 149 .
(2) شرح العقيدة ، محمد خليل ، 1 ، 140 .
(3) الحج ، 60 .
(4) الأنعام ، 65 .
(5) الدخان ، 58 .
(6) الزمر ، 27 .

فيمهل ويذكر ويضرب الأمثال للناس لعلهم يرجعون ، فإذا رجع الناس إلىٰ الحق عليه أن يأخذ بالعفو فيعفو عنهم .

والعفوّ قادر لأن « العفو اسم لإسقاط العقاب المستحق » (1) ، فالمذنب مستحق للعقاب ، واللهُ قادر علىٰ عقابه لكنه سبحانه ينبه عباده قبل إنزال العقاب ، فهو يذكرهم بأنواع الذكر ، فيبدأهم بالذكر ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (2) ، ثم يبتليهم بضيق العيش لعلهم يتفكرون فيرجعون لعلهم ينزلون بساحة العفو ، ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (3) ، ثم يشدد علىٰ عبده فيُنزل به العذاب الأدنىٰ لعله يرجع إلىٰ ربه : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (4) ، فإذا عادوا وهو الأحب إلىٰ العفوّ سبحانه غفر لهم ، لأنه لا حاجة به إلىٰ عذاب عباده ، يقول العفو سبحانه مرغباً بالعودة إلىٰ عفوه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (5) .

فالعفو هو الإسقاط المطلق للعقوبة ليس تأخيرها ، فالمقصود من العفو الإزالة كما تدل الآيات المحكمات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ (6) ، فليس المراد منه التأخير ، بل الإزالة ، فالعفو إذاً هو الإسقاط المطلق ، « ومما يدل علىٰ أن العفو لا يتناول التأخير أن الغريم إذا أخَّر المطالبة لا يقال : إنه عفا عنه ، ولو أسقطه يقال : إنه عفا عنه ، فثبت أن

(1) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 104 .
(2) طه ، 113 .
(3) الأعراف ، 130 .
(4) السجدة ، 21 .
(5) النساء ، 147 .
(6) البقرة ، 237 .

العفو لا يمكن تفسيره بالتأخير » [1] .

ويتأكد أن العفو هو الإسقاط في آية أخرىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [2] ، فظاهر العفو هو إسقاط الحق وذلك إنما يتأتىٰ من الولي الذي له الحق علىٰ القتل ، فصار تقدير الآية : فإذا عفي ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف ، وقوله : ﴿ شَيۡءٞ ﴾ مبهم فلا بد من حمله علىٰ المذكور السابق وهو وجوب القصاص إزالة للإبهام ، فصار تقدير الآية إذا حصل العفو للقاتل عن وجوب القصاص ، فليتبع القاتل العافي بالمعروف ، وليؤد إليه مالاً بإحسان ، وبالإجماع لا يجب أداء غير الدية ، فوجب أن يكون ذلك الواجب هو الدية ، وهـٰذا يدل علىٰ أن موجب العمد هو القود أو المال ، ولو لم يكن كذلك لما كان المال واجباً عند العفو عن القود ، ومما يؤكد هـٰذا الوجه قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ أي أثبت الخيار لكم في أخذ الدية ، وفي القصاص رحمة من ٱلله عليكم ، لأن الحكم في اليهود حتم القصاص والحكم في النصارىٰ حتم العفو فخفف عن هـٰذه الأمة وشرع لهم التخيير بين القصاص والدية ، وذلك تخفيف من ٱلله ورحمة في حق هـٰذه الأمة لأن ولي الدم قد تكون الدية آثر عنده من القود إذا كان محتاجاً إلىٰ المال ، وقد يكون القود آثر إذا كان راغباً في التشفي ودفع شر القاتل عن نفسه ، فجعل الخيرة له فيما أحبه رحمة من ٱلله في حقه [3] .

وهـٰذا الإسقاط المطلق يوجب الشكر لما فيه من نجاة للعبد من وزر

---

(1) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 190 .

(2) البقرة ، 178 .

(3) تفسير الرازي ، ج 3 ، ص 64 .

الذنوب ، فأصحاب العجل لو لم يخبرهم العفو علىٰ لسان موسىٰ عليه الصلاة والسلام لأثقل هـٰذا الذنب العظيم كاهلهم ومنعهم مما أمروا به من تكليف بالطاعة وعمار الأرض ، فقال لهم عز من قائل : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، ومعنىٰ لعلكم تشكرون : أي عفو ٱلله عنكم ، لأن العفو يقتضي الشكر ، والشكر طاعة الجوارح . وقال الجنيد : الشكر هو العجز عن الشكر . وقال الشبلي : التواضع تحت رؤية المنة . وقال الفضيل : أن لا تعصي ٱلله . وقال أبو بكر الورّاق : أن تعرف النعمة من ٱلله . وقال ذو النون : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان (2) .

فعفو الخليفة يجب أن يكون مأخوذاً من عفو ٱلله سبحانه أي بإسقاط العقاب بالمطلق ، وعدم استحضار الذنب للمذنب في كل حين ، وأن يعي أن ما لذنب صلة بآخر لأن العَفْوَ يعلمه بالآيات ذلك فيقول : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (3) ، أي : عليه أن يعي أن ارتكاب العبد للذنب لا يجعله مذنباً علىٰ مر الدهر ، فلا يجوز للخليفة أخذ الناس ببعض ذنوبهم وبغير حق .

ويُعلِّمُ العفوُّ القادر خليفته أن يكون متخلقاً بصفاته تعالىٰ أي أن يكون عفواً عند قدرته ، بعيداً ومتجنباً للبطش ، قريباً وعاملاً بالعفو والمغفرة في هـٰذه الآيات وآيات أخرىٰ منها قوله تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ

---

(1) البقرة ، 52 .
(2) البحر المحيط ، ج 1 ، ص 257 .
(3) الأنعام ، 164 .

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (1) ، وفي قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴾ ، إشارة واضحة إلىٰ العفو عن القاتل بعد القدرة عليه ذلك أنه يقابل في الآية الكريمة القتل الوارد في أولها ، فانظر بعين المتأمل إلىٰ حدود القتل وما فيها من تحذير واضح ومخافة من الوقوع في قتل الناس جميعاً وبين ترغيب العفو بالعفو عن الناس ، فعليك أيها الخليفة أن تختار العفو عند المقدرة لما في ذلك من أثر إيجابي يعينك علىٰ إعمار الأرض والقيام بأمر ٱلله فيها من نشر العدل ومنع الفساد وعبادة ٱلله الواحد الأحد .

والعفو يأتي بعد الغفران لأنه سبحانه يغفر للمستغفر ثم يأتي بعد ذلك بالعفو الذي يحمل في طياته جائزة المستغفر المتمثلة بترك العقاب علىٰ ما سلف من الذنوب ، يقول العفوّ سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، ويُعلّم المولىٰ عز وجل خليفته أن يغفر ثم يعفو من بعد ذلك ، ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، ومن الآيات التي تشير إلىٰ أن الغفران يسبق العفو نستدل علىٰ أن العفو فعل انتهائي أي أنه يأتي بعد رجوع العبد عن الذنب وحصول المغفرة هنا يتحقق العفو الذي يمحو أثر الذنوب من صحف العبد ومن كل الإحصائيات التي جعلها المحصي سبحانه لتحيط بأفعال العباد .

والعَفُوُّ علىٰ فَعُول هو الكثيرُ العَفْو (4) ، فهو الذي يعفو عن صغير الذنوب وعن كبيرها للتائب المستغفر ، فيعفو عن الضعيف الذي لا يقدر علىٰ فعل

---

(1) المائدة ، 32 .
(2) آل عمران ، 129 .
(3) النور ، 22 .
(4) مختار الصحاح ، 1 ، 210 .

الخير لعلة الضعف أو الكبر أو لقلة التدبير مما يجعل بعض أفعالهم ذنوباً صغيرة ، وهـٰؤلاء جاء ذكرهم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (1) ، والإشارة واضحة إلىٰ صغر الذنب وذلك لذكر العلة وهي الضعف المشار إلىٰ أنواعه في الآية وفي آيات أخرىٰ حددت بالضبط ما هي الأصناف التي يجب مراعاتهم كل حسب وضعه تعليماً وتفهيماً لفكرة مهمة يريد العفو أن يبينها لخليفته ليمكنه من التمييز ، والذين يعود الأمر عليهم هم :

1 ـ **المضطر** ، والاضطرار حالة مُلجئة للمخالفة علىٰ كل صعيد ، كالحاجة إلىٰ الطعام ، إذ يمكن للاضطرار أن يوقع العبد في الحرام ، وليس عليه شيء ما دام خارج سور البغي فإذا دخله اختلف الحكم عليه ، أما إذا حرص العبد علىٰ الطاعة واضطر الىٰ الوقوع في ما حرم ٱلله فإنه يجد ٱلله العفو غفوراً رحيماً ، ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، لذا وجب علىٰ الخليفة أن يتنبه إلىٰ فكرة الاضطرار ويعرف معانيها جيداً ويدرك حدودها بالتحديد ليستطيع التمييز بين عاصٍ باغٍ ، وبين مضطرٍ ذي حاجة ، فيجعل لكل منهما حداً كما علمه المولىٰ عز وجل .

2 ـ **العليل** ، بكل أنواع العلل ، أصابه العفو برحمته فرفع عنه الحرج فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

(1) النساء ، 98 ـ 99 .
(2) البقرة ، 173 .
(3) التوبة ، 91 .

3 ـ **الأطفال** : وهـٰؤلاء يُلتمس لهم العذر في أفعالهم وأقوالهم إلىٰ حد معين هو البلوغ ، فإذا أتموه كانوا خارج الاستثناء ، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (1) .

4 ـ **الشيوخ** : غير أصحاب الحاجة إلىٰ النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنيت شهواتهم ، يقول العفو سبحانه : ﴿غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ (2) .

وهـٰذه الأصناف أولىٰ أن تكون مما يلفت انتباه الخليفة كونهم من المحتاجين إلىٰ العون بشكل من الأشكال ، فكان تنبيه العفو سبحانه لخليفته رحمة ورأفة بهـٰؤلاء ، وذلك ما يجب أن يتحلىٰ به الخليفة الحق ، كما في هـٰذه الآيات إشارات واضحة للخليفة ليكون واسع العفو وأن يتسع صدره لكل من يحتاج عونه وعفوه .

وهو الذي يعفو عن الذنوب العظيمة كما يقول عز من قائل في كتابه مخبراً عن قوم موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (3) ، وهـٰذه من نعم العفوّ سبحانه وتعالىٰ العظيمة وهي العفو عن الذنب العظيم الذي ارتكبوه من عبادة العجل ، وأشارت الآية الكريمة إلىٰ مدىٰ جهلهم وضعف إيمانهم ، فما أن غاب عليهم موسىٰ عليه الصلاة والسلام تلبية لأمر ٱلله عز وجل خرجوا عن الطريق الحق فاستجابوا لدعوة أحد أصحاب موسىٰ من الغاوين وهو السامري ، مع وجود منذر ومذكر يدعوهم إلىٰ الحق وهو هارون

(1) النور ، 59 .
(2) النور ، 31 .
(3) البقرة ، 51 ـ 52 .

إلا أنهم واجهوه بالإصرار علىٰ هـٰذا الذنب الكبير وهو الإشراك بٱلله ، ومع هـٰذه الزلة العظيمة عفا عنهم وتاب عليهم ، فسبحان التواب الرحيم العفوّ الكريم ، علىٰ هـٰذا يكون العفو هنا كرماً من العفو فهو الكريم .

العفوّ هو الذي يمنح الرخص كما تنص المعاجم العربية ، فيقال عفو أَعْفاهُ من الأَمرِ بَرَّأَه واسْتَعْفاه طَلَب ذلك منه ، والاسْتِعْفاءُ أَن تَطْلُب إِلىٰ مَنْ يُكَلِّفُكَ أَمراً أَن يُعْفِيَكَ مِنْه يقال أَعْفِني منَ الخرُوجِ مَعَك أَي دَعْني منه واسْتَعْفاهُ من الخُروج مَعَه أَي سأَله الإِعفاءَ منه [1] . فقد أعفاهم من كل ما لا يستطيعون فعله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [2] ، وقوله : خُذِ العَفْوَ ، قيل : العَفْو : الفَضْلُ الذي يجيءُ بغيرِ كُلْفَةٍ والمعنىٰ اقْبَلِ المَيْسُورَ مِنْ أَخْلاقِ الناسِ ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيَسْتَقْصِيَ ٱلله عليك مع ما فيه من العَداوة والبَغْضاءِ ، ويقال أَمَرَ ٱلله نَبيَّه أَن يأْخُذ العَفْوَ من أَخْلاقِ الناسِ قال هو السَّهْل المُيَسَّر أَي أَمرَه أَن يَحْتَمِل أَخْلاقَهُم ويَقْبَلَ منها ما سَهُل وتَيَسَّر [3] ، فالعفو ييسر علىٰ عباده فهو الذي يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، فقد أعفىٰ أمة محمد ﷺ مما ابتلىٰ به أقواماً غيرهم إذ كانت التوبة والغفران والعفو بعد قتل النفس كما يذكر لنا سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [4] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : فرضنا وأوجبنا ﴿ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : كما أمرنا بني إسرائيل وتفسير ذلك بالتعرض له بالجهاد البعيد ﴿ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل أيضاً بالخروج من مصر . والمراد إنما كتبنا عليهم

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .
(2) الأعراف ، 42 .
(3) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .
(4) النساء ، 66 .

إطاعة الرسول والانقياد لحكمه والرضا به ولو كتبنا عليهم القتل والخروج من الديار كما كتبنا ذلك علىٰ غيرهم ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهم المخلصون من المؤمنين كأبي بكر رضي ٱلله تعالىٰ عنه . فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد ٱلله بن الزبير قال : « لما نزلت هـٰذه الآية قال أبو بكر يا رسول ٱلله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت ، فقال : صدقت يا أبا بكر » وكعبد ٱلله بن رواحة ، فقد أخرج عن شريح بن عبيد أنها لما نزلت أشار ﷺ إليه بيده فقال : لو أن ٱلله تعالىٰ كتب ذلك لكان هـٰذا من أولئك القليل ، وكابن أم عبد ، فقد أخرج عن سفيان « أن النبي ﷺ قال فيه لو نزلت كان منهم » ، وأخرج عن الحسن قال : لما نزلت هـٰذه الآية قال أناس من الصحابة : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي » وروي أن عمر رضي ٱلله تعالىٰ عنه قال : وٱلله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إن من أمتي لرجالاً ، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » ، وفي بعض الآثار أن الزبير وصاحبه لما خرجا بعد الحكم من رسول ٱلله ﷺ مرا علىٰ المقداد فقال : لمن القضاء ؟ فقال الأنصاري : لابن عمته ولوىٰ شدقه ففطن يهودي كان مع المقداد فقال : قاتل ٱلله تعالىٰ هـٰؤلاء يشهدون أنه رسول ٱلله ويتهمونه في قضاء يقضىٰ بينهم وأيم ٱلله تعالىٰ لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسىٰ عليه الصلاة والسلام فدعانا إلىٰ التوبة منه ، وقال : اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتىٰ رضي عنا ؛ فقال ثابت بن قيس : أما وٱلله إن ٱلله تعالىٰ ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد ﷺ أن أقتل نفسي لقتلتها ، وروي أن قائل ذلك هو وابن مسعود وعمار بن ياسر ، وأنه بلغ رسول ٱلله ﷺ عنهم فقال : « والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالاً الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي وإن الآية نزلت فيهم » (1) .

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 4 ، ص 116 .

وهو الذي أحل لأمة محمد ﷺ من مباشرة الأزواج في رمضان ما حرم علىٰ غيرهم فقال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) ، فقد كان المسلمون يعلمون من الأمم التي سبقتهم والنصارىٰ علىٰ وجه التحديد حرمة مقاربة المرأة في رمضان ، « وإن لم تكن حجة قوية إلا أنها لا أقل من أن تكون شبهة موهمة فلأجل هٰذه الأسباب كانوا يعتقدون بقاء تلك الحرمة في شرعنا ، فلا جرم شددوا وأمسكوا عن هٰذه الأمور فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ وأراد به تعالىٰ النظر للمؤمنين بالتخفيف لهم بما لو لم تتبين الرخصة فيه لشددوا وأمسكوا عن هٰذه الأمور ونقصوا أنفسهم من الشهوة ، ومنعوها من المراد ، وأصل الخيانة النقص ، وخان واختان وتخون بمعنىً واحد ، فالمراد من الآية : علم ٱلله أنه لو لم يتبين لكم إحلال الأكل والشرب والمباشرة طول الليل أنكم كنتم تنقصون أنفسكم شهواتها وتمنعونها لذاتها ومصلحتها بالإمساك عن ذلك بعد النوم كسنة النصارىٰ » (2) .

بالإضافة إلىٰ رخص أخرىٰ مصدرها حرص العفوّ علىٰ التخفيف وتيسير أمور المؤمنين ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (3) ، والعفو يريد التخفيف عن العباد لأنه يريد لنا أن نكون قادرين علىٰ طاعته فكتب لنا

(1) البقرة ، 187 .
(2) تفسير الرازي ، ج 3 ، ص 117 .
(3) النساء ، 28 .

اليسر وأبعد عنا العسر في طاعته الموجبة للعفو ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (1) ، فقد رحمنا التواب فخفف علينا قيام الليل : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (2) .

كما أباح لنا التمتع بغرائزنا لعلمه بالضعف الحاصل عند الإنسان في مواجهة غرائزه فلم يمنعنا من شهوة النساء ولا من شهوة الطعام ليبعدنا عن الوقوع في الحرام ، وهو موجب للعذاب ، ونافٍ للعفو الذي يريده العفو لعباده : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (3) .

ومن التخفيف ما كان في الفروض فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر ، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من العفو : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (4) ، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا

---

(1) البقرة ، 185 .
(2) المزمل ، 20 .
(3) البقرة ، 187 .
(4) النساء ، 101 .

﴿مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [1] ، والحج للمستطيع فقط ولو كان لزاماً علىٰ القادر وغير القادر لأصيب العباد بعناء شديد مادي وجسدي ومعنوي ، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [2] ، وهـٰذه الاستطاعة هي من واجبات الخليفة سواء في توضيح حدوده جيداً لعموم الناس أم في تيسير ما يمكن منها للناس ليتمكنوا من أداء هـٰذه الطاعة العظيمة ، وَحَدُّ الاستطاعة يمكن إجماله بالآتي : اتفق الأكثرون علىٰ أن الزاد والراحلة شرطان لحصول الاستطاعة ، روىٰ جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه فسّر استطاعة السبيل إلىٰ الحج بوجود الزاد والراحلة ، وروىٰ القفال عن جويبر عن الضحاك أنه قال : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتىٰ يقضي حجه ، فقال له قائل : أكلف ٱلله الناس أن يمشوا إلىٰ البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا بل ينطلق إليه ولو حبواً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . عن عكرمة أيضاً أنه قال : الاستطاعة هي صحة البدن ، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه .

واعلم أن كل من كان صحيح البدن قادراً علىٰ المشي إذا لم يجد ما يركب فإنه يصدق عليه أنه يستطيع لذلك الفعل ، فتخصيص هـٰذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل ، ولا يمكن التعويل في ذلك علىٰ الأخبار المروية في هـٰذا الباب لأنها أخبار آحاد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لا سيما وقد طعن محمد بن جرير الطبري في رواة تلك الأخبار ، وطعن فيها من وجه آخر ، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول

---

(1) البقرة ، 183 ـ 184 .

(2) آل عمران ، 96 ـ 97 .

الاستطاعة ، فإنه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق ، وظاهر هـٰذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبراً ، فصارت هـٰذه الأخبار مطعوناً فيها من هـٰذا الوجه بل يجب أن يعول في ذلك علىٰ ظاهر قوله تعالىٰ .

والزكاة لمن يملك مالاً مجمداً وخارج حاجته فقط وليس من ماله الذي ينفقه علىٰ أهله وعياله : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، من هـٰذه الآيات يجب أن يعي الخليفة دوره في التخفيف عن العباد فلا يتشدد في المعاملات ، وأن ينهج نهج ربه في التماس العذر للمضطر وغير القادر ، وأن يتحرىٰ أسباب ذلك لكي ييسر علىٰ الناس القيام بما هو مطلوب منهم في إعمار الأرض .

وعَفْوُ اللهِ عز وجَلَّ عن خَلْقِهِ أوسع من أن يكون بمعنىً واحد ، فعفوه أوسع ، فالعفو بمعنىٰ أعْفاهُ من الأمْرِ بَرَّأَهُ [2] ، وتبرئة العفوّ لعبده خارج كل براءة ما دونه سبحانه ، فهو الذي يعفو عن ذنب العبد ويبرئه من ذنبه بالمطلق . وفي مقابل ذلك العفاة من غير ٱلله كثيراً ما يمنون علىٰ الناس بعفوهم ، ولهـٰذا فالعفو بالمطلق هو صفة ٱلله والعفو بالإضافة هو من صفة الخليفة الذي يعفو فقط في دائرة النسبية ، وٱلله يعفو عن كل محسن متىٰ ما أحسن بما أن الفرصة أمامه متاحة للاستغفار والتوبة ،قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [3] ، ثم يبدل العفوّ ذنوب عباده حسنات : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا

(1) الأعراف ، 156 .
(2) معجم العين ، ج 1 ، ص 120 .
(3) الأحقاف ، 16 .

فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) ، فهل تجد غير ٱلله العفوّ يفعل مثل ذلك ؟ ومن البراءة المطلقة أن يتبع العفو بجائزة عظيمة هي الجنة : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (2) ، فمن ذا من غير ٱلله يكافئ المذنب ، وإن عاد عن سالف ذنوبه ، هٰذا مما لا يقدر علىٰ القيام به أحد وذلك للنقص الحاصل في خلق الإنسان مقابل الكمال التام الذي يتصف به صاحب العفو المطلق سبحانه وتعالىٰ ، وهٰذا مما يجب علىٰ الخليفة الانتباه إليه ، إذ يجب عليه الحرص علىٰ امتثال أنموذج العفو الذي يقدمه العفوّ سبحانه فيقتدي به ويسير علىٰ نهجه لما في ذلك من تيسير مهمته في إعمار الأرض .

والعفوّ هو الذي يهب العَفْوَ وهو المعروف (3) ، ودلالات المعروف واسعة ، فكل نعم ٱلله الظاهرة علىٰ العبد هي من معروفه ، فهو الذي أنعم علينا في بطون أمهاتنا ، فتولانا بمعروفه بالرعاية والحفظ وتكامل الخلق ، ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (4) ، وهو الذي جعل لنا السمع والبصر والأفئدة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (5) ، وهو من بعد ذلك يتولىٰ رزقنا ،

(1) الفرقان ، 70 .
(2) آل عمران ، 135 ـ 136 .
(3) معجم العين ، ج 1 ، ص 140 .
(4) الزمر ، 6 .
(5) النحل ، 78 .

يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ (1) ، وهو الذي يغفر لنا خطايانا ويؤجل حسابنا إلىٰ يوم الوقت المعلوم عنده سبحانه ، فيهيئ لنا أسباب العودة والاستغفار والتراجع وهي موجبات العفو المؤدي إلىٰ النجاح والفلاح والحصول علىٰ الأجر والثواب لاسيما الأعظم منه فيدخلنا برحمته ومعرفته الجنة ، يقول العفو جل من قائل : ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (2) .

وعلىٰ الخليفة أن يفقه أن من واجباته أن يعامل العباد بالمعروف ، وأن يهبهم معروفاً ، ويخاطبهم معروفاً من القول ، ويأمرهم بالمعروف ويتم الأمر بنهيهم عن المنكر مصداقاً لقول العفو تعالىٰ : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (3) .

العَفْو في اللغة أيضاً يأتي بمعنىٰ الفضل يقال عَفا فلان لفلان بماله إذا أَفضَلَ له وعفَا له عَمَّا له عليه إذا تَركه (4) ، ويؤكد هـٰذا المعنىٰ ما جاء في قول العفوّ سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (5) ، وليس العَفْو في قوله : فمن عُفِيَ له من أَخيه عَفْواً من وليِّ الدَّم ؛ ولـٰكنه عفوٌ من ٱلله عز وجل ، وذلك أَنَّ سائرَ الأُمَم قبلَ هـٰذه الأُمَّة لم يكن لهم أَخذُ الدِّية إذا قُتِلَ قتيل ، فجعَله ٱلله لهـٰذه الأُمة عَفْواً منه وفَضْلاً مع اختيار وَليِّ الدمِ ذلك في

(1) فاطر ، 3 .
(2) نوح ، 4 .
(3) آل عمران ، 104 .
(4) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .
(5) البقرة ، 178 .

العمْد وهو قوله عز وجل فمن عُفِيَ له من أَخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف أَي مَن عَفا ٱلله جَلَّ اسمه بالدّية حين أَباحَ له أَخْذَها بعدما كانت مَحْظُورةً علىٰ سائر الأُمم مع اختياره إِيَّاها علىٰ الدَّمِ فعليه اتباع بالمعروف أَي مطالبَة للدِّية بمعرُوف وعلىٰ القاتل أَداءُ الديَةِ إِليه بإِحْسانٍ ثم بَيَّنَ ذلك فقال ذلك تخفيفٌ من ربكم لكم يا أُمَّة محمدٍ وفَضْل جعله ٱلله لأَوْلِياءِ الدم منكم ورحمةٌ خصَّكم بها فمن اعْتَدَىٰ أَي فمن سَفَك دَمَ قاتل وليِّه بعدَ قبولِه الدِّيَة فله عذاب أَليم والمعنىٰ الواضح في قوله عز وجل فمن عُفِيَ له من أَخيه شيء أي من أُحِلَّ لَه أَخذُ الدِّية بدلَ أَخيه المَقتول عفْواً من ٱلله وفَضْلاً مع اختياره فلْيطالِبْ بالمَعْروف » [1] ، كذلك ورد العفو بمعنىٰ الفضل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [2] . فإِن العَفْوَ هنا معناهُ الإِفْضالُ بإِعْطاء ما لا يَجبُ عليه ، أَو تركُ المرأَة ما يَجبُ لها يقال عَفَوْتُ لِفلان بمالي إِذا أَفْضَلْت له فأَعْطَيْته وعَفَوْت له عمَّا لي عليه إِذا تركْتَه له ، وقوله : إِلاَّ أَن يَعْفُونَ فِعْلٌ لجَماعَةِ النِّساءِ يطلِّقُهُنَّ أَزْواجُهُنَّ قبل أَن يَمَسُّوهُنَّ مع تسمية الأَزْواج لهنَّ مُهورَهُنَّ فيَعْفُون لأَزْواجِهِنَّ بما وَجَب لهن من نِصفِ المهْرِ ويَتْرُكْنَه لَهُم أَو يَعْفُوَ الذي بيدِه عُقْدةُ النكاحِ وهو الزوج بأَن يُتَمِّمَ لها المَهْر كله ، وإِنما وَجَبَ لها نصْفُه وكلُّ واحد من الزَّوْجين عافٍ أَي مُفْضِلٌ أَما إِفْضالُ المرأَةِ فأَن تتركَ للزوج المُطَلِّق ما وجَبَ لها عليه من نِصف المَهْر وأَما إِفْضاله فأَنْ يُتِمَّ لها المَهْرَ كَامِلاً لأن الواجِبَ عليه نصْفُه فيُفْضِلُ مُتبَرِّعاً بالكلِّ [3] .

فإِذا تفضل الخليفة علىٰ العباد بقول أو فعل وهو كثير لكسب قلوبهم

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .
(2) البقرة ، 237 .
(3) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .

كما يقول الشاعر :

أحسن إلىٰ الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وبهٰذا يمكن للخليفة أن يكسب طاعة الناس بالتفضل عليهم مما يسهل عليه القيام بأمر الخلافة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وٱلله عفو يحب العفو ويصفَحُ عن الذنوبِ ويستر العيوب ، يعفو عن المُسيء كَرَمًا وإحسانًا ، ويفتح واسع رحمته فضلاً وإنعاماً حتىٰ يزول اليأس من القلوب وترجو مقلب القلوب . ففضل العفو يمثل أيما تمثيل في ذلك الأمل الذي يمنحه للمذنب ، فهو الذي يعفو عن المذنبين مهما كانت أنواع ذنوبهم كما ينص قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، بل يصل هٰذا الأمل إلىٰ المسرف وهو الذي تخطىٰ درجة المذنب بعديد الذنوب وكبيرها ، فقال العفو سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، فمعنىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ أي : بالتوبة والإنابة ، الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعاً ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهي للاستقبال ، وأن ٱلله تعالىٰ يخرج من النار من قال لا إلٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله ، وعلىٰ هٰذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً ، إما قبل الدخول في نار جهنم ، وإما بعد الدخول فيها ، كما تدل الآية الكريمة (3) .

العفو علىٰ مستوىٰ الخليفة تنازل عن حق ، دون مطالبة لاحقة ، مع

(1) آل عمران ، 135 .

(2) الزمر ، 53 .

(3) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 272 .

تسامح إرادي دون إكراه ، ويترتب علىٰ العفو طمأنة النفس ورضاها مع انتظار الزيادة في موازين الحسنات ، التي يجازي ٱلله عليها عباده الصالحين الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم الجنة .

وكل الطيب الخالص من رزق البشر هو من عطاء العفوّ له الحمد علىٰ نعمه الطيبة الصافية ، فعلىٰ صعيد النعم المادية يأتي الماء الذي خُلِقَ منه كل حي ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، وهو عطاء صاف خالص من ٱلله العفو ، بل تكاد تجمع الدراسات علىٰ الدرجة العالية لصفاء مياه الأمطار التي هي من خالص عمل ٱلله وخاصه ، فليس لبشر وإن عظم شأنه علماً أو عملاً القدرة علىٰ الإتيان بمطر مثيل للمطر الذي ينزله العفوّ القادر سبحانه ، إذ ليس بإمكان أحد أن يأتي بالمطر متىٰ شاء بينما العفوّ القادر يأتي به أنىٰ شاء ، أينما يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) ، وهو الذي ينزل المطر بقدر محدد وعلىٰ قدر يفيد الناس لأن المطر إذا زاد عن حدٍ يعلمه ٱلله يصبح عذاباً للممطرين وفي ذلك يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (3) ، والواضح في الآية تحديد القدر الذي يحيي الأرض فتنبت عشباً لتكون فيها حياة بعد الموت ، فإذا زاد هـٰذا القدر أو نقص فإن النتيجة تكون غير تلك ، وفي قصص الأولين ذكرىٰ وعبرة تدلل علىٰ قدرة العفو ورحمته في تحديد كمية المطر الذي يقصد به الرحمة وليس العذاب ، كما حصل مع قوم نوح الذين أمطروا بحساب العذاب فكانوا من المغرقين ، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ

(1) الأنبياء ، 30 .
(2) الروم ، 24 .
(3) الزخرف ، 11 .

وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (1) ، ويطرح كثير من الماديين وعلماء أجروا حساباتهم خارج ساحة القدرة الألوهية قضية شحة المياه ، وقدروا تواريخ محددة لنضوبه ، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (2) ، متناسين أن الماء الذي تقوم عليه الحياة بيد العفوّ القادر وحده ، وحين يشاء هو وحده وفي الساعة التي قدر له أن ينضب فيها فسيكون أمره محتوماً ، وبخلاف هـٰذه الإرادة لن يكون هناك شحة ما دام الناس يرجون رحمة ٱلله ويعملون بموجباتها ، ألا ترىٰ أيها المعرض أن الفيضانات تغزو العالم كل يوم من كثرة الأمطار ، ثم هل سأل سائل كم نهر في العالم جف ونضبت مياهه كليةً ؟ مقابل الأنهار الكثيرة التي لازالت تجري منذ أن قدر لها خالقها أن تكون وإلىٰ اليوم تجري بأمره ، وهو بعد ذلك القادر علىٰ حفظ موارد المياه لهـٰذه الأنهار وغيرها ، فهو القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (3) .

ومن طيبات العفوّ المادية الكثيرة والعديدة ثمار الشجر ، ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (4) ، ولحم الأسماك علىٰ سبيل المثال لا الحصر ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (5) ، ومن طيباته المخصوصة لعباده لذة وشفاء العسل ، فهو من

---

(1) هود ، 43 .
(2) المدثر ، 18 ـ 20 .
(3) الزمر ، 21 .
(4) الأنعام ، 141 .
(5) النحل ، 14 .

طيبات ما رزق العفوّ سبحانه لعباده : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ، يقال : وحىٰ ، وأوحىٰ ، وهو الإلهام ، والمراد من الإلهام أنه تعالىٰ قرر في أنفسها هـٰذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية ، لا يزيد بعضها علىٰ بعض بمجرد طباعها ، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطرة والفرجار .

والثاني : أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوىٰ المسدسات فإنه يبقىٰ بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة ، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقىٰ فيما بينها فرج ضائعة ، فهداية ذلك الحيوان الضعيف إلىٰ هـٰذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ ، المراد منه أنه تعالىٰ خلق فيها غرائز وطبائع توجب هـٰذه الأحوال ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي : أن ٱلله تعالىٰ ألهم هـٰذا النحل أن تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتتغذىٰ بها ، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرىٰ شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت بها إلىٰ بيوتها ووضعتها هناك ، لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها ، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ المعنىٰ : ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في

---

(1) النحل ، 68 ـ 69 .

عمل العسل ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ أي : مخازن تصنيع العسل التي خلقها ٱلله من طبيعتها ، ثم قال تعالىٰ : ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ والمعنىٰ : أن منه أحمر وأبيض وأصفر . وقوله : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ، إنه تعالىٰ لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال ، بل لما كان شفاء للبعض من بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء . ثم أنه تعالىٰ ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ واعلم أن تقرير هـٰذه الآية من وجوه :

الأول : اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها .

والثاني : اهتداؤها إلىٰ جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق .

والثالث : خلق ٱلله تعالىٰ الأجزاء النافعة في الهواء ، ثم إلقاؤها علىٰ أطراف الأشجار والأوراق ، ثم إلهام النحل إلىٰ جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة علىٰ أن إلـٰه العالم بنىٰ ترتيبه علىٰ رعاية الحكمة والمصلحة (1) ، وهـٰكذا فإن العسل من خالص عطاء العفو لعباده .

أما الطيبات الروحية فيأتي القرآن علىٰ رأسها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (2) ، بطبيعة الحال إن القرآن مكمن الحُجّة والرحمة وهاتان الآيتان (الحجة والرحمة) هما في جميع آيات القرآن الكريم فمن تمكَّن من تدبره تمكَّن من استنباط واستقراء كل ما من شأنه أن يشفي مريضاً ، ولهـٰذا قال : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والمؤمن هو الواثق من قول ٱلله تعالىٰ ، وبوثوقه تطمئن نفسه بالقرآن كلمة ومعنىٰ وآية ،

---

(1) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 426 .
(2) الإسراء ، 82 .

أما أولئك الكفرة والمشركون فلا يتمكنون من تدبر القرآن ومن لم يتمكن من ذلك لا يدرك إعجازه الذي به تطمئن الأنفس وتثق في قول ٱلله عز وجل .

ويختص العفو بعض عباده بالنبوغ ، فيجعلهم أعلىٰ درجة في الفهم والعمل بالأشياء والتعاطي بها من أقرانهم ، كيوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) ، والذي نبغ في علوم كثيرة كتفسير الأحلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ (2) .

ويوحي العفو بمضمن الإخفاء الذي يصل إلىٰ درجة عالية من الضبابية ، ولذلك شأن محدود ووقت محدود ذكره العفو سبحانه في محكم آياته فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (3) .

للعفو أنواع فيجب علىٰ الخليفة التمييز بين نوعين من العفو :

الأول : العفو الذي يحدث خيراً ويقصد إليه وهو المقصود في دعوة العفوّ لعباده للأخذ به ، وقد ذكره العفوّ في آيات العفو وهي : قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (4) ، وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (5) . ولهـٰذا فمن لا يعفو ولا يصلح ، لا أجر له عند ٱلله ، ولأن

(1) يوسف ، 22 .
(2) يوسف ، 36 ـ 37 .
(3) المائدة ، 101 .
(4) البقرة ، 237 .
(5) الشورىٰ ، 40 .

الأمر كذلك فالعفو والإصلاح هما مصدرا رحمة فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عنهما . وعليه كان الاستخلاف في أساسه لأجل الإصلاح في الأرض .

والثاني : أن يصير العفو سبباً لمزيد جُرأة الجاني وقوة غيظه وغضبه وهـٰذه الآية محمولة علىٰ القسم الثاني ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [(1)] ، والتمييز واجب لكي لا يكون العفو عن المُصِرِّ كالإغراء له ولغيره بارتكاب الجديد من الظلم بحق العباد ، فلو أن رجلاً قتل رجلاً وهو مصر علىٰ فعلته فلا يجوز العفو عنه لأن في ذلك تسفيهاً لمعنىٰ العفو وتحريضاً لآخرين لسهولة القيام بمثل هـٰذه الأعمال ، ويروىٰ أن زينب أقبلت علىٰ عائشة فشتمتها فنهاها النبي ﷺ عنها فلم تنته فقال النبي ﷺ : دونك فانتصري [(2)] ، كما أنه تعالىٰ لم يرغّب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط ، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة [(3)] .

فعن أي الذنوب يعفو العفوّ ؟ العفو رحيم يعفو عن كل ذنوب عباده ، وهو قادر علىٰ أن يعفو عن كبيرها وصغيرها ، فلا يوجد ذنب لا يغفره ٱلله إذا تراجع العبد عنه ، وأبدل العمل به إلىٰ عمل آخر صالح ، فهو الذي يتجاوز عن الكبائر بعفوه ، كفعله عز وجل مع أصحاب موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [(4)] ، فالشرك بٱلله هو من كبائر الذنوب ، كذلك التولي يوم الزحف وهو من الكبائر التي أشار ٱلله سبحانه وتعالىٰ إليها منبهاً وداعياً إلىٰ عدم الوقوع في مثل هـٰذه الكبيرة ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا

---

(1) الشورىٰ ، 39 .
(2) السنن الكبرىٰ ، ج 5 ، ص 290 .
(3) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 442 .
(4) البقرة ، 51 ـ 52 .

كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) ، والآية تدل علىٰ أن العفوّ سبحانه وتعالىٰ تجاوز عن الذين تولوا يوم التقىٰ الجمعان في يوم أُحد ، فلم يعاقبهم بتوليهم عن عدوّهم وإنما غفر لهم بعد أن عادوا واستغفروا ، وتظهر في الآية الكريمة إشارة مهمة ، هي أن المعاصي لا تنسب إلىٰ ٱلله ، فإنه تعالىٰ نسبها في هـٰذه الآية إلىٰ الشيطان وهو كقوله تعالىٰ عن موسىٰ : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ ﴾ (3) .

ويشير العفوّ سبحانه إلىٰ مسألة التولي في الزحف تارة أخرىٰ تنبيهاً وتحذيراً منه للخليفة بعظم هـٰذا الذنب ، مما جعل من الواجب علىٰ الخليفة أن ينبه الرعية ممن حوله إلىٰ ذلك مذكراً بوصف هـٰذا الذنب بين الذنوب فهو من الكبائر الواجبة الاجتناب ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) ، والعفو هنا جاء تفضلاً من العفوّ سبحانه ولولا فضله لما كان العفوّ وإن حصل الندم من المتولين والمخالفين لأمر ٱلله ورسوله .

فالعفو يعفو عن كل الذنوب لأنه يسعها كلها فهو الواسع ، وفي هـٰذا الارتباط بين العفو والواسع آية لذوي الألباب ، فالعفو لم يكن عفواً لو لم يكن واسعاً ، والواسع لم يكن واسعاً لو لم يكن عفواً ، فالعفو المطلق يشمل كل الذنوب وكل العباد وهـٰذه هي السعة التي يتصف بها الواسع ، والآيات توضح

(1) آل عمران ، 155 .
(2) القصص ، 15 .
(3) يوسف ، 100 .
(4) آل عمران ، 152 .

ذلك توضيحاً دقيقاً ، يقول سبحانه : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، والآية تبدو واضحة في تميز الضيق الذي يعد به الشيطان وأتباعه ممثلاً بالفقر وهو ضيق العيش ، والفحشاء وهي ضيق الصدور ، وبين السعة التي يعد بها العفو الواسع من مغفرة وجاءت في الآية بصيغة النكرة دلالة علىٰ سعة هـٰذه المغفرة ، والمعلوم أن الفرق الأساسي بين النكرة والمعرفة هو أن النكرة تفيد العموم والمعرفة تفيد الخصوص ، فجاء ٱلله سبحانه بلفظة مغفرة نكرة لتحمل دلالة السعة وتعبر عنها أحسن تعبير ، كذلك لفظة فضلاً هي الأخرىٰ نكرة وجاءت لتناسب جو النص القرآني الدالّ علىٰ سعة العفو سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ، ولو رجعت بالبصر إلىٰ ألفاظ الضيق الوارد في الآية لوجدتها جاءت بصيغة المعرفة ، فهي محدودة الدلالة وتناسب الضيق الذي يعد به الشيطان وأتباعه .

وهـٰذه السعة في المغفرة والعفو عن العباد مصدرها الأساس علمه سبحانه وتعالىٰ بخلقه فهو العليم الذي يعرف عن عبده ما توسوس به نفسه وما يخفي صدره ، وهـٰذه المعرفة أفضت إلىٰ العلم بالضعف الذي يتملك الإنسان أما القوي المطلق سبحانه فكان العفو والمغفرة الواسعة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (2) .

ومن عفو العفو أنه جعل العَفْوَ سنة بين عباده ، فوعدهم أن يعفوَ عنهم ليحببه إلىٰ نفوسهم فدعا العبادَ إلىٰ الأخذ بالعفو ، ورغبهم فيه ، ومناهم بالثواب عليه ، فقال العفو الكريم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، أي : « بمقابلة عفوكم ، وصفحكم ،

(1) البقرة ، 268 .
(2) النجم ، 32 .
(3) النور ، 22 .

وإحسانكم إلىٰ من أساء إليكم ، وٱلله غَفُورٌ رحيمٌ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته سبحانه علىٰ المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها ، وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته ، كأنه قيل : ألا تحبون أن يغفر ٱلله لكم فهـٰذا من موجباته ، وصح أن : أبا بكر لما سمع الآية قال : « بلىٰ وٱلله . يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا! » [1] .

فعلق الغفران بالعفو والصفح ، وعنه عليه الصلاة والسلام : « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه محقاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد علىٰ الحوض » [2] ، وعنه عليه الصلاة والسلام : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ ٱللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ ٱلله » [3] ، وعنه أيضاً : « ينادي منادٍ يوم القيامة : لا يقوم اليوم أحد إلا أحد له عند ٱلله يد ، فيقول الخلائق : سبحانك ، بل لك اليد ، فيقول ذلك مراراً ، فيقول : بلىٰ من عفا في الدنيا بعد قدرة » [4] ، وهـٰذه الأحاديث دالة دلالة قاطعة علىٰ منهج العفو الذي يجب علىٰ العبد المؤمن انتهاجه ، وكذلك الخليفة دوره يتمثل بالدرجة الأساس في التماس منهج العفو وتتبع خطواته .

والعفوّ يرغب عباده في العفو ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [5] . أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون بأتم وجه ، وقد يقال : هـٰذا تأسيس لا تأكيد فتذكر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 13 ، ص 383 .
(2) المستدرك علىٰ الصحيحين ، ج 17 ، ص 98 .
(3) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 21 .
(4) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 17 ، ص 394 .
(5) آل عمران ، 155 .

للذنوب صغائرها وكبائرها ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ، وقد جاءت هـٰذه الجملة كالتعليل للعفو عن هـٰؤلاء المتولين وكانوا أكثر القوم ، ذُكر أنه لم يبق مع النبي ﷺ يوم أحد إلا القلة القليلة العدد والعظيمة الشأن .

والعفو سبحانه يريد لعباده أن يتمثلوا صفة العفو منه ، فيذكرهم بصفته وهي العفو عنهم مع كبر الذنب فيقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (1) ، دين الرسالة الخاتمة ميسر لا معسر ، يُعلِّم الخطأ ويُذكِّر بتلافيه ، وينهىٰ عن تكراره أو التمسك به ، وبهـٰذا فإن المعنىٰ يدل علىٰ العفو المتكرر من العفو العظيم ، وهناك ارتباط وثيق بين العفو والمغفرة ، فالعفو عن الخطأ بأسباب الغفلة أو عدم الفطنة ، أو بأسباب ظرفية أوجبت ذلك الأمر المنهي عنه إذا ارتبط بعلاقة فعليه مع فعل آخر كارتباط السكر مع الصلاة ، أو ارتباط الاجتناب بالاغتسال ، وارتباط ملامسة النساء بالطهارة ، وغيرها كثير ، هـٰذه المنهيات لا يستوجب ازدواجها كما قلنا حتىٰ لا يرتبط الفعل الصواب بالفعل الخطأ أو المحرم أو المنهي عنه . ولهـٰذا ذكر ٱلله في الآيات الكريمة السابقة ، الفعل الصواب يصحح الفعل الخطأ حتىٰ يحقق العفو والمغفرة ، ويعفو عن كثير مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (2) . وعليه فالمغفرة للذنب والعفو للخطأ .

---

(1) النساء ، 43 .

(2) المائدة ، 15 ـ 16 .

وجاء في محكم آياته دعوته للعفو إذ يقول : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، فالعفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح ترك التثريب والتأنيب وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح .

كما رغبنا المولىٰ عز وجل بالعفو فقال : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (3) ، وأثابنا علىٰ العفو ، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (4) .

وذكر لنا العفو آيات للعفو لنتمثل معانيها ، ونعي مضامينها ، انظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (5) ، ألا تشعر بأن ٱلله يرغبك في العفو أكثر مما يرغبك بالرد علىٰ من أساء إليك ؟ وكيف لا وهو يمنيك بالأجر الذي أنت في أمس الحاجة إليه إن كنت تعي ما هو أجر العفوّ لمن يجيب دعوته هـٰذه وكل دعواته الأخرىٰ ، متيقناً منه لأن العفو أخبرك فقال فمن عفا عمن أساء إليه ، فغفر له إساءته ، ولم يعاقبه بها ، وهو علىٰ عقوبته قادر ابتغاء وجه ٱلله ، فأجر عفوه ذلك علىٰ ٱلله ، وٱلله مثيبه عليه ثوابه .

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهي الجزاء سيئة قيل للمشاكلة ، وقيل تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء من

---

(1) الشورىٰ ، 43 .
(2) البقرة ، 109 .
(3) البقرة ، 237 .
(4) الشورىٰ ، 40 .
(5) الشورىٰ ، 40 .

تنزل به ، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ وإشارة إلىٰ أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ أي : عن المسيء إليه ، وَأَصْلَحَ ما بينه وبين من يعاديه بالعفو عما صدر منه فَأَجْرُهُ عَلَىٰ ٱلله فيجزيه جل وعلا أعظم الجزاء ، إنه تصريح بما لوح إليه ذلك من الحث وتنبيه علىٰ أنه وإن كان سلوكاً لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك إصلاح ذات البين المحمود حالاً ومالاً ليكون زيادة تحريض عليه ، وإبهام الأجر وجعله حقاً علىٰ العظيم الكريم جل شأنه الدال علىٰ عِظَمِهِ زيادةً في الترغيب ، وجيء بالفاء ليفرعه عن السابق أي إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون ، فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق المأمون العثار المحمود في الدارين .

وتغليب العفو واضح الدلالة في القرآن الكريم ، كما في آيات العقاب ، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (1) ، فشرع العدل وهو القصاص ، وندب إلىٰ الفضل وهو العفو ، وكما في آيات القصاص : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ (2) ، كذا في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (3) ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية علىٰ وجه التلافي لما فرط من المخلين بما تقدم من قواعد الدين التي يبنىٰ عليها أمر المعاش والمعاد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ أي : فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يضر فيه قدرة الولي علىٰ العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلىٰ الحكام أو القاتلين ، وأصل الكتابة الخط ثم كني به عن الإلزام ، وكلمة علىٰ صريحة في ذلك ﴿ ٱلْقِصَاصُ فِى

(1) النحل ، 126 .

(2) المائدة ، 45 .

(3) البقرة ، 178 .

ﭐلْقَتْلَى ﴾ أي : بسببهم علىٰ حد ، وقيل : عدىٰ القصاص بفي لتضمنه معنىٰ المساواة إذ معناه أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل ، ومنه سمي المقص مقصاً لتعادل جانبيه ، ﴿ ﭐلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ جملة مبينة لما قبلها أي الحر يقتص بالحر ، روي أنه كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول علىٰ الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منهم بالعبد والذكر بالأنثىٰ فلما جاء الإسلام تحاكموا إلىٰ رسول ٱلله ﷺ فنزلت آية القصاص فأمرهم أن يتباوؤا ، فالآية كما تدل علىٰ ألا يقتل العبد بالحر والأنثىٰ بالذكر لأن مفهوم المخالفة إنما يعتبر إذا لم يعلم نفيه بمفهوم الموافقة وقد علم من قتل العبد بالعبد وقتل الأنثىٰ بالأنثىٰ أنه يقتل العبد بالحر والأنثىٰ بالذكر بطريق الأولىٰ كذلك لا تدل علىٰ ألا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثىٰ لأن مفهوم المخالفة كما هو مشروط بذلك الشرط مشروط بأن لا يكون للتخصيص فائدة أخرىٰ ، والحديث بين الفائدة وهو المنع من التعدي وإثبات المساواة بين حر وحر وعبد وعبد ، ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ أي : ما يسمىٰ شيئاً من العفو والتجاوز ولو أقل قليل ، علىٰ إشعار بأن بعض العفو كأن يعفي عن بعض الدم أو يعفو عنه بعض الورثة كالعفو التام في إسقاط القصاص لأنه لا يتجزأ ، والمراد بالأخ وليّ الدم سماه أخاً استعطافاً بتذكير إخوة البشرية والدين ، وسماه أخا القاتل للإشارة إلىٰ أن أخوة الإسلام بينهما لا تنقطع بالقتل ، وعُفِيَ : تعدىٰ إلىٰ الجاني وإلىٰ الجناية بعن (1) .

مما سبق يجب علىٰ الخليفة أن يفهم معاني العفو وأن يعمل بالعفو وبعدم المؤاخذة للسهو الخطأ مستحضراً في كل موقف قول العفوّ جل وعلا : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 2 ، ص 109ـ119 .

مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] ، فالعفو من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ ، وفي ذلك علينا بتناول وتدارس بعض من المقاربات اللغوية .

مقاربات لغوية :

1 ـ ترد في آيات العفو بعض الألفاظ من اشتقاقات العفة وهي علىٰ وجه التحدي : (العَفْو والعافية والمُعافاة) ، وقد فرق العلماء بين هٰذه الاشتقاقات الثلاث علىٰ النحو الآتي : « فأَما العَفْوُ فهو ما وصفْناه من مَحْو ٱلله تعالىٰ ذُنوبَ عبده عنه ، وأَما العافية فهو أَن يُعافيَهُ ٱلله تعالىٰ من سُقْمٍ أَو بَلِيَّةٍ وهي الصِّحَّةُ ضدُّ المَرَض يقال عافاهُ ٱلله وأَعْفاه أَي وهَب له العافية من العِلَل والبَلايا ، وأَما المُعافاةُ فأَنْ يُعافِيَكَ ٱلله من الناس ويُعافِيَهم منكَ أَي يُغْنيك عنهم ويغنيهم عنك ويصرف أَذاهم عنك وأَذاك عنهم ، وقيل هي مُفاعَلَة من العفوِ وهو أَن يَعْفُوَ عن الناس ويَعْفُون هُمْ عنه ، وقيل العافية دِفاعُ ٱلله تعالىٰ عن العبد يقال عافاه ٱللهُ عافيةً وهو اسم يوضع موضِع المصدر الحقيقي وهو المُعافاةُ ، قال ابن سيده وأَعْفاهُ ٱلله وعافاهُ مُعافاةً وعافِيَةً مصدرٌ كالعاقِبة والخاتِمة أَصَحَّه وأَبْرأَه » [2] .

2 ـ يشار إلىٰ العفو تارة والىٰ الصفح تارة أخرىٰ في الاستخدام الدال علىٰ المسامحة أو إسقاط العقاب ، لٰكنهما بمعنيين مختلفين ، فالعفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح : ترك لومه [3] ، ويدل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ

---

(1) البقرة ، 286 .

(2) لسان العرب ، ج 15 ، ص 72 .

(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 362 .

يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ (1) .

3 ـ للعفو متممات تكشف عنها آيات العزيز الحكيم يذكرنا بها لنعي وندرك سعة العفو ونعرف حدوده ومقارباته ، يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ، فطلبوا العفو وهو الصفح عن الذنب وإسقاط العقاب ، ثم ستره عليهم صوناً لهم من عذاب التخجيل ، لأن العفو عن الشيء لا يقتضي ستره فيقال : عفا عنه إذا وقفه علىٰ الذنب ثم أسقط عنه عقوبة ذلك الذنب ، فسألوا الإسقاط للعقوبة أولاً لأنه الأهم ، إذ فيه التعذيب الجسماني والنعيم الروحاني بتجلي البارئ تعالىٰ لهم ، وقال الراغب : العفو إزالة الذنب بترك عقوبته ، والغفران ستر الذنب وإظهار الإحسان بدله ، فكأنه جمع بين تغطية ذنبه ، وكشف الإحسان الذي غطىٰ به . والرحمة إفاضة الإحسان إليه ، فالثاني أبلغ من الأول ، والثالث أبلغ من الثاني ، وهٰكذا وراء كل ذنب مغفرة ووراء كل مغفرة رحمة وفضل ٱلله أكبر وأعظم (3) .

وعليه أقول علىٰ الترتيب :

ـ عَفْوٌ من عَفُوٍّ كريم يبدل مكان السيئة الحسنة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (4) . إنه العفو الغفور مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ

(1) البقرة ، 109 .
(2) البقرة ، 286 .
(3) تفسير البحر المحيط ، ج 3 ، ص 130 .
(4) الأعراف ، 95 .

ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

ـ مغفرة من غفور رحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

ـ رحمة من الرحمـٰن الرحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) .

فهناك فرق بين الألفاظ الثلاثة الواردة في الآية ، وهي : (العفو والمغفرة والرحمة) ، فالعفو أن يسقط عنه العقاب ، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صوناً له من عذاب التخجيل والفضيحة ، كأن العبد يقول : أطلب منك العفو وإذا عفوت عني فاستره علي .

بناء علىٰ ما تقدم : العفو قيمة حميدة وفضيلة لا تتم إلا في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، فمن عمل عليها وعمل بها نال المغفرة والرحمة معاً ، ومن لم يعمل عليها والفرصة أمامه فسيندم يوم لا ينفعه الندم ، ولهـٰذا فالخليفة هو الذي لا يضيع فرصة لإحقاق الحق وفعله بما يعمل من عفو وغفران وما يقدمه من مرحمة لمن هم في حاجة إليها من بني جنسه ، ولله وجوه كثيرة تستوعب أقوال

(1) النساء ، 99 ـ 100 .
(2) البقرة ، 192 .
(3) البقرة ، 198 ـ 199 .
(4) البقرة ، 163 .

الخليفة وأفعاله وأعماله وسلوكياته الحسان التي بها ينال العفو والمغفرة والرحمة من الرحمـٰن .

اللهُمَّ يا العفو اعفُ عن غفلتنا بالرحمة ولا تجعلنا من الضالين ، واعفُ عن كل ما يشبع حاجاتنا في رضاك واجعلنا من المتصدقين المتطهرين والمتزكين ، ولا تجعل في رزقنا رِباً ولا تجعل في أبنائنا شقاء ولا ضعفاً ولا فاقةً ! اللهُمَّ اجعلهم علىٰ طاعتك أغنياء أقوياء علىٰ سنة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام يحقُّون الحق ويزهقون الباطل حتىٰ ترضىٰ ، يا من خلقت الأرض وجعلت فيها خليفة طائعاً لك وخلقت السمـٰوات العلا ! اللهُمَّ بعفوك ترحم وتغفر فارحمنا بطاعتك واغفر لنا خطايانا ولا تجعلنا من الغافلين . اللهُمَّ اعفُ عن أبصارنا وأسماعنا أن ترىٰ أو تسمع ما نهيت عنه ، واجعل قلوبنا مطمئنة بما أمرت به ، وعقولنا كافرة بما حرَّمت ونهيت !

✍ ✍ ✍

الرَّؤُوف جلّ جلاله

الرؤوف : من أسماء ٱلله الحسنىٰ وصفة من صفاته يوحي بالرأفة والرحمة والعناية ، ومن اسم ٱلله الرؤوف تؤخذ الرأفة ، وهي شدة الرحمة ، فالمراد من الرؤوف أنه سبحانه هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، ويتعهد خلفاءه في الأرض بعنايته وجوده وإحسانه وعفوه وغفرانه .

وفي لسان العرب الرأْفة الرحمة وقيل أَشد الرحمة ، يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [1] .

الرؤوف : « يدل علىٰ ذات ٱلله وعلىٰ صفة الرأفة بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن » [2] .

الرؤوف : « ذو الرأفة وهي شدة الرحمة » [3] .

الرؤوف : هو من يحس بحال من هو مهم لديه ، وهو الحريص علىٰ سلامته وأمنه وحفظه ، يعلم بحاله وما هو عليه ، ويعلم بما سيكون عليه ، ويعلم بما سيقدم عليه قبل إقدامه ، وهو الذي يعلم بما يجب بالمطلق ،

---

(1) الحديد ، 27 .

(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 23 ، ص 19 .

(3) فيض القدير ، ج 2 ، ص 618 .

ولٰكن المرءوف بحاله لا يعلم بذلك فينحرف ولم ينته ولا يتجنب ما يستوجب تجنبه فيقع في ما لم يكن مرضياً عليه ، ولهٰذا فهو في حاجة للرأفة به وبحاله حيث إيتائه القليل القليل من العلم وهو لم يخرج عن دائرة الممكن النسبي .

والرؤوف : هو الرحيمُ بعباده العَطُوفُ عليهم بأَلطافه ، والرأْفةُ أَخصُّ من الرحمةِ وأَرَقُّ (1) .

والرَّأْفَة أرقُّ من الرحمة ، والرأفة أبلغ من الرحمة ، ولهٰذا قال أبو عبيدة : إن في قوله تعالىٰ : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (2) ، تقديماً وتأخيراً أراد أن التوكيد يكون في الأبلغ في المعنىٰ فإذا تقدم الأبلغ في اللفظ كان المعنىٰ مؤخراً . حتىٰ قيل إن الرأفة أشد الرحمة ، وقيل : الرحمة أكثر من الرأفة ، والرأفة أقوىٰ منها في الكيفية ، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم (3) ، وصفة الرأفة ممكن أن يوصف بها غير ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فقد وردت في وصف الرسول الكريم محمد ﷺ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (4) .

و(الرؤوف) من أسماء ٱلله الحسنىٰ : الذي تردد في القرآن الكريم مرتبطاً بالرحمة في كل مواضعه ، وهٰذا يجعلنا نقف عند هٰذا الاقتران الثنائي بين الرأفة والرحمة في القرآن كله ، إذ وردت مادة (رأف) في القرآن الكريم كله ثلاث عشرة مرة ، عشر مرات منها في وصف ٱلله تعالىٰ ، مثل

---

(1) لسان العرب ، ج9 ، ص 112 .
(2) التوبة ، 117 .
(3) الفروق اللغوية ، ج1 ، ص 246 .
(4) التوبة ، 128 .

قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) ، ووردت مرة صفة للرسول محمد ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (2) ، ومرة وصفاً لأتباع سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ (3) ، وفي موضع آخر وردت مفردة أي بدون رحمة في قضية تتعلق بحد الزنا في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (4) ، وهـٰذا يقتضي التحليل في موضعه إن شاء ٱلله ، فلماذا لم يقل ٱلله تعالىٰ رأفة ورحمة ؟ وقال رأفة فقط ، أما ما يتعلق بتردد هـٰذا الاسم مع الذات الإلـٰهية ، فنلاحظ ابتدأ ارتباطه بالرحمة في ثمانية مواضع لم ينفصل فيها اسم الرؤوف عن صفة الرحمة المتعلقة بذات ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (5) ، مما يقتضي اتصالاً مفهومياً ودلالياً بين الرأفة والرحمة يلخصها ابن منظور بقوله : إن الرأفة

(1) البقرة ، 143 .
(2) التوبة ، 128 .
(3) الحديد ، 27 .
(4) النور ، 2 .
(5) الحج ، 65 .

هي أشد الرحمة ويضيف لها أبو هلال العسكري : أن الرحمة أكثر من الرأفة إلا أن الرأفة منها أقوىٰ من الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم ، هـٰذا التحليل اللغوي للفرق الدلالي بين الرأفة والرحمة من حيث التدرج في الدلالة من الأشد إلىٰ الأخف ومن الأخص إلىٰ الأعم ، إذ الرأفة أشد الرحمة ، والرحمة أكثر من الرأفة إلا أن الرأفة أخص منها ، وهـٰذا يوصلنا إلىٰ نتيجة أن ٱلله رءوف رحيم بكل صغيرة وكبيرة وبالذنب العظيم وبالذنب الصغير ، لا فرق عنده إذا أراد التوبة عن عباده ، ومن هـٰذا نفهم لماذا أتت هـٰذه الصيغة مع الذنب العظيم الذي ارتكبه المؤمنون بتخلفهم عن القتال مع رسول ٱلله ﷺ في غزوة تبوك ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (1) ، فهـٰؤلاء قد أحسوا أن الأرض قد انطبقت عليهم ولم يعد مجال للمغفرة حتىٰ أخص الناس لهم أزواجهم قد تخلفوا عنهم لعظم ذنبهم ، إلا أن ٱلله أرأف وأرحم بعباده من خلقه أجمعين ، ولهـٰذا تاب عليهم .

وقد ورد اسم ٱلله تعالىٰ (الرؤوف) مفرداً في موضعين اتصل بهما الاسم بالعبادة ، بقوله تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (3) ، والعبودية كما نعلم أعلىٰ مرتبة يصل الإنسان لها في تدرج الإيمان ، كما قال تعالىٰ عن رسوله الكريم محمد ﷺ : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ

(1) التوبة ، 118 .
(2) البقرة ، 207 .
(3) آل عمران ، 30 .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] ، والرأفة كما قلنا نهاية الرحمة أو أشد الرحمة ، ومن هنا نفهم اقتران العبودية التي هي أعلىٰ قيمة يصل إليها الإنسان في دائرة السالب مع الرأفة التي هي أعلىٰ صفة في دائرة الموجب تصل إليها رحمة ٱلله تبارك وتعالىٰ . والملحظ الآخر الذي يمكن تأشيره إلىٰ ورود اسم الجلالة (الرؤوف) في القرآن الكريم بلام التوكيد في خمسة مواضع من المواضع الثمانية التي ورد فيها الاسم مرتبطاً بالذات الإلـٰهية وبالتأكيد ، فإن ارتباط اللام الدالة علىٰ تأكيد الأمر وتحققه تعطي قوة إضافية لصفة الرأفة والرحمة التي يتصف بها ٱلله تعالىٰ ، ومن الملحظ أن اسم ٱلله تعالىٰ (الرؤوف) قد ورد صفة لغير ٱلله تعالىٰ في القرآن الكريم ، إذ ورد صفة للرسول ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] ، وورد صفة لأتباع سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [3] ، أما مجيئها بذات الرسول ﷺ فهـٰذا أمر طبيعي ، إذ أن الرسول ﷺ هو نفسه الرحمة المهداة ، مثلما قال تعالىٰ فيه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4] ، فالرسول هو الرحمة المهداة من ٱلله تعالىٰ بسلوكه وتخفيفه عن المؤمنين بأمر ٱلله تعالىٰ ، حيث يقول تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

(1) الإسراء ، 1 .
(2) التوبة ، 128 .
(3) الحديد ، 27 .
(4) الأنبياء ، 107 .

ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) ، وكما أن البشارة قد أتت به في الإنجيل والتوراة أن يأتي نبي يخفف عن أمته ويرحم به ، في قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (3) ، فهنا نحن أمام صورتين متضادتين ، أولهما مشهد للرأفة والرحمة يمثله الرسول محمد ﷺ وأمة الإسلام بما خفف عنهم من العبادات والتشريعات والتحليل والتحريم ، وثانيهما مشهد التشديد مع اليهود من بني إسرائيل لا تتعلق بعدم الرأفة بهم ، إنما لظلمهم أنفسهم ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۝١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (4) . فالرأفة موجودة مع بني إسرائيل ، إلا أن تعنتهم وجدلهم أوجب عليهم ذلك التشديد ، كما أوجب الإيمان واليقين في قلوب المسلمين الرأفة بهم من ٱلله تبارك وتعالىٰ .

أما مجيئها مع أتباع النبي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام فيبدو منطقياً من حيث أن رسالة النبي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كانت تخفيفاً من الشدة التي

---

(1) آل عمران ، 159 .
(2) المائدة ، 15 ـ 16 .
(3) الأعراف ، 157 .
(4) النساء ، 160 ـ 161 .

فرضت علىٰ بني إسرائيل من اليهود نتيجة لظلمهم وعصيانهم مثل ما قال فيهم تعالىٰ : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [1] ، فكان مجيء النبي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام رحمة ورأفة بالناس في حينها ، كما أن الذين اتبعوه اتصفوا بهـٰذه الصفة حتىٰ وصل بهم الأمر إلىٰ ابتداع الرهبانية رغبة منهم في التعمق في ٱلله تعالىٰ من غير أن يأمر ٱلله تعالىٰ بها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [2] .

وصفة الرؤوف من الصفات التي تدل علىٰ سعة رحمته ، التي تشمل كل الوجود بحكمة أرادها سبحانه وتعالىٰ إذ يقول : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] . إن رحمة ٱلله تبارك وتعالىٰ في الدنيا تعم الكل ، أما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ .

ويوضع اسم ٱلله الرؤوف في مجموعة دلالية واحدة تتكون من الرحمـٰن والرحيم والفتاح واللطيف والودود ، أما اتصال الرؤوف بهـٰذه الأسماء والصفات فيتحقق بالشكل الأتي :

الرحمـٰن : ومعنىٰ الرحمة في المخلوق رقة القلب ، ولـٰكن هـٰذا المعنىٰ

---

(1) النساء ، 160 ـ 161 .

(2) الحديد ، 27 .

(3) الأعراف ، 156 .

لا يليق بالخالق سبحانه ، فالمراد منها بالنسبة إليه أنها صفة تليق بجلاله سبحانه ولازمها الإنعام ، فمعنىٰ الرحمـٰن : المنعم بجلائل النعم علىٰ مستحقها وغير مستحقها ، والرحمة صفة لله تعالىٰ تليق بجلاله سبحانه ، يقول تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (1) ، وأما الرحيم فهو المنعم بدقائق النعم وصغائرها علىٰ مستحقيها وغير مستحقيها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) . والفتاح هو الذي يفتح خزائن رحمته للناس ، فيفتح لهم برحمته أبواب النصر ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (3) ، وهو ما فتح ٱلله علىٰ رسوله به إذ نصره علىٰ أعدائه ، كما فتح له أبواب الأرض . ويفتح لهم أبواب المعارف والعلوم النافعة ، كما يفتح لهم أبواب كل الخير ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (4) ، ويفتح لهم رحمته بالحكم بالحق ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ (5) . وكذلك اسم اللطيف أي خالق اللطف بعباده ، وهو الرفق ، فهو سبحانه يلطف بهم من حيث لا يشعرون ، ويرفق بهم فيما تجري به المقادير . قال ٱلله تعالىٰ

---

(1) الإسراء ، 110 .
(2) البقرة ، 163 .
(3) الفتح ، 1 ـ 4 .
(4) فاطر ، 2 .
(5) الأعراف ، 89 .

حكاية عن قول سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] . فضلاً عن ذلك اسم الودود المأخوذ من الود وهو الحب ، ومحبة ٱلله تبارك وتعالىٰ خاصة بصنف من عباده وهم المؤمنون الطائعون قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، والمراد من محبة ٱلله لعبده زيادة إنعامه عليه ، بجعله من أهل القربىٰ عنده . نتيجة لما ورد نجد أن اسم ٱلله تعالىٰ الرؤوف يتصل اتصالاً مباشراً مع هـٰذه الأسماء التي تشكل بمجموعها باباً لطيفاً يمكن أن نسميه باب الرأفة والرحمة ، فنجد أن الرأفة تتعلق بالحس والعاطفة الوجدانية التي بها يزداد الاعتبار والتقدير مع الحرص الشديد علىٰ من ترتبط الرأفة به ، فٱلله تعالىٰ لو لم يكن رءوفاً ما كان رحماناً ولو لم يكن رءوفاً لم يكن رحيماً ولو لم يكن رءوفاً لم يكن لطيفاً ، ولو لم يكن رءوفاً لم يكن فتّاحاً ، ولو لم يكن رءوفاً لم يكن ودوداً .

ومن الرأفة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [3] ، هـٰذه الآية تتحدث عن الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلباً لمرضاة ٱلله ورجاء لثوابه ، فمن رأفته ورحمته وفقهم لذلك ، وقد وعد بذلك فقال : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ

---

(1) يوسف ، 100 .
(2) المائدة ، 54 .
(3) البقرة ، 207 .

بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، وفي هـٰذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها ، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا ، وبذل ما به رغبوا .

والخليفة في جميع أطوار حياته بأشد الحاجة إلىٰ من يرحمه ويرأف به ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (2) ، والتخفيف هنا مرتبط بالرأفة ، إذ تسهيل ما أمر به ٱلله تبارك وتعالىٰ وما نهىٰ عنه ، ونتيجة لحصول المشقة في بعض الشرائع أباح تعالىٰ ما تقتضيه الحاجة كالميتة والدم ونحوهما للمضطر ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وكتزويج الأمة للحر بشروط حددها تبارك وتعالىٰ ، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل ، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه ، ضعف البنية ، وضعف الإرادة ، وضعف العزيمة ، وضعف الإيمان ، وضعف الصبر ، فناسب ذلك أن يخفف ٱلله عنه ، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته .

والخليفة لا يملك الرحمة الحقيقية به في دفع الضر عنه ، وجلب الخير له ، وإفاضة النعم عليه ظاهرها وباطنها ، جليلها ودقيقها ، ماديها ومعنويها .

وحظ الخليفة من هـٰذه الصفة أن يتخلق بشيء مما تدل عليه قدر الاستطاعة ، فيكون رحيماً بخلق ٱلله ، مؤيداً لأرباب الحق ، ناصراً لأولياء ٱلله لطيفاً في معاملاته لخلق ٱلله ، رفيقاً بهم ، مملوء القلب بالرأفة والرحمة ،

---

(1) التوبة ، 111 .

(2) النساء ، 28 .

(3) البقرة ، 172 ـ 173 .

محباً لله ، ومحباً لكل من يحبهم ٱلله ، ولكل ما يحبه ٱلله .

وتتردد كثير من المفردات في القرآن الكريم التي توحي بالرأفة منها اليسر والإحسان والتخفيف والخير والنفع والعفو والغفران وكلها تدل علىٰ أن البارئ عز وجل ، يرأف بالخليفة وذلك من أجل تسهيل مهمته التي وكل بها في الأرض ، تلك المهمة التي بدأت مع استخلاف آدم عليه الصلاة والسلام في الأرض ، ومنحه مقاليدها ، علىٰ عهد من ٱلله وشرط ، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هـٰذه الخلافة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

مظاهر الرأفة :

1 ـ الخلق :

ترددت لفظة (خلق) في أكثر من نص قرآني وكلها تشير إلىٰ استعراض مهيب لما خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ في هـٰذا الكون العجيب ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] . فالبارئ عز وجل يرسم ملمحاً جميلاً هنا في توجيه أنظار المستخلفين في الأرض إلىٰ ما يحيط بهم من كل الاتجاهات ، السماء والأرض وما فيهن ، أسئلة تتبادر إلىٰ الذهن لمن خلق ٱلله تعالىٰ كل هـٰذه الموجودات ؟ يجيب البارئ تعالىٰ في أكثر من نص وبالصيغة نفسها أنها من أجلكم ، ففيه دليل علىٰ أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة ، حتىٰ يقوم دليل يدل علىٰ النقل عن هـٰذا الأصل ، ولا فرق بين الحيوانات ، وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر ، ثم أكد بعد ذلك بقوله : ﴿ جَمِيعًا ﴾ ففيه دلالة

(1) البقرة ، 30 .
(2) البقرة ، 29 .

قوية علىٰ هـٰذا الأمر ، وخلق السمـٰوات والأرض من الأمور العظيمة والجليلة التي ركز عليها القرآن الكريم ، فهي أساس الوجود وتتواجد عليها الخلائق وخطاب القرآن الكريم لا ينفك عن ذكرهما بوصفهما محوراً مهماً في عملية التبليغ الإسلامي ، فهما من آيات ٱلله ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (1) ، فالمقصود هنا ذات السمـٰوات والأرض وصفاتهما ، وإنما جمع السمـٰوات ، لأنها أجناس مختلفة ، كل سماء من جنس غير جنس الأخرىٰ ، ووحد الأرض ؛ لأنها كلها من جنس واحد ، وهو التراب ، إذ نجد في كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخلق يتصدر الحديث دائماً عن السمـٰوات والأرض فهي من الدلائل العظيمة التي تشير إلىٰ عظمة صنعة الصانع الحكيم ، إن هـٰذا الكون بذاته كتاب مفتوح ، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته ؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة ، ويوحي بأن وراء هـٰذه الحياة الدنيا آخرة وحساباً وجزاء إنما يدرك هـٰذه الدلائل ويقرأ هـٰذه الآيات ويرىٰ هـٰذه الحكمة ، ويسمع هـٰذه الإيحاءات (أولو الألباب) من الناس ، الذين لا يمرون بهـٰذا الكتاب المفتوح وبهـٰذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين ! وهـٰذه العظمة والقدرة في هـٰذا الكون الفسيح كلها رأفة بالخليفة ، فهي جانب نفعي له والجانب النفعي يساعده علىٰ تخطي صعاب الحياة بكل أشكالها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) ، جمعت هـٰذه الآية أهم

---

(1) آل عمران ، 190 ـ 191 .

(2) البقرة ، 164 .

ما خلقه ٱلله تبارك وتعالىٰ وفي الوقت نفسه فيه رأفة بالخليفة ، ابتداء بالسمـٰوات والأرض ، ثم بعد ذلك تعاقب الليل والنهار مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفَّار أن يأتي بشيء منها ، أو يقتدر عليه ، أو علىٰ بعضه ، أما الليل والنهار فهما يتعاقبان فكل واحد يخلف الآخر وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر وتفاوتهما طولاً وقصراً وحراً وبرداً ، فهي كلها دلالات واضحة وبراهين بيِّنة تدل علىٰ الخالق سبحانه ، فضلاً عن ذلك حركة الشمس والقمر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] ، فالشمس والقمر من الآيات الدالة علىٰ انفراد ٱلله تبارك وتعالىٰ بالخلق والتدبير وعلىٰ صفات إلـٰهيته ، فالكرة العظيمة كالشمس تبدو مقاربة لكرة القمر في المرأىٰ وإنما ذلك من تباعد الأبعاد فأبعاد فلك الشمس تفوت أبعاد فلك القمر بمئات الملايين من الأميال ، حتىٰ يلوح لنا حجم الشمس مقارباً لحجم القمر . فبيَّن ٱلله أنه نظم سير الشمس والقمر علىٰ نظام يستحيل معه اتصال إحدىٰ الكرتين بالأخرىٰ لشدة الأبعاد بين مداريهما ، فلا يتسهل للشمس ولا يتسخر (أَن تدْرِكَ القمر) في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حده ٱلله تعالىٰ له وجعله مظهراً لسلطانه فإنه عز وجل جعل لتدبير هـٰذا العالم بمقتضىٰ الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حداً محدوداً ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر بل يتعاقبان إلىٰ أن يأتي أمر ٱلله عز وجل ، وهـٰذا النظام الدقيق لم يخلق عبثاً إنما ارتبط خلقه بالخليفة فهو مسخر له فلا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بينهما .

وجري الفلك في البحر ، يمثل جانباً مهماً من جوانب التسخير التي

(1) يس ، 38 ـ 40 .

أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ هـٰذه الأرض ، فالبحر خلقه علىٰ هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك .

وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريّ . فهـٰذه السفن العملاقة تبحر بوسط هـٰذه البحار العظيمة وتنقل ما تنقل من البضائع المختلفة من الشمال إلىٰ الجنوب وبالعكس ومن الشرق إلىٰ الغرب وبالعكس ، حركة دءوبة لا تنقطع أبداً وكلها من أجل خدمة الخليفة ، فالجري في البحر هو مظهر التسخير ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، إذ لولا الإلهام إلىٰ صنعها علىٰ الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغَرق . فجعل البحر صالحاً لحملها ، وأوحىٰ إلىٰ نوح عليه الصلاة والسلام معرفة صنعها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، ثم تتابع إلهام الصناع لزيادة إتقانها .

وتسخير البحر ليس فقط مرور السفن فيه من أجل التجارة ، بل بالغوص فيه من أجل الحصول علىٰ اللؤلؤ والمرجان بوصفهما من النفائس الغالية التي تباع بأسعار عالية جداً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) ، فضلاً عن ذلك استخراج اللحم

---

(1) الحج ، 65 .

(2) هود ، 37 ـ 41 .

(3) الجاثية ، 12 .

الطري الذي يعد رافداً أساسياً في التغذية بجانب أنواع اللحوم الأخرىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] ، وغير ذلك من منافع البحر .

وإنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض به ، وبثّ الدوابّ منها من علامات الرأفة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] ، فالمطر يتكوّن في طبقات الجوّ العُليا الزمهريرية عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفاً وهو السّحاب ثمّ يستحيل ماء . فالسّماء اسم لأعلىٰ طبقات الجوّ حيث تتكوّن الأمطار . وبالماء تخرج من الأرض أصنافٌ من النبات . ولذا فإنّ النبات جنس له أنواع كثيرة ؛ فمنه زرع وهو ما له ساق ليّنة كالقَصَب ؛ ومنه شجر وهو ما له ساق غليظة كالنّخل ، والعنب ؛ ومنه نَجْم وأبّ وهو ما ينبت لاصِقاً بالتّراب ، وهٰذا التّعميم يشير إلىٰ أنّها مختلفة الصّفات والثّمرات والطبائع والخصوصيات والمذاق ، وهي كلّها نابتة من ماء السّماء الّذي هو واحد ، وذلك آية علىٰ عظم القدرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(1) النحل ، 14 .
(2) فاطر ، 12 .
(3) الأنعام ، 99 .

لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1] . الماء واحد ، والثمر بعضه أكبر من بعض أو بعضه أفضل من بعض ، وبعضه حامض وبعضه حلو ، إِلىٰ غير ذلك من التنوع المبارك من الرؤوف المطلق جل جلاله . فلو كان ظهور الثمار بالماء والتراب ، لوجب في القياس ، أن لا تختلف الألوان والطعوم ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد ، وسقي بماء واحد ، ولـٰكنه صنع اللطيف الخبير .

ويرافق النبات في هـٰذه الحياة الدواب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[2] ، فهي إحدىٰ المخلوقات التي سخرها ٱلله تبارك وتعالىٰ للخليفة وجعلها تحت إمرته يسيرها كيف يشاء تقضي له حوائجه وتدفع عنه المشقة ، فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحومها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوّها ورواحها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[3] ، وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شملَ الانتفاع بدواب البحر فٱلله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة والرأفة بنا .

وتمثل الرياح جانباً مهماً من جوانب الطبيعة ، والريح معروف وهي الهواء المتحرك ، وعامة المواضع التي ذكر ٱلله تعالىٰ فيها إرسال الريح بلفظ الواحد

(1) الرعد ، 4 .
(2) لقمان ، 10 .
(3) النحل ، 5 ـ 7 .

فعبارة عن العذاب كما في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (1) ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) ، والرأفة تجلت هنا مع الرياح ودورها الذي تقوم فيه ، فهي تبشر بالرحمة التي تنشر الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً ، تحمل سحائبَ ثقالاً بالماء لأجل بلد ليس فيه حي ولسقيه ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (3) .

ومن رأفته تبارك وتعالىٰ أنه خلق الهواء سابقاً علينا ، فالخليفة عندما يأتي إلىٰ الدنيا لابد له من التنفس فهو أحد الأسباب المهمة للحياة وبدونه لا يمكن أن تكون الحياة ، فضلاً عن ذلك أن الطائرات لا يمكنها الطيران إلا بوجود الهواء ، وكذلك الحال لبقية المخلوقات فهي تحتاجه من أجل التنفس ومن أجل الطيران أيضاً .

ومن رأفته تعالىٰ خلق لنا الطعام الذي بسببه استمرار الكائنات الحية ، فهو أداة مهمة ولذلك نجد أن النص القرآني كرره كثيراً في خطابه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (4) . هـٰذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض ، من حبوب ، وثمار ،

(1) فصلت ، 16 .
(2) الأعراف ، 57 .
(3) فاطر ، 9 .
(4) البقرة ، 168 .

وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها (حَلالاً) أي : محللاً لكم تناوله ، ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو علىٰ وجه محرم ، أو معيناً علىٰ محرم . (طَيِّبًا) أي : ليس بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث كلها ، ففي هـٰذه الآية ، دليل علىٰ أن الأصل في الأشياء الإباحة ، أكلاً وانتفاعاً ، وأن المحرم نوعان :

إما محرم لذاته ، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب .

وإما محرم لما عرض له ، وهو المحرم لتعلق حق ٱلله ، أو حق عباده به ، وهو ضد الحلال .

وفيه دليل علىٰ أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب ، يأثم تاركه لظاهر الأمر ، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به ـ إذ هو عين صلاحهم ـ ونهاهم عن اتباع ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ بالطرق التي يأمر بها ، وهي جميع المعاصي من كفر ، وفسوق ، وظلم ، ويدخل في ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير ، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته ، حتىٰ أخبرنا ـ وهو أصدق القائلين ـ بعداوته الداعية للحذر منه ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [1] ، هـٰذا أمر للمؤمنين خاصة ، وذلك أنهم هم المنتفعون علىٰ الحقيقة بالأوامر والنواهي ، بسبب إيمانهم ، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، والشكر لله علىٰ إنعامه ، باستعمالها بطاعته ، والتقوىٰ بها علىٰ ما يوصل إليه ، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

(1) البقرة ، 172 .

عَلِيمٌ ﴾ (1) . فالشكر في هـٰذه الآية ، هو العمل الصالح ، وهنا لم يقل (حلالاً) لأن المؤمن أباح ٱلله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة ، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له . قال : ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي : فاشكروه ، فدل علىٰ أن من لم يشكر ٱلله ، لم يعبده وحده ، كما أن من شكره ، فقد عبده ، وأتىٰ بما أمر به ، ويدل أيضاً علىٰ أن أكل الطيب ، سبب للعمل الصالح وقبوله ، والأمر بالشكر ، عقيب النعم ؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة ، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة .

2 ـ ومن مظاهر الرأفة المودة التي بيننا :

جعل ٱلله تبارك وتعالىٰ الخلق أجمع ضمن سلسلة مرتبة من العلاقات التي تربطهم جميعاً ، وبما يضمن بقاء التواصل بينهم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (2) . بين ٱلله تبارك وتعالىٰ في هـٰذه الآية أن الخلق كلهم من أصل واحد يرجعون إلىٰ آدم وحواء ، ومن آدم وحواء خلق خلقاً كثيراً ، فبث منهما رجالاً ونساء فلم يستقل كل واحد بنفسه بل فرقهم ٱلله تبارك وتعالىٰ وجعلهم شعوباً وقبائل وذلك من أجل أن يتعارفوا ، وهـٰذا التعارف ترتب عليه كثير من الأمور منها الدفاع المشترك ضد أي عدوان خارجي فضلاً عن ذلك التعاون الداخلي فيما بينهم في كل الأمور ، هـٰذا يمثل الإطار العام للتعاون أي في حدوده الواسعة ، أما الإطار الخاص فهو الأسرة الواحدة وخاصة بين الأزواج فهي من أقوىٰ الروابط وأشملها وأكثرها تأثيراً ، والود محبة الشيء وتمنيه ، قال تعالىٰ في خطابه للخليفة في إشعار له بقيمة المودة في

---

(1) المؤمنون ، 51 .
(2) الحجرات ، 13 .

تكوين الحياة الزوجية : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) . هـٰذه آية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل ، وهو نظام عجيب جعله ٱلله مرتكزاً في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشاذ . جعل البارئ عز وجل التزاوج أنساً بين الزوجين فربط بينهما بالمودة والرحمة وهي نعمة من نعم ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ البشر ومظهر من مظاهر رأفته بالمستخلفين ، فالخليفة يتخلق بهـٰذه الخصيصة التي منحها ٱلله له ضمن إطار الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه ، فعلاقة الأزواج يرتسم من خلالها الخليفة مرضاة ٱلله تبارك وتعالىٰ من خلال تحويل الأوامر والنواهي إلىٰ واقع حال في تصرفاته الأسرية وهـٰذا ما يعزز المودة وينشئها ضمن إطار إسلامي بحت .

بل إن ٱلله تبارك وتعالىٰ جعل المودة هبة من الهبات التي يرأف بها عباده يوم القيامة ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (2) ، في إشارة إلىٰ تجمع المؤمنين يوم القيامة وطبيعة العلاقة التي تربطهم بالرؤوف الرحيم ، فهي مبنية علىٰ المودة ، فضلاً عن ذلك يجعل بين أنفسهم مودة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، والمودة تقتضي المحبة المجردة من كل غرض دنيوي ، ولهـٰذا ورد علىٰ لسان رسول ٱلله ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (4) أي : أن

(1) الروم ، 21 .
(2) مريم ، 96 .
(3) الأعراف ، 43 .
(4) الشورىٰ ، 23 .

عمل الرسول ﷺ في دعوته وجهاده لا ينتظر منه أجراً من الناس ، إنما هي علاقات الود مع أهله وأصحابه ، وقد وصف ذاته تعالىٰ بالود في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (2) ، فمودة ٱلله تعالىٰ لعباده مراعاته لهم ، ولا تقتصر المودة علىٰ الأزواج فقط وإنما تتفرع إلىٰ فروع عدة تتمثل في باقي العلاقات الاجتماعية منها العلاقة مع الأخوال ومع الأعمام فضلاً عن ذلك العلاقة مع الجيران ومن ثم بقية الخلق .

فالمودة عالم جميل وعظيم جعله ٱلله تبارك تعالىٰ من أجل إضفاء الحياة سمة خاصة ألا وهي الرأفة العظيمة التي أوجدها الرؤوف الرحيم .

أما الأمومة فهي تمثل جانباً مهماً من العلاقات الإنسانية التي أوجدها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فهي المرتكز الأساس للمجتمع الإنساني ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، الأمومة اسم يتردد بترنم في ذهن الفتاة ويكبر معها من سنة إلىٰ أخرىٰ رغم أنه يحمل بداخله مشقة بعد مشقة كما ذكرها القرآن الكريم ، فتبدأ المشقة منذ اللحظة الأولىٰ التي تكتسب فيها صفة الأمومة وهي بداية تلقيح البويضة وما يرافقها من وحم وضعف وثقل ثم بعد ذلك وجع الولادة الشديد ، ولم يقف الأمر إلىٰ هـٰذا الحد بل يتبعه رضاعة تستمر لمدة عامين ، هـٰذا كله يجري بطريقة تتعشق فيها رأفة البارئ جل جلاله ، فضلاً عن

---

(1) البروج ، 14 .
(2) هود ، 90 .
(3) لقمان ، 14 ـ 15 .

ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية ، وأولاها بالرعاية والتشريف ، قال تعالىٰ : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [1] .

3 ـ ومن مظاهر رأفته بيّن لنا الحلال من الحرام :

الحلال والحرام من أول المفردات التي عرفها الخليفة ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [2] ، فبعد أن خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ آدم عليه الصلاة والسلام وفضله ، خلق حواء ليسكن إليها ويستأنس بها ، ثم أمرهما بعد ذلك سبحانه وتعالىٰ بالسكن في الجنة والأكل منها رغداً ، إلا أنه تعالىٰ نهاهما عن الأكل من شجرة ، وهي نوع من أنواع شجر الجنة ، والنهي هنا دال علىٰ التحريم بدليل قوله تعالىٰ : ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنه رتب عليه الظلم . بعد هـٰذا الاختبار لخليفة ٱلله في الأرض أصبح الحلال والحرام من المفردات التي رافقت كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والذي ترجم من خلال الكتب السماوية التي رافقتهم .

يتبادر إلىٰ ذهن الخليفة بعض الأسئلة لماذا من الرأفة معرفة الحلال والحرام ؟

لنأخذ بعض الأمور التي حرمها البارئ عز وجل ولنقف علىٰ العلاقة التي

---

(1) الأحقاف ، 15 ـ 16 .

(2) البقرة ، 35 .

بينها وبين الرأفة ، فعلىٰ سبيل المثال : الخمر من المحرمات في الشريعة الإسلامية ، وجاء تحريمه علىٰ مراحل فكانت المرحلة الأخيرة بهـٰذه الصيغة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [1] ، يذم ٱلله تبارك وتعالىٰ الأشياء القبيحة ، ويرسم لها صورة تتناسب مع فعل الشيطان بقوله : (رجس) وهنا التحريم لم يأت بصيغة إن هـٰذا حرام بل جاء بصيغة أكثر تأثيراً وإيحاء من خلال لفظة (فَاجْتَنِبُوهُ) بمعنىٰ اتركوه ، فٱلله تبارك وتعالىٰ يريد الفلاح للمستخلفين ، وهـٰذا الفلاح لا يتحقق إلا من خلال ترك ما حرم ٱلله ، وبالأخص الفواحش المذكورة ومنها الخمر الذي نحن بصدده ، فالخمر هو كل ما خامر العقل أي غطاه ، فمن مفاسدها الداعية إلىٰ تركها واجتنابها : أنها رجس بمعنىٰ الخبث ، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بها ، والدنس لا طهارة فيه ، والخليفة من المتطهرين ، ولذا فإنه المجتنب والمنتهي والمبتعد عن كل دنس ، ولهـٰذا فمن الطاعة اتباع الأوامر والنواهي الإلـٰهية ، وما يخالفها من عمل الشيطان ، الذي هو أعدىٰ الأعداء للإنسان .

والخمر من الأمور الموجبة للعداوة والبغضاء بين المستخلفين ، والشيطان حريص كل الحرص علىٰ بثها من أجل أن يوقع بينهم ما يكون السبب في فرقتهم وابتعادهم عن دين ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وفي هـٰذا الأمر امتحان للعباد ، فمن يُرد أن تثقل موازينه فعليه بطاعة ٱلله ومن يُرد أن تخف موازينه فعليه باتباع الشيطان وما يُخيِّل به وما يوسوس وما يزينه لضعاف العقول ، ومما يصاحب شارب الخمر أنه يقترن معه السباب عند شربه مما يؤدي في بعض الأحيان إلىٰ حصول القتل بين الشاربين أو غيرهم ، وفي كثير من الأحيان

(1) المائدة ، 90 ـ 91 .

الصراع والخصام والفتنة ، وارتكاب المحرمات بأسباب الخمر كثيرة ، هـٰذا يمثل الجانب المادي ، أما الجانب الروحي ، فهو يصد القلب عن ذكر ٱلله جل جلاله ، بالبعد عن ذكره والصلاة ، والصلاة هي من أهم وسيلة للاتصال بين العبد وربه ، يناديه ويجيبه ، فهي من الفرائض التي أكد عليها القرآن الكريم مراراً ، وهي صفات المؤمنين . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2) .

كذلك من جملة ما حرم ٱلله تبارك وتعالىٰ الزنا ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (3) ، الزنا من الذنوب العظيمة فهي لا تقتصر علىٰ فعل جنسي فقط ، بل يتعدىٰ الأمر إلىٰ أكثر من ذلك ، وهـٰذا ما عرضته الآية الكريمة ، فالنص القرآني هنا لم يشر بكلمة التحريم بل أشار بكلمة الابتعاد التي هي أبلغ من التحريم ، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه ، ووصف ٱلله الزنا وقبحه بأنه (كَانَ فَٰحِشَةً) أي : إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطرة لتضمنه التجرؤ علىٰ الحرمة في حق ٱلله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد . ولذلك نجد صيغة العقوبة وما رافقها من رفع الرأفة في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) .

---

(1) البقرة ، 3 .
(2) البقرة ، 277 .
(3) الإسراء ، 32 .
(4) النور ، 2 ـ 3 .

ومن الرأفة تحريم الخبائث وإباحة الطيبات ، ولقصر نظر الناس فإنهم لا يستطيعون تحديد الحلال من الحرام في الأشياء والأفعال ، فلكي ينصرف الخليفة إلىٰ مهمته التي استخلفه ٱلله تبارك وتعالىٰ من أجلها وهي إعمار الأرض وإقامة دين ٱلله ، فكان أن يَسَّرَ ٱلله تعالىٰ له أمر الخير والشر ، والحلال والحرام رأفة بقدراته العقلية التي لا تستطيع أن تستوعب كل المهام التي يمكن أن تناط بها في هـٰذا الاستخلاف ، فجعل الحلال والحرام من خصائص ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وجعل تنفيذها من مقدرات العباد رأفة بهم لا نقمة عليهم .

الرأفة صفة عظيمة أوجدها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهـٰذه الصفة العظيمة كيف تترجم في الواقع الإسلامي ؟ وكيف تكون أداة مهمة في يد الخليفة من أجل الإصلاح الذي يريده ٱلله تبارك وتعالىٰ ؟

فالخليفة يستمد صفاته من صفات ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وعلىٰ هـٰذا يعامل ما حوله برأفة بدءاً بعلاقته مع الآخرين ، وهـٰذه العلاقة تكون محكومة بالشرع الذي يريده ٱلله تبارك وتعالىٰ من ذلك عدم الزنا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ (1) . الحفظ هو الصيانة والإمساك ، وحفظ الفرج عن الوطء إلا علىٰ زوجاتهم وما ملكت أيمانهم ، فالزنا اعتداء علىٰ الحرمات وهتك للعرض وفيه تجاوز لا يريده ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فضلاً عن ذلك ما يتركه للمجتمع من خراب ، فيلحقه تفكك للأسرة وانحلال خلقي يؤدي إلىٰ كثير من الأمراض ، وهـٰذا ما نجده في وقتنا الحاضر من تفشي مرض الإيدز الذي لا يرحم كبيراً ولا صغيراً ، فما أقتله ، وأهلكه فهو أشد قتلاً وإهلاكاً من القنبلة التي ألقيت علىٰ هيروشيما ، فهو يقتل يومياً دون توقف وحتىٰ الآن لا علاج له إلا بالتمسك بما أراده ٱلله جل جلاله ، فالإيدز هلاك ،

(1) المؤمنون ، 5 ـ 7 .

وهو بالأسباب المنهي عنها بالمطلق وٱلله تعالىٰ لا يريد الهلاك للمستخلفين في الأرض ، ولهٰذا قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

وكذلك السرقة وهي أخذ ما ليس له أخذه في خفاء وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقدر مخصوص ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، فهي أيضاً من باب الاعتداء علىٰ الغير ، وهٰذا العمل بعيد كل البعد عما ينشده الرؤوف الرحيم ، فمن باب الرأفة عدم السرقة بل يجب المحافظة علىٰ أموال المستخلفين حتىٰ لا تكون بينهم الفتنة .

4 ـ من مظاهر الرأفة إرسال الرسل :

لما كانت أمم الأرض في القرون الأولىٰ علىٰ شكل شعوب وقبائل متفرقة ، منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض ، وكانت هٰذه الشعوب والقبائل بحاجة إلىٰ منبه ينبهها ، ومنذر ينذرها ، ومصلح يهذبها بما يطهرها من الدنس والظلم والضلال . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (3) . فقد اقتضت حكمة ٱلله جل جلاله أن يرسل إلىٰ الأمم والشعوب في قراهم وبواديهم وحواضرهم المنعزلة رسلاً مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون لهم حجة بالجهل

(1) البقرة ، 195 .
(2) المائدة ، 38 ـ 39 .
(3) النحل ، 36 .

والغفلة ، وكان هـٰؤلاء الرسل يحملون مهمة واحدة ، ذات أسس ومبادئ واحدة ، فيمثلون إرادة مرسلهم بها ، ويبلغون كتبه ووحيه ، ويؤدون رسالته ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (1) ، فكل نفس تحمل وزرها لا وزر نفس غيرها ، وٱلله جل جلاله لا يعذب قوماً إلا بعد أن يبعث لهم رسولاً فيلزمهم الحجة ، وذلك من خلال الكتاب الرباني المنزَّل علىٰ الرسول فهو المرجع لأمته ، مهما تعاقبت العصور ، فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسه ، ومبادئه وغاياته ويرجعون إليه في التعرف علىٰ أحكام شريعة ٱلله لهم واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها ، والمحرمات التي ينهاهم عنها ، والفضائل والكمالات التي يحثهم عليها ويندبهم إليها ، كما يرجعون إليه ليطالعوا مواعظه ونصائحه ، وأمثاله وآدابه ، وما تضمنه من بشائر ونذر ، ووعد ووعيد ، وسائر الوسائل والأساليب ذات الفضائل الرفيعة ، الهادية إلىٰ صراط ٱلله المستقيم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) ، هـٰذه الآية تبين أنه لا نبي إلا ومعه كتاب منزل ، وفيه بيان الحق .

إن عملية إرسال الرسل كلها رأفة أو قل مشبعة بالرأفة التي يكتنزها البارئ عز وجل للمستخلفين ، وبعبارة أخرىٰ إن إرسال الرسل إنقاذ لهم من العقوبة التي ينتظرونها نتيجة ما كانوا عليه من الضلال والضياع بعيداً عن البارئ جل جلاله ، فالبعد عن البارئ جل جلاله هلاك والقرب منه رحمة ، وبرأفته جعل

---

(1) الإسراء ، 15 .
(2) البقرة ، 213 .

المستخلفين فيها هم الأقرب إليه لأنهم أصحاب التقوىٰ .

وإرسال الرسل يرسم ملمحاً فكرياً يتصل بطبيعة خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ويكون ذلك من خلال محدودية الفكر البشري في التعرف علىٰ ربه جل جلاله ، من ذلك ما كان عليه المسلمون قبل البعثة النبوية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [1] ، ومنه أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

5 ـ مظاهر الرأفة في الكون :

ومن الرأفة معاملة المسكين واليتيم والأسير معاملة تتفق مع صلب الشريعة الإسلامية ، وهي من صفات الخليفة إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [3] ، فكل واحد من هـٰؤلاء الثلاثة طلبه الأول والأخير هو الطعام ، فالكل فاقد له وهم بأمس الحاجة إليه ، فالمسكين واليتيم لا يملكان في بعض الأحيان أو كثيرها الطعام اللازم لهما ، أما الأسير فهو يختلف عنهم اختلافاً جذرياً ، فإنه يعيش في وضع صعب لا يستطيع حتىٰ الحركة الحرة التي تكون في بعض الأحيان هي السبب في الحصول علىٰ الطعام ، فمعاملته لابد أن تتسم بالرأفة أكثر من الصنفين السابقين ، وتخصيص الطعام في هـٰذه الآية بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره علىٰ النفس وهـٰذه من صفات الخليفة الصالح الذي ذكره ٱلله تبارك

(1) البقرة ، 151 ـ 152 .
(2) آل عمران ، 164 .
(3) الإنسان ، 8 ـ 9 .

وتعالىٰ في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) ، فالإيثار هـٰذا لا يكون إلا من خلق زكي ، ومحبة لله تعالىٰ مقدمة علىٰ محبة شهوات النفس ولذاتها ، أما الطعام فهو عصب الحياة فلا يستطيع أي كان العيش بدونه ، ويعد في بعض الأحيان معياراً بين المستخلفين من أجل تصنيفهم لإيضاح وضعهم الاقتصادي .

ومن الرأفة أن لا يُفسد زرعاً ولا حرثاً ، فهي من الأملاك المستحقة للاحترام رأفة بالعباد الذين جعل لهم الرؤوف الكريم حقاً فيها ، ولهـٰذا فإفساد الحرث والزرع معصية لا يقدم عليها خليفة من خلفاء الرؤوف الرحيم . قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (2) ، فمن يعمل المعاصي فعمله هـٰذا هو إفساد في الأرض ، فالزروع والثمار والمواشي ، حقوق للذين خلقهم ٱلله في أحسن تقويم فلا تدمر بغير حق .

لعل من أهم مظاهر الرأفة ، الرأفة بالوالدين ذلك أنهما أقرب الناس للإنسان ، وهو لا يشعر بما قدماه له من عناية وتربية وسهر ، فربما لغياب ذلك عنه لا يؤدي الإحسان لهما كما أمر ٱلله تعالىٰ بذلك ، ولهـٰذا أمر ٱلله تبارك وتعالىٰ الخليفة أن لا يعق والديه ، والعقوق ليس النهي عن الضرب والسب ، إنما هو عن أقل كلمة وهي : (أف) ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

(1) الحشر ، 9 .
(2) البقرة ، 204 ـ 206 .

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ (1) . تشتمل الآية الكريمة علىٰ حقين ، حق ٱلله تبارك وتعالىٰ في عبادته وعدم الإشراك به ، وهـٰذا الحق شغل حيزاً كبيراً في النص القرآني ، إذ ورد علىٰ لسان الأنبياء في دعوتهم إلىٰ عبادة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ (4) ، في هـٰذه الآيات نجد أن الدعوة إلىٰ العبادة مثلت العمود الفقري للخطاب الذي حمله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلىٰ الناس كافة ، أما الحق الثاني فهو حق الوالدين ، إذ نلتمس عظم هـٰذا الأمر من خلال وروده بعد حق عبادة ٱلله تعالىٰ ، فقد خص ٱلله تعالىٰ الأم بالرأفة خاصة لأنها أشد تعباً وجهداً مع الأبناء ، يقول تعالىٰ : ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ

(1) الإسراء ، 23 ـ 24 .
(2) المائدة ، 116 ـ 117 .
(3) الأعراف ، 73 .
(4) هود ، 84 .

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

وجانب آخر من جوانب الرأفة التي ينشدها الخليفة هو الرفق بالحيوان ، فهٰذا المخلوق الذي سخَّره ٱلله تبارك وتعالىٰ من أجل أن يكون في خدمة العباد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، والرأفة لا تقتصر فقط علىٰ هٰذه الحيوانات التي ذكرت في هٰذه الآيات بل جميع الحيوانات ، فهي سِمة مهمة يجب أن يتصف بها الخليفة ، ونذكر علىٰ سبيل المثال الهرة التي كانت سبباً في دخول امرأةٍ النارَ بعد أن حبستها ، فلا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ولا هي أطعمتها ، وفي هٰذا ظلم ، والظلم ليس من صفات الخليفة . الخليفة من صفاته الرأفة التي استمدها من الرؤوف المطلق جل جلاله .

6 ـ من مظاهر الرأفة نعمة العقل :

العقل قوة متهيئة لقبول الهداية والإيمان والعلم ، وهو من النعم التي أنعم بها ٱلله تبارك وتعالىٰ علينا التي لا تقدر بأي ثمن ، فهو الميزان الذي من خلاله يستطيع الخليفة التصرف وفق معطيات الحياة بكل تفاصيلها ، به يدرك وبه يتفكر ويتذكر ويتدبر ويستنبط ويستقرئ حتىٰ اليقين . ولهٰذا تكرر في الخطاب القرآني لفظة (يعقلون) التي أخذت حيزاً كبيراً من هٰذا الخطاب ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

---

(1) الأحقاف ، 15 .
(2) النحل ، 5 ـ 8 .

إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) .

ومن المواضع التي ذم ٱلله جل جلاله فيها الكفار بعدم العقل قوله : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، شبَّه ٱلله تبارك وتعالىٰ الكفار هنا كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها ، وليس لها علم بما يقول ، فهم يسمعون مجرد الصوت ، الذي تقوم به عليهم الحُجَّة ، ولـٰكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم ، فلهـٰذا كانوا صماً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول ، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار ، والسبب الموجب لذلك كله ، أنه ليس لهم عقل مدرك للحق وواقف عنده ، بل هم في سفاهة العقل لا في يقينه .

7 ـ ومن مظاهر الرأفة رزقه للجميع :

هـٰذا من عظيم رأفته ، فرزقه عام لا يفرق فيه بين أحد مهما كانت ديانته ومهما كان لونه أو جنسه ، رزقه لكل ما خلق ، من يعبده يرزقه ، ومن يكفر به يرزقه ، ولهـٰذا فهو رءوف بمن يعلم فآمن ، وبمن لا يعلم فَضَلَّ ، وذلك لأنه العليم المطلق جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ

(1) الأنعام ، 151 .
(2) المؤمنون ، 78 ـ 80 .
(3) البقرة ، 171 .

تَفْضِيلًا ﴾ [1] ، فرزق ٱلله ليس ممنوعاً من أحد بل إن جميع الخلق يشملهم رزقه وذلك بفضله وإحسانه . أما التفضيل في الدنيا فهو يكون بسعة الرزق وقلته وفي العلم والجهل والتدبر وانعدامه ، وغير ذلك من الأمور التي فضل ٱلله العباد بعضهم علىٰ بعض بها .

وترددت مع لفظة (الرزق) مشيئة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، منها قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] ، إن ارتباط المشيئة بالرزق ينم عن عظمة ٱلله تعالىٰ وقدرته ، فضلاً عن ذلك ارتباط هـٰذا الأمر بقضية مهمة جداً ، وهي قضية الإصلاح والفساد ، بمعنىٰ أن ٱلله تعالىٰ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم ، فيمكن القول أن الرزق وإن كان للجميع فإن السعي إليه ليس بطريقة متساوية ، فٱلله يبسط الرزق لمن يسعىٰ إلىٰ كسبه بالحلال ، بالعمل الجاد والإخلاص والإصلاح ، ولهـٰذا يرزق من يشاء من عباده ويقدر .

والخليفة يستمد هـٰذه الصفة من ٱلله تبارك وتعالىٰ في تعامله مع الآخرين وخاصة مع أقرب المقربين إليه ، فلا يفرق بين أبنائه في توزيع رزقه عليهم ، فالكل يجب أن يكونوا وفقاً لمعايير واحدة ، ووفقاً لقواعد الحقوق والواجبات والمسؤوليات ، والفرض الذي فرضه الرؤوف للآباء والأبناء في الحياة والنصيب في الميراث ، وهـٰذه المعايير واجب الأخذ بها ، وفي هـٰذه المعايير تتضح رأفة الخالق جل جلاله بعباده .

---

(1) الإسراء ، 20 ـ 21 .
(2) الرعد ، 26 .
(3) العنكبوت ، 62 .
(4) الروم ، 37 .

8 ـ من مظاهر رأفته التوبة للجميع :

التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم علىٰ ما فرط فيه والعزيمة علىٰ ترك المعاودة وتدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ، فمتىٰ اجتمعت هـٰذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة ، وتاب إلىٰ ٱلله وتذكر ما يقتضي الإنابة ، والتزم بأمره إقداماً علىٰ ما يجب وانتهاء عن ما لا يجب الإقدام عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (1) ، فمن رأفة ٱلله تبارك وتعالىٰ أنه يقبل التوبة عن عباده ويطلب منهم عدم القنوط فيقول تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، يبين ٱلله تبارك وتعالىٰ كرمه للمسرفين من عباده ويحثهم علىٰ الإنابة ، وعدم اليأس من رحمة ٱلله جل جلاله ، دون الإبقاء علىٰ المعصية أو الإصرار عليها ، نتيجة التأويل الخاطئ أو التفسير الخاطئ الذي يقنعون به أنفسهم فيقولون قد تراكمت ذنوبنا ، وتراكمت عيوبنا ، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها ، وهـٰذا كلام بعيد كل البعد عن رحمة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فرحمته وسعت كل شيء ، وهو الرؤوف الرحيم جل جلاله .

التوبة كلمة ترددت في النص القرآني في مناسبات عدة ، فهي تحمل

---

(1) النور ، 31 .
(2) الزمر ، 53 .

مضموناً معرفياً ينساق خلف النصوص التي وردت فيها ، فضلاً عن ذلك أن وجود هـٰذه الكلمة يحيلنا إلىٰ كلمات أخرىٰ مرتبطة بها من قريب أو من بعيد ، كالذنب والحرام والتجاوز والفساد وغيرها من الكلمات التي تنحو كما ينحو هـٰذا المنحىٰ ، بمعنىً آخر إن ارتباط هـٰذه الكلمات بكلمة التوبة يفتح لنا ملفاً أوجده ٱلله تبارك وتعالىٰ في تعامله مع عباده ، فهو الذي يقبل التوبة ، إذ يقول تعـــالـــىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] . إن وجود التوبة يحيلنا إلىٰ استرجاع قراءة الآيات القرآنية التي تخللتها التوبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، في هـٰذه الآية وردت كلمة (يفسد) والفساد هو ضد الصلاح مما يترتب علىٰ فاعله الإثم والذنب ، فلا يذهب الإثم والذنب إلا عن طريق التوبة التي خطها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده ، فبعد قبول التوبة تغلق صفحة وتفتح أخرىٰ لتسجيل وقائع جديدة ترسم فيها رأفة البارئ عز وجل ، فتتحقق المغفرة التي أرادها ٱلله تعالىٰ ، فمن الأمثلة البارزة التي تجسدت فيها التوبة ما حصل لآدم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [4] ، وتجلي غفران الذنوب الكبيرة في قصة

---

(1) الشورىٰ ، 25 .
(2) التوبة ، 104 .
(3) البقرة ، 30 .
(4) البقرة ، 35 ـ 37 .

موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين قتل رجلاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

والمغفرة لا تشمل الأنبياء فقط بل هي تتسع لكل عباد ٱلله تعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (2) .

9 ـ من مظاهر رأفته عنايته بعباده :

تمثل عناية ٱلله تعالىٰ لعباده جانباً مهماً من جوانب الرأفة التي يتسم بها البارئ تبارك وتعالىٰ ، فٱلله جل جلاله هو خالقهم فلا يتركهم دون عناية ، وعنايته تتمثل في صور عدة وبحسب ما يتطلب الموقف ، فمن بداية خلقته تبرز العناية الإلـٰهية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (3) . هنا يستعرض البارئ عز وجل مراحل التكون أو الأطوار التي يمر بها من خلق في أحسن تقويم من بداية تكونه إلىٰ آخر ما يصير إليه ، فتبدأ بالطين ، والطين أخذ من جميع الأرض ، ولذلك جاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض ، منهم الطيب والخبيث ومنهم الأبيض والأسود ، وغير ذلك من

(1) القصص ، 15 ـ 16 .
(2) آل عمران ، 135 ـ 136 .
(3) المؤمنون ، 12 ـ 14 .

السمات ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب ، فتستقر ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو الرحم ، محفوظة من الفساد وغير ذلك . هنا تتجلىٰ العناية الإلـٰهية في الرحم مكان حفظ الجنين ، فهو يمثل العناية العجيبة ، يبقىٰ تسعة أشهر يعيش علىٰ حياة أمه ، يحيطه ماء من كل مكان يدافع عنه ويصد أي أذىً خارجي يتعرض له ، فلولا هـٰذه العناية المصاحبة للجنين لتعرض إلىٰ أنواع مختلفة من المخاطر الخارجية . هـٰذه العناية تكون وهو في بطن أمه ، أما بعد خروجه إلىٰ الدنيا ، فٱلله تبارك وتعالىٰ لا يتركه دون عناية وحفظ بل تلازمه أين ما ذهب وأين ما حل ، قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [1] ، والمعقبات : جند ٱلله يحفظون بدنه وحياته من كل من يريد به السوء ، أو يلحق به الضرر ، فهم ملازمون له دائماً ، لا يتركونه لا بليل ولا بنهار ، لأن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وهـٰكذا ، وما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته ، فضلاً عن ذلك إن علم ٱلله تبارك وتعالىٰ محيط به . ومن الأمثلة الواضحة البينة التي ترسم لنا العناية بأوضح صورها ، العناية الإلـٰهية التي صاحبت النبي يونس عليه الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [2] ، ويقـول أيضـاً تبـارك وتعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [3] ، يستعرض

---

(1) الرعد ، 11 .
(2) الصافات ، 142 ـ 146 .
(3) القلم ، 48 ـ 50 .

البارئ عز وجل ما حصل للنبي يونس عليه الصلاة والسلام ، وهو التقام الحوت له ، فهو أمر غريب لم يسمع به من قبل إلا من باب الخيال ، حوت كبير داخل بحر عظيم أمواجه متلاطمة ، ظلام دامس صورة معقدة لا يصدر عنها أي شيء يوحي بالحياة ، وكل هـٰذه التصورات في جانب ، ورأفة ٱلله تعالىٰ به في جانب آخر ، بقي يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت بعناية ٱلله تعالىٰ وتدبيره ، في مكان غريب عليه كل الغرابة لا ملجأ له ولا مخرج ، فنادىٰ وهو في بطن الحوت : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فاستجاب ٱلله له ، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم ، وأنبت ٱلله عليه شجرة من يقطين ، واختيار شجرة اليقين أيضاً فيه رأفة بيونس عليه الصلاة والسلام لأنها تظله بظلها الظليل ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهـٰذا من لطفه به ، وبره .

ويتشكل دور الخليفة ضمن نطاق العناية بما يوجد حوله ، ابتداءً بأسرته فلابد له أن يعتني بهم فهم أمانة في عنقه ويسأل عنهم يوم القيامة ، فهم كالزهور لابد من عنايتهم والوقوف علىٰ حاجاتهم والتعرف علىٰ مشاكلهم ، أما تركهم فمصيرهم سيكون قاتماً بعيداً كل البعد عن شرع ٱلله تبارك وتعالىٰ . والعناية تشمل كل شيء مرتبط بالخليفة حتىٰ الشارع الذي يمشي عليه ، فيتجنب أن يرمي فيه أي شيء يعيق حركة المارة أو يفسد السبيل . هـٰذه الأمور التي تحدثنا عنها لا يستهان بها لأن فعلها وإن كانت تبدو للبعض أمراً هيناً إلا أنها تمثل جانباً مهماً من جوانب تفعيل عناية الرؤوف الرحيم .

10 ـ التيسير من باب الرأفة :

أرسل ٱلله تبارك وتعالىٰ الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلىٰ مختلف الأمم من أجل بيان شرعه جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ

ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (1) ، فٱلله تبارك وتعالىٰ جعل لكل أمة شرعاً يتبعونه ، والشرع يتمثل بالكتب السماوية ، كالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم ، فهٰذه الكتب جاءت لكي تبين الأحكام الشرعية ، التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، والأحكام لابد لها من تطبيق لٰكن في بعض الأحيان لا تطبق أو تؤجل وهٰذا يدخل من باب اليسر الذي اتسم به البارئ عز وجل ، واليسر ضد العسر ، فمن مظاهر الرأفة تيسير العبادة ، فإن ٱلله تعالىٰ لم يكلف عباده مالا يطيقون من العبادات في وقت ضعفهم أو حتىٰ في وقت شدتهم ، بل إن التشريع راعىٰ حالات الإنسان في ضعفه أيام سفره ومرضه وسمح له بما لا يسمح للمقيم والصحيح ، ومن ذلك عبادة الصوم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) . في هٰذه الآيات الكريمة يستعرض البارئ جل جلاله أحد أركان الإسلام ألا وهو صوم شهر رمضان ، فقد جعله واجباً علىٰ كل المسلمين ، لٰكن من تيسيره جعل فيه رخصة ، إذ لا يستطيع البعض الصوم نتيجة لعائق صحي أو قد يكون مسافراً ، فمن باب التيسير جعل ٱلله تبارك وتعالىٰ الأيام التي أفطرها الصائم يعيدها في أيام أخر بعد رمضان . وكذلك

---

(1) المائدة ، 48 .

(2) البقرة ، 183 ـ 185 .

الحج فرضه ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ المسلمين لـٰكن أيضاً جعل فيه شرطاً بقوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) ، والسبيل هو الزاد والراحلة ، والحج فرض عين علىٰ كل مسلم قادر ، وبهـٰذا عذر ٱلله سبحانه غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب ، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه ، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه ، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين . وبهـٰذا تتجلىٰ رأفة ٱلله تبارك وتعالىٰ من خلال أحكامه التي وضعها ، والتي من خلالها نستنبط أن رأفته صاحبت فرائضه في سبيل أن يكون تطبيقها موافقاً للواقع .

ويأتي دور الخليفة في هـٰذا الباب وهو اليسر ، فلابد له أن يتعامل مع الآخرين وفق هـٰذا المنطلق الذي أراده ٱلله تبارك وتعالىٰ فليكن باب التيسير واضحاً أمامه ، فإن يطلب أحد مبلغاً من المال والآخر لا يستطيع السداد فعليه الانتظار والصبر حتىٰ يسترجع ماله وإن سامحه فهو أمر عظيم يحتسبه عند ٱلله جل جلاله ، وكذلك الأمر في جميع مرافق الحياة ، وإن تعرض الخليفة إلىٰ عسر فعليه الصبر وتذكر قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (2) ، وتعريف (العسر) في الآيتين ، يدل علىٰ أنه واحد ، وتنكير (اليسر) يدل علىٰ تكراره ، وقول ٱلله جل جلاله هنا بشارة عظيمة ، أنه كلما وجد عسر وصعوبة ، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه ، ويتغلب عليه بإذن ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فحتىٰ لو دخل العسر في بيت نحل صغير لدخل عليه اليسر فأخرجه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (3) . ويرتبط مع

(1) آل عمران ، 96 ـ 97 .

(2) الشرح ، 5 ـ 6 .

(3) الطلاق ، 7 .

اليسر العمل الصالح ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (1) ، فمن صدق بٱلله ووحده ثم عمل صالحاً فجزاؤه عند ٱلله تبارك وتعالىٰ الحسنىٰ ، وهي الجنة التي جعلها ٱلله تعالىٰ لعباده ثواباً علىٰ إيمانهم وطاعتهم له .

11 ـ من مظاهر رأفته الدعوة إلىٰ سبيله بطريقة لينة :

إن أول وظيفة نلحظها من وظائف أي رسول من رسل ٱلله عليهم الصلاة والسلام هي وظيفة تبليغ رسالات ٱلله لخلقه ، وهـٰذا التبليغ يتطلب أسلوباً واعياً ومتقناً في كيفية التعامل مع مختلف المعتقدات والأفكار التي يحملها الخلق ، وكيفية تذويبها وحلها دعوة ٱلله تبارك وتعالىٰ وإدخال بدلاً عنها ، فالرسول في قومه معلم ومصلح ، يقوم بوظيفة إنسانية تربوية أخلاقية وتعليمية من أجل الرفعة بمكارم الخلاق ، ومن بين هـٰذه الأساليب القول اللين ، لأجل اتباع القدوة الحسنة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (2) ، هنا يرسم البارئ جل جلاله طريق الدعوة التي يريدها مع فرعون رغم جبروته وتعنته ، والطريقة هي أن يقولا له قولاً : سهلاً لطيفاً ، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ، ولا غلظة في المقال ، أو فظاعة في الأفعال ، لعل القول اللين ينفعه فيأخذ بالدعوة التي تنقذه من عذاب ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فإن القول اللين داع لذلك ، والقول الفظ منفر عن صاحبه ، وفي قصة موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع قومه نلمس ذلك من خلال تقديم هارون علىٰ موسىٰ علىٰ لسان السحرة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

(1) الكهف ، 88 .
(2) طه ، 42 ـ 46 .

بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [1] ، لقد قدم السحرة هارون علىٰ موسىٰ لعدة اعتبارات منها :

1 ـ إن هارون عاش بينهم وموسىٰ عاش في بيت فرعون ، ولذا لم يكن في الغربة عنهم .

2 ـ إن هارون كان أكبر سناً من موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

3 ـ إن هارون كان أكثر ليناً معهم .

ولاحظ الفرق بين موقف موسىٰ وموقف هارون في بني إسرائيل بعدما اتخذوا العجل إلـٰهاً ، فكان موسىٰ معهم علىٰ الحق متيناً ، وكان هارون بين قومه والدين في حيرة إما أن يشدهم إليه ، وإما أن يتخذ دون ذلك سبيلاً ، إلىٰ أن عاد موسىٰ إليهم وهو للحق نصير ، قال تعالىٰ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ [2] ، حتىٰ غضب موسىٰ علىٰ هارون فأخذ بلحيته ورأسه ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [3] ، ولهـٰذا كان اليهود يستضعفون دوره في الرسالة ، ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ

(1) طه ، 70 .

(2) طه ، 86 ـ 90 .

(3) طه ، 94 .

ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، ولأن بني إسرائيل كانوا إلىٰ هارون أميل من موسىٰ قبل أن يؤمنوا ، وذلك لأن هارون عاش بينهم وموسىٰ عاش في بيت فرعون . ومن أجل هـٰذا طلب موسىٰ من ربه أن يجعل معه هارون يشدد به أزره ، فقال : ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۝٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [2] .

ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربية الناس منفرة لنفوسهم ، عقيمة الإنتاج فقد أرشد ٱلله تبارك وتعالىٰ رسله إلىٰ اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن في توجيهها وتعليمها وتأديبها ثم التدرج بهم إلىٰ كل ما من شأنه أن يحق الحق ويزهق الباطل ولو كره المجرمون ، لذلك نلحظ أن ٱلله جل وعلا أمر رسله عليهم الصلاة والسلام باتخاذ الحكمة في دعوتهم ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكل داع إلىٰ سبيل ربه من بعده أن يدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادل الناس بالتي هي أحسن ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [3] . هنا طريق الدعوة سلك مسلكاً بعيداً عن العنف أو التعصب أو الجبر إذ أنه سلك مسلك الحكمة التي تعامل الخلق علىٰ حسب حالهم وفهمهم وقولهم ، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل فهو الطريق البيِّن الذي يحرك العقول ويقنعها ويثبت الأمر المراد تثبيته ، وتكون الدعوة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلىٰ الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق

(1) الأعراف ، 150 .

(2) طـه ، 29 ـ 36 .

(3) النحل ، 125 .

واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب بالحق دون أي إكراه ، حيث لا إكراه في الدين . والترغيب والترهيب عملية عرض للمنافع والمضار التي يكون عليها من قبل أو رفض الدعوة وهي طريقة اختيارية تتسم بالحرية الكامنة المقرونة بالأدلة المثبتة للنفع والضر في حالتي القبول والرفض .

ووردت اللينة مع الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) ، فالقوم لما انهزموا عن النبي ﷺ يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول ﷺ بالتغليظ والتشديد ، وإنما خاطبهم بالكلام اللين ، ثم إنه سبحانه وتعالىٰ لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلىٰ ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم ، وزاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول ﷺ علىٰ عفوه عنهم ، وتركه التغليظ عليهم فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ . فضلاً عن ذلك أن اللينة هي من شمائل النبي محمد ﷺ التي وهبها ٱلله تبارك وتعالىٰ له فكانت إحدىٰ أدوات الدعوة والتي ساهمت بشكل كبير في نشر الدين الإسلامي وتثبيته ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (2) . منّ ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده أن أرسل لهم النبي محمداً ﷺ الحريص عليهم ، والحرص هنا يتجلىٰ في حب الخير وإيصاله لهم ، كذلك حرصه علىٰ هدايتهم نحو الإيمان وكرّه الشر لهم ، ويسعىٰ بكل جهده في تنفيرهم عنه ، لأنه شديد

(1) آل عمران ، 159 .
(2) التوبة ، 128 ـ 129 .

الرحمة بهم ، وهو رءوف بهم وبأحوالهم كما أن ٱلله تعالىٰ رؤوف به وبهم .

وعليه فالخليفة هو من يستمد الرأفة علىٰ العباد من الرؤوف الرحيم ، ولهـٰذا فمن خصائص الدعاة الكلمة اللينة في الدعوة ، والدعوة إلىٰ جانب كونها الدعوة إلىٰ عبادة ٱلله سبحانه وتعالىٰ فهي طريقة التعامل مع المستخلفين وبينهم في شتىٰ نواحي الحياة ، فالأسرة هي عماد المجتمع ، والتعامل باللين مع عناصرها يسهم في تقوية الروابط الأسرية ومنحها الثقة الكاملة التي تعزز دورها في بناء مجتمع صالح يريده ٱلله تبارك وتعالىٰ . وكذلك إن الدعوة إلىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ لا تكون بالغلظة والفظاظة ، بل بالقدوة الحسنة .

12 ـ من مظاهر رأفته خلق الإنسان في أحسن تقويم :

خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ كل شيء وفق معايير أرادها سبحانه وكلها تتسم بالإتقان والجمال والروعة ، فصورة الكون تتسم جميعها بالجمال ، ومن بين ما خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (1) . هـٰكذا خلق ٱلله الإنسان وفق أطوار متتابعة أفضت إلىٰ أن تكون بالصورة التي أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهي من ميادين البارئ عز وجل لبيان عظيم صنعه وجماله ، والإنسان فيه يتعدد الجمال كما هو آتٍ :

1 ـ في روحه الجمال .

2 ـ في نفسه الجمال .

3 ـ في قوامه وصورته الجمال .

4 ـ في علمه وإيمانه وتوحيده الجمال .

---

(1) المؤمنون ، 12 ـ 14 .

5 ـ في ذوقه الراقي الجمال .

6 ـ في عقله الجمال .

7 ـ في تفكُّره الجمال .

8 ـ في تذكُّره الجمال .

9 ـ في بصره وبصيرته الجمال .

10 ـ في إنصاته وسمعه الجمال .

11 ـ في ما يشاهد ويلحظ الجمال .

12 ـ في إصلاحه وفلاحه الجمال .

وعليه ، فالجمال من أبرز سمات الإنسان التي نوه بها القرآن الكريم ، للدلالة علىٰ قدرة ٱلله تعالىٰ وإبداعه ، يمتن ٱلله به علىٰ عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) ، فالإنسان صوره ٱلله تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة فهو ليس من جنس الحيوانات ، بل هو جنس خاص أراده ٱلله تبارك وتعالىٰ ليكون في أوضح صورة وأحسنها ، فمن ناحية الشكل جعل ٱلله تبارك وتعالىٰ أجزاءه وفق ترتيب بديع فكلها متناسقة ، ولا يمكن وضع جزء مكان جزء آخر ، منتصب القامة ، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا ، ومن ناحية أخرىٰ تجد فيه أسمىٰ ما خلق ٱلله جل جلاله ألا وهو العقل ، فضلاً عن

---

(1) غافر ، 64 ـ 65 .

(2) التغابن ، 3 .

ذلك الإيمان والمحبة والمعرفة التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (1) ، ومع هٰذه النعم العظيمة ، التي ينبغي منه القيام بشكرها ، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (2) ، خطاب ٱلله تبارك وتعالىٰ فيه عملية قلب ، لم يتحدث في البداية عن الخلق مع أنه أسبق من الاغترار ، بل تحدث في البداية عن الاغترار بوصفه صفة سيئة لا تليق بالعابد إذا ما نظر في المرآة ورأىٰ صورته كيف صورها ٱلله جل وعلا والتي تدلل علىٰ عظمة صنعه وإتقانه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (3) ، أما التسوية فهي ، النقطة الأساسية ، التي ينطلق منها جمال الإنسان ، لأن عدم الخلل والنقص في بنيته دليل علىٰ جماله ، وقد خلق ٱلله الإنسان فبلغ به من الإحسان والإتقان ما بلغه ، ولهٰذا استخلفه علىٰ الجمال لا علىٰ القبح ، علىٰ الطاعة والهداية لا علىٰ الكفر والضلال ، فمن اهتدىٰ فإنما اهتدىٰ لنفسه ومن ضل فقد ضل عنها وما ربك بظلام للعبيد .

13 ـ من مظاهر رأفته بيّن لنا الحق من الباطل :

إن معرفة الحق من الباطل من الأمور المهمة في تثبيت الصورة التي يجب أن يكون عليها الخليفة ، وذلك من أجل مرضاة ٱلله تبارك وتعالىٰ ومحبته التي هي مطلب لكل المستخلفين ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) ، والاتباع لابد له من معرفة

---

(1) التين ، 4 .
(2) الانفطار ، 6 ـ 8 .
(3) النمل ، 88 .
(4) آل عمران ، 31 .

الحق من الباطل من أجل تصحيح كثير من العقائد الخاطئة والتصورات البالية .

وأصل الحق المطابقة والموافقة ويقال علىٰ أوجه :

الأول : يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهـٰذا قيل في ٱلله تعالىٰ هو الحق ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [2] .

الثاني : يقال للموجد بحسب مقتضىٰ الحكمة ، ولهـٰذا يقال فعل ٱلله كله حق ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، وقال في القيامة : ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [5] .

الثالث : في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [6] .

---

(1) الأنعام ، 62 .
(2) يونس ، 32 .
(3) يونس ، 5 .
(4) يونس ، 53 .
(5) البقرة ، 147 .
(6) البقرة ، 213 .

الرابع : للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب كقولنا فعلك حق وقولك حق ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

أما الباطل فهو نقيض الحق وهو مالا ثبات له عند الفحص عنه ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

إن معرفة الحق من الباطل نعمة أسبغها رب العزة علىٰ المستخلفين فهي من باب الرأفة الذي ينشده تبارك وتعالىٰ معهم ، والحق والباطل نقيضان لا يمكن لهما الالتقاء تحت أي سقف إلا في المعركة بين ما يجب وما لا يجب ، قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (4) . يبين البارئ عز وجل أنه تكفَّل بإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، أما الباطل فإن ٱلله ينزل من الحق والعلم والبيان ، ما يدمغه ، فيضمحل ، ويتبين لكل أحد بطلانه ، وإن معرفة الحق والباطل أمر أساسي في سبيل أن تجري الحياة وفق نظام واضح جلي لا لبس فيه ، والمستخلفون واجب عليهم جميعاً التناصح والتفاهم في معرفة الحق بدليله ، مع بقاء المحبة والصفاء والأخوة الإيمانية . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (5) .

---

(1) يونس ، 33 .
(2) السجدة ، 13 .
(3) الحج ، 6 .
(4) الأنبياء ، 18 .
(5) يوسف ، 108 .

14 ـ من مظاهر رأفته تكريم ٱلله لخلقه :

الكرم إذا وصف به ٱلله تعالىٰ فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (1) ، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه . والإكرام والتكريم أن يوصل إلىٰ الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل مايوصل إليه شيئاً كريماً وشريفاً علىٰ الفضائل ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (2) .

والتكريم بدأ منذ أن خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ آدم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3) ، فمن خلال هٰذه الآيات الكريمة نلتمس أن ٱلله تبارك وتعالىٰ جاعل الرقي في منزلة هٰذا المخلوق بين سائر خلق ٱلله ، وهٰذا التكريم لم يقتصر علىٰ بداية النشأة فقط بل استمر حتىٰ بعد نزول آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (4) ، والتكريم هو منة من ٱلله تبارك وتعالىٰ يمن بها علىٰ عباده المخلصين والمستخلفين فيها ، وقد جمعت الآية خمس مِنن هي :

1 ـ التكريم .

2 ـ تسخير المراكب في البر .

---

(1) النمل ، 40 .
(2) الذاريات ، 24 .
(3) ص ، 71 ـ 74 .
(4) الإسراء ، 70 .

3 ـ تسخير المراكب في البحر .

4 ـ الرزق من الطيبات .

5 ـ التفضيل علىٰ كثير من المخلوقات .

فأما منة التكريم فهي مزية خص بها ٱلله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية . وقد يتبادر إلىٰ الذهن سؤال : لماذا التكريم يدخل ضمن باب الرأفة ؟ إن الإجابة علىٰ هـٰذا السؤال تدعونا إلىٰ المواضع التي كرم ٱلله تبارك وتعالىٰ فيها بني آدم ومن بين هـٰذه المواضع قوله تعالىٰ : ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ نلتمس أن التكريم جاء في أمور عظام بمعنىٰ أن ابن آدم بنيته ضعيفة لا يستطيع قهر البحار إلا أن من كرم ٱلله تبارك وتعالىٰ تم تسهيل هـٰذه الصعاب له . وأما الرزق من الطيبات فلأن ٱلله تعالىٰ ألهم الإنسان أن يطعَم ما يشاء مما يروق له ، وجعل في الطعوم أمارات علىٰ النفع ، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره .

والتكريم جعل الخليفة كريماً ، أي نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته ، فإن جميع الحيوانات لا تعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها .

وأما التفضيل علىٰ كثير من المخلوقات ، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع الامتنان . وذلك الذي جُماعه تمكين الإنسان من التسلط علىٰ جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحسن تفكيره وبصيرته وحسن إدارته للأمور ، وكفىٰ بذلك تفضيلاً علىٰ البقية .

ومما تقدم يتبين من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقدر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام ، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل

وإنزال الكتب ، وجعل منهم الأولياء والأصفياء ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة . ومما يستدرك في ذلك قول الذي دخل الجنة فوصف نفسه فجعله ٱلله تبارك وتعالىٰ من المكرمين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (1) .

15 ـ من مظاهر رأفته القصاص :

قد يتبادر إلىٰ الذهن سؤال مفاده : ما علاقة القصاص بالرأفة ؟ . وكيف تكون فيه رأفة وقد يصل فيه الحد في بعض الأحيان إلىٰ القتل ؟ قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) ، هـٰذه الأسئلة يرد عليها القرآن الكريم ، بقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (3) . فالحياة لابد أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش الناس حياة طبيعية يأمنون فيها علىٰ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وهـٰذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون بغير حق ، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس ، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس ؛ لأن أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت ، فلو علم القاتل أنه يَسلم من

---

(1) يس ، 20 ـ 27 .
(2) البقرة ، 178 .
(3) البقرة ، 179 .

الموت لأقدم علىٰ القتل مستخفاً بالعقوبات فتحقن بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل ، لا يكاد يصدر منه القتل ، وإذا رئي القاتل مقتولاً انذعر بذلك غيره وانزجر ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذي يحصل بالقتل ، وهـٰكذا سائر الحدود الشرعية ، فيها من النكاية والانزجار ، ما يدل علىٰ حكمة الحكيم الغفار ، ونكَّر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير .

ولما كان هـٰذا الحكم ، لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول والألباب الثقيلة ، خصهم بالخطاب دون غيرهم ، وهـٰذا يدل علىٰ أن ٱلله تعالىٰ ، يحب من عباده ، أن يعملوا بأفكارهم وعقولهم ، في تدبر ما في أحكامه من الحكم ، والمصالح الدالة علىٰ كماله ، وكمال حكمته وحمده ، وعدله ورحمته الواسعة ، وأن من كان بهـٰذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من المستخلفين في الأرض لأجل الإصلاح فيها ، وهم ذوو الألباب الذين وجه إليهم الخطاب ، وناداهم رب الأرباب ، وكفىٰ بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون .

ولأن ٱلله جل جلاله رءوف رحيم كان سميعاً بصيراً ، وعليماً حكيماً ، وحفيظاً ودوداً ، وكان قريباً مجيباً لدعوة الداعي إذا دعاه ، ليفكَّ عنه كل غم وهم .

اللهم يا الرؤوف برأفتك أن تفك عنَّا كل هم وغم وتفتح علينا أبواب الخير لطاعتك وللعمل الذي ترضىٰ به عنَّا ، ووفقنا يا الرؤوف بما يغنينا عن سواك ! اللهمَّ يا الرؤوف بحالنا أصلح أحوالنا ولا تشمِّت أحداً فينا ، واحفظنا من الخائنين والحاسدين والضالين ، عليك توكلنا يا رب العالمين . إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك ! اللهُمَّ يا الرؤوف اجعلنا من المصلحين في الأرض واجعلنا من الوارثين في الدارين واجعل الرأفة تملأ قلوبنا بالرحمة والمغفرة واجعلنا من

المتوكلين عليك في حركتنا ومعاشنا وسكوننا وراحتنا ، إنك قريب سميع مجيب الدعاء والحمد لله رب العالمين !

اللهُمَّ يا الرؤوف كن بأحوالنا وأحوال آبائنا وزوجاتنا وأولادنا رؤوفاً رحيماً ، وكن بأمتنا رؤوفاً حتىٰ تكون بحق خيرَ أمةٍ أخرجت للناس ، تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بِك واحداً أحداً لا شريك لك ! اللهُمَّ يا الرؤوف إننا نسألك أن ترأف بنا وترحمنا ، ونسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ! اللهُمَّ يا الرؤوف كن بنا رؤوفاً وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَكن بنا رؤوفاً فلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِين !

اللهُمَّ أسألك أن تحفظنا برأفتك من بين أيدينا ومن خلفنا وعن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا ومن تحتنا ، وإننا نعوذ بكلماتك التامة من شر خلقك ! اللهُمَّ أسألك باسمك الرؤوف ألا تنزع عنا سترك ، ولا تُنسينا ذكرك ، ولا تجعلنا من الغافلين ! اللهُمَّ يا الرؤوف أنت ربنا سبحانك لا إلـٰه إلا أنت خلقتنا ونحن عبادك ونحن علىٰ عهدك ووعدك ما استطعنا ! اللهُمَّ أنت الرؤوف وسعت كل شيء رأفةً ورحمةً ، اللهُمَّ إننا نلتجئ إليك من التجرؤ عليك ، ونعتصم بك من تحليل حرام أو تحريم حلالٍ ، يا ذا العفو والإفضال والعظمة والجلال ، يا الرؤوف يا الرحيم يا ٱلله !

مَالِكُ المُلكِ جلّ جلاله

مالك الملك : « هو المتصرف بفعله وأمره » (1) ، وهو الذي ينفذ مشيئته في ملكه كيف شاء وكما شاء إيجاداً وعدماً وإبقاءً وإفناءً ، والملك هنا بمعنىٰ المملكة والمالك بمعنىٰ القادر التام القدرة ، والموجودات كلها مملكة واحدة وهو مالكها وقاهرها وإنما كانت الموجودات كلها مملكة واحدة لأنها مرتبطة بعضها ببعض فإنها وإن كانت كثيرة من وجه فلها وحدة من وجه ، ومثاله بدن الإنسان فإنه مملكة لحقيقة الإنسان وهي أعضاء كثيرة مختلفة ولـٰكنها كالمتعاونة علىٰ تحقيق غرض مدبر واحد فكانت مملكة واحدة فكذلك العالم كله كشخص واحد وأجزاء العالم كأعضائه وهي متعاونة علىٰ مقصود واحد وهو إتمام غاية الخير الممكن وجوده علىٰ ما اقتضاه الجود الإلـٰهي ولأجل انتظامها علىٰ ترتيب متسق وارتباطها برابطة واحدة كانت مملكة واحدة وٱلله تعالىٰ مالكها فقط ، ومملكة كل عبد بدنه خاصة فإذا نفذت مشيئته في صفات قلبه وجوارحه فهو مالك مملكة نفسه بقدر ما أعطي من القدرة عليها (2) .

مالك الملك : « هو المتصرف بفعله وأمره » (3) .

مالك الملك : « منْ له مُلك الدنيا والآخرة خالصًا دون وغيره » (4) .

---

(1) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 10 ، ص 11 .
(2) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ، ص 141 .
(3) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 10 ، ص 11 .
(4) تفسير الطبري ، ج 6 ، ص 299 .

مالك الملك ٱلله تعالىٰ يملك الملك يعطيه من يشاء ، وهو مالك الملوك والأملاك يصرفهم تحت أمره ونهيه ، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع [1] .

مالك الملك من أسماء ٱلله الحسنىٰ وصفة من صفاته يوحي بالقدرة والعظمة والتملك المطلق ، لم يرد هٰذا الاسم إلا مرة واحدة في القرآن الكريم ، إلا أن دلالته تشتمل علىٰ كل ما جاء في القرآن الكريم ، وكل ما جاء يمثل ملك ٱلله تبارك وتعالىٰ سواء كان الملك مادياً أم معنوياً ، والاسم يدور في فلك إدراك العقل البشري ولا يتجاوزه ، فهو في ذاته مطلق ولا يدركه إلا ٱلله تعالىٰ ، أما العقل البشري فهو يدرك (مالك الملك) من خلال ما تقع عليه عينه ، وهو لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من ملك ٱلله تعالىٰ .

إن هٰذا التشكل للاسم يوحي بالعظمة والرهبة والانفراد والجلال ، فإضافة مالك إلىٰ الملك رسمت معلماً من معالم تفرد ٱلله تبارك وتعالىٰ في هٰذا الملك العظيم في جميع خواصه وأشكاله وصوره ، فالإضافة هنا أغلقت كل المنافذ التي يمكن من خلالها تقييد ملك ٱلله تبارك وتعالىٰ وجعله ضمن أطر ضيقة يمكن تحديدها أو رسم صورتها أو الاقتصار علىٰ صفة واحدة تكون الأبرز بين باقي الصفات ، فلو قال مالك الرحمة أو مالك المغفرة أو مالك السمٰوات والأرض ، لكان الاسم لا يعبر إلا عن جانب واحد من جوانب عظمة وقدرة وجلال ٱلله تبارك وتعالىٰ . إلا أن وروده في قوله تعالىٰ : ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [2] ، يتسم بالخصوصية الشديدة لهٰذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، لأن في هٰذا اليوم تتجلىٰ فيه صورة المالك العظيم من خلال ما يحدث يوم القيامة من وقوف الخلائق وحضور الملائكة والأنبياء

(1) الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، 62 .
(2) الفاتحة ، 4 .

وحصول عملية الحساب بكل تفاصيلها ، ففي هـٰذا اليوم يظهر للخلائق كمال ملكه ودوامه وعدله وحكمته ، وذهاب كل الأملاك وبقاء ملكه العظيم ، فإضافة مالك إلىٰ يوم الدين اتسمت بأبعاد عديدة لم تقتصر علىٰ جانب واحد بل علىٰ جوانب متنوعة ومتعددة ، وهـٰذه الجوانب كلها تتعلق بإظهار (مالك الملك) . فضلاً عن ذلك أن الإضافة فيها تخصيص لا يستطيع أي معاند أن يجادل فيه ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [1] . ففي يوم القيامة لم يعد هناك مجال لإنكار ملك ٱلله تبارك وتعالىٰ أو التغاضي عن ذلك ، لأن الإنسان حينها يكون مسلوب الإرادة ، وأمام أهوال لا يستطيع فعل شيء تجاهها ، بينما لو كانت الإضافة بأمر دنيوي حاصل في هـٰذه الحياة لاستطاع المعاند المجادل أن يجادل مراء كما جادل النمرود إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الإحياء والإماتة مع أن ظاهر الأمر أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يرد بالإحياء والإماتة ما عناه النمرود القتل أو عدم القتل ، إنما أراد وهب الحياة من الأساس أو سلبها .

ويوضع مالك الملك ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة القدرة لله تعالىٰ وهي (القوي ، والمتين ، والقادر ، والمقتدر ، والواجد ، والعزيز ، والمقيت ، والملك ، والوارث) .

ويرد اسم (مالك الملك) في كتب اللغة مظهراً جوانب عدة تتمحور حول عدة معاني تثير في تشكيلاتها ملكية ٱلله تعالىٰ العظيمة ، ضمن أطر معرفية تقول أن الملك الأول عام والثاني خاص [2] . لأنه لا يكون مالكاً للشيء ، إلا وهو يملكه ، وقد يكون ملكاً للشيء ولا يملكه ، كما يقال : ملك العرب . وملك الروم ، وإن كان لا يملكهم وقد يدخل في المالك ما لا يصح دخوله في

(1) غافر ، 16 .
(2) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1 ، ص 250 ،

ملك . يقال : فلان مالك الدراهم ، ولا يقال : ملك الدراهم . فالوصف بالمالك أعم من الوصف بالملك . وٱلله تعالىٰ مالك كل شيء ، وقد وصف نفسه بأنه : (مالك الملك) يؤتي الملك من يشاء . فكل ملك مالك ، وكل مالك ليس ملكاً ، وإنما قال تعالىٰ (مالك الملك) ، لأنه تعالىٰ يملك ملوك الدنيا وما ملكوا إلىٰ جانب ما يملك بالمطلق سبحانه جل جلاله ، ولذا فهو يؤتي الملك فيها من يشاء . فأما يوم الدين ، فليس إلا ملكه ، وهو ملك الملوك يملكهم كلهم : « وقد يستعمل هـٰذا في الناس ، يقال : فلان ملك الملوك ، وأمير الأمراء ، يريد بذلك ، أن من دونه ملوكاً وأمراء ، ولا يقال : ملك الملك ، ولا أمير الإمارة ، لأن (أميراً) و (ملكاً) صفة غير جارية علىٰ فعل ، فلا معنىً لإضافتهما إلىٰ المصدر » [1] .

إن أسلوبية العام والخاص في هـٰذا الاسم ترسم عظمة وسلطان ٱلله تعالىٰ من خلال جمع الاسم (مالك) الذي لا يمكن استعماله كصفة من صفات البشر مع لفظة (الملك) التي هي الحق الدائم لله تعالىٰ [2] ، فلذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] ، فالملك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم ، والمِلكُ كالجنس للمُلكِ فكل مُلْك مِلْكٌ وليس كلُّ مِلْك مُلْكاً . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [4] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [5] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

---

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 474 .
(2) المفردات في غريب القرآن ، ص 475 .
(3) التغابن ، 1 .
(4) الفرقان ، 3 .
(5) يونس ، 31 .

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

يتصل اسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) بجانب مهم من جوانب التوحيد الخمسة التي تشمل كل أبواب التوحيد في القرآن الكريم وهي :

الجانب الأول : إفراد ٱلله تعالىٰ في الخلق بمعنىٰ أن ٱلله وحده هو الذي خلق كل ما نعلم وما لا نعلم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (2) . وكل شيء هنا تشمل الإنسان والسمٰوات والأرض والأنعام والغيث والزرع والرياح وغير ذلك كثير فلا يحصىٰ . إذ ورد الخلق في آيات عدّة منها قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (4) .

الجانب الثاني : إفراده تبارك وتعالىٰ في الملك بمعنىٰ أن ٱلله تعالىٰ هو المالك الحقيقي لخلقه ، إنه القول الحق ، وهٰذا الجانب الذي يتصل باسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) مبني علىٰ الجانب الأول ، فطالما أن ٱلله تعالىٰ هو الخالق إذاً هو المالك ، ولا يصح ملك غيره ، ولنتدبر هٰذه الآيات الكريمة ،

---

(1) الأعراف ، 188 .
(2) الرعد ، 16 .
(3) البقرة ، 29 .
(4) البقرة ، 164 .

إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (3) .

وأما ما يملكه غير ٱلله تعالىٰ في الظاهر ، فهو أولاً لا يخرج عن ملك ٱلله تعالىٰ ، لأن لله ما في السمـٰوات وما في الأرض ، فالمالك هـٰذا في حقيقته مملوك لله ، ثم إن هـٰذا الملك الذي بيدي الخليفة هو إنما جاء بأمر ٱلله تعالىٰ وتسخيره وتخويله ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (5) .

وأما المعاند لهـٰذه الحقيقة ، حقيقة ملك ٱلله تعالىٰ لكل شيء ، وأن ملك الخليفة في هـٰذه الأرض إنما هو بأمر ٱلله تعالىٰ وتسخير منه ، فسينكشف ضلاله يوم القيامة يوم يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (6) . وملك ٱلله سبحانه وتعالىٰ لكل ما في السمـٰوات والأرض يترتب عليه الجانب الثالث والرابع من جوانب التوحيد وهما :

الجانب الثالث : إفراد ٱلله تعالىٰ في الحكم والتشريع والأمر والنهي ، لأنه هو المالك الخالق ومن يخلق بالتأكيد يملك ومن يملك لاشك أنه هو الذي

---

(1) المائدة ، 120 .
(2) الفرقان ، 2 .
(3) فاطر ، 13 .
(4) الجاثية ، 13 .
(5) الأنعام ، 94 .
(6) غافر ، 16 .

يحكم ويتحكم ، فهـٰذا الجانب قائم علىٰ الجانبين الأولين ، فلا يحق لأحد غير ٱلله تعالىٰ أن يحكم ويتحكم ، خلق ٱلله تعالىٰ الذين يملكهم وكل شيء يحيط بهم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (1) ، وهنا نحن مع يوسف عليه الصلاة والسلام حين يضرب ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين لصاحبيه في السجن لمن ينبغي أن يكون السلطان ، ولمن ينبغي أن يكون الحكم ، ولمن ينبغي أن تكون الطاعة ، هل هي للخليفة أم للذي خلق الخليفة وأوكل له مهمة تنفيذ الأحكام في الأرض بأمر ٱلله تعالىٰ ؟ وهـٰذا يترتب عليه الجانب الرابع .

الجانب الرابع : إفراد ٱلله تعالىٰ بالعبادة والمقصود الامتثال الكامل لحكم ٱلله تعالىٰ وأمره وهـٰذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله ، فبما أن ٱلله تعالىٰ هو الخالق خلق كل شيء ، وهو المالك ملك كل شيء ، وهو الحاكم الذي حكم كل شيء ، فلمن أن تكون العبادة بعد ذلك أيجوز أن تكون لغير الخالق والحاكم والمالك ؟ فهـٰذا خلاف المنطق والعقل قبل أن يكون خلاف التشريع والقرآن الكريم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ (3) ، ويكفي أن نعلم أن هـٰذا الجانب اعتبره القرآن الكريم غاية الخلق فقال : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (4) .

---

(1) يوسف ، 40 .
(2) الأنبياء ، 25 .
(3) النساء ، 36 .
(4) الذاريات ، 56 .

الجانب الخامس : إفراد ٱلله تعالىٰ بأسمائه وصفاته وأفعاله ، فلا شريك لله تعالىٰ في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فلا يجوز أن نصف أو نسمي غير ٱلله تعالىٰ باسم من أسمائه أو صفة من صفاته علىٰ وجه الحقيقة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، ولذا (مالك الملك) اسم وصفة في الوقت نفسه ، لـٰكن الصفات في القرآن الكريم علىٰ أقسام عدة لا نستطيع فهم (مالك الملك) إلا بالتعريج علىٰ نوعين من الصفات :

أ ـ صفات اقترنت بأسمائه تعالىٰ وهي الأسماء الحسنىٰ التي تدل علىٰ صفات معينة لله تعالىٰ ، فالأسماء التي تدل علىٰ الربوبية والخلق والعلم والقدرة والرحمة والعظمة كلها أسماء اشتقت من الوصف فهي أسماء وصفات .

ب ـ صفات تحمل معاني الصفات المتقدمة غير أنها لم تأت بصيغة الاسم وكأنها جاءت مؤكدة لهـٰذه الأسماء كالأسماء التي تدل علىٰ الربوبية والخلق مثل (رب العالمين) و (الخلاق) والاسم الذي نحن بصدده (مالك الملك) ، فهـٰذه الأسماء جاءت معانيها في صيغ أخرىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (4) ، وقوله

(1) الأعراف ، 180 .
(2) البقرة ، 29 .
(3) البقرة ، 107 .
(4) الحج ، 56 .

تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] .

ورد اسم (مالك الملك) في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] ، إن ورود هـٰذا الاسم في هـٰذه الآية العظيمة رسم ملمحاً معرفياً يرتكز ضمن تشكيلات عديدة اشتملت عليها الآية ، إذ يمكن أن نستعرض ما ورد في هـٰذه الآية وفق معطيات عديدة تنم عن جوانب عديدة إلا أنها تلتقي في منعطف واحد هو تجليات الملك الذي تشربت به الآية الكريمة ، فضلاً عن ذلك إن اسم ٱلله (مالك الملك) جاء في بداية الآية ثم تبعه بعد ذلك نسق معرفي اشتمل علىٰ كل الخصائص والصفات التي تحيل عليه ، وهـٰذا النسق اشتمل علىٰ عرض قدرة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فلو تدبرنا الحديث بعد اسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) لوجدنا أنه يرتكز علىٰ الحركة التضادية أو الفعل ورد الفعل ، فكل حدث يجسده فعل أو اسم مرتبط بفعل يعقبه فعل أو اسم مرتبط بفعل يخالف الأول مما شكل مجموعة من الثنائيات التضادية تتمحور حول عدة نقاط منها :

1 ـ الملك ـ العدم :

أول ثنائية تشكل سياق (مالك الملك) في هـٰذه الآيات تتعلق بصفة قريبة جداً من اسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) ، وهو المُلك الذي هو في حقيقته موضع مُلك ٱلله تعالىٰ في السمـٰوات والأرض وكل الكون ، وهو بأمر ٱلله تعالىٰ

---

(1) آل عمران ، 156 .

(2) آل عمران ، 26 ـ 27 .

يهبه لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء ، لـٰكن السؤال هنا هل الملك الذي يهبه ٱلله تعالىٰ للخليفة مساوٍ أو مشابه لملك ٱلله ؟ والحقيقة أنما هو ملك ظاهر يتصرف فيه الخليفة عن ضوء أمر ٱلله تعالىٰ ، وليس له أن يتصرف به كتصرف ٱلله تعالىٰ ، وهنا نتذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الملك النمرود حينما حاول الملك النمرود أن ينازع ٱلله تعالىٰ في ملكه حين حاجه النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأول صفة من صفات المالك وهي الإحياء والإماتة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [(1)] ، هنا يرتسم لنا مشهد من مشاهد الجرأة والتجاهل والعناد والمحاج ، بطله ملك طغىٰ وبغىٰ مما حمله علىٰ أن حاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ربوبية ٱلله تعالىٰ ، فزعم أنه يفعل كما يفعل ٱلله تعالىٰ ، فقال إبراهيم ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي : هو المنفرد بأنواع التصرف ، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير ، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون إلىٰ الآخرة ، فقال ذلك المحاج : ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت ، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف ، وإنما زعم أنه يفعل كفعل ٱلله ويصنع صنعه ، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته ، ويستبقي شخصاً فيكون قد أحياه ، فلما رآه إبراهيم عليه الصلاة والسلام يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة ، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ أي : عياناً يقر به كل أحد حتىٰ ذلك الكافر ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ وهـٰذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه ، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله ، ولا قادحاً يقدح في سبيله ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ أي : تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته

(1) البقرة ، 258 .

وسقطت شبهته ، وهـٰذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه ، فإنه مغلوب مقهور ، فلذلك قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بل يبقيهم علىٰ كفرهم وضلالهم ، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك ، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه وييسر لهم أسباب الوصول إليه ، ففي هـٰذه الآية برهان قاطع علىٰ تفرد الرب بالخلق والتدبير ، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال (1) نحن هنا أمام وقفة عميقة إذ أن هـٰذا الإنسان أعطاه ٱلله تعالىٰ الملك أي وهبه من نعمه فما كان تصرفه ، هل ارتقىٰ إلىٰ مرتبة الخلافة أم نزل إلىٰ درجة الكفر ؟ إذ ادعىٰ أنه يستطيع الإحياء والإماتة ، وقد علم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن هـٰذا الملك الظاهري إنما يجادل مراء فلم يلتفت إلىٰ قوله أنا أحيي وأميت ، إنما أتىٰ له بصفة من صفات (مالك الملك) التي لا يستطيع ردها وهي حركة الشمس بين المشرق والمغرب التي قال عنها ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (2) ، وهنا بهت الملك وظهر زيف ملكه القاصر عن تحريك أي جزء في هـٰذا الكون ، إنما هو ملك بحسب ما يسخره ٱلله تعالىٰ له وليس ملكاً حقيقياً أو مطلقاً .

وإتيان الملك ونزعه لا يملكه إلا ٱلله تعالىٰ فعلىٰ مر الزمن يتبدل الملوك ويتغيرون ويأتي غيرهم وكل هـٰذه التقلبات تكون وفق مشيئته تعالىٰ ، فهو الذي يملك الإتيان والنزع ، فمن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 111 .
(2) يس ، 38 ـ 40 .

بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ (1) ، فترك وأورث يدلان علىٰ التغيير والتبديل مما يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم ، فمن ذلك قول فرعون ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ (2) ، في هـٰذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر ، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر ، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (3) ، فقصة فرعون تمثل أنموذجاً واضحاً لـ : (مالك الملك) في الإتيان والنزع ، فقد تخلل هـٰذه القصة عرض لقدرة وعظمة ٱلله تبارك وتعالىٰ التي كانت واضحة في كل تفاصيلها .

2 ـ العزة ـ الذل :

والسؤال الذي يطرح نفسه ما علاقة (مالك الملك) بالعز والذل ؟ وتبدو الإجابة يسيرة ، لأن من بيده كل شيء يستطيع أن يعطي من يشاء بغير حساب

---

(1) الدخان ، 25 ـ 29 .
(2) الزخرف ، 51 ـ 56 .
(3) يونس ، 90 ـ 92 .

مما يجعله عزيزاً ، أو يستطيع أن يمنعه من ملكه أو من شيء من ملكه فيكون ذليلاً ، ولاحظ كيف أن الصيغة أتت فعلية مضارعة ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ للدلالة على اختلاف الناس بين العز والذل ، إذ يقول تعالى : ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (1) ، وقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ (2) ، أما قوله تعالى : ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ (3) ، هنا القرآن الكريم يقص أخبار المهلكين والمعاقبين في صورة تتمحور على تشكيلات متعددة لكن أبرز ما يسمها أنها تتكئ على آثار واضحة المعالم ترى بالعين ، فتكون للتصديق والموعظة أقرب ، قال تعالى : ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ ، والآية التي وردت في النص القرآني يستنطق فيها ما أدرَّ الله عليهم من النعم ، وصرف عنهم من النقم ، الذي يقتضي ذلك منهم ، أن يعبدوا الله ويشكروه ، والنعمة التي كانوا عليها تتمثل في جنتين ، جنة عن اليمين وأخرى عن الشمال ، والثمار تمثل أقواتهم ، فضلاً عن ذلك أن الله جعل بلدهم ، بلدة طيبة ، لحسن هوائها ،

(1) آل عمران ، 140 .
(2) النحل ، 112 .
(3) سبأ ، 15 ـ 19 .

وقلة وخمها ، وحصول الرزق الرغد فيها ، والأمن الدائم الذي يتمتعون به مما جعل تجارتهم رائجة وعامرة . إن هـٰذه النعمة لم تتوفر لعدد كثير من الناس في وقتهم ، إلا أن هـٰذه النعمة لم تدم لأن أسباب الدوام فقدت فلابد لها من الزوال بأمر ٱلله تعالىٰ ، ذلك أنهم أعرضوا عن المنعم وعن عبادته ووصل الأمر بهم إلىٰ التمني بأن تتباعد أسفارهم بين تلك القرىٰ ، التي كان السير فيها متيسراً . ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بكفرهم بٱلله وبنعمته ، فعاقبهم ٱلله تعالىٰ بهـٰذه النعمة ، التي أطغتهم ، فأبادها عليهم ، فأرسل عليها سيل العرم . الذي حول النعمة التي كانوا عليها إلىٰ تلف وخراب في صورة تنطق بعدالة رب العالمين تجاه هـٰؤلاء الكفرة الجاحدين لنعمته .

ولا نتصور أن العز والذل اللذين هما بيد (مالك الملك) مقصوران علىٰ الأمور الحسية المادية كما ذكرنا قبل قليل ، بل إن العزة والذل يكونان بالإيمان والكفر ، فالمؤمن عزيز وإن كان فقيراً ، والكافر ذليل وإن كان غنياً ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وهـٰذه الآية نزلت في مكة والمسلمون بأضعف حال وأشد عازة ، فأين العزة إذاً ؟ إنها عزة الإيمان وتوحيد ٱلله تعالىٰ والثبات علىٰ القيم والمبادئ ، ولاحظ كيف أن ٱلله تعالىٰ يعلمنا أن نكون أذلاء مع بعضنا البعض أي الخليفة مع الخليفة الآخر بينما يكون عزيزاً مع الكافر والمشرك قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

3 ـ الليل ـ النهار :

أول ما يتبادر إلىٰ الذهن ما علاقة اختلاف الليل والنهار ودخول

---

(1) المنافقون ، 8 .
(2) المائدة ، 54 .

أحدهما بالآخر باسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) ؟ وتبدو الإجابة مرتبطة بأشكال التوحيد التي ذكرناها وقلنا فيها أن ٱلله تعالىٰ هو الخالق جل جلاله ، والخالق يكون هو المالك ، وعليه فالتصرف في كل الكون يكون بيده ، ومن أشكال التصرف في الكون مظاهر الحياة المختلفة التي تدل علىٰ ملكه لكل شيء ، ولنتدبر هـٰذه الآيات من سورة يس ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) . فكل هـٰذه الحوادث الكونية تشير إلىٰ ملك ٱلله تعالىٰ لكل ما في الكون ، لأنها تتحرك بحسب أمره تعالىٰ ، ويتكرر ذكر الليل والنهار لأن المشاهدة لهما تحدث يومياً ، وهـٰذه الثنائية ترتبط بالثنائية التي بعدها .

4 ـ الحي ـ الميت :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (2) ، النواة أو الحبة بعدما تزرع أو تغرس في البيئة الصالحة للحياة تنفلق في موتها فتخرج منها النبتة دليل الحياة القابلة للمشاهدة والملاحظة ، ومن بعد حياة النبتة ، لا بد لها من الموت حيث لكل بداية نهاية ، وهنا يخرج الميت من الحي ، أي لو لم يكن الحي ما كان الموت ، ولأن الموت فعل متحقق بالقوة ، فالبعث من بعدها حياة دائمة .

وهنا صورة قرآنية يجسدها مصطلح (الخروج) تعتمد تقابل التضاد المتمثل في مشهد خروج الميت من الحي وما يضاده من خروج الحي من

(1) يس ، 36 ـ 40 .
(2) الأنعام ، 95 .

الميت ، هـٰذا الخروج الدال علىٰ قدرة إلـٰهية مطلقة علىٰ الشيء وضده فالحياة والموت « يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر علىٰ الحي يدب فيه الموت إلىٰ جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبنىٰ فيه الحياة ! خلايا حية منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل » (1) . كما أن الطبيعة بما فيها من صور خروج الحياة من الموت ، وخروج الموت من وسط الحياة خير تمثيل لدلالة الخروج هنا ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (3) .

وفي مجال آخر بعيد عن المحسوسات تنسحب دلالة مصطلح الخروج إلىٰ مجال المعنويات ، في إطار التدليل علىٰ عمل ٱلله تعالىٰ في بعث الحياة المتمثلة بالإيمان وهو الأرفع والأسمىٰ من الحياة الحسية ، وأخرج الإنسان من الموت المتمثل بالكفر ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (4) ، فمصطلح الخروج هنا دار في إطار بعث الحياة المعنوية الإيمانية ، والانتقال بالإنسان من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان بإذن ٱلله تعالىٰ ، فهو حياة من نوع آخر ، وبالدلالة نفسها قوله تعالىٰ : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (5) ،

(1) في ظلال القرآن ، ج 1 ، ص 355 .
(2) الأنعام ، 95 .
(3) يونس ، 31 .
(4) البقرة ، 257 .
(5) المائدة ، 16 .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ (2) .

إذ إن إخراج الحي من الميت أو إخراج الميت من الحي ، بمعنىٰ إعطاء الحياة لمن يشاء وسلبها عن من شاء ، لا تكون إلا لمن بيده مقاليد الأمور الذي يستطيع أن يجعل لكل أجل كتاباً ، ولا يكون ذلك إلا لمن يملك كل شيء ، وليس كل شيء ظاهرياً بل جواهر الأشياء وحقائقها التي تحيلها أمواتاً أو تبقيها أحياءاً ، فالتراب مثلاً أو الأرض يمكن أن تكون للخليفة كما نرىٰ في حياتنا اليومية ، لـٰكن لماذا لا يستطيع الخليفة أن يخلق من الخليفة كائناً حياً أو ينبت شيئاً من غير أمر ٱلله تعالىٰ ؟ ذلك أن ملك الخليفة للأرض ملك ظاهر يتعلق بسطح الأرض ، أما جوهر وظيفة الأرض في هـٰذا الكون وهي إمداد الحياة بعوامل البقاء فلا يملكها إلا ٱلله تعالىٰ ، ولذلك يستطيع أن يجعلها حية أو ميتة ، يقول تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ

(1) إبراهيم ، 5 .
(2) الطلاق ، 11 .
(3) السجدة ، 27 .
(4) البقرة ، 22 .

وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [(1)] .

أما (خرج) في القرآن الكريم نجد أنها تدور في إطار التدليل علىٰ تشكيل الحياة وبعثها في محاور متباينة ومتكاملة معاً ، بحيث يفضل في النهاية إلىٰ تأكيد قضية القدرة الخالقية من كل الجوانب وعلىٰ كل المستويات .

ففي مجال بعث الحياة البشرية ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [(2)] ، فالإخراج هنا جاء للتدليل علىٰ بعث الحياة في مجال بشري ، إذ أن دلالة (أخرجكم) تتجه نحو الولادة التي تمثل بعثاً جديداً للحياة وتشكيلاً مستمراً لمفرداتها . وبالدلالة نفسها قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [(3)] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [(4)] ، وفي مجال التدليل علىٰ قدرة ٱلله علىٰ بعث الحياة في الطبيعة متمثلة بالنبات النامي ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [(5)] . نلاحظ تكرار مادة (خرج) ثلاث مرات (فأخرجنا) مرتين و (نخرج) مرة واحدة ، بدلالة بدء جديدة لحياة متجددة في نبات ينمو ويثمر ويتكاثر ، مع ملاحظة استخدام أسلوب الالتفات في (أخرجنا) من الغيبة إلىٰ

---

(1) البقرة ، 164 .

(2) النحل ، 78 .

(3) غافر ، 67 .

(4) الطارق ، 7 .

(5) الأنعام ، 99 .

التكلم ، للتنبيه علىٰ عظمة الفعل وتأكيد اختصاصه بٱلله تعالىٰ . كما أن هـٰذا التنوع في صيغ مادة (خرج) فيها إشارة إلىٰ تنوع وتلون أشكال النباتات النامية .

5 ـ الثنائية المتفرقة :

ثنائية واحدة في هـٰذا السياق وردت بشكل منفصل ، فهي تتشكل من قوله تعالىٰ : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [1] ، و﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] ، وعلىٰ الرغم من أن هـٰذه الثنائية غير مرتبطة من حيث السياق الخاص ، إذ الخير بمعناه العام هو كل رزق الإنسان ، وبما أنه بيد ٱلله تعالىٰ فشيء طبيعي أن يكون الرزق بيد ٱلله تعالىٰ ، وأن الخير بيده من الأساس ، ولهـٰذا قال : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وترد لفظة البقاء في حديثنا عن (مالك الملك) ، فالبقاء دال علىٰ حياة بلا فناء ، ولا يوجد كائن حي في الكون كله لا يعرف الفناء ، فدلالة البقاء في حقيقتها تشير إلىٰ الموت من وجه أخر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [3] ، فالآية تقرر صراحة أن الفناء جزء من كيان كل كائن حي ، وأن البقاء لله وحده ، الحي الذي لا يموت ، وكل شيء يتعلق بالذات الإلـٰهية يتصف بالحياة الباقية التي لا تعرف الفناء ، يقول تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [4] ، فالآية الكريمة حققت المفارقة بين كل ما عند البشر وما في الكون كله ، وبين ما عند ٱلله ، فما عند البشر مصيره الفناء بعد الحياة ،

(1) آل عمران ، 26 .
(2) آل عمران ، 27 .
(3) الرحمـٰن ، 26 ـ 27 .
(4) النحل ، 96 .

وما عند ٱلله باق إلىٰ أن يشاء ٱلله تعالىٰ ، فرزق ٱلله يصفه القرآن الكريم بالبقاء ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (1) ، والحياة الآخرة عند ٱلله هي الباقية ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (2) ، وحتىٰ عذاب الآخرة يستمد بقاؤه من بقاء ٱلله تعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (3) ، وفي سياق يجمع القرآن الكريم بين الحياة الفانية ، وبين الحياة الآخرة الباقية ، فيقول تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (4) ، فكل سبب من أسباب الدنيا يحمل الفناء في داخله ولا بقاء له ، وكل ما يتعلق بالآخرة يحمل البقاء في وجوده ، لاتصاله بٱلله تعالىٰ ، الباقي بعد فناء الخلق كلهم ، فالآية الكريمة حققت المقابلة بين دلالة الفناء متمثلاً بالحياة الدنيا ودلالة البقاء متمثلاً بما عند ٱلله تعالىٰ من حياة ، فالبقاء في الدنيا محال ، فهو وإن دل علىٰ الحياة فإنه يدل علىٰ الموت من وجه أخر .

أما دلالة اسم ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) فإنها توحي بالبقاء الدائم ، من ذلك أن الأملاك في الدنيا تقترن بأصحابها ، لـكنها لا تدوم لأن أصحابها في عداد الأموات ، لأنهم أنفس وكل نفس نهايتها الموت ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (5) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (6) ، فدلالة الموت توحي أن كل ما هو

---

(1) طه ، 131 .
(2) الأعلىٰ ، 17 .
(3) طه ، 127 .
(4) القصص ، 60 .
(5) آل عمران ، 185 .
(6) الزمر ، 30 .

موجود على الأرض سوف يذهب ويتلاشى ولا يبقى منه شيء ، وهذا ما سيتحقق في يوم القيامة ، إذ يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (1) ، هذا مشهد من مشاهد الآخرة العظيمة ، فبعد أن يجتمع الناس جميعاً في صعيد واحد ، لا يخفى منهم شيء ، يقول ٱلله تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين ، أهل السموات وأهل الأرض ، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك ، وتقطعت الأسباب ، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة ، الملك ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ إنها الإجابة القاطعة من قالها قال الحق المطلق ، فٱلله الواحد القهار ، هو المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه . ﴿ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لجميع المخلوقات ، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت ، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم ، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه . فخطاب (مالك الملك) اتسم بنبرة التحدي للأصوات التي علت في الدنيا وتفاخرت بما ملكت ونسيت (مالك الملك) وأصرت على الكفر والعناد ، فكل الأملاك تزول ويبقى ملكه العظيم الدائم سبحانه جل جلاله لا إله إلا هو ، كل شيء هالك ويبقى وجهه ذو الجلال والإكرام .

إن القراءة للتاريخ البشري تمدنا بسلسلة طويلة ممن أنعم ٱلله تعالى عليهم من ملكه ، ومن بينهم النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي انفرد عن غيره من الأنبياء بما أعطاه ٱلله تعالى ، إذ يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ

(1) غافر ، 16 .

﴿ وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ [1] ، يتجلىٰ هنا كرم الباري عز وجل في منح النبي سليمان عليه الصلاة والسلام ملكاً لم يحصل عليه أحد ، إذ يدلل هـٰذا الملك علىٰ عظمة وجلال صاحبه ، فالعطاء هنا ليس طبيعياً متعارفاً عليه من قبل بني البشر ، فهو يمثل حالة خاصة أرادها تعالىٰ أن تكون للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ صورة واضحة لـٰكن الشخصيات فيها غيبية مما تحمل دلالات كثيرة في إعطاء صورة مهيبة لهـٰذه المكرمة ، فالشيطان صورة غيبية لا يمكن تصورها ، إلا إنها وردت في القرآن الكريم من باب بث الرعب في نفوس المخاطبين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [2] . وهـٰذه المكرمة استمرت حتىٰ علىٰ عهد رسول ٱلله ﷺ ، فقد ورد في الحديث النبوي أن رسول ٱلله ﷺ قال : « إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاةَ وَإِنَّ ٱللهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّىٰ تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ أَوْ كُلُّكُمْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [3] .

أما المتجبرون والطغاة فكان لهم نصيب وافر من ملك ٱلله تعالىٰ ، لـٰكن هـٰذا الملك سرعان ما يزول نتيجة أفكارهم وأعمالهم التي حولت ملكهم إلىٰ ذكرىٰ من ذكريات التاريخ ، فمن هـٰؤلاء قارون ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ

(1) ص ، 34 ـ 40 .
(2) الصافات ، 62 ـ 68 .
(3) صحيح مسلم ، ج3 ، ص 147 .

أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [1] ، هـٰذه الآيات تتحدث عن شخصية مهمة من شخصيات التاريخ ، حتىٰ أصبحت مضرباً للمثل بما أوتي من مال ، فقارون من بني إسرائيل الذين فضلوا علىٰ العالمين ، وامتن ٱلله تعالىٰ عليهم بما أمنن به ، فكانت حالتهم مناسبة للاستقامة ، ولـٰكن قارون هـٰذا بغىٰ علىٰ قومه وطغىٰ ، بما أوتي من الأموال العظيمة ، إلا أن القرآن الكريم ذكر الأموال العظيمة ثم ذكر بعدها مفاتيح خزائنه في صورة توحي بعظمة الأموال التي كان يملكها ، فإذا كان حال المفاتيح بهـٰذا الثقل فكيف تكون خزائنه ؟ أما موقف قومه فلم يكن موقف المتفرج بل كان موقف الناصح والمحذر له ، إذ بينوا له أن هـٰذه الأموال هي من الطرق الموصلة إلىٰ الآخرة ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وإن هـٰذه الأموال ليس كلها تتصدق بها ، بل استمتع بدنياك بما يرضي ٱلله تعالىٰ ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وابتعد عن التكبر وارتكاب المعاصي ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾بل يعاقبهم علىٰ ذلك ، أشد العقوبة . ثم كانت العقوبة وهي الخسف ، فقد اختص هـٰذا الشكل من الموت في القرآن الكريم بقارون

(1) القصص ، 76 ـ 82 .

المتكبر لترابط واضح بين تكبره وتعاليه ودلالة الخسف ، وخَسَفَ ٱلله به الأَرضَ خَسْفاً أَي غابَ فيها [1] ، والخسف يشبه الزلزال العظيم الذي يضرب الأرض ثم يحدث فيها شق كبير فيسقط فيه كل ما هو موجود علىٰ سطح الأرض ، فيموت كل ما دخل فيه إلا ما شاء ٱلله ، فعقاب قارون كان متناسباً مع جرمه .

ولقد هدد ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز الظالمين بعقوبة الخسف ، فقال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [2] ، فالسياق في إثبات قدرة ٱلله تعالىٰ المطلقة علىٰ إهلاك الظالمين سواء في البر أو البحر ، لـٰكن لما كان البر أكثر إشعاراً بالأمان من الماء واستبعاداً للهلاك ذكره تعالىٰ تأكيداً لقدرته علىٰ إهلاك الظالمين في أي جانب كان البر أو البحر فهما علىٰ السواء بالنسبة لقدرته تعالىٰ ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ [3] ، يلحظ في هـٰذه الآية الكريمة مقابلة بين السماء والأرض ، أظهرت قدرة ٱلله تعالىٰ العظيمة ، فمن في السماء هو ٱلله تعالىٰ يقابله من في الأرض ، وفي هـٰذا إشارة إلىٰ عظيم القدرة إذ لا يحتاج تعالىٰ أن يكون في موضع الإهلاك ليكون قادراً علىٰ الإهلاك كعادة الناس ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون بلا أسباب موصلة لذلك إن شاء .

ويلحظ دقة استعمال الخطاب القرآني للصيغ الفعلية في سياقات الخسف ، إذ ورد الفعل الماضي في مواضع تتحدث عن خسف حدث وانتهىٰ كقوله تعالىٰ عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ

---

(1) لسان العرب ، ج 9 ، ص 67 .
(2) الإسراء ، 68 .
(3) الملك ، 16 .

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [1] . أما الصيغ الفعلية للمضارعة فجاءت في مواضع تتحدث عن حكم عام له تعالىٰ متجدد في كل زمان كما قال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [2] ، فالفعل المضارع (يخسف) يعطي دلالة التجدد في هـٰذا الحكم والاستمرارية له .

أما الغرق فكان مع فرعون ، إذ يمثل هـٰذا الشكل صنفاً من أصناف الموت صورة العقاب والهلاك الجماعي لأمة كاملة ، ذلك أنه جاء في الخطاب القرآني عقاباً لقوم نوح عليه الصلاة والسلام وقوم فرعون ، ويمثل كل منهما أمة كافرة بذاتها .

والغرق في اللغة : « الغَرَقُ الرُّسُوب في الماء ويشبّه الذي ركبه الدَّيْن وغمرَتْه البَلايا ، يقال : رجل غَرِق ، وغَريق ، وقد غَرِقَ غَرَقاً ، وهو غارِقٌ » [3] ورد هـٰذا الشكل من أشكال الموت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة في اثنين وعشرين موضعاً ، ودلالته في هـٰذه المواضع « كلها علىٰ اختلاف صيغها ، فعلاً ومصدراً واسم مفعول . ومن الغرق بمعناه الأول القريب ، بصريح سياقها في اليم والبحر والموج ، أو في قوم موسىٰ والكفار من قوم نوح » [4] . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [5] . الغرق هو البلاغ في الشيء إلىٰ غايته بحسبه ، فإن كان في

---

(1) القصص ، 81 .
(2) النحل ، 45 .
(3) لسان العرب ، ج 10 ، ص 283 .
(4) التفسير البياني ، ج 1 ، ص 110 .
(5) الفرقان ، 35 ـ 37 .

الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبُعد قعره ، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض [1] ، ويلاحظ أن هنالك ربطاً بين الغرق والخسف وذلك لأن كليهما موت بالاختناق وانقطاع النفس بسبب الغور في باطن البحر أو الأرض .

والآيات السابقة كما نلاحظ تربط بين هلاك فرعون وقومه وقوم نوح عليه الصلاة والسلام : « فلما أخبر ٱلله تعالىٰ أنه دمر آل فرعون تدميراً أخبر بأنه أغرق قوم نوح ، وكل من الفعلين (دمر) و(أغرق) يُعين الآخر في بيان هول العقوبة ونوعها ، فأما (دمرناهم) فإعلام بعقوبة الفناء التام العام لفرعون وجنوده ، وأما ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ فإخبار بنوع العقوبة وتخصيصها وهي الغرق ، وكلا الفئتين أبيدت غرقاً ، فتماثلت العقوبتان باتحاد الذنب وهو تكذيب الآيات والرسل » [2] .

ففائدة الفعل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ هو تكرار معنىٰ الإهلاك بالتدمير وبيان نوعه . ويلاحظ أن الآيات السابقة ولأنها جاءت لإثبات قدرة ٱلله تعالىٰ المطلقة علىٰ إهلاك الظالمين ، عمد الخطاب القرآني إلىٰ حذف كثير من تفاصيل القصتين اللتين تتحدثان عنهما موجهاً السياق نحو شكلية الإهلاك وقوته ، كما نلاحظ ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [3] . إذ حذف من السياق دعوة موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام لقومهما ، والأحداث التي جرت بينهما وبين فرعون ، ووجه السياق مباشرة بعطفه بالفاء الدالة علىٰ التعقب السريع إلىٰ النتيجة النهائية وهي التدمير غرقاً ، وهو غرق السياق الأول لإثبات قدرة ٱلله تعالىٰ المطلقة في إهلاك الكافرين .

---

(1) البقاعي ، ج 1 ، ص 90 .
(2) أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ، ص 19 .
(3) الفرقان ، 36 .

وبالمعنىٰ نفسه ورد قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [1] .

إن استعمال (الغرق) بصيغة المصدر الدال علىٰ الثبات المطلق والحدث المجرد يرسم لنا صورة مخيفة لعظم الماء الذي غمر فرعون وجنوده ، وكان هـٰذا الغرق راسخاً لفرعون وجنوده وهو نوع خاص بهم عقوبة لهم علىٰ كفرهم ، وعمَّق هـٰذه الصورة مجيء الفعل أدرك قبل فعل الغرق والذي يدل علىٰ بلوغ أقصىٰ الشيء . وهو يؤذن بأن الغرق دنا منه تدريجياً بهول البحر ومصارعته الموج ، وهو يأمل النجاة منه ، وأنه لم يُظهر الإيمان حتىٰ أيس من النجاة وأيقن بالموت ، وذلك لتصلبه في الكفر [2] . ومعنىٰ هـٰذا الكلام أن ٱلله تعالىٰ لم يقبل توبته لأنه قالها بعد أن غرق وكأنه قالها في نفسه تحت الماء ، ولعلنا نلمح من لفظ أدرك تشخيصاً للغرق ، وكأنه وحش مخيف يجري وراء فرعون وهو يحاول الخلاص منه ! !

وبعد الغرق وذهاب فرعون ومن علىٰ شاكلته تتجلىٰ صورة (مالك الملك) الدائم الباقي ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [3] ، فترك وأورث يدلان علىٰ التغيير والتبديل مما يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم

(1) الفرقان ، 37 ـ 40 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 7 ، ص 60 .
(3) الدخان ، 25 ـ 29 .

لهم ، فمن ذلك قول فرعون ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ (1) ، في هـٰذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر ، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر ، وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر ، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (2) ، فقصة فرعون تمثل أنموذجاً واضحاً لـ : (مالك الملك) في الإتيان والنزع ، فقد تخلل هـٰذه القصة عرض لقدرة وعظمة ٱلله تبارك وتعالىٰ التي كانت واضحة في كل تفاصيلها .

ومالك الملك ، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء ، ومتىٰ ما شاء فلا مرد لقضائه ، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة والقدرة والعزة والغنىٰ . وقد تجلىٰ ذلك في عقاب الأمم السابقة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ

(1) الزخرف ، 51 ـ 56 .
(2) يونس ، 90 ـ 92 .

فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [1] . هـٰذه الآيات تعرض أمر ٱللهِ تعالىٰ النافذ في قوم لوط ، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم عليه الصلاة والسلام ، فكان محاوراً للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين ، فضلاً عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فالأمر أصبح واجب التنفيذ ، لأن أمره تعالىٰ لا يرده أحد ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٖ ﴾ [2] . هـٰذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط ، لا محالة وأنه لا مرد له ، إذ بينه تعالىٰ في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [4] . أما قوم يونس عليه الصلاة والسلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لـٰكن بصورة مغايرة عن قوم لوط ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [5] . إن قوم يونس كانوا بنينوىٰ من أرض الموصل ،

---

(1) هود ، 74 ـ 81 .
(2) هود ، 76 .
(3) هود ، 82 ـ 83 .
(4) الحجر ، 74 ـ 75 .
(5) يونس ، 98 .

فلما فقدوا نبيهم عليه الصلاة والسلام قذف ٱلله تعالىٰ في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح ، وأخرجوا المواشي ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلىٰ ٱلله أربعين صباحاً ، فلما عرف ٱلله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة علىٰ ما مضىٰ منهم ، كشف عنهم العذاب بعدما تدلىٰ عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل (1) . فصورة العذاب المتحققة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحققة عند قوم يونس ، مما يدلل في كلا الأمرين أن أمر ٱلله تعالىٰ نافذ كما يشاء في تحقيق العذاب وعدمه ، ولا يكون ذلك إلا له جل جلاله .

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقوق ، ولهـٰذا فإن توزيع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلىٰ ما يملكه الميت ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ (3) إلا أن ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه ٱلله تعالىٰ للكل ، بان لهم الحق في الأملاك ، إلا أن كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولابد له من زوال ،

(1) الدر المنثور ، ج 5 ، ص 269 .
(2) النساء ، 8 ـ 11 .
(3) الفجر ، 19 .

أما ملك ٱلله تعالىٰ فهو دائم لا يزول ، إذ تتضح الصورة العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها ولا يبقىٰ إلا هو (مالك الملك) جل جلاله ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (1) .

أما الحديث عن الوراثة من باب أن ٱلله تعالىٰ جعل الخليفة يرثه في الأرض ، فهـٰذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أراده ٱلله تعالىٰ للخليفة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (2) . هـٰذه من وعود ٱلله تعالىٰ لعباده الصادقين المخلصين بأن يستخلفهم في الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في تدبيرها ، والتصرف يكون بإقامة شرع ٱلله تعالىٰ في أنفسهم وفي غيرهم ، وهـٰذا يدخل ضمن نطاق الأمانة التي قال عنها تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ (3) .

أما من ناحية الحاجة فإن كل المخلوقات بحاجة إلىٰ ملك ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا الملك يتمثل في كل شيء يكون السبب في دوام الحياة ، من ذلك الهواء فهو سر من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن للكائنات أن تعيش ، فضلاً عن ذلك فهو يعد سبباً رئيسياً للحركة والتنقل ، فالطائرات لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل أنواعها لا يمكن لها التحليق دون وجود

---

(1) غافر ، 16 .

(2) النور ، 55 .

(3) الأحزاب ، 72 .

الهـواء ، أمـا المـاء فهـٰذا سـر عجيـب ، فهـو أصـل الحيـاة ، إذ يقـول تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (1) وبالماء يحيي ٱلله تعالىٰ الأرض ، فيسوق إليها المطر ، يقول تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (2) . فضلاً عن ذلك إن كثيراً من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء ، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه ، فهي بحاجة له من أجل الاستمرار في الحياة .

مالك الملك ، يملك مالكي الملك والملك ، ويتضح الأمر هـٰذا من خلال عملية الخلق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (3) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (4) . والخلق يستدل به علىٰ المالك ، فٱلله تعالىٰ هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك ، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك إن ٱلله تعالىٰ يملك ما تملكه هـٰذه الأنفس سواء أكان الملك مادياً أم معنوياً ، لأن أصل ما يملكونه هو من عند ٱلله تعالىٰ (مالك الملك) ، وبذلك يتأطر هـٰذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكل أبعادها وحيثياتها . إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ

(1) الأنبياء ، 30 ـ 31 .
(2) السجدة ، 27 .
(3) البقرة ، 21 .
(4) فاطر ، 11 .

سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [1] ، هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم بما فيه من شدة وهول ، فالخطاب هنا علىٰ سبيل الفرض والتقدير ، لو كان لهم ما في الأرض جميعاً ، أي لو تحققت الملكية الحقيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض ، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب ، ما قبل منهم ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [2] ، فهنا المعادلة المفترضة لم تتحقق ، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة ، وٱلله تعالىٰ يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون ، وهنا نرجع إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [3] . الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلىٰ أي مرجعيات ، إلا إلىٰ مرجعية واحدة هي أن ملك ٱلله تعالىٰ ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة .

إن لفظة (المُلك) التي يبنىٰ عليها اسم (مالك الملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد ، فهي تحيل إلىٰ رسم صورة عظيمة ، يجمع ما يدور فيها من ملك ٱلله تعالىٰ بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك ٱلله تعالىٰ ، فهي لم تقتصر علىٰ الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هـٰذا الملك ، ومن بين مظاهر (مالك الملك) الآتي :

1 ـ الرزق :

هـٰذه المفردة تكررت في النص القرآني ضمن سياقات كثيرة تدلل بمجملها أن الرزق هو بيد ٱلله تبارك وتعالىٰ يتصرف به كما يشاء ، ومن خلال

---

(1) الزمر ، 47 ـ 48 .

(2) الشعراء ، 88 ـ 89 .

(3) الفاتحة ، 4 .

هـٰذا التصرف تتجسم الملكية المتحققة في ذات ٱلله تعالىٰ ، فمن المواضع التي ورد فيها الرزق قوله تعالىٰ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1] تشكلت هـٰذه الآيات في بدايتها من عنصر مهم يمثل أحد الأماكن المهمة في مزاولة العبادة ألا وهو المسجد ، ثم بعد ذلك جاء ذكر الزمن المتمثل فيه وقت العبادة ، وقد خص ٱلله تبارك وتعالىٰ هـٰذين الوقتين لشرفهما ، ولهـٰذا نجد أن أذكار الصباح والمساء تقدم ذكرهما علىٰ باقي الأوقات في ذكر ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذه الأعمال لا يقوم بها إلا رجال اتسموا بخصائص وصفات مهمة فهم﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ وهـٰذه الأعمال رغم كل ما فيها فهي لا تشغلهم عن عبادة ٱلله تبارك وتعالىٰ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل جعلوا طاعة ٱلله وعبادته غاية مرادهم ، ونهاية مقصدهم ، فما حال بينهم وبينها رفضوه ، نجد أن نسق الآية الكريمة كله اشتمل علىٰ وصف لعباد ٱلله اتسموا بصفات يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ ويحث عليها ، فكان ختام الآية بالرزق ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فالرزق هنا مفتوح غير مقيد ففيه زيادة عن الاستحقاق ، وهـٰذا الأمر يتعلق بكمال قدرة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ونفاذ مشيئته في توزيع الرزق بين العباد . هـٰذه صور من صور الرزق التي بينها ٱلله تعالىٰ جاءت بعد وصف للعباد بصفات لا تليق إلا بالعابد الطائع ، بينما هناك صورة أخرىٰ مغايرة رسمتها آية كريمة وانتهت أيضاً بأن ٱلله تعالىٰ بيده الرزق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] هـٰذه الآية رسمت صورة واضحة عن الذين كفروا بٱلله وبآياته

---

(1) النور ، 36 ـ 38 .

(2) البقرة ، 212 .

ورسله ، وبرغم كل الصفات التي اتسم بها هـٰؤلاء تبقىٰ قضية الرزق فيها إطلاق ، بمعنىٰ أنها لا تقتصر علىٰ أحد من الخلق فهي لهم جميعاً وهـٰذا بطبيعة الرزق الدنيوي فهو للمؤمن وللكافر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (1) . أما الرزق الآخر المتمثل برزق القلوب من العلم والإيمان والمحبة ، والتعلق بٱلله ومحبته والخشية منه ، فٱلله تعالىٰ لا يعطيها إلا لمن أحبه . ومن أحبه ٱلله دخل في رضوانه الذي هو مبلغ عظيم .

الرزق هو بمثابة الحياة والموت لكل الخلق ، ومن يملك الرزق يملك الحياة والموت ، إلا أن ٱلله تعالىٰ لم يقطع الرزق عن العاصين والكافرين ، بل جعل رزقهم كرزق الذين آمنوا من أجل إعطائهم فرصة للتدبر والتفكر ، فضلاً عن ذلك يكون شاهداً عليهم ولتسقط كل الحجج الواهية التي يتمسكون بها في الكفر والعصيان .

إن إحدىٰ صور الرزق تتمثل من خلال عملية الزرع بما تمر فيها من أطوار ابتدأت من وضع الحبة في الأرض إلىٰ الحصول علىٰ الثمر ، إن هـٰذه العملية لا يملكها الخليفة وإن ملك الأرض وما عليها ، فهي من ملك ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فهو الذي ينبت الحبة حتىٰ تصبح ثمراً يستفاد منه ، ومالك الإنبات يعرض قصة تتحدث عن عظمته في العطاء ، إذ يقول : ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى

(1) الإسراء ، 20 .

وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ [1] ، ضرب ٱلله تعالىٰ للمشركين المستكبرين مثلاً برجلين جعل لأحدهما بستانين من أعناب محفوفتين بالنخل وفي خلالهما الزروع ، وكل ما فيهما مثمر ، فضلاً عن ذلك أن الأنهار تخترقهما ، بعد عرض ما في الجنتين يبدأ حوار بين الرجلين ، إذ يقول صاحب الجنتين وهو في حالة الافتخار والجدال : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ هنا بداية الكفر والتمرد والتجبر ، فهو يرىٰ أن ما أمامه من خير ونعمة هي دائمة لا تزول ، وأن هـٰذا الملك دائم له ، وهنا تجلىٰ فيه الغرور الذي يقوده إلىٰ الهلاك ، ففكره متقوقع علىٰ فكرة الدوام وهي محالة لأن كل ما في الكون هو ملك لله تعالىٰ ، فهو بيده كل شيء يعطي ويأخذ وينبت ويهلك ويتلف .

ويتأرجح الرزق بين ثنائية البسط والقدر ، وهـٰذا التأرجح نابع من مشيئة ٱلله تعالىٰ « والبسط : مستعار للكثرة وللدوام . والقَدْر : كناية عن القلة » [2] . ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [5] . إن آلية التوزيع هـٰذه

---

(1) الكهف ، 32 ـ 42 .

(2) التحرير والتنوير ، ج 7 ، ص 369 .

(3) الرعد ، 26 .

(4) العنكبوت ، 62 .

(5) سبأ ، 36 .

تنم عن التملك القائم لله تعالىٰ الموحي بالملك المطلق ، فضلاً عن ذلك أن هـٰذا التوزيع يتبعه الصلاح الذي يريده تعالىٰ وهـٰذا بطبيعة الحال يكون وفقاً لعلمه العظيم .

2 ـ الإتيان بخلق جديد :

الخلق صورة من الصور الدالة علىٰ (مالك الملك) ، إلا أنه لا يتسم بالثبات بمعنىٰ أن الخلق يمرون بأطوار حددها الباري جل جلاله ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [1] . هـٰذا هو التدرج الطبيعي للخلق من البداية إلىٰ النهاية المتحققة بالموت ، إلا أن ٱلله تبارك وتعالىٰ عمد في خطابه إلىٰ المؤمنين إلىٰ استعمال صيغة الخلق ضمن الاختيار الأمثل للخلق المطيعين له ، إذ وصفهم بخلق جديد يحبهم ويحبونه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] هـٰذه الآية ترسم ملمحاً معرفياً يتصل بصفة من صفات ٱلله تعالىٰ وهي أنه تعالىٰ غني عن العالمين ، ذلك أن الارتداد عن دين ٱلله لن يضر إلا من يرتد ، وبذلك ينحصر الضر بالمرتد ، وهـٰذا يدخل ضمن إطار الضعف الذي يتسم به بنو ادم ، لأن عملية الارتداد تنبع من أصل فكري محدود مما يضع صاحبها في نهاية تتناسب مع فعل الارتداد . وتتجلىٰ

(1) الحج ، 5 .
(2) المائدة ، 54 .

قدرة ٱلله تعالىٰ في الإتيان بقوم فيهم صفة تسمو علىٰ كل الصفات إلا أن أجل صفة فيهم: أن ٱلله تعالىٰ ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ وتصل درجة الحب مرتبة عظيمة، فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رسول ٱلله ﷺ: « إِنَّ ٱللهَ قَال: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ »[1] فضلاً عن ذلك أنهم (أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ) فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلىٰ الكافرين بٱلله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله (أعزة)، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم علىٰ معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[3]، فالغلظة والشدة علىٰ أعداء ٱلله مما يقرب العبد إلىٰ ٱلله، فهنا تتأصل المحبة التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ من خلال الغلظة والشدة،

---

(1) صحيح البخاري، ج 20، ص 158 .

(2) الأنفال، 60 .

(3) الفتح، 29 .

فضلاً عن اللين الذي يكون في الدعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وكلا الأمرين يتسمان بمحبة ٱلله تعالىٰ . إن فعل القدرة هـٰذا لا يستطيع أحد أن يفعله إلا ملك الملوك ، فالإتيان بالأقوام يتسم بالتحدي والتهديد لكل العاصين ، وهو باب ينم عن جلال ٱلله تعالىٰ وقدرته وعظمته في ملكه .

3 ـ الضر والنفع :

الضر والنفع من الثنائيات التي وردت في النص القرآني في كثير من المواضع ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (2) ، السياق في هـٰذه الآيات يدور حول الإنسان في قضية مهمة تحدد توجهه العقائدي ، فبعد تعرضه إلىٰ ضر لا يفكر في أي شيء إلا ٱلله تعالىٰ داعياً له ليكشف ما به من ضر ، وبعد كشف العذاب نسي ما كان فيه من الشدة والبلاء ، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء ، كما زُيّن لهـٰذا الإنسان استمراره علىٰ جحوده وعناده بعد كشف ٱلله عنه ما كان فيه من الضر ، زُيّن للذين أسرفوا في الكذب علىٰ ٱلله وعلىٰ أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي ٱلله والشرك به . وهنا اتضحت ثنائية الضر والنفع من خلال وجود الضر ورفعه ، فلا يستطيع أحد أن يرفع الضر إلا مالك الملك ، فهو بيده الضر والنفع ، ومن الأمثلة الشاخصة في هـٰذا المضمار قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا

(1) يونس ، 12 .
(2) النحل ، 53 ـ 54 .

وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ [1] . إن النبي أيوب عليه الصلاة والسلام كان ذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة ، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها ، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاثَ في يوم واحد ، فتلقىٰ ذلك بالصبر والتسليم . ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقىٰ ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبْتهل إلىٰ ٱلله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر . وتلقىٰ رثاءَ أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بٱلله ، وأوحىٰ ٱلله إليه بمواعظ . ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالاً أكثر من ماله وولدت له زوجه أولاداً وبنات بعدد من هَلكوا له من قبلُ [2] . إن هٰذه القصة رسمت بريشة عكف صاحبها علىٰ الانتظار ليرىٰ ما يفعله صاحب الضر وإن كان نبياً ، فكانت النتيجة أنه صبر صبراً صار مضرباً للمثل عليه الصلاة والسلام ، فبعد دعائه كشف ٱلله تعالىٰ عنه الضر وأعطاه أكثر مما كان عنده .

ويأتي الحديث عن الضر والنفع من خلال إفراد ٱلله تعالىٰ بالعبادة وعدم عبادة غيره ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [3] ، ومعنىٰ (لا يملك ضَرّاً) لا يقدر عليه ، وحقيقة معنىٰ الملك التمكّن من التّصرف بدون معارض ، ثم أطلق علىٰ استطاعة التّصرّف في الأشياء بدون عَجز [4] ، والضر والنفع يكون وفق مشيئة ٱلله تعالىٰ وإرادته ، فضلاً عن ذلك أنه يدخل في الأمور الغيبية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [5] هٰذه

---

(1) الأنبياء ، 83 ـ 84 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 9 ، ص 195 .
(3) المائدة ، 76 .
(4) تفسير التحرير والتنوير ، ج 4 ، ص 63 .
(5) الأعراف ، 188 .

الآية تؤكد ملكية ٱلله تعالىٰ لهـٰذا الأمر بوصفه أمراً يدخل ضمن الأمور الغيبة التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله ، لذلك ورد في سياقات عديدة في النص القرآني منها قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (2) .

4 ـ الرياح :

الرِّيحُ نَسِيم الهواء ، وكذلك نَسيم كل شيء وهي مؤنثة ، وجمعها رِياحٌ (3) ، وفي التنزيل يقول تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (4) ، وتمثل الرياح صورة من صور ملك ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا الملك هو بيده ويصرفه كيفما يشاء فهو مالكه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (5) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (6) ، تمثل الرياح علامة من علامات رحمة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فحركة الرياح تمثل البشارة بسقوط المطر فهي تثير السحاب وتجمعه ثم بعد ذلك يبدأ المطر بالنزول ، إن هـٰذه العملية بكل تفاصيلها التي بدأت من حركة الرياح إلىٰ نزول المطر ، تمثل دليلاً واضحاً علىٰ المتصرف العظيم في هـٰذه الرياح ، وكيف يسيّرها كيفما يشاء إلىٰ أي جهة

(1) يونس ، 49 .
(2) الجن ، 21 .
(3) لسان العرب ، ج2 ، ص 455 .
(4) آل عمران ، 117 .
(5) الأعراف ، 57 .
(6) الروم ، 46 .

شمال جنوب شرق غرب ، يختار المكان الذي يريده لغاية هو يعلمها ، فتكون الرياح طوع أمره ، وتكون هي السبب في الحياة علىٰ الأرض ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، ترسم هٰذه الآيات العظام صورة الحياة التي أوجدها ٱلله تعالىٰ من خلال مراحل متتابعة كل واحدة تفضي إلىٰ الأخرىٰ ، فتكون النتيجة هي الحياة للأرض وكل ذلك يحققه (مالك الملك) ، البداية تكون بإرسال الرياح التي تثير السحاب الذي يمده ويوسعه ٱلله تعالىٰ كيفما يشاء ، ثم يتحول ذلك السحاب إلىٰ كسف ثخين قد طبق بعضه فوق بعض ، فيكون السحاب نقطاً صغيرة متفرقة ، لا تنزل جميعاً فتفسد ما أتت عليه ، فبعد رؤية هٰذه الصورة المشاهدة يبشر العباد بعضهم بعضاً بنزوله وذلك لشدة حاجتهم إليه ، فهو ضرورة مهمة لاستمرار الحياة ، وبشرتهم هٰذه جاءت بعد يأسهم لتأخر وقت مجيئه . وبعد نزول المطر تكون الأرض متسمة بالحياة ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم .

هٰذه الصورة المتحققة أمام عين العباد هي من قدرة الخالق جل جلاله ، والتي تحيل إلىٰ صورة أخرىٰ ترددت في النص القرآني وهي إحياء ٱلله تعالىٰ للأموات ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

---

(1) الروم ، 48 ـ 50 .
(2) يس ، 12 .
(3) الأحقاف ، 33 .

5 ـ إرسال الرسل :

إن إرسال الرسل يمثل مظهراً مهماً من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالىٰ ، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزاً كبيراً في خطاب ٱلله تعالىٰ للكافرين والمكذبين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [(1)] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [(2)] . النص القرآني هنا يحمل في طياته كثيراً من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه ٱلله تعالىٰ إلىٰ جانب امتلاكه إرسال الرسل وكل ما يملك مما نعلم وما لا نعلم ، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو ، ومالك الملك تجلىٰ في هٰذا الأمر الذي تشكل فيه مظهران :

المظهر الأول : إن إرسال الرسل لا يكون إلا من ٱلله تعالىٰ فهو يملك هٰذا الأمر ولا يملكه غيره .

أما المظهر الثاني : فإن إرسال الرسل يتضمن أموراً لا يمتلكها إلا ٱلله تعالىٰ في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران ، فهو ملك داخل ملك ، ولا يملكهما إلا ٱلله تبارك وتعالىٰ .

وإرسال الرسل شمل الأقوام التي كفرت بـٱلله تعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ

---

(1) البقرة ، 151 .
(2) النساء ، 64 .

لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [3] .

إن إرسال الرسل لم يتوقف طول الفترة الزمنية المتصلة من خلق آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ مبعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، فبرغم تكذيب الرسل وقتلهم في بعض الأحيان كما فعل اليهود مع يحيىٰ عليه الصلاة والسلام ، إلا أن إرسال الرسل لم يتوقف بل استمر من أجل إصلاح الأرض الذي هو الهدف المنشود من إرسال الرسل في الحياة الدنيا .

ولعل إرسال الرسل خلق قصصاً مختلفة تتحدث كل واحدة عن سمات وخصائص الأقوام المختلفة ، من حيث ذنوبهم المختلفة ، وصورة العقوبة التي كانت لهم ، فدلالة (مالك الملك) أيضاً تجلت في العقوبة التي وقعت علىٰ الأقوام الذين رفضوا دعوة أنبيائهم ، فلا أحد يملك العقوبة إلا ٱلله تعالىٰ ، فتحديد العقوبة وتنفيذها لا يملكها إلا ٱلله تبارك وتعالىٰ ، إذ يقول : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

---

(1) الأعراف ، 59 ـ 62 .

(2) إبراهيم ، 5 .

(3) المؤمنون ، 44 ـ 48 .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (1) .

فلم يكن هـٰذا العذاب إلا بعد أن استنفد الرسل عليهم الصلاة والسلام كل الوسائل في سبيل إقناع هـٰؤلاء الكفار الجاحدين ، فلا يبقىٰ لهم أي حجة علىٰ ٱلله تعالىٰ يوم القيامة ، لأن الحجج والبراهين الدامغة كانت أمامهم علىٰ أيدي رسل ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا نجد أن الخطاب الموجه لهم في الآخرة يبنىٰ علىٰ ما كان في الدنيا ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (2) . هـٰذا الخطابُ تقريع من ٱلله تعالىٰ لأهل النار وتوبيخ لهم علىٰ ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم ، كيف تفعلون ذلك وقد أرسلت لكم الرسل ، ومعهم كتبي وقد بينت فيها لكم الحلال من الحرام كالشمس الساطعة ، فتسقط هنا كل الحجج ، لأن ٱلله تعالىٰ قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (3) فضلاً عن ذلك أن طلب العودة إلىٰ الدنيا معناه الاعتراف بذنوبهم التي ارتكبوها ، ويتردد مثل هـٰذا الخطاب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا

(1) العنكبوت ، 38 ـ 40 .
(2) المؤمنون ، 105 ـ 111 .
(3) النساء ، 164 ـ 165 .

كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ [1] .

6 ـ الأمر والنهي :

الأمر والنهي من الأسس التي بني عليها هـٰذا الكون من آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ قيام الساعة ، وبعد قيام الساعة ينتهي العمل بهما وتبدأ مرحلة جديدة ، وهي مرحلة الحساب التي وعد ٱلله تبارك وتعالىٰ خلقه من خلال رسله والكتب التي أنزلها ، والحساب يكون وفقاً للأسس التي وضعت في الدنيا ، وهنا نبدأ من النهاية وليس من البداية ، فالنهاية هي عملية الحساب المتحققة والتي يرسم من خلالها نهاية الخلق إما إلىٰ الجنة ، حيث يقول تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [2] ، وإما إلىٰ النار ، حيث يقول تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [3] ، وهـٰذا الحساب المتحقق يبنىٰ وفق مرجعيات متحققة في الدنيا ، وهي إرسال الرسل والكتب التي أنزلت معهم ، وعملية الحساب هـٰذه لا يملكها إلا ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ومن يملك الحساب لابد وأن يملك أسسه التي يستند عليها في المحاسبة ، ولهـٰذا نجد أن

---

(1) الجاثية ، 27 ـ 35 .

(2) البقرة ، 82 .

(3) البقرة ، 39 .

حساب الآخرة يتسم بصيغ تحيل إلىٰ الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (2) . فضلاً عن ذلك أن الأمر والنهي ينظم الأمور الدنيوية والأخروية وهو ما يعرف بالحدود التي أوجدها ٱلله تبارك وتعالىٰ في أحكامه ، والحَدُّ الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أَحدهما بالآخر أَو لئلا يتعدىٰ أَحدهما علىٰ الآخر وجمعه حُدود (3) . والحدود وردت في سياق الأحكام الشرعية التي تنظم حياة الخلق وتوجهها توجيهاً صحيحاً يتسم بالعدل والحق ، فمن القضايا المهمة قضية توزيع الميراث ، وهي من الأمور الشائكة التي يتخللها كثير من التفرعات ، إلا أن القرآن الكريم أدارها بطريقة واضحة تعطي كل ذي حق حقه ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

(1) الأنعام ، 130 .
(2) يس ، 60 ـ 68 .
(3) لسان العرب ، ج 3 ، ص 140 .

حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (1) هـٰذا التنظيم لمال الميت والعمل به يدخل ضمن الطاعة والعصيان لله تعالىٰ ، مما يترتب علىٰ ذلك الثواب والعقاب ، فمن أدىٰ الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار . ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه ، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون . ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي ، فقد رتب ٱلله تعالىٰ دخول الجنة علىٰ طاعته وطاعة رسوله . ورتب دخول النار علىٰ معصيته ومعصية رسوله ، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب . ومن عصىٰ ٱلله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه ، دخل النار وخلد فيها ، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية . وقد دلت النصوص المتواترة علىٰ أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد ، غير مخلدين في النار ، فما معهم من

---

(1) النساء ، 11 ـ 14 .

التوحيد مانع لهم من الخلود فيها [1] .

والحدود تحدد قبول الفرض أو عدمه من خلال الالتزام بشروط معينة ، ومن هٰذه الحدود قوله تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [2] . هٰذه الآيات الكريمة تحدثت عن أحد أركان الإسلام وهو صوم شهر رمضان ، هٰذا الركن يمثل أحد العبادات التي تقرب العبد إلىٰ ٱلله ، وطبيعة العبادات أنها تتسم بضوابط تحدد من قبل ٱلله تعالىٰ ، والتي يكون علىٰ أساسها قبول العبادة أو رفضها مما يترتب علىٰ ذلك الثواب أو عدمه ، فكانت الحدود هنا هي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر علىٰ غير المعذور ، وتحريم الوطء علىٰ المعتكف ، ونحو ذلك من المحرمات ، فكان النهي هنا في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ ﴾ الذي هو أبلغ من قوله : « فلا تفعلوها » لأن القربان ، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه ، والنهي عن وسائله الموصلة إليه ، فضلاً عن ذلك أن كفارة الفطر أيضاً تكون ضمن الحدود التي حددها ٱلله تعالىٰ .

الأمر والنهي من المفردات المهمة في قاموس الخليفة ، فبهما يحاول زرع الخير في الأرض من خلال تبصير الخلق بأحكام ٱلله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك أنه يرتكز علىٰ قول رسول ٱلله ﷺ : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ » [3] .

---

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 170 .
(2) البقرة ، 187 .
(3) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 167 .

7 ـ العدل :

العدل من الأحكام المهمة التي مثلت الشغل الشاغل لكل الأنبياء الذين بعثهم ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فبه تستقيم الحياة ويأخذ كل ذي حق حقه ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) ، والعدل من صفات (مالك الملك) ، والعدل ، هو ما فرضه ٱلله عليهم في كتابه ، وعلىٰ لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه ، ومن العدل في المعاملات أن تعامل الخلق في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات ، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقاً ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم . فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحبة وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع حتىٰ إنه يدخل فيه الإحسان إلىٰ الحيوان البهيم المأكول وغيره . وإقامة العدل يعد من الأمور المهمة التي لا يقبل فيها أي استثناء فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رسول ٱلله ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رسول ٱلله ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رسول ٱلله ﷺ : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ ٱللهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ ٱللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » (3) . يتشكل هـٰذا الحديث والآيات التي سبقته ضمن دائرة العدالة التي

(1) النساء ، 58 .
(2) النحل ، 90 .
(3) صحيح البخاري ، ج 11 ، ص 294 .

أراها ٱلله تعالىٰ فهي ترسم الطريق الحق للمسلمين بغية الحصول علىٰ مرضاة ٱلله تعالىٰ .

العدل الذي أمر ٱلله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده ، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة بأن يؤدي العبد ما أوجب ٱلله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده ، ويعامل الخلق بالعدل التام . أما قوله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، يعطي ٱلله تعالىٰ من يشاء ذرية من الزوجين الذكور والإناث ، ويجعل من يشاء عقيماً بلا نسل ، وهنا تتضح أمور في غاية الأهمية هي أن ٱلله تعالىٰ قادر علىٰ أن يعطي الجميع ذكوراً وإناثاً إلا أن المنع هنا بالعطاء يعود إلىٰ أمرين الأول علمه والثاني قدرته ، والعلم والقدرة لا أحد يتدخل بهما إلا هو تعالىٰ إذ يمكن القول أنه تعالىٰ عليم بمن يستحق كل نوع من هـٰذه الأنواع قدير علىٰ ما يريد أن يخلق ، وفي كل الحالات لابد من قول ما قالته مريم عليها السلام في قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (2) .

ويدخل العدل ضمن الأمور المهمة التي تعد من الركائز الأساسية للدين الإسلامي ، فقد أمر ٱلله تعالىٰ بالعدل مع العدو والصديق إحقاقاً للحق ، وحرّم الظلم علىٰ نفسه ، وجعله محرماً بين عباده وأمر بالأمانة والصدق ، وحرم الخيانة ، وأمر ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلىٰ الفقراء ، والمشاركة في الأعمال الخيرية ، وأمر بالإحسان إلىٰ كل شيء حتىٰ الحيوان ،

---

(1) الشورىٰ ، 49 ـ 50 .
(2) آل عمران ، 37 .

فقد حرم ٱلله تعذيبه ، وأمر بالإحسان إليه .

اللهُمَّ مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير وبالإجابة جدير ، وأنت ربنا المجير ، نسألك أن تجيرنا من عذاب السعير ! اللهُمَّ يا مالك أنفسنا نسألك أن تؤتي نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، فالحمد لك يا مالك الملك يا من تواضع كل شيء لعظمته وملكه ، وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه ! اللهُمَّ فاطر السمـٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه نشهد أنه لا إلـٰه إلا أنت ونعوذ بك من شرور أنفسنا ومن شرور شيطان الجن والإنس ! اللهُمَّ أنت مالك الملك وخالق الخلق وباسط الرزق ، ما من شيء إلا وأنت آخذ بناصيته ، فنسألك أن تأخذ بنواصينا التي تملكها إلىٰ الخير ، وتُملِّكَنا نفوسنا وجوارحنا بكل خير ! اللهُمَّ أنت مالك الملك ، فإننا وجهنا وجوهنا إليك ، وفوضنا أمورنا إليك ، وألجأنا أنفسنا إليك ، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك ، آمنا بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين ! اللهُمَّ لا تملّك علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا ٱلله يا مالك الملك !

✍ ✍ ✍

ذُو الجَلالِ والإِكرام جلّ جلاله

ذو الجلال والإكرام : من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو ذو العظمة والكبرياء والمجد ، الذي يُعَظَّمُ ويُبجَّلُ ويُجَلُّ لأجله ، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود ، والداعي لأن يُكرِمَ أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام ، وهو الذي يكرِّمه أولياؤه ويجلُّونه ، ويعظمونه ويحبونه ، وينيبون إليه ويعبدون ، ولم يرد الاسم بلفظ الجليل ولا بلفظ الكريم وهما من صيغ المبالغة ، بل جاءا بصيغة المصدر ، فالجلال أصل الجلالة والإكرام أصل الكرم ، فصياغة هٰذا الاسم تدلل علىٰ عظمته وكرمه حيث لا تصل إليه أي عظمة أو مكرمة .

ذو الجلال والإكرام : « ذو العظمة والكبرياء ، وذو الرحمة ، والجود ، والإحسان العام والخاص . المكرم لأوليائه وأصفيائه ، الذين يجلونه ، ويعظمونه ، ويحبونه » (1) .

ذو الجلال والإكرام : « هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه ، فالجلال له في ذاته والكرامة فائضة منه علىٰ خلقه ، وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهىٰ » (2) .

ٱلله الجَليلُ سبحانه ذو الجَلال والإكرام ، وجَلالُ ٱلله عظمتُه ولا يقال الجَلال إلا لله ، وهو سبحانه وتعالىٰ الجَلِيلُ الموصوف بنعوت الجَلال

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 88 .

(2) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 141 .

والحاوي لها جميعاً هو الجَلِيلُ المُطْلَق وهو راجع إِلىٰ كمال الصفات كما أَن الكبير راجع إِلىٰ كمال الذات والعظيم راجع إِلىٰ كمال الذات والصفات [1] .

هـٰذا الاسم يكوّن مع مجموعة أسماء أخرىٰ لله تعالىٰ وحدة دلالية واحدة تضم (الجلال والجبروت والكبرياء والعظمة والمجد) قال تعالىٰ : ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] ، والكبرياء من لوازم الجلال ، لأن من كان ذا جلال أي عظمة لا منتهىً لها لابد أن يكون له كبرياء في السمـٰوات والأرض ، وهـٰذا نهي عن التكبر في الإسلام لأنها صفة لا تليق إلا بالعلي الكبير ذي الجلال والإكرام ، قال رسول ٱلله ﷺ : « لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ » [3] .

ويشترك الجلال في الصفة مع القدسية والسلام والإيمان والهيمنة والعزة والجبروت والتكبر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [4] ، فالجلالة والجليل عزيز بذاته جبار بقوته متكبر بصفاته ، ولهـٰذا يكون جليلاً لأن كل ما يتعلق به في منتهىٰ الوصف ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [5] ،

---

(1) لسان العرب ، ج 11 ، ص 116 .
(2) الجاثية ، 37 .
(3) صحيح مسلم ، ج 3 ، ص 254 .
(4) الحشر ، 23 .
(5) البقرة ، 255 .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] . وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا وَقَال : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ » [2] ذلك لأن إتمام الصلاة من أكمل النعم التي يمن ٱلله تعالىٰ بها علىٰ عباده ، وهي أكثر الفرائض دلالية علىٰ العبودية لله تعالىٰ فلا يليق بها إلا منتهىٰ الوصف ، وكما ورد في حديث الشفاعة حين يدعو النبي محمد ﷺ ربه لأمته ، فيقول البارئ عز وجل : « وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأخرجنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ » [3] فٱلله سبحانه وتعالىٰ يقسم بأعظم صفاته هنا وأسمائه العُلَىٰ علىٰ أمر فيه منتهىٰ الرحمة لكل عبد ذكر ٱلله تعالىٰ ولو مرة في حياته .

وقد ورد أن هـٰذا الاسم ، هو اسم ٱلله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، فقد روي عن أنس بن مالك رضي ٱلله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في حلقة ورجل قائم يصلي ، فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في دعائه : اللهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد لا إلـٰه إلا أنت المنان بديع السمـٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : « لقد دعا ٱلله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ » [4] ، وفي هـٰذا الأمر أقول : إن اسم ٱلله الأعظم هو (ٱلله) الذي دعي بصفته العظيمة (ذو الجلال والإكرام) أي أن الصفة العظيمة هي اسم ٱلله الأعظم جل جلاله ، وبالتالي فإن الرجل المؤمن الذي قام للصلاة ودعا ربه (ٱلله) بصفته الحسنىٰ الجامعة للهيبة والمكارم ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ، ولأنه دعا ربه (ٱلله) فهو الاسم الأعظم ، أي لا وجود لذي الجلال والإكرام بالمطلق إلا ٱلله جل جلاله .

---

(1) الواقعة ، 74 .

(2) صحيح مسلم ، ج3 ، ص 254 .

(3) صحيح البخاري ، ج 23 ، ص 30 .

(4) الأسماء والصفات ، ج 1 ، ص 260 .

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تشكل الاسم من صفتين كل واحدة مرتبطة بالأخرىٰ من حيث التشكل السلطوي الذي يُبنىٰ وفق معايير القدرة والقوة والعطاء والكرم ، فيرسم بشكل مدرج يعبر من خلاله الارتباط بين هاتين الصفتين ، فيكون الجلال في الدرجة الأولىٰ ، ثم يتبعه بعد ذلك الإكرام ، هـٰذا الترتيب يستمد منه أن الإكرام لا يأتي ممن لا جلال له ، بمعنىٰ أن الإكرام ليس بالأمر الهين ، فلابد أن يكون صاحبه ذا سلطان وكبرياء وعظمة وقدرة حتىٰ يتأتىٰ له أن يكون كريماً مع من يريد ، فلا يكون كريماً وهو لا يملك أياً من هـٰذه الصفات السابقة .

يتميز هـٰذا الاسم بخاصية الحسنىٰ كما تتميز كل صفة أخرىٰ بخاصيتها الحسنىٰ ، وهناك تشابه في الصفات وتداخل دقيق بين كل الصفات إلا أن صفة (ذو الجلال والإكرام) تتشابه مع البعض الآخر من الصفات من حيث التركيب كصفة (مالك الملك) ، هـٰذه الخاصية تتمثل في التركيب الثنائي للدلالة الاسمية المتشكلة من كلمتين إحداهما مركبة (ذو الجلال) ، والأخرىٰ منفردة (الإكرام) ، مع وجود حرف الواو العاطف بين الكلمة الأولىٰ والثانية ، وهـٰذه الخاصية اللغوية المتمثلة بالعطف لا تتوفر إلا في هـٰذا الاسم دون بقية أسماء ٱلله الحسنىٰ ، هـٰذا التركيب يطرح عدة استنتاجات أولية نستطيع اكتشافها من خلال تفكيك هـٰذا التركيب دلالياً ولغوياً ، ويمكن وضع هـٰذه الخصائص بالشكل الأتي :

1 ـ الكلمة الأولىٰ في هـٰذا الاسم صيغة ثنائية متكونة من (ذي) التي هي من الأسماء الستة ، وتعني صاحب أي المتعلقة الصفة به ، ولفظ (الجلال) لتنتج لنا دلالة تعني (صاحب الجلالة) .

2 ـ الكلمة الثانية في التركيب الثنائي مفردة (الإكرام) ، إن لغة الغياب هنا تقتضي وجود الاسم (ذو) مرة أخرىٰ إلا أن حضوره في الصيغة الأولىٰ أغنىٰ عن حضوره هنا ، لأن كتابة الاسم بشكلية (ذي الجلال وذي

الإكرام) الافتراضية يجعل النطق بها من الصعوبة بمكان ، فضلاً عن التكرار الذي لا داعي له هنا ، وتنكره لغة العرب إذا لم يكن له سبب مقنع .

3 ـ وجود حرف العطف الواو بين الكلمتين يقتضي التغاير ، لأن الواو من حروف العطف التي تعطف الشيء على غيره وليس على مثله ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] فهـٰذه الآية يستدل بها العلماء علىٰ تغاير النبوة عن الرسالة من حيث الخصوص والعموم ، فإذا طبقنا هـٰذه القاعدة الدلالية للواو علىٰ اسم ٱلله تعالىٰ (ذو الجلال والإكرام) ، فإن ذلك يقتضي أن الجلال غير الإكرام علىٰ الرغم من اتحادهما بصيغة اسمية واحدة ، إلا أن هـٰذا التغاير لا يلغي تماماً الوحدة الدلالية الشمولية التي ينبغي أن تتوافر بين عنصري الجلال والإكرام ، إذ من غير الممكن أن يكون اسم ٱلله تعالىٰ ذا صورة كتابية موحدة ، يتكون من جزأين لا اتصال بينهما البتة ، فما هـٰذا التغاير ؟ وما هـٰذا الاتصال بين الصيغتين (الجلال والإكرام) ؟ أما الاتصال فيتحقق من أن هـٰذا الوصف أي (الجلال والإكرام) قد وصف ٱلله تعالىٰ ذاته به مرتين في سورة واحدة هي (الرحمـٰن) ، مرة جاء وصفاً لوجه ٱلله تعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [2] ، ومرة أخرىٰ جاء وصفاً لاسم ٱلله تعالىٰ في قوله : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [3] وهـٰذا يعطينا إشارة أولية أن هـٰذين الوصفين المعطوف أحدهما علىٰ الآخر يقتضيان فعلاً واحداً ونتيجة واحدة ، تستنتج من معنىٰ الجلالة والكرم بدمجهما ببعضهما ، بمعنىٰ أن الجلال وحده يمكن أن يفترق عن الإكرام وحده ، كما سنناقش ذلك في التغاير ، إلا أن النظر

---

(1) الحج ، 52 .

(2) الرحمـٰن ، 27 .

(3) الرحمـٰن ، 78 .

الكلي للصيغتين معاً يَعدّهما اسماً واحداً ذا تركيب ثنائي يعطينا دلالة العظمة المنبعثة من كلا الصيغتين ، إذ أن الجلالة عظم القدر والتناهي فيه ، والإكرام تدل علىٰ منتهىٰ الكرم وليس مجرد الكرم ، وهـٰذا ينتج لنا أن المراد من الصيغتين هو منتهىٰ الأشياء ، بمعنىٰ أن ٱلله تعالىٰ تناهىٰ في العظمة وتناهىٰ في الإكرام .

العظمة التي تدل عليها آلاء خلقه وإبداعه في الكون كله ، والإكرام الذي تناهىٰ فيه بما سخر لعباده وأعطاهم من المكرمات التي لا تعد ولا تحصىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) ، ولهـٰذا لا نستغرب إذا تكرر هـٰذا الاسم في سورة اسمها (الرحمـٰن) وهي صيغة مبالغة من الرحمة ، وهي سورة مخصصة لتعداد نعم ٱلله تعالىٰ في الخلق وفي البحر والبر وفي الدنيا والآخرة ، وهـٰكذا نفهم لماذا تكرر قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (2) سبعاً وعشرين مرة في هـٰذه السورة القصيرة بعد كل نعمة يذكرها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ذلك أن هـٰذه السورة جاءت لوصف التناهي في صفات ٱلله وأسمائه وأفعاله ، فلا يدانيه في ذلك أي خلقٍ أو إبداعٍ أو صفات يمكن أن تماثل صنعه وخلقه وصفاته .

4 ـ التغاير ، التغاير في استخدام الصيغة الثنائية (ذي الجلال والإكرام) ، فيمكن أن نفترض أن التناهي في القدر والعظمة مقصود به إرهاب الكافرين ، بينما الإكرام قد خُصَّ به المؤمنون بالتناهي في إعطائهم من المكرمات التي لا حدود لها في الدنيا والآخرة ، وهنا نعود إلىٰ سورة الرحمـٰن لنتأكد من هـٰذه الفرضية ، نجد أن ٱلله تعالىٰ قد أخاف الكافرين فيها بصورة متناهية في الإثارة الحركية بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن

(1) النحل ، 18 .
(2) الرحمـٰن ، 13 .

نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) علىٰ حين أن باقي السورة تتحدث عن نعم ٱلله علىٰ عباده المؤمنين ، من أمور بلغة النهاية في إكرامهم بصورة تدريجية من الكرم إلىٰ الأكرم إلىٰ الإكرام ، وهـٰذا نجده في عرض صورتي الجنة في سورة الرحمـٰن ، إذ أننا أمام صورتين إحداهما للكرم والثانية للإكرام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (2) ثم يبدأ بتعداد صفات هاتين الجنتين التي نستنتج من خلالها أنها لا تبلغ نهاية الكرم من خلال توافر صفات ليست هي مبلغ الكمال في الأشياء ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (3)

ثم يبتدئ بعدها بوصف صورة أخرىٰ لجنتين أخريين فيهما من الصفات ما يبلغ فيه الكمال في الأشياء ، وبذلك تفترق عن الجنة الأولىٰ بأن هاتين الجنتين فيهما منتهىٰ الإكرام ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ

---

(1) الرحمـٰن ، 34 ـ 45 .

(2) الرحمـٰن ، 46 .

(3) الرحمـٰن ، 46 ـ 61 .

خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) .

ثم يعقب وصف الجنتين بذكر اسم ٱلله (ذي الجلال والإكرام) حين يقول : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (2) دلالة علىٰ أن هـٰذه الجنة قد بلغت من الكمال ما يستحق أن يوصف بها ٱلله تعالىٰ ، أنه المنتهىٰ في عظمة وجلالة الأكرم .

ومن الصفات السابقة (العظمة) ، والتي لها دور كبير في رسم ملامح اسم ٱلله (ذي الجلال والإكرام) من خلال ارتباط هـٰذا الاسم بين ٱلله تبارك وتعالىٰ وخلقه ، هـٰذا الارتباط قائم علىٰ مبدأ التعظيم بين الطرفين ، فٱلله تبارك وتعالىٰ عظمهم فعظموه ، عظمهم بما أغدق عليهم من نعمه ظاهرة وباطنة ، فقد ميزهم عن كثير ممن خلق وفضلهم تفضيلاً ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (3) ، وتقديم الأمر للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام توطئة لهـٰذه الآية أدل دليل علىٰ هـٰذا ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (4) ، وتعظيمهم لله تعالىٰ اتباع أوامره واجتناب نواهيه . ومن أوامره إقامة الصلاة ، والصلاة من أركان الإسلام التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم كثيراً مما يدلل علىٰ أهميتها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (5) ، وقوله

(1) الرحمـٰن ، 62 ـ 77 .
(2) الرحمـٰن ، 78 .
(3) الإسراء ، 70 .
(4) البقرة ، 34 .
(5) البقرة ، 43 .

تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) ، والصلاة تختلف عن باقي العبادات ، فهي تتكرر يومياً ، وتمثل جانباً كبيراً من جوانب تعظيم ٱلله تبارك وتعالىٰ فإلىٰ جانب النية وصفائها ، كذلك الركوع والسجود من الأركان الرئيسية فيها ، وهـٰذه الحركات لها أبعاد عظيمة يتجسد فيها تعظيم البارئ عز وجل والخضوع له ، فملامسة الجبهة للأرض ترسم ملمحاً كبيراً يظهر فيه مدىٰ تعظيم الخليفة للباري تبارك وتعالىٰ . كما أن القراءة أثناء الصلاة ترسم بعداً معرفياً وسيكولوجياً ، فمعرفياً تتضح العلاقة بين الخالق والمخلوق من خلال سورة الفاتحة ، هـٰذه السورة العظيمة التي أوضحت طبيعة العلاقة بين ٱلله تبارك وتعالىٰ وعباده ، فقوله تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (2) بمعنىٰ نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة ، والتقديم هنا من باب التخصيص فهو أبلغ من القول نعبدك ونستعينك ، حتىٰ أن الخطاب هنا جاء بطريقة الالتفات لبيان أهمية العبادة والاستعانة فهي من ركائز التوحيد .

أما سيكولوجياً فإن نفس الخليفة تطمئن دائماً بذكر ٱلله والركوع والسجود إليه والركون والاعتماد في حياتها علىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ ، بوصفه المنقذ لها في كل الأزمات والصعاب والمحن ، والركون والاعتماد لا يكون إلا علىٰ صاحب الجلالة الذي ترتسم جلاليته بالاستجابة من خلال فرج الكرب وكشف المحن ، وذلك من خلال كرمه المنبثق من جلاله العظيم .

وذو الجلال والإكرام يرسم لنا صورة معبرة وموحية من خلال اسمه تبارك وتعظم ، فالجلال والكمال له وحده ، ولا كرامة ولا مَكْرُمَةً إلا وهي صادرة منه ، فالجلال له في ذاته والكرامة فائضة منه علىٰ خلقه . وفي تقديم لفظ

---

(1) البقرة ، 110 .

(2) الفاتحة ، 5 .

الجلال علىٰ لفظ الإكرام ، إذ أن الجلال يشير إلىٰ التنزيه ، أما الإكرام فإضافة فلابد له من مضافين .

وفي اللغة « جَلَّ جَلالاً وجَلالَةً : عَظُمَ قَدْرُه فهو جَلِيلٌ ، قال الراغِبُ : الجَلالَةُ : عِظَمُ القَدْرِ ، والجَلالُ : التَّناهِي في ذلك وخُصَّ بوَصْفِ ٱلله تعالىٰ فقِيل : ذو الجَلالِ والإكرام ولم يُستَعْمَل في غيرِه ، والجَلِيلُ : العَظِيمُ القَدْرِ وليس خاصّاً به ووَصْفُه تعالىٰ بذلِكَ إمّا لخَلْقِه الأَشْياءَ العَظِيمَةَ المُسْتَدَلَّ بها عليه ، أو لأنه يَجِلُّ عن الإحاطَةِ به أو لأنه يَجِل أن يُدْرَكَ بالحَواسّ » [1] ،

ورد هـٰذا الاسم مرتين في القرآن الكريم في سورة الرحمـٰن ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [3] . وسورة الرحمـٰن سورة مكية اشتملت علىٰ عرض كرم البارئ عز وجل ، فكانت البداية ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ الدال علىٰ سعة رحمته ، وعموم إحسانه ، وجزيل بره ، وواسع فضله . ثم ذكر بعد ذلك أنه ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ علم عباده ألفاظه ومعانيه ، ويسرها علىٰ عباده ، وهـٰذه أعظم مِنَّةٍ ورحمة رحم بها عباده ، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ ، وأحسن تفسير ، مشتملاً علىٰ كل خير ، زاجراً عن كل شر . ثم يستمر سياق الآيات بالتتابع مستعرضاً نعم ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده ، ومن خلال هـٰذا الاستعراض تتردد آية وُسِمَتْ بها سورة الرحمـٰن وهي قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [4] الدالة علىٰ التذكير المستمر بنعم ٱلله الدينية والدنيوية . والسورة الكريمة تستعرض آلاء ٱلله تبارك وتعالىٰ الواضحة أمام الناظر ، الشمسَ

---

(1) تاج العروس ، ج1 ، ص 6939 .
(2) الرحمـٰن ، 27 .
(3) الرحمـٰن ، 78 .
(4) الرحمـٰن ، 13 .

والقمرَ ، والنجمَ والشجرَ ، والسماءَ المرفوعة ، والأرض وما فيها من فاكهةٍ ونخلٍ وحبٍّ وريحانٍ ، والجن والإنس ، والمشرقين والمغربين ، والبحرين بينهما برزخ لا يبغيان ، وما يخرج منهما وما يجري فيهما ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) ثم بعد ذلك يعرض يوم القيامة في مشهد يرتسم فيه المجرمون بالعجز والضعف الذي يتقابل مع كمال ٱلله تعالىٰ وسلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ (2) ، وتنتهي السورة الكريمة بقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (3) نجد أن سورة الرحمـٰن تستعرض عملية الخلق من بدايتها إلىٰ نهايتها أي أنها اشتملت علىٰ كل العناصر التي تمثل أساس الوجود ، وذلك من خلال عرض هـٰذه العناصر ضمن سياق آلاء ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ثم بعد ذلك يأتي يوم القيامة الذي يشغل حيزاً صغيراً من السورة الكريمة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن

(1) الرحمـٰن ، 5 ـ 25 .
(2) الرحمـٰن ، 33 .
(3) الرحمـٰن ، 78 .

ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ (1) ، أما الجنة فكان لها الحيز الكبير في هـٰذه السورة الكريمة ، إذ يمكن القول أن هـٰذا من باب بيان رحمة الرحمـٰن لعباده ، فضلاً عن ذلك هو من باب الرغبة الذي يفتحه ٱلله تبارك وتعالىٰ لعبده من أجل النظر إلىٰ رحمته ووعده لعباده بالمكان الذي يستحقونه في حالة الإطاعة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (2) ، وتختتم هـٰذه السورة الكريمة بقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (3) وعلىٰ هـٰذا تنقسم السورة علىٰ قسمين القسم الأول الذي استعرض تبارك وتعالىٰ به نعم الدنيا الزائلة بقوله : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (4) ، وختم نعم

---

(1) الرحمـٰن ، 35 ـ 44 .
(2) الرحمـٰن ، 46 ـ 77 .
(3) الرحمـٰن ، 78 .
(4) الرحمـٰن ، 27 .

الآخرة بقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (1) وعلىٰ هـٰذا فإن سورة الرحمـٰن تمثل الدنيا والآخرة ، والدنيا والآخرة تمثلان قدرة وسلطان وعظمة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهي تمثل بمجموعها جلاله العظيم الذي انبثق من عنده إكرامه لخلقه الضعفاء .

أما لفظة البقاء الواردة في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (2) فهي مرتبطة بقضية مهمة ترددت في النص القرآني وهي قضية الهلاك ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (3) فلا يبقىٰ غير وجه ٱلله تبارك وتعالىٰ ، أما ما عداه فهو هالك ، والهلاك ارتبط مع الخلق من بداية النشأة إلىٰ أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها ، فحديثنا عن الهلاك والاستطراد فيه يمثل مرتكزاً وزيادة في وعينا لرسم صورة البقاء التي أخبر عنها القرآن الكريم ، فقد ورد الهلاك في القرآن الكريم ثمانياً وستين مرة ، ومن خلال استقراء السياقات التي ورد فيها الهلاك بكل صيغه يمكن أن نرىٰ الدلالات الآتية :

1 ـ يأتي الهلاك بمعنىٰ الموت الحقيقي في معظم مواضعه ، مع ملاحظة أسلوب الذم والعنف والتعذيب في هـٰذه المواضع ولننظر إلىٰ هـٰذه الآية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (4) ، والكلام عن قارون المتكبر وإهلاك من هو أقوىٰ منه ، وأكثر جنداً ، فقد تكرر الحديث في القرآن الكريم عن إهلاك الأقوام والقرىٰ الظالمة التي كذبت الرسل وكان عقابهم الهلاك الجماعي ، فإهلاك القرىٰ في

---

(1) الرحمـٰن ، 78 .
(2) الرحمـٰن ، 27 .
(3) القصص ، 88 .
(4) القصص ، 78 .

مثل قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) ، والفرق بين إهلاك الأقوام وإهلاك القرىٰ ، أن إهلاك القرىٰ يعني إبادة أهلها وتخريبها ، وإهلاك الأقوام يعني إبادتهم هم فقط ، فإهلاك القرىٰ شامل لإبادة سكانها وعمرانها ، فهو أشد نكالاً بالظالمين والكافرين ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ (2) ، والمراد بإهلاك القرىٰ إهلاك أهلها . وإنما علق الإهلاك بالقرىٰ للإشارة إلىٰ أن شدة الإهلاك بحيث يأتي علىٰ الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثراً في القرىٰ (3) . ولعل جرس مفردة الهلاك ذات الأحرف الشديدة التي تقترب أصواتها من التأوهات الخارجة من أعماق الصدر ، فالهاء واللام والألف والكاف حروف تصعق السمع حين تجمع فتبدو مفردة الهلاك أشد وأفزع من مفردة الموت ، لعل هـٰذا الجرس هو الذي سوغ استعمالها في سياقات العذاب الجماعي بالموت .

ولـم يستعمـل الخطـاب القـرآنـي الهـلاك ، إذ لـم يقصـد الـذم إلا فـي موضعين :

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (4) وهـٰذه الآية تسمىٰ آية الكلالة .

---

(1) الأعراف ، 164 .
(2) القصص ، 59 .
(3) التحرير والتنوير ، ج 10 ، ص 418 .
(4) النساء ، 176 .

وتطلق علىٰ الميت الذي لم يخلف ولداً ولا والداً .

وفي **الثانية** : يقول تعالىٰ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (1) ، فالصورة التي يرسمها القرآن الكريم للقرية بعد إهلاكها ، إذ لم يبق فيها أحد من سكانها ، تغني عن القول أنهم أهلكوا إبادة وانقرضوا فلم يعد أحد يسكن ديارهم ، لقد دمر ٱلله عليهم وخرب ديارهم فتلك مساكنهم خاوية لم تسكن من بعدهم إلا للمارة يوماً أو بعضه . وفي موضع آخر رسم القرآن الكريم لنا صورة أشد وقعاً وإيحاءً لانقراض الظالمين ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (2) ، النص القرآني هنا رسم لنا صورة معبرة عن مصارع القرون الماضية ، فبعد أن كانت الشخوص تدب وتتحرك ، والحياة التي كانت تنبض وتمرح ، ثم بعد ذلك يأتي الصمت يخيم والموت يجثم ، ولم يبق كائن كامل الخلقة إلا عبارة عن أشلاء متناثرة هنا وهناك تفوح منها رائحة الموت ، ثم يكون بعد ذلك الصمت الرهيب . وفي الموضعين اللذين استعمل فيهما القرآن الكريم الهلاك بغير الذم ، جاء الهلاك دلالة علىٰ قطع العقب والذرية ، فيوسف عليه الصلاة والسلام لم يكن له ولد ، وكذلك صاحب الكلالة .

2 ـ جاء الهلاك بدلالته المجازية الدالة علىٰ الهلاك المعنوي الدال علىٰ سوء الحال والضر الشديد من كفر وشرك وضلال ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، وقال

---

(1) القصص ، 58 .

(2) مريم ، 98 .

(3) الأنفال ، 42 .

تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [1] ، وأصل الهلاك الموت . ويطلق علىٰ المضرّة الشديدة لأن الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ . فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب [2] .

ويلاحظ علىٰ سياقات الإهلاك أسلوبياً غلبة الصيغ الفعلية الماضية والمضارعة ، وهـٰذا ملمح أسلوبي مطابق للواقع ، إذ أن الهلاك فعل حدث ويحدث وسيحدث مستقبلاً ، فطبيعته متحركة لا ساكنة عبرت عنها السياقات التي ورد فيها . إلا أن صيغاً اسمية كان لها حضور في مواضع استدعتها سياقاتها ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [3] إذ استعمل الأسلوب القرآني اسم الفاعل ـ هالك ـ الدال علىٰ الثبات والدوام ، بمعنىٰ أن كل شيء سيهلك أو هلك حتماً ماضياً أو مستقبلاً ، فالهلاك جزء من كيان كل حي إلا ٱلله الحي الدائم الذي لا يموت . كما جاء اسم الفاعل في موضع آخر للدلالة علىٰ حكم عام لا يعدل عنه ٱلله ، إذ قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ [4] ، فمن سنة ٱلله تعالىٰ في قانون الإهلاك أن ٱلله تبارك وتعالىٰ لا يهلك أحداً بظلمه حتىٰ يبعث إليه رسولاً يبشره وينذره حتىٰ لا تكون له علىٰ ٱلله حجة ، هـٰذا ما أفاده اسم الفاعل ـ مهلك ـ في هـٰذه الآية الكريمة . والموضع الآخر قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [5] ، هـٰذا إخبار من ٱلله تبارك

---

(1) الأنعام ، 26 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 4 ، ص 398 .
(3) القصص ، 88 .
(4) الأنعام ، 131 .
(5) الإسراء ، 58 .

وتعالىٰ ، أنه ما من قرية يتمرد أهلها علىٰ نبيهم إلا ويبيدهم ذو الجلال والإكرام جل جلاله ، أو ينزل عليهم العذاب الشديد الذي يستحقونه ، وهـٰذا الأمر لا يتعلق بزمان أو مكان بل هو يشمل جميع الأزمنة والأمكنة ، وفي جميع الأمم الظالمة ، إنه فعَّال لما يريد وهو علىٰ كل شيء قدير .

إن البقاء والهلاك يمثلان وجهاً من وجوه الوقوف علىٰ صورة جلالة ٱلله تعالىٰ . فالهلاك يدل علىٰ بقاء ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فمن خلال التاريخ الطويل للأقوام التي وجدت علىٰ الأرض نلتمس بقاء ٱلله جل جلاله ، فعند الوقوف علىٰ آثار هـٰؤلاء الأقوام نرىٰ صورتهم ولـٰكن من خلال رسم متخيل رسمه لنا القرآن الكريم ، فهم لا وجود لهم ، أما ٱلله تبارك وتعالىٰ فهو الباقي ، إذ نلتمس ذلك من خلال دلائل قدرته وصور عظمته الواضحة أمام من يبصر ، فالشمس والقمر والأرض وهـٰذا الكون الفسيح كل ذلك دلائل تشير إلىٰ بقائه ، فضلاً عن أن الألوهية تنفي الهلاك ، إذ لا يصح لله تعالىٰ أن يهلك فلابد له من البقاء وهـٰذا ما لا يترتب علىٰ الأصنام وغيرها فهي تنساق ضمن انتفاء الألوهية عنها لأنها تهلك ولا تبقىٰ ، إنه الخالق الحق وهي المخلوقة بغير حق ، إنها من صنع المشركين الذين حادوا عن الحق بما يفترون . أما صورة البقاء التي رسمها لنا القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [1] . هنا النص القرآني يفتح شفرات البقاء من خلال سؤال وجواب ، فيرسم صورة البقاء التي تتحقق في يوم القيامة ، فبعد النفخ وموت جميع الخلائق يحصل السكون وتخفىٰ الأصوات التي كانت تتكبر وتتعاظم في الدنيا وتدعي البقاء والخلود ، فيقول الرب تبارك وتعالىٰ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ فهل هناك من مجيب ؟ لا مجيب إلا من عرف الحق بقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ،

---

(1) غافر ، 16 .

فلا شريك له . ﴿ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لجميع المخلوقات ، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت ، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم .

ومن مظاهر جلاله الآتي :

أولاً : التوحيد :

وللتوحيد أنواع ثلاثة : وهو توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

1 ـ **توحيد الربوبية** : وهو توحيد ٱلله بأفعاله ـ سبحانه ـ مثل الخلق والرزق وتدبير الأمور والإحياء والإماتة ونحو ذلك .

فلا خالق إلا ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (1) .

ولا رازق إلا ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

ولا مدبِّر إلا ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (3) .

ولا محيي ولا مميت إلا ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (4) .

وهـٰذا النوع قد أقر به الكفار علىٰ زمن رسول ٱلله ﷺ ، ولم يدخلهم في

---

(1) الزمر ، 62 .

(2) هود ، 6 .

(3) السجدة ، 5 .

(4) يونس ، 56 .

الإسلام ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

2 ـ **توحيد الألوهية** : وهو توحيد ٱلله بأفعال العباد التي أمرهم بها . فتصرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له ، مثل الدعاء والخوف والتوكل والاستعانة والاستعاذة وغير ذلك .

فلا ندعو إلا ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (2) . في هٰذه الآية الكريمة يقين مطلق وهو المستجيب ٱلله ذو الجلال والإكرام ، وعلىٰ هٰذا اليقين يقينان :

أ ـ يقين قول ٱلله الحق بأنه المتحقق ، دون شك بأنه إذا دعي من مؤمن كانت منه الاستجابة ، أي كانت الاستجابة من ٱلله لعباده الصالحين .

ب ـ يقين إيماني بأن المؤمن لا يراوده شك في أن ٱلله مجيب وستكون الإجابة له يقيناً ، أي ستكون الإجابة آتية إلىٰ المؤمن دون أي شك والحمد لله رب العالمين .

وعليه يزداد الخليفة قوة بمخافته ٱلله في كل قول وفعل وعمل ؛ ولهٰذا فإنه في مخافة ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

وأيضاً الخليفة لا يتوكل إلا علىٰ ٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى

(1) لقمان ، 25 .
(2) غافر ، 60 .
(3) آل عمران ، 175 .

ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

والخليفة لا يستعين إلا بٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (2) .

وهو كذلك لا يستعيذ إلا بٱلله ، كما قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (4) .

وهـٰذا النوع من التوحيد هو الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (5) .

وهـٰذا النوع من التوحيد هو الذي أنكره الكفار قديماً وحديثاً ، إذ يقول تعالىٰ علىٰ لسانهم : ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (6) .

وتوحيد ٱلله تبارك وتعالىٰ هو : الإقرار بأنه ثابت موجود ، وإلـٰه واحد فرد معبود ، ليس كمثله شيء علىٰ ما قرر به قوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (7) ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ

---

(1) المائدة ، 23 .
(2) الفاتحة ، 5 .
(3) الفلق ، 1 ـ 2 .
(4) الناس ، 1 ـ 6 .
(5) النحل ، 36 .
(6) ص ، 5 .
(7) البقرة ، 163 .

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1) .

كل ما تقدم من توحيد البارئ جل جلاله يوحي لنا بالجلال الذي يتسم به تعالىٰ ، وجلاله ندركه من خلال ما تقدم فلا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا محيي ولا مميت إلا هو ، فضلاً عن ذلك أن الدعاء لا يكون إلا لله تبارك وتعالىٰ ، والخوف لا يكون إلا منه ، والتوكل لا يكون إلا عليه ، والاستعانة لا تكون إلا به . وهٰذا كله يرسم مدىٰ جلال ٱلله تبارك وتعالىٰ وعظمته وكبريائه .

ثانياً : حمل الأمانة :

الأمانة أمر مطلق في كل شيء أمر به ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهي لم تعرض علىٰ الإنسان بداية بل عرضت علىٰ السمٰوات والأرض ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (2) ، فالأمانة أمر عظيم فهي (الخلافة) عرضت علىٰ السمٰوات والأرض فامتنعت عن قبولها ، ففي هٰذه الآية بيَّن ٱلله تبارك وتعالىٰ عظم شأن التكليف الشرعي وصعوبة أمره ، فقد حمل هٰذه الأمانة الإنسان بإشفاق من البارئ عز وجل ، إنه كان ظلوماً إذ لم يف بها ولم يراع حقها وجهولاً بكنه عاقبتها ، فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه علىٰ أربعة أقسام :

أ ـ كافرون : ممتنعون بالكامل وهم يرفضون قبولها .

ب ـ مشركون : جاءتهم بيِّنة كاملة فتركوها مجزأة .

---

(1) الشورىٰ ، 11 .
(2) الأحزاب ، 72 .

ج ـ منافقون : أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا وهم منكرون باطناً (يقولون ما لا يفعلون) .

د ـ مؤمنون ، قائمون بها ظاهرًا وباطنًا .

فذكر ٱلله تعالىٰ أعمال هـٰؤلاء الأقسام الأربعة ، وما لهم من الثواب والعقاب فقال : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) ، ختم هـٰذه الآية بهـٰذين الاسمين الكريمين ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الدالين علىٰ تمام مغفرة ٱلله ، وسعة رحمته ، وعموم جوده ، مع أن المحكوم عليهم ، كثير منهم ، لا يستحق المغفرة والرحمة ، لنفاقه وشركه ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (2) .

ومن الأمانة غض البصر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3) . ومنه أن ٱلله

(1) الأحزاب ، 73 .
(2) آل عمران ، 21 ـ 22 .
(3) النور ، 30 ـ 31 .

تعالىٰ حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) .

ومن الأمانة أيضاً رد الأمانات إلىٰ أصحابها ، يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) .

وحظ الخليفة من الأمانة كبير جداً وعظيم ، فيجب عليه أن يأتمر بما أمره ٱلله تبارك وتعالىٰ وأن يجتنب كل ما نهىٰ عنه تعالىٰ ، ويترجم هٰذه الأوامر والنواهي في حياته إلىٰ واقع وعمل حتىٰ يكون قدوة حسنة في القول والفعل والسلوك ، أخلاقه تؤسس علىٰ ما يجعله علىٰ هيبة واعتبار ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (3) .

من الأمانة اعتماد الأخلاق معاملة مع العباد ، لأن أساس الدين ليس فقط العبادات ، مثلاً أن تسمع المؤذن يؤذن لفرض من الفروض ، فتذهب بكل خشوع وتؤدي الصلاة كما أريد لها ، والذي يصلي بجانبك له في ذمتك مبلغ من المال ، كلما طلبها منك تذرعت بكل الحجج من أجل عدم الدفع وفي إمكانيتك دفع المال له ، هل هٰذا من الأمانة أن لا ترد الدين ؟ اندونيسيا بلد مسلم عدد سكانها يزيد عن مائتي مليون مسلم عندما تسألهم كيف وصل لكم الدين الإسلامي ؟ هل وصل عن طريق الفتح الإسلامي ؟ يقولون لك لا ،

---

(1) الحجرات ، 12 .
(2) النساء ، 58 .
(3) لقمان ، 18 ـ 19 .

وصل عن طريق التجار المسلمين رأينا أمانتهم فأسلمنا ، هـٰذا الكلام ليس في اندونيسيا فقط بل في كثير من البلدان التي وصل إليها الإسلام علىٰ أيدي المستخلفين فيها .

أما الأمانة بمعناها العام الذي تحدثنا عنه من غض البصر وصون اللسان والفرج وغيره ، فهي تمثل صورة الدين الإسلامي التي يريدها البارئ عز وجل ، لأن كل العبادات والأحكام الشرعية هي صورة للأمانة التي أرادها تعالىٰ .

ثالثاً : أجلهم بالعقل :

من نعم ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ بني آدم العقل ، فهو الذي به يميز بين الخير والشر ، والحق الباطل ، والإقدام علىٰ ما يجب والابتعاد عما لا يجب ، ولأهمية العقل فقد كان محور الخطاب القرآني يدور حوله بوصفه الأداة المهمة الموجودة عند المشركين والعاصين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] الآية الكريمة تتحدث عن أمور عظيمة تدلل علىٰ عظمة البارئ عز وجل ، والاستدلال علىٰ العظمة يأتي من خلال العقل الذي وهبه سبحانه ، فعلىٰ الناظرين أن ينظروا بعيون عقولهم ويعتبروا ، لأنها دلائل علىٰ عظيم القدرة وباهر الحكمة . ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [2] .

والخطاب القرآني لم يقصر العقل علىٰ المشرك أو العاصي بل أشار به إلىٰ عباد ٱلله المطيعين المتفكرين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(1) البقرة ، 164 .
(2) المؤمنون ، 80 .

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (1) . خص ٱلله بالآيات أولي الألباب ، وهم أهل العقول ؛ لأنهم هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم ، ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ في جميع أحوالهم : ﴿ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ وهـٰذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب ، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلىٰ جنب ، وأنهم ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ليستدلوا بها علىٰ المقصود منها ، ودل هـٰذا علىٰ أن التفكر عبادة من صفات أولياء ٱلله العارفين ، فإذا تفكروا بها ، عرفوا أن ٱلله لم يخلقها عبثاً ، فيقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك ، بل خلقتها بالحق وللحق ، مشتملة علىٰ الحق والعقل نعمة من نعم ٱلله تبارك وتعالىٰ التي لا تعد ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، ونعمة العقل تتجلىٰ عند الخليفة من خلال حواره ومخاطبته مع الآخرين في سبيل الدعوة الإسلامية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (4) ، والمراد من الحكمة هنا هي الدعوة بالعلم والبداية تكون بالأهم فالأهم ، فضلاً عن ذلك من وسائل الترغيب والترهيب ، وهـٰذا الأمر كله لا يقوم به إلا عاقل ، النعمة التي وهبها ٱلله تعالىٰ

---

(1) آل عمران ، 190 ـ 191 .

(2) إبراهيم ، 34 .

(3) النحل ، 18 .

(4) النحل ، 125 .

له بالعقل فبها يهتدي وبها يدعو ويحمل الأمانة دون مخافة .

رابعاً : أجلهم بالرأفة فيما بينهم :

الرأفة باب كبير من أبواب ٱلله تبارك وتعالىٰ خص بها عباده المستخلفين ، وتتجلىٰ صورتها منذ بداية الخليقة من خلال تنظيم البشر وفق نظام يتسم بالدقة والترتيب ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1] هـٰذا التقسيم يتيح لجميع الخلق المواصلة والتعرف ويقرب المسافات بينهم ، ومن الشعوب والقبائل إلىٰ نظام الأسرة الصغيرة ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] ، فالزواج أحد محاور الدين الإسلامي بما يشتمل عليه من نظام الأبوة والأمومة التي تتمثل فيها الرأفة بأبهىٰ صورها رعاية وعناية ورحمة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [4] والأبوة والأمومة تبدأ من تلقيح البويضة مروراً بالمراحل التي يمر بها الجنين داخل بطن أمه ثم بعد ذلك يخرج إلىٰ الدنيا فتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الأبوة والأمومة وهي الرضاعة والعناية ، ثم بعد ذلك يصبح ذكراً كان أو أنثىٰ فاعلاً في أسرته وبني قومه وجنسه والمستخلفين معه رحمة في الأرض يصلح ولا يفسد فيها ولا يسفك دماً بغير حق ، إن تصوير هـٰذا الأمر ليس بهـٰذه السهولة ، فالرأفة

---

(1) الحجرات ، 13 .
(2) الروم ، 21 .
(3) لقمان ، 14 .
(4) الأحقاف ، 15 .

التي أسكنها ٱلله تبارك وتعالىٰ في عاطفة الأبوة والأمومة لها الفضل الكبير في استمرار البشرية والتكاثر بهـٰذه الطريقة الصعبة والمعقدة ، فلو كانت الأسرة من تخصصها أنها تربي أي طفل لما كانت هناك أي مشكلة في تربية الأطفال ، فيصبح الأمر كأي وظيفة من الوظائف ، وبهـٰذا تكون الأبوة والأمومة فاقدة للرأفة التي تتحقق فيها ، فقد قص علينا القرآن الكريم قصة موسىٰ عليه الصلاة والسلام المتضمنة تأصيل الأمومة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) هنا تتمثل لنا صورة من صور الأمومة التي أراد ٱلله تبارك وتعالىٰ بيانها للخلق كافة ، فعلاقة موسىٰ مع أمه تبين صورة الرأفة التي منحها تعالىٰ للأم ، فهـٰذا التعلق الغريب بين الطرفين يؤكد أن العلاقة بينهم ليست عادية وغير ممكن أن تقام بين طرفين مجهولين دون وجود رابطة الأمومة الحقيقية بينهم ، وهـٰذا هو سر استمرار الوجود إلىٰ هـٰذه الساعة .

ومن رأفته أنه سهل أمور دينه لعباده من ذلك الإفطار أثناء السفر ، تيسيراً لا تعسيراً ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) ، وهـٰذه الرخصة من رأفته تعالىٰ لعباده في سبيل تسهيل أمورهم التعبدية .

---

(1) القصص ، 10 ـ 13 .

(2) البقرة ، 185 .

ومن رأفته خلق الأنعام ففيها منافع كثيرة ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (1) ، وهٰذه المنافع مختلفة تتجلىٰ كلها في خدمة المستخلفين ، وهي باب من أبواب الرأفة التي فتحها ٱلله تبارك وتعالىٰ لهم ، وتشتمل الرأفة كل ما سخره ٱلله تبارك وتعالىٰ في هٰذا الكون من أجل الخليفة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) . هٰذه الآية الكريمة تعرض المخلوقات العظيمة الدالة علىٰ وحدانية ٱلله تبارك وتعالىٰ وعظيم سلطانه ورحمته ، لٰكنها لمن ، إنها ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فالسمٰوات والأرض في ارتفاعهما واتساعهما ، وإحكامهما ، وإتقانهما ، وما جعل ٱلله فيها من الشمس والقمر ، والنجوم ، وتنظيمها لمصالح العباد ، وفي الأرض مهاد للخلق ، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها ، أما الليل والنهار ، فإنهما يتعاقبان علىٰ الدوام إذا ذهب أحدهما ، خلفه الآخر ، وفي اختلافهما في الحر ، والبرد ، والتوسط ، وفي الطول ، والقصر ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول ، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم ، وجميع ما علىٰ وجه الأرض ، وكل ذلك يسير وفق نظام عجيب لا يتقدم فيه شيء ولا يتأخر ، مما يدل علىٰ تدبير ٱلله تعالىٰ وعظمته ، وعظمة ملكه وسلطانه . أما السفن والمراكب فهي مما ألهم ٱلله تعالىٰ عباده صنعتها ، ثم سخر لها البحر والرياح لتحركها وفق ما يريد العبد أن يستفيد من نقل البضائع والركاب بما يخدم العباد عامة .

---

(1) النحل ، 5 ـ 6 .

(2) البقرة ، 164 .

أما المطر النازل من السحاب فهو سر من أسرار ٱلله تعالىٰ يكمن وراء الحياة الموجودة علىٰ الأرض ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [1] فنزول المطر يحيي الأرض بعد موتها ، فيخرج منها ما يكون أقواتاً للخلائق جميعاً ، وهـٰذا دليل من دلائل رأفة ٱلله تعالىٰ بعباده أن هيأ لهم رزقهم الذي يعينهم علىٰ الحياة التي يعيشون فيها .

أما الدواب فهي نعمة جليلة من نعم ٱلله علىٰ عباده ، فالانتفاع فيها يكون بوجوه متعددة ، فلحمها يؤكل ، وحليبها يشرب ، وصوفها يتدفأ به ، فضلاً عن ذلك أنها واسطة نقل تنقلهم إلىٰ أي مكان يريدونه . أما الرياح فهي تمثل إحدىٰ دلائل قدرة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فهي تثير السحاب وتنقله ، وتقوم بالتلقيح ، تارة تكون حارة وتارة تكون باردة ، متعددة الوظائف تمثل محوراً مهماً من محاور سلطان ٱلله تعالىٰ وعظمته إنه ذو الجلال والإكرام .

خامساً : لا يرث المسلم إلا المسلم :

الإيراث : الإبقاءُ للشّيء . يُورِثُ ، أي : يُبقي ميراثاً [2] . والميراث حق ، واجب التقيد به ، لا يوزع إلا في وجوهه ، وورد في القرآن الكريم بقوله تعالىٰ : ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [3] ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث وأصله وراث . ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أكلاً شديداً لا تبقون منه شيئاً فقد جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون نصيبهم ، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك [4] فالميراث من التشريعات التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف من أجل حفظ

(1) الأنبياء ، 30 .
(2) العين ، ج2 ، ص 164 .
(3) الفجر ، 19 .
(4) تفسير البيضاوي ، ج 5 ، ص 397 .

الحقوق المادية للورثة ، وتوزيعها عليهم بما أمر به ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (1) ، وهٰذا التوزيع يختص بالمسلم فلا يكون لغير المسلم فيه نصيب لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ وَلا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ » (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (3) يتبين هنا قيمة المؤمن عند ٱلله تبارك وتعالىٰ وعلو منزلته التي أرادها له . إذ يتشكل ذلك من خلال بيان مكانة المسلم إلىٰ باقي الأديان أو المعتقدات الأخرىٰ ، فمنزلة المسلم تتسم بالعلو والرفعة والتقديس ، فضلاً عن ذلك أن الميراث لا يمثله الجانب المادي فقط بل يمثله الجانب المعنوي أيضاً ، فإن سمح للكافر أن يرث المسلم علىٰ سبيل المثال تصبح الأمور فوضىٰ وتختلط وتهدر حقوق وتضيع قيمة المسلم ويصبح بلا شأن ودون أي مزية ، وهٰذا أمر يرفضه الشرع تماماً .

سادساً : خلق عباده في أحسن تقويم :

خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ الكون وما فيه ضمن إبداع أراده سبحانه ، ومن بين ما خلق جل وعلا ذو الجلال والإكرام خلق الإنسان ، هٰذا الكائن الذي قال عنه ٱلله تبارك وتعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (4) ، وأحسن تقويم يعود إلىٰ أمرين :

---

(1) النساء ، 7 ـ 9 .
(2) صحيح البخاري ، ج 13 ، ص 178 .
(3) النساء ، 11 .
(4) التين ، 4 .

الأمر الأول : ظاهر وهو أن ٱلله تعالىٰ خلق الإنسان سوي القامة ، وغيره مكب علىٰ وجهه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (1) . وعليه فالظاهر هو المشاهد ، إنه الصورة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (2) ، ولأن المشاهد ظاهر ، فالظاهر هو : ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعاً للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها ، وهـٰكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كماً ، أو فعلاً ؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية . والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهـٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الظاهر هو الذي لم يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّناً للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية .

الظاهر ما ليس بكامن ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في

---

(1) الأنعام ، 38 .
(2) التين ، 4 .

التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر .

وعليه ، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة .

وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر . ولهٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً أو فيه القدوة ، ولٰكنه في الواقع ، قد يكون غير ذلك ، فالابن ، أو الابنة كثيراً ما يكونان أمام أسرتهما ، وخاصة الوالدين ، علىٰ خلق والتزام وأدب ، ولٰكنهما في حقيقة الأمر يكونان غير ذلك من ورائهما ، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية ، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب هٰذا الادعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر علىٰ الظاهر قد لا يؤدي إلىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلاً وصورةً ، وقد يكون قولاً أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر ، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته ، وقد لا يؤدي إلىٰ نتائج علمية ، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي بالمس يتم التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة ، ولٰكن الذي يود أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن

وراءها ، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلىٰ مريض مصفر الوجه ، هل يتوجه هـٰؤلاء الأخصائيون إلىٰ معالجة الاصفرار الظاهر ؟ أم إلىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل ، وأسباب ؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلىٰ البحث عن كامن ، لأن الاصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب ، إذاً لابد وأن تكون له أسباب ، ومسببون له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر ٱلله في الكبد ، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلىٰ الهلاك ، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك ، دون أن يكون له رأي ، أو حتىٰ وجهة نظر في ذلك .

أما الأمر الثاني : فهو باطن الإنسان وما يمتاز به من عقل وفهم وأدب وعلم وبيان وإيمان وهـٰذه كلها أصول اتسم بها الإنسان عن باقي المخلوقات ، فمنذ بداية خلقه كان الاعتناء الرباني واضحاً في خلقه في أحسن تقويم من خلال المراحل التي مر بها خلق الإنسان ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (1) ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ارتبط ببقية ما خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ ، والتي تؤلف الكون بأجمعه ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ

---

(1) المؤمنون ، 12 ـ 14 .

إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) ، وصورة الإنسان مستوفية الحسن ليس فيها فظاعة أو نقصان ، فكل أجزائه متناسقة تنم عن الحسن الذي أراده ٱلله تبارك وتعالىٰ للإنسان .

وعليه فالباطن هو الكامن الذي لم يكن قابلاً للمشاهدة وهو الأصل في إظهار الحق وتعيين الحقيقة ، فالباطن هو : الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغلاً لحيز ، وهو المضمون الذي عليه الظاهر ، ولهـٰذا المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف علىٰ الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية .

الكامن ما ليس بظاهر ، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس . ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي : الكمون هو أن تكمن بعض الأشياء في بعض . وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة .

ولذا فإن الكمون هو مكمن كل حقيقة ، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة ، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينان ولـٰكن يدركه كل عقل ناضج سليم . وهـٰكذا تكمن الأسرار في الصدور حتىٰ يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة .

وعليه فخلق الإنسان في أحسن تقويم يحتوي علىٰ شيئين : (الظاهر والباطن) الظاهر سوياً ، والباطن عاقلاً ومتحملاً لعبء الأمانة ، وهـٰذه مسؤولية الخليفة المؤمن بالحق حقاً . ولذا فالباطن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ ، وقد يظهر شيء منه في فلتات

---

(1) غافر ، 64 ـ 65 .
(2) التغابن ، 3 .

اللسان ، ولهٰذا لا ينبغي أن يغفل الخليفة عمّا يرد عن فلتات اللسان ، إلىٰ جانب ما يتمكن من معرفته بالأساليب الإسقاطية أو عن طريق استخدام التصانيف القيمية ، وأساليب التحليل العلمي مع الملاحظة والمشاهدة الواعية .

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف علىٰ جوهره ، علىٰ أسراره وخفاياه ، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته ، وعليه إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها ، بل الغاية فيما وراءها . قال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [1] .

الخليفة يستوقفه المشاهد حتىٰ يرىٰ جمال الخالق في خلقه ، ثم ينتقل إلىٰ الملاحظ حتىٰ يرىٰ إعجاز ربه في خلقه ، ولذلك أسرار وعلل الظاهر هي في الباطن ، ولهٰذا فالباطن مكمن الحقيقة التي يبحث الإنسان عنها ، والتي إذا ما بلغها آمن بالإعجاز الذي يكمن وراءها حتىٰ يدركه واحد أحد ذو الجلال والإكرام .

وفي هٰذا الأمر المثال الذي سبق البحث فيه سابقاً وهو : تحليل البصمات الذي لم يكن الغاية منه التعرف علىٰ البصمة ، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً ، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً ، وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلىٰ ارتكابه ، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث . وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ ، يكون كامناً في الشيء ذاته . وليس معنىٰ ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد ، فكثير من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها ، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها ، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة ، ولم يتم القبض

(1) الغاشية ، 17 ـ 22 .

عليه ، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة ، وكأنه لم يكن سارقاً ، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية ، يتم القبض عليه فكان هو السارق .

إذاً الإنسان كظاهر يكمن في بصماته ، كما يكمن المطر في السُّحب ، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون ، وهـٰكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة .

وبناء علىٰ ذلك قد يكون الكامن مشاهداً ، وقد لا يكون كذلك . وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها ، والمجتمع في حشوده . ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع ، لا يمكن أن تشاهد ، ولـٰكنها تُلحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع أن (يشاهد) الزواج ؟ لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة ، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) علىٰ موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعىٰ الناس إليه . إذاً الذي تتم مشاهدته ، هو الزوجان الذكر والأنثىٰ ، والعقد المكتوب بينهما علىٰ ورق ، والناس الذين حضروا لأجل ذلك ، وهـٰذا كله لم يكن الزواج ، بل هـٰذه مراسم الزواج . الزواج توادد ، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلىٰ التباس بعضهما ، حباً واشتياقاً وفق اتفاق علىٰ مستقبل مشترك ، يجعل الآخرين شاهدين علىٰ ذلك بأنه الحق ، ومحرضين عليه . إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة ، وذكر وأنثىٰ ، وهـٰذه تُلحظ ، ولا تشاهد بالعينين . والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ ، ولا يشاهد ، وهـٰكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما ، ولا يخضعان للمشاهدة ، لأن الذي يشاهد هم الأفراد ، كباراً وصغاراً ، ذكوراً وإناثاً ، وحشوداً من البشر ، وهـٰؤلاء لم يكونوا هم الأسرة ، ولا المجتمع ، مع أنهم عناصر تكوينهما ، فبدون علاقات مشتركة ذات معنىً لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنىً للأسرة ، أو المجتمع ، ولهـٰذا تتكون معارفنا من

ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما . فنحن نعرف الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، ونعرف الخال والجد ، ونعرف أيضاً أن هٰذه المفاهيم جميعها لا تشاهد ، لأنها كامنة ومترتبة علىٰ علاقات يمكن ملاحظتها .

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية ، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية . ولٰكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات ، أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتىٰ لا تكون المعرفة قاصرة .

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة هي ، العبادات كسلوك مشاهد ؟ فالحج علىٰ سبيل المثال ، هل هو ما نشاهده من سلوك ، أم أنه أكثر من ذلك ؟

إن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر ، ترتدي زياً موحداً (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة ، ويلحظ عليها التعاون ، والانضباط ، والمساواة في أداء الفرائض ، وأنه لا رئيس لهٰذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم . فهل هٰذا السلوك المشاهد ، والملاحظ هو الحج ؟ في اعتقادنا السلوك الظاهر ، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج ، ولم يكن الحج في ذاته . فالحج عقيدة وإيمان بوحدانية ٱلله ، واعتراف بقدسية ذلك المكان ، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان ، ويقين بأن ما قام به محمد ﷺ من فرائض وسنة ، هو الحق الذي يستوجب الاتباع . ولهٰذا لو لم يكن هناك مدلول كامن لفريضة الحج ، ما كان هناك ظاهر سلوكي له .

ذكر ٱلله تبارك وتعالىٰ خلق الإنسان مع بقية ما خلق وهي بمجموعها تمثل الخالق العظيم الذي أبدع وصور ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (1) . فما كان

(1) النمل ، 88 .

من صنع غير ٱلله تبارك وتعالىٰ لا يكون متقناً ويكون واهياً .

إن خلق ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده في أحسن تقويم يتشكل ضمن عملية الخلق العامة التي شملت كل ما هو موجود ، فكل شيء خلقه تعالىٰ من أجل غاية يريدها جل شأنه ، فطبيعة خلقه تتفق فيما أناط تعالىٰ بها من تكليف ، ولهـٰذا تميز العباد بالخلق في أحسن صورة يريدها تعالىٰ من أجل غاية يريدها ٱلله جل جلاله ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (1) . هنا تتضح الغاية التي من أجلها خلق ٱلله تعالىٰ الجن والإنس ، وبعث جميع الرسل يدعون إليها ، فالغاية تتناسب مع الخلق الذين خلقهم ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فالإنس بالصورة التي خلقهم ٱلله تعالىٰ عليها قال عنها (في أحسن تقويم) تتناسب مع الأمر المطلوب منهم ، فالعقل هو الركيزة الأساسية التي تستند إليها الدعوة الإسلامية ، فهو الذي يميز ويقبل ويرفض ، لذلك نجد أن النص القرآني يردد دائماً الصيغ التي تتعلق بالعقل ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟

(1) الذاريات ، 56 ـ 58 .
(2) البقرة ، 44 .
(3) البقرة ، 164 .
(4) البقرة ، 269 .

وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ (1) .

هـٰذه الآيات وغيرها تظهر مدىٰ التركيز علىٰ أهم خصلة في الإنسان وهي العقل ، فهي الأداة العظيمة التي من خلالها يكون التدبر والتفكر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (3) .

وحظ الخليفة من العقل أن يكون أداته التي ينشر بها دين ٱلله من خلال إيصال دعوة ٱلله تبارك وتعالىٰ إلىٰ أبعد نقطة في هـٰذا العالم الذي نعيش فيه ، فتكون معاملة كل قوم بما يتفق وعقليتهم والطريقة المثلىٰ التي يجدها تتلاءم معهم .

سابعاً : المستحق للأمر والنهي :

الأمر والنهي من المفردات التي صاحبت الخليقة ، فكانت فاتحة الخطاب بين ٱلله تبارك وتعالىٰ والملائكة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (4) في هاتين الآيتين ورد الأمر والنهي ، والأمر والنهي يمثل البداية التي عرف من خلالها الخلق جلال ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ونقصد بالمعرفة هنا أن استدراكات

---

(1) طه ، 54 .
(2) النساء ، 82 .
(3) يونس ، 24 .
(4) البقرة ، 34 ـ 35 .

العقل الباطن للإنسان تحيل النصوص التي يسمعها إلىٰ رؤىٰ ثم بعد ذلك يقوم بتحليل هـٰذه الرؤىٰ وربطها بالنص الأول ، فالمغزىٰ من كلامنا هـٰذا أن الأمر والنهي يحيل علىٰ صورة أخرىٰ يرسمها العقل ، وهـٰذه الصورة تتكون من الأبعاد الآتية :

البعد الأول : يتمثل به الأمر والنهي .

أما البعد الثاني : فيكون المالك وهو ٱلله تبارك وتعالىٰ .

ثم البعد الثالث : وهو الجلال .

هـٰذه الأبعاد الثلاثة تكون متوالية كل واحدة تأتي بعد الأخرىٰ وتفضي إليها من خلال ربطها بدلالات نصية ، فيكون الشكل كالآتي ، جلال ٱلله تبارك وتعالىٰ ثم المالك وهو ٱلله تبارك وتعالىٰ ثم بعد ذلك الأمر والنهي ، ولبيان ذلك أن هـٰذا التدرج يمكن أن يقرأ بوجهين :

الوجه الأول : أن ٱلله تعالىٰ صاحب الجلال الذي لا يصل إليه جلال ولا يقارن به جلال بيده كل شيء ومالك كل شيء ، ومن بيده كل شيء يأمر وينهىٰ كما يشاء لأن كل شيء له فلا يحق لأحد من خلقه أن يفعل أو يأخذ شيئاً لا يملكه ، لأن كل شيء ملكه لله تعالىٰ .

أما الوجه الثاني : فهو أن الأمر والنهي يمثل وجهاً من وجوه السلطة في فرض ما يريد ومادام هو يريد ولا يريد كما يشاء فهو مالك للأمر والنهي ، والمالك يتسم بالجلال لعلو شأنه وقدرته وملكه للأمر والنهي ، وبهـٰذا نجد النص القرآني يبلور فكرة المالك ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1] .

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .

من جلاله أنه المستحق للأمر والنهي ، الاستحقاق هنا يتبلور من خلال ما يأمر وما ينهىٰ ، وهـٰذا يبدو واضحاً من خلال الأحكام والتشريعات التي بينها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وترتبط هـٰذه الأحكام والتشريعات بالخليفة وفق معيار واحد وهو الطاعة لا غير ، مما يستبعد فكر الخليفة رفضها أو تجاوزها أو تأويلها ضمن سياق المراوغة الذي تريده نفسه .

من الأمور التي أمر بها ٱلله تبارك وتعالىٰ عباده الزكاة ، وهي أحد أركان الإسلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيراً ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

أما أصل الزكاة النمو الخاص ، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية يقال زكا الـزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة ، وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (3) ، ومن الزكاة لما يخرج الإنسان من حق ٱلله تعالىٰ إلىٰ الفقراء وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو تزكية النفس أي لتنميتها بالخيرات والبركات أولهما جميعاً فإن الخيرين موجودان فيها ، وقرن ٱلله تعالىٰ الزكاة بالصلاة في القرآن بقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (4) ، وبزكاة النفس

---

(1) البقرة ، 277 .
(2) البقرة ، 110 .
(3) الكهف ، 19 .
(4) البقرة ، 43 .

وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الفوز بالجنة ، فالزكاة هي الزيادة المباركة .

والبحث في الزكاة يتصل بأمر مهم وهو الرزق وهو من تقدير ٱلله تعالىٰ للخلق ، والتقدير ليس متساوياً بحيث يصبح الخلق وفق نسق واحد من التوزيع ، ولهٰذا نجد أن النص القرآني استعمل صيغة تعبر عن عدم التساوي في توزيع الرزق ، إنما يكون التوزيع تابعاً للمشيئة التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (2) ، وعلىٰ وفق المشيئة ينقسم الخلق إلىٰ أغنياء وفقراء لحكمة لا يعلمها إلا ذو الجلال والإكرام جل جلاله .

فملف الزكاة ضمن إطار الأمر الرباني الذي نريد الحديث عنه ، فالزكاة تتشكل ضمن أركان الإسلام لترسم صورة واحدة معبرة عن فكرة الإسلام الكاملة ، إلا أن الزكاة تنحو منحىً خاصاً ، فهي لا تتعلق بفرد واحد إنما تمس في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من المسلمين المستخلفين فيها .

ومن جانب آخر إن الزكاة تمثل امتحاناً حقيقياً ، فإخراجها وتوزيعها يتم من خلال الإيمان الكامل بهٰذا الركن ، وحتىٰ لا يكون الإنسان من الذين قال عنهم ٱلله تبارك وتعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة ، 212 .
(2) الشورىٰ ، 19 .
(3) التوبة ، 34 ـ 35 .

والنهي يمثل نصف الأحكام الشرعية التي جاء بها الدين الإسلامي ، أما الأمر فهو يمثل النصف الآخر ، ذلك أن وجود الأمر والنهي في النص القرآني يعود إلىٰ المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم ، فهو لم يكن مجتمعاً بكراً ، بمعنىٰ أنه لم يكن خالياً من الأفكار والمعتقدات والديانات السابقة بل هي متوارثة فيه لا تنقطع من جيل إلىٰ جيل آخر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [1] ، فجاء القرآن الكريم فاقتطع ما أراد أن يقتطعه منها .

والنهي ورد في القرآن الكريم وخاصة في الأمور المهمة والجليلة التي تمس مصلحة العباد في أمورهم الدنيوية ، التي يكون جزاؤها دنيوياً وأخروياً من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [2] ، نهىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين عن أكل المال الحرام ، فهو يشمل كل الطرق التي تسلك من أجل الحصول علىٰ المال الحرام ، كالسرقة والاحتيال والنصب والغصب والقمار وغيرها ، والنهي هنا يحمل مدلولات كثيرة تنم عن عظمة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فلو أبيح الحصول علىٰ المال من الطرق المذكورة آنفاً لأصبحت الحياة فوضىٰ وانعدم الأمن ولسقطت كل المقاييس التي تبين صلاح الناس .

بعد التحريم تأتي الإباحة في الآية الكريمة من خلال التجارة المشتملة علىٰ شروط من التراضي وغيره .

---

(1) المائدة ، 104 .

(2) النساء ، 29 ـ 30 .

تتردد عبارة بين آونة وأخرىٰ وهي من لا يجل لا يكون خليفة ، وهـٰذه العبارة تطرح بعض الأسئلة :

- ما علاقة الخليفة بالجلال ؟
- ما هي شروط الجلال للخليفة ؟
- من أين يستمد الخليفة جلاله ؟
- هل أن الجلال شرط من شروط الخليفة ؟

هـٰذه الأسئلة وغيرها تفتح ملفاً معرفياً ينساق خلف قراءات كثيرة يتمحور من خلالها تأصيل فكرة الخلافة التي يتردد ذكرها دائماً ، لماذا الجلال للخليفة ؟ هـٰذا كلام يفتح لنا ماهية الجلال التي يجب أن يكون عليها بين الذاكرة وبين استدراكات القراءة المتعددة ، فالذاكرة رسمت لنا صورة واضحة عن الصيغة التي يجب أن يكون عليها الخليفة كي يجل أي يُقدر ، والتقدير هو : قيمة تقييمية ، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات . قيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة علىٰ المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة ، وبناء علىٰ النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين . ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إذا لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي .

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها ، حتىٰ يتضح دور الخليفة وفقاً لما يجب حيالها .

ولهـٰذا فالتقدير مطلب يُشبع رغبة ، مما يستوجب من راغب في ممارسة العبادة لله وحده أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هـٰذه الحقوق . ولذا عندما يصل (الآنا والآخر) إلىٰ هـٰذا المستوىٰ من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة ، ويتمكنان من العيش سوياً في المكان والزمان

الواحد ، وينال كلٌّ منهما مكانة عند الآخر ، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلاًّ منهما علىٰ درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها .

وهـٰذه الصيغة هي خليط من مجموعة من الأفكار والتصورات والخصائص التي ترددت بين ثنايا القرآن الكريم ، وهـٰذه المجموعة تتسم بطابع يفتح آفاقاً معرفية لمعرفة الخليفة عن قرب ، فحمْل الأمانة ليس بالأمر الهين ، بل هو من الأمور الصعبة في بعض الأحيان نتيجة للتحلل الذي يصيب المجتمعات في بعض الأحيان ، فتكون الأمانة فيه شيئاً غريباً أو مستهجناً ، مما يترك انطباعاً سيكولوجياً لدىٰ عامة الخلق بانهيار مبدأ الأمانة ، ولهـٰذا لابد للخليفة من أن يكون أميناً في كل شيء حتىٰ يصل إلىٰ المرتبة التي ينتمي إليها ألا وهي الخلافة ، ولذا فإن مبدأ الإفساد أول ما بدر في خطاب الملائكة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . هـٰذه الآية تفتح ملف الخليفة بوتيرة هادئة من خلال عرضه علىٰ الملائكة إن صح القول ـ ٱلله تعالىٰ بيده كل شيء إن شاء فعل وإن لم يشأ لا يفعل ـ كان جواب الملائكة ذا توجه معرفي رسم أبعاداً مختلفة متشعبة من خلال لفظة (يفسد) والفساد يخرق كل الأبواب الموصدة التي يقطن خلفها ما عرض علىٰ الإنسان وسمي أمانة . وباب الأمانة هو من أجل أبواب الإكرام ، إذ يشمل علىٰ كل ما يتصل بالخليفة من قريب أو بعيد ، فالأمر المطلق الذي ذكرناه آنفاً حول تعريف الأمانة ، يكون للخليفة كالثوب الذي يغطي كل جسده ولا ينفك عنه إلا للممات ويكون حتىٰ كفنه ، ومعنىٰ هـٰذا أن الذي لا يتخلق بالأمانة التي يريدها البارئ جل جلاله لا يصلح أن يكون

(1) البقرة ، 30 .

خليفة ، إنما يكون من الذين قال عنهم تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (1) ، وهـٰذه هي إحدىٰ خصال الذي لا يصلح أن يكون خليفة .

أما العقل بالنسبة إلىٰ الخليفة فهو مفتاح التفكير لديه بمعنىٰ أن عقله دائماً يعمل ويسخر من أجل التفكر والوقوف علىٰ الحقائق واستبيان الآراء ووضع النقط علىٰ الحروف ، وفتح الرؤىٰ التي تؤدي كلها إلىٰ الوقوف علىٰ جلال ٱلله عز وجل ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (2) .

وتدخل الرأفة ضمن نسق خاص يشمل كوامن النفس الإنسانية بما تحمله من خصائص وصفات أرساها ٱلله تبارك وتعالىٰ فيها ، فالأبوة تمثل لدىٰ الخليفة منعطفاً كبيراً في حياته ، فمنها يتعلم دروساً كثيرة ، إن أتقن هـٰذه الدروس وجبت له الخلافة ، هـٰذا الكلام قد يرد من البعض ، ولـٰكن هل من الممكن أن تصل الأمور بالخليفة إلىٰ هـٰذه الدرجة لتقاس خلافته بالأبوة ؟ نعم إن الأبوة نظام اجتماعي يتسم بأبعاد خاصة ونظم خاصة لا يمكن تجاوزها أو التنصل منها ، ولهـٰذا إن كان الخليفة قادراً علىٰ الحفاظ علىٰ هـٰذا النظام

---

(1) الأعراف ، 40 .

(2) آل عمران ، 190 ـ 194 .

الاجتماعي من خلال مد جسور الرأفة بين الأفراد وجبت له الخلافة ، فضلاً عن ذلك نستدرك في حديثنا هـٰذا حديث رسول ٱلله ﷺ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ لله مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإنس وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا وَأخر اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] ، علاقة هـٰذا الحديث بالخليفة أن ٱلله تعالىٰ جعل هـٰذه الرحمة الواسعة من أجل التواصل والبقاء واستمرار الألفة والمحبة وسيادة التقدير بين الناس ، فالرحمة تأخذ حيزاً كبيراً أكثر مما يتصور لها ، والخليفة في نظام أسرته يزرع الرأفة والرحمة ، فتكون صورة من الصور التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ أرضه وبذلك يكتسب صفة الخليفة .

أما نظام الوراثة ، فهو نظام دقيق ينم عن جملة من الأمور المهمة التي تتعلق بالخليفة ، منها ضمان حقوق الأسرة في كل ما تملك وكل ما سوف تملك ، فهو يعزز نظامها ويبني مستقبل أبنائها ، ومن الجلال أن جعل نظام التوريث خاصّاً بالمسلم لا يتعدىٰ إلىٰ غيره ، ونقصد غيره بغير المسلم ، هنا يجل المسلم من غيره ، لأن ميزة الوراثة تعطيه خاصية التفرد والتوحد ، فالتفرد تعني إبقاء إسلاميته واضحة المعالم لا تختلط بغيرها من التشريعات المشابهة له إن وجدت ، والتوحد هو تكاتف الأسرة فيما بينها ، فالميراث هو أحد أسباب التواصل بينهم بكل أبعاده التي يرسمها ويؤصلها فيهم ، وحال الأسرة الواحدة يشمل كل الأسر وبذلك يتولد لنا مجتمع الوحدة والألفة والمحبة والتوافق .

الإكرام : صفة من صفات ٱلله تعالىٰ ، صفة توحي بعظم صاحبها وكرمه الذي ليس له حدود .

الكرم إذا وُصِف ٱلله تعالىٰ به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 311 .

تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (1) ، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال هو كريم حتىٰ يظهر ذلك منه ، أما الإكرام والتكريم أن يوصل إلىٰ الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً شريفاً ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (2) ، وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (3) .

ومن فضائل ٱلله تعالىٰ الكرامات علىٰ عباده الصالحين :

تتكون المعجزات من أمور ممكنة عقلاً خارقة لمجرىٰ العادات الكونية ، مرافقة لدعوىٰ النبوة ، ومقرونة بالتحدي المصرح به علىٰ لسان الرسول ، ولٰكن هناك أموراً من خوارق العادات غير مقرونة بالتحدي ولا بدعوىٰ النبوة ، يجريها ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ يد بعض الصالحين من اتباع الرسل والأولياء الذين كرمهم ٱلله تعالىٰ ، إكراماً من ٱلله لهم . وذلك كشاهد مستمر علىٰ إمكان معجزات الأنبياء التي جرت في أزمانهم ، باعتبار أن ٱلله تعالىٰ أجراها علىٰ يد صالح من الصالحين المستخلفين فيها ، ويسمىٰ هٰذا النوع من خوارق العادات بـ : (الكرامات) . نحن دون أدنىٰ أي شك نعرف ونؤمن أن زمن الرسل قد انتهي بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته الخاتمة ، ولهٰذا لن يظهر علينا ولا لنا رسول بعد محمد ، أما العباد الصالحون فهم مستخلفون فيها ، وٱلله مع عباده الصالحين في كل زمان ومكان والحمد لله رب العالمين . ولنأخذ ما ورد في القرآن الكريم من كرامات :

---

(1) النمل ، 40 .
(2) الذاريات ، 24 .
(3) الأنبياء ، 26 .

أولاً : قصة أهل الكهف :

وهٰذه القصة تتحدث عن فتية آمنوا بٱلله تعالىٰ ، وهٰؤلاء فروا من ظلم الملك الكافر الذي كان في زمانهم ، فآووا إلىٰ كهف في بعض الجبال ، فأنامهم ٱلله تعالىٰ ثلاثمائة سنين وأزدادوا تسعاً ، ثم بعثهم بعد ذلك وأيقظهم من نومهم الطويل ، وهٰذا الأمر من خوارق العادات بالنسبة إلىٰ البشر ، وقد أكرمهم ٱلله تبارك وتعالىٰ بذلك ، وهم فتية مؤمنون صالحون وليسوا بأنبياء ، تبدأ الكرامة مع دخول الفتية إلىٰ الكهف ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [2] .

إن قصة أصحاب الكهف بمجملها ليست غريبة علىٰ آيات ٱلله العظام ،

---

(1) الكهف ، 9 ـ 12 .
(2) الكهف ، 21 ـ 27 .

بل لله تعالىٰ من الآيات الكثيرة التي تدل علىٰ عظمته وإكرامه لعباده ، فقد أوىٰ الشباب إلىٰ الكهف يريدون التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر ، وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ يسر لنا أي شيء يكون السبب في الوصول إلىٰ الرشد ، هم في حالة الدعاء تأتي قدرة البارئ عز وجل لترسم صورة تنطق بكرم البارئ عز وجل لهـٰؤلاء الفتية ، قال تعالىٰ : ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ والنوم هنا يتجلىٰ فيه أمران : الأمر الأول : هو حفظ قلوبهم من الخوف والاضطراب الذي كان يلاحقهم دائماً ، أما الأمر الثاني : فهو حفظ لهم من قومهم وليكون لهم آية بينة .

لـٰكن بعد النوم لا يتركهم البارئ جل جلاله بل يستعرض قدرته العظيمة في الحفاظ عليهم وهم في ذلك الكهف ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ [1] حفظهم ٱلله من الشمس فيسر لهم كهفاً إذا طلعت الشمس تميل عنه يميناً ، وعند غروبها تميل عنه شمالاً فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم ، والكهف مكان متسع يدخل إليه الهواء فيغير من رائحة المكان ، أما عيونهم فهي مفتوحة يحسبهم الناظر إليهم أيقاظاً ، والحال أنهم نيام . وتنتهي هـٰذه المكرمة بقوله تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا

(1) الكهف ، 17 ـ 18 .

أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [1] .

هـٰذه القصة اتسمت بأبعاد مختلفة منها زيادة بصيرة ويقين المؤمنين وحُجَّة علىٰ الجاحدين ، فضلاً عن ذلك إشهار أمر الفتية ، ورفع قدرهم حتىٰ عظَّمهم الذين اطلعوا عليهم ، ومجموع هـٰذه الأبعاد المختلفة تنطق بكرم البارئ عز وجل لهـٰؤلاء الفتية ، حتىٰ أصبحوا أنموذجاً يحتذىٰ به في اللجوء إلىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ .

ثانياً : كرامات السيدة مريم عليها السلام :

الكرامة الأولىٰ : نشأة مريم عليها السلام في عبادة ربها وفاقت النساء في ذلك ، وانقطعت للعبادة ، ولزمت محرابها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] فكان الرزق يأتيها من غير كسب ولا تعب بل رزق ساقه ٱلله إليها ، وكرامة أكرمها ٱلله بها ، فكانت فاكهة الصيف موجودة في الشتاء ، وفاكهة الشتاء موجودة في الصيف [3] ، فيقول لها زكريا : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ والرزق هنا هو فضل من ٱلله تبارك وتعالىٰ وإحسان من عنده لعباده الذين يريد أن يتفضل عليهم بجلاله وكرمه ، وهـٰذا الأمر يحيلنا إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [4] . والكرامة هنا من الأمور الخارقة للعادة بالنظر

---

(1) الكهف ، 19 ـ 21 .
(2) آل عمران ، 37 .
(3) تفسير التحرير والتنوير ، ج3 ، ص 92 .
(4) الطلاق ، 2 ـ 3 .

إلىٰ مقتضىٰ الأسباب الكونية المحسوسة ، وفي هـٰذه الآية دليل علىٰ إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة .

الكرامة الثانية : حملها بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام دون أن يمسها بشر :

وهـٰذا أمر من خوارق العادات في التناسل ، والحمل هنا اتسم بأمرين :

الأمر الأول : هو كرامة لمريم عليها السلام .

أما الأمر الثاني : فهو تمهيد لنبوة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام . فهـٰذا الأمر جلب انتباه الناس جميعاً وتفكروا به ، يقول تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] والولد والولدان في العادة لا يكون إلا من مس البشر ، وهـٰذا الأمر يشترك به كل الخلائق إلا آدم عليه الصلاة والسلام ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] ، وقول مريم عليها السلام هو من باب الاستغراب ، ثم جاءها الجواب بعد ذلك لينهي الأمر ، في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ . عرض القرآن الكريم قصة مريم في أكثر من مرة وبتفاصيل أوسع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [3] .

الكرامة الثالثة : لما أحست مريم عليها السلام بقرب ساعات الوضع ،

---

(1) آل عمران ، 47 .

(2) الذاريات ، 49 .

(3) مريم ، 16 ـ 21 .

ابتعدت عن أهلها إلىٰ مكان خال في الجهة الشرقية بالنسبة إلىٰ منازل أهلها ، وجلست إلىٰ جانب شجرة من أشجار النخيل التي لا ثمر فيها وحصلت لها من المساعدات الربانية في وضعها أمور كثيرة ، منها : تساقط الرطب الطري اللذيذ عليها من الشجرة غير المثمرة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ (1) .

الكرامة الرابعة : في قوله تعالىٰ : ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ (2) ، فبعد أن وضعت عيسىٰ عليه الصلاة والسلام حملته وجاءت به إلىٰ قومها ، تبدأ الكرامة هنا بإحالة قومها إلىٰ عيسىٰ كي يسألوه عن قصته علىٰ الرغم من أن الأسئلة كانت موجهة إلىٰ مريم عليها السلام ، يقول تعالىٰ : ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ (3) ، وأسئلتهم كلها مبنية علىٰ التجريح والاتهامات التي هي في غير محلها ، فضلاً عن ذلك السؤال الذي تردد كثيراً واكتسب درجة الإلحاح وهو عن كيفية حملها بطريقة لم تتجاوز إلىٰ الفاحشة ، وهي منها براء عليها السلام ، فكلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في تبرئة أمه كرامة لها من ذي الجلال والإكرام جل جلاله .

ثالثاً : كرامة زكريا عليه السلام :

من بين الأرزاق التي وزعها ٱلله تبارك وتعالىٰ بين الخليقة هي الذرية ، إذ

(1) مريم ، 25 .

(2) مريم ، 29 ـ 33 .

(3) مريم ، 27 ـ 28 .

يقول تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، فكان نصيب زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ هو عدم الإنجاب ، فاستمر به العمر إلىٰ أن أصبح شيخاً كبيراً ، وتقدم العمر لا يعني شيئاً له إلا من باب استمرار دعوة الخلق إلىٰ عبادة ٱلله تعالىٰ ، فبدأ يعرض أمره إلىٰ ٱلله ذي الجلال والإكرام ، قال تعالىٰ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (2) . بدأ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بعرض حاله لله تعالىٰ ، فبدأ بضعف العظم الذي هو عماد البدن ، ثم بعد ذلك الشيب لأنه دليل علىٰ الكبر والضعف وعلامة من علامات نهاية الإنسان ، فزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا يطرق باب التوسل إلىٰ ٱلله تعالىٰ من خلال عرض ضعفه وعجزه ، وهـٰذا من أحب الوسائل إلىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ ، لأنه يدل علىٰ التبرؤ من الحول والقوة ، وتعلق القلب بحول ٱلله وقوته .

إن طلب الذكر هنا دون الأنثىٰ ليس لأمر دنيوي ، إنما القصد هو مصلحة للدين ، أما امرأته فهي عاقر أي لا تلد أصلاً ، وهو في عمر يندر معه وجود الشهوة أو طلب الولد ، أما الولاية التي أرادها في دعائه فهي ولاية الدين وميراث النبوة والعلم والعمل ، ولهـٰذا قال : ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فكانت الإجابة من ٱلله العظيم الجليل بقوله : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (3) . بشره ٱلله تعالىٰ علىٰ يد الملائكة بـ : (يحيىٰ) وسماه ٱلله له (يحيىٰ) وكان اسمه موافقاً

---

(1) الشورىٰ ، 49 ـ 50 .
(2) مريم ، 2 ـ 6 .
(3) مريم ، 7 .

لمسماه : يحيا حياة حسية ، ويحيا حياة معنوية ، وهي حياة القلب والروح ، بالوحي والعلم والدين . هٰذه كرامة من كرامات البارئ عز وجل التي تنم عن قدرته العظيمة في تغيير الأمور من حال إلىٰ حال آخر أفضل ، وذلك فضل منه ومنّة علىٰ عباده ، ولم تكن هٰذه الكرامة هي الوحيدة في هٰذا الجانب بل كانت كذلك مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [1] ، والكرامة برزق الأنبياء بالأولاد من دواعي استمرار الدعوة الإسلامية وفق تسلسل ينطوي علىٰ حكمة البارئ عز وجل .

رابعاً : كرامة يوسف عليه السلام في الجب :

يبدأ الحديث عن الجب في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [2] ، اختلفت الآراء في النهاية التي تراد ليوسف عليه الصلاة والسلام ، فكان القتل هو الرأي الأول وهو أشنعها وأشرها ، ثم بعد ذلك أصبح الإلقاء في غيابة الجب ، وهو أهون الآراء قياساً بالرأي الأول ، فالمهم هو إبعاد يوسف عن أبيه عليهما الصلاة والسلام ، وهٰذا من نتائج الحسد الذي فعل فعلته بين يوسف وإخوته ، وتم الأمر فعلاً وتم إلقاء يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ

---

(1) هود ، 69 ـ 73 .
(2) يوسف ، 10 .

ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [1] . قال السدي : إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة ، وجعل هـٰذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرىٰ فيهم رحيماً فضربوه حتىٰ كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك ، فقال يهوذا ألم تكونوا قد أعطيتموني ميثاقاً ألا تقتلوه فانطلقوا به إلىٰ الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه ، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه علىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم ردوا عليَّ قميصي لأتوارىٰ به ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك ، ثم دلوه في البئر حتىٰ إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوىٰ إلىٰ صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام ، وروي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألقي في الجب قال يا شاهداً غير غائب . ويا قريباً غير بعيد . ويا غالباً غير مغلوب . اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وروي أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألقي في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلىٰ إسحاق ، وإسحاق إلىٰ يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخرجه وألبسه إياه [2] .

أوردنا هـٰذه القصة بتفاصيلها من أجل عرض أهم حدث سبق مكرمة البارئ عز وجل ، فالإخوان أرادوا كيداً بأخيهم لـٰكن ٱلله تبارك وتعالىٰ غير الأمور ، فصارت عملية قلب لكل ما خطط له إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ، وبدأت مكرمته تعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ

---

(1) يوسف ، 15 .
(2) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 6 .

أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (1) إن انتشال يوسف عليه الصلاة والسلام من الجب يعد بداية لمرحلة جديدة في حياته ، فقد بدأت حياته تأخذ منحىً جديداً فكان التمكين مرحلة مهمة ، بقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (2) ، ثم بعد ذلك توجت مكرمة البارئ جل جلاله بلقاء يوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (3) ، هٰذا اللقاء جمع بين يوسف عليه الصلاة والسلام وإخوته ، لٰكن كيف كان الجمع ؟ لم يكن جمعاً اختيارياً بل كان جمعاً مقصوداً أراد به البارئ عز وجل أن يوضح من خلاله للخلق أجمعين أن عظمته وكرامته لا يمكن تصويرها أو رسم ملامحها أو وضع حدود لها ، فكانت النهاية أن جمع ٱلله تبارك وتعالىٰ يوسف عليه الصلاة والسلام مع أبويه وإخوته في مكان لم يكن يفكر أحد منهم أن يكون فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (4) .

خامساً : كرامة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في بطن الحوت :

هٰذه الكرامة تتعلق بنبي اختلف عن باقي الأنبياء بصفة هي أن قومه رفع عنهم العذاب ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ

---

(1) يوسف ، 19 ـ 22 .
(2) يوسف ، 56 .
(3) يوسف ، 58 .
(4) يوسف ، 99 ـ 100 .

يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [1] فبداية قصته مع قومه كان الجزع منهم وعدم الاستجابة عنواناً لها ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، فقوله تعالىٰ : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ يقتضي أنه خرج خروجاً غير مأذون له فيه من ٱلله . ظن أنه إذا ابتعد عن المدينة المرسل هو إليها يرسل ٱلله غيره إليهم [3] وبعد خروجه من قومه وركوبه السفينة ، إذ ثقلت السفينة نتيجة لزيادة أعداد الركاب والأمتعة ، فاحتاجوا إلىٰ إلقاء بعض الركاب ، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية ، فاقترعوا علىٰ أن من قرع وغلب ، ألقي في البحر عدلاً من أهل السفينة ، فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين .

إن قصة يونس عليه الصلاة والسلام رسمت وفق مشيئة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، إذ أن اختيار البحر يحمل دلالات كثيرة تختلف عن الإلقاء من جبل عالٍ مثلاً ، ذلك أن طريقة الموت في البحر تتطلب وقتاً وخاصة عندما يكون المرمي في البحر عارفاً بالسباحة ، بمعنىٰ أن هناك وقتاً للتفكر أو للتفكير فيما أل إليه مصير من رمي في البحر ، إذ نجد ذلك واضحاً عندما أدرك الغرق فرعون ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [4] نجد في هٰذه الآية حواراً ، والحوار بطبيعة الحال يحتاج إلىٰ وقت ، لٰكن ٱلله تبارك وتعالىٰ

---

(1) يونس ، 98 .
(2) الأنبياء ، 87 ـ 88 .
(3) تفسير التحرير والتنوير ، ج 9 ، ص 198 .
(4) يونس ، 90 ـ 92 .

قادر علىٰ أن يفعل ما يريد سواء أكان ذلك في البر أوالبحر ، كان مصير يونس عليه الصلاة والسلام أن يلقي نفسه في البحر ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [1] أصبح يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت في مكان لم يكن يفكر فيه أبداً ولم يحلم حتىٰ به ، ظلام دامس وأصوات لا يعرف كنهها ، وحرارة ورطوبة لم يتعرض لها من قبل ، بين الحقيقة والخيال لم يعرف كيف يتصرف لـٰكنه يعرف إلىٰ من يلتجئ ومن ينقذه مما هو فيه ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فمن عظمة البارئ عز وجل وكرمه لم يجعل من يونس عليه الصلاة والسلام طعاماً للحوت بل كان وديعة أودعها سبحانه في بطنه ، ثم انتهىٰ وقت الإيداع الذي حدده سبحانه ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ومكرمة الإنجاء لم تتوقف عند الخروج من بطن الحوت بل رافقته عليه الصلاة والسلام حتىٰ بعد خروجه من بطن الحوت ، لأن وضعه بعد الخروج اختلف اختلافاً جذرياً نتيجة ما حصل له داخل بطن الحوت ، فكان كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ، فأنبت ٱلله تعالىٰ عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها ، تظله بظلها الظليل ، لأنها باردة الظلال ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهـٰذا من لطفه به ، وبره .

سادساً : أصحاب الأخدود :

من القصص التي وقف عندها كثير من عباد ٱلله تعالىٰ يتأملونها ويتفكرون بها ويتعظون بها ، فهي تعطي صورة باهرة مضيئة في كل تفاصيلها عن كرامة من كرامات البارئ جل جلاله ، وقد وردت هـٰذه القصة في صحيح مسلم عن صهيب أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ : « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا

(1) الصافات ، 139 ـ 146 .

كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاماً يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَـٰذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَىٰ النَّاسُ فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عليَّ وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَـٰهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي ٱللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِٱللهِ دَعَوْتُ ٱللهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ بِٱللهِ فَشَفَاهُ ٱللهُ فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عليك بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ ٱللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلامِ فَجِيءَ بِالْغُلامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ فَقَالَ إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَىٰ فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَىٰ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ ٱللهُ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ

فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ ٱللهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسم ٱللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسم ٱللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ وَٱللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالأخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ » [1] لقد قمنا بعرض كل القصة ولم نترك منها شيئاً ، فهي تعرض ملحمة من ملاحم الدعوة الإسلامية بكل تفاصيلها وتجلياتها ، فبطل هٰذه القصة شاب صغير أجرىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ يديه كرامات كثيرة لمسناها بين طيات ما قصصنا ، والتي انتهت بنطق الرضيع كرامة لأمه المؤمنة الصابرة . ولقد أشار القرآن الكريم إلىٰ قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

هٰذه القصة فيها تتبع معرفي ينطوي علىٰ تساؤلات كثيرة ، وهٰذه

(1) صحيح مسلم ، ج 14 ، ص 293 .
(2) البروج ، 4 ـ 9 .

التساؤلات تبدأ من بداية القصة ، والتي كان بطلها غلاماً صغيراً يتوخىٰ منه أن يكون ساحراً ، لـٰكنه لم يكن كذلك ، بل أصبح داعية من دعاة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، لـٰكن كيف يكون داعية دون أن يكون معه رب المكارم يفتح له أفاق المعرفة واليقين من أجل ترسيخ مبدأ العبادة لله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك أن القصة احتوت علىٰ أمر في غاية الأهمية وهو اختيار الطريق الصحيح من خلال اليقين المرئي ، وهـٰذا ما كان من أمر الدابة التي ظهرت أمام الغلام ، فهـٰذه الحادثة تحيلنا إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

سابعاً : من كرامات عمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه :

من الخلفاء الراشدين الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية إلىٰ مختلف الأصقاع ، فكان نعم الخليفة الصالح الذي يضرب به المثل . فمن كراماته :

أ ـ كان اسمه رضي ٱلله تعالىٰ عنه يتردد دائماً ويذكر خاصة بعبارة مشهورة أخذت حيزاً كبيراً في الفكر الإسلامي ألا وهي (يا سارية الجبل) فهي تمثل إحدىٰ الكرامات التي أنعم ٱلله تبارك وتعالىٰ علىٰ عبده عمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه : « عن ابن عمر ، أن عمر بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعىٰ سارية فبينما عمر رضي ٱلله عنه يخطب فجعل يصيح : يا سارية الجبل ، فقدم رسول من الجيش فقال : يا أمير المؤمنين ، لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا صائح يصيح : يا ساري الجبل ، فأسندنا ظهورنا إلىٰ الجبل فهزمهم ٱلله [2] .

ب ـ الإلهامات الكثيرة التي كان يلهمها . شهد له بذلك الرسول ﷺ ، فعَنْ

(1) البقرة ، 260 .
(2) دلائل النبوة للبيهقي ، ج 7 ، ص 186 .

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ »[1] .

هـٰذه الكرامات تنطوي علىٰ أمور كثيرة منها :

أ ـ أن الكرامات لا يختص بها الأنبياء فقط ، إنما تكون لغيرهم أيضاً كعمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه وغيره ، ولذا فالمعجزات للأنبياء والكرامات للصالحين .

ب ـ أن الكرامات مستمرة لا تنقطع فهي وجه من وجوه مكارم ٱلله تعالىٰ لعباده .

ج ـ الكرامة وجه من وجوه إقناع غير المسلمين بعظمة وكرم ٱلله تبارك وتعالىٰ .

ثامناً : تيسير أسباب الخير وتعسير أسباب الشر :

الخير والشر من المفردات التي واكبت الخلق منذ البداية ، فمعرفة الشيطان للبشرية كانت فاتحة التمييز بين الخير والشر ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته ، فلا توجد مصطلحات تنم عن خلاف بين اثنين ، كالطيب والخبيث والظلام والنور والحسن والقبيح . بل عرفت بعد أن وجد الخير والشر .

فمن مكارم البارئ عز وجل أنه يسَّر أسباب الخير وعسَّر أسباب الشر ، وذلك من خلال أحكامه وتشريعاته التي كانت الممثل الأبرز في هـٰذا الجانب .

تعد العبادات من الطرق التي تصل بالعبد إلىٰ رضا ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ومن هـٰذه العبادات الصوم ، والمعروف عن الصوم هو الامتناع عن الطعام والشراب أو بعبارة أخرىٰ كل ما يدخل إلىٰ الجوف يعد ممنوعاً ، وقد يتعرض

---

(1) صحيح البخاري ، ج 12 ، ص 22 .

الصائم إلىٰ مشقة في صومه ، فجاء التيسير له وهي الرخصة التي أعطاها ٱلله تبارك وتعالىٰ للمسافر والمريض بأن يفطر ، قال تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) وتجلىٰ التيسير في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (2) تعود هـٰذه الآية علىٰ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أي أن ٱلله تعالىٰ جاء به ميسراً لا معسراً للدين ، وبهـٰذا الأمر اصطفاه وبعثه للكافة ، فتيسير الرسول الكريم لليسرىٰ لأجل الهداية وإنجاز مهمة الاصطفاء علىٰ أحسن وجه ، والتيسير تذليل للصعاب وتواجد من أجل حق ، وعليه فمحمد عليه الصلاة والسلام اصطفاه تيسيراً للعباد المستخلفين فيها ، ولأنه الميسر لليسرىٰ ، فالدين الذي جاء به دين تيسير لا دين تعسير ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ ولهـٰذا يسر ٱلله تبارك وتعالىٰ رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام لليسرىٰ في جميع الأمور التي تتعلق بالدين الإسلامي ، مما يجعل شرعه ودينه يسراً ، وهـٰذا اليسر يفتح أفاقاً جديدة تكون منفذاً كبيراً لنشر الدين الإسلامي بين الناس أجمع .

ومن كرمه تعالىٰ تعسير أسباب الشر ، والشر يتمثل بأفعال العباد التي يزاولونها في غير مرضاة ٱلله ، فتكون عليهم وبالاً في الدنيا والآخرة ، وطريق تعسير الشر يتمثل بالأحكام الصارمة التي بيّنها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده ، والتي تعد معسرة لأسباب الشر ، من ذلك جناية القتل ، وهي من أول الأعمال التي قام بها بنو آدم ، وعدت بداية التنفيذ الفعلي للشر بين بني آدم ، قال

---

(1) البقرة ، 185 .
(2) الأعلىٰ ، 8 .

تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [1] ، ولتعسير فعل القتل وعدم تكراره والاحتراز من التفكير فيه أوجد ٱلله تبارك وتعالىٰ العقوبة المناسبة له من أجل اجتنابه وعدم التفكير به ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٖ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] ، فبعد أن استعرض البارئ جل جلاله أحكام القصاص بكل تفاصيلها ذكر بعد ذلك علة القصاص التي أوجدها تعالىٰ بقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [3] ، القصاص احتكام عدل ، وفي الوقت نفسه هو حياة ، كيف يكون ذلك ؟ يكون حياة للقاتل والمقتول ، أي عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وذلك لأهمية الحياة التي كتبها ٱلله لعباده ، فلا يقتلها أحد ومن قتلها اعتدىٰ علىٰ الحق ، وبالتالي يصبح القصاص ضرورة وهو الحق . فيكون حياة للقاتل حين يريد أن يكون قاتلاً ، وذلك لو علم أنه لو قتل يقتل ترك القتل فلا يقتل فيبقىٰ حياً ، أما بالنسبة إلىٰ المقتول ، فإن من أراد قتله إذا خاف من القصاص ترك قتله فيبقىٰ غير مقتول ، وبذلك تحقن الدماء وتنقمع به الأشقياء ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذي يحصل بالقتل ، وهٰكذا سائر الحدود الشرعية ، فيها من النكاية والانزجار ، ما يدل علىٰ حكمة الحكيم الغفار ، ونكَّر « الحياة » لإفادة التعظيم والتكثير .

---

(1) المائدة ، 27 ـ 30 .

(2) البقرة ، 178 .

(3) البقرة ، 179 .

ومن الشر (الزنا) فهو إثم عظيم ومرض خطير حرمه الباريُ عز وجل علىٰ عباده ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (1) ، والزنا فعل ممارسة الجنس مع المحرمات ، أي مع غير الحلائل ، والنص القرآني حرمه بطريقه أبلغ من النهي عن الفعل نفسه ، بل جاء النهي عن جميع مقدماته ودواعيه ، ولهٰذا نجد أن النص القرآني عندما عرض عقوبة الزنا عرضها بشكل جديد من ناحية الترتيب ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، بدأ بالزانية ولم يقل الزاني فقدم ذكر (الزانية) علىٰ (الزاني) للاهتمام بالحكم لأن المرأة هي الباعث علىٰ زنىٰ الرجل وبمساعدتها الرجل يحصل الزنا ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلىٰ الزنا تمكيناً ، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد في تحذيرها (3) . الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة يشمل الزانية والزاني يجلد كل منهما مائة جلدة ، ومع ذلك يحتاج الحكم في هٰذا الأمر إثباتاً اعترافياً أو شهوداً صادقين ، وفي هٰذا الأمر التشهير عقاب معنوي لعدم التكرار والتوبة .

لاحظنا كيف أن ٱلله تبارك وتعالىٰ عسر فعل هٰذا العمل ، فجعل له الحد الأشد من جلد ورجم ، فضلاً عن ذلك أن الحد لا ينفذ في مكان معزول ، بل جعله أمام مرأىٰ الخلق ، وهو أشد من العقوبة نفسها ، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع ، وليشاهدوا الحد فعلاً فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل ، مما يقوىٰ بها العلم ، ويستقر به .

فما تحدثنا عنه هو عقوبة لفعل الزنا ، لٰكن من كرم الباريُ عز وجل أنه

---

(1) الإسراء ، 32 .

(2) النور ، 2 .

(3) تفسير التحرير والتنوير ، ج 9 ، ص 426 .

أعطىٰ علاجاً لهـٰذا العمل الفاحش قبل وقوعه أو التفكير فيه ، وهو في الوقت نفسه معسر لأسباب فعله ، فقد حث القرآن الكريم علىٰ الزواج بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وكذلك السنة النبوية الشريفة التي عالجت هـٰذا الأمر وبينت عواقبه ، فعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَال : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « إذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ ٱللهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ ؟ قَالَ : « إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ » ثَلاثَ مَرَّاتٍ (2) .

تاسعاً : إكرامه للعاصي ولغير العاصي :

من كرمه تعالىٰ أنه وزع الرزق بين الكفرة والمؤمنين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (3) ، فٱلله تبارك وتعالىٰ لم يترك خلقه جميعاً دون أن يعطيهم ، فالكل راتعون بفضله وإحسانه ، حتىٰ الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا علىٰ حسب ما قدر لهم ، وأعطىٰ المؤمنين خيري الدنيا والآخرة . وذلك مصداق قوله : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (4) .

---

(1) النور ، 32 ـ 33 .

(2) سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 261 .

(3) الإسراء ، 20 .

(4) الأعراف ، 156 .

وكرمه تعالىٰ يفتح أبواب التساؤل أمام الخلق أجمعين :

- كيف يتساوىٰ الجميع بالكرم ؟
- ألا يكون الكرم خاصاً بالمؤمن دون الكافر ؟
- لماذا يكرم ٱلله تعالىٰ الكافر وليس فيه شيء ينم عن عبوديته لله ؟
- ألا يرىٰ المؤمن تفضيله في الدنيا قبل الآخرة ؟

الكرم في الدنيا مقصود للجميع فلا يفرق ٱلله تعالىٰ بين العباد في التوزيع علىٰ أسس يكون قياسها الإيمان أو الكفر بل إن الجميع هم خلقه ، والجميع لا يضرونه ولا ينفعونه إن كانوا أهل إيمان أم أهل كفر ، والحياة الدنيا كلها تمثل مكان عمل وليس فيها حساب ، بينما الآخرة هي مكان الحساب وليس فيها عمل ، والعمل يتطلب اختباراً يتبين من خلاله مدىٰ التجاوب مع الأوامر والنواهي التي بينها تعالىٰ لعباده ، فضلاً عن ذلك أن الحياة الدنيا كلها لا تعدل عند ٱلله شيئاً ، إذ ورد في الحديث النبوي عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » [1] . أما الثواب الذي ينشده المؤمن فإن لم يجده في الدنيا فهو في الآخرة خير وأبقىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [2] .

أما في الآخرة فإن التكريم لا يكون إلا للمتقين ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [3] ، وقوله

(1) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص 299 .
(2) الشورىٰ ، 36 .
(3) الحجر ، 45 ـ 48 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (1) .

بناءً علىٰ ما تقدم ، فإن الجلال هو : هيبة مؤسسة علىٰ معطيات العظمة والهيمنة والرفعة والقداسة وكل ما يؤكد علىٰ الفضيلة الحسنة .

والإكرام : إعطاء دون انتظار مقابل ، وجود لا حدود له يمتد في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع وهو جود من مطلق لا تحصره دائرة ولا يحاط بأفعاله دوائر .

وذو الجلال والإكرام هو ٱلله الذي بيده المُلك الذي منه المكارم والقوة والقدرة التي منها الهيبة والجلال .

إذاً ذو الجلال والإكرام : هو مالك المطلق الذي دائماً نصف به صفات ٱلله تعالىٰ ، أي أن جميع صفاته ذات جلال ، وجميعها ذات إكرام فسبحانه ذو الجلال والإكرام .

ولٰكن كيف للخليفة أن يكون علىٰ هٰذه الصفة المطلقة ؟

يكون علىٰ هديها ، فمع أنه لا يخرج عن دائرة الممكن من حيث قدراته وقوته الفاعلة إلا أنه بإيمانه وتوحيده لله واحداً أحداً لا شريك له في الملك والأمر وهو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولم تكن له الصاحبة ، فإنه في هٰذه الحالة آمن بالحق المطلق مطلقاً . وعليه فمن يؤمن بالمطلق من الحق المطلق يكون من المستخلفين الذين أرادهم ذو الجلال والإكرام أن يكونوا خلائف في الأرض مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حق ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى

(1) الذاريات ، 15 ـ 21 .

ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

وعليه فالخليفة في الأرض هو المُصلح والمُعمر والمُفلح ، بقوله للحق وفعله للحق وعمله بالحق وسلوكه علىٰ الحق ، حتىٰ يكون قدوة حسنة تُجل وتقدر وتحترم وتعتبر من الآخرين ، أي تهاب بصدقها وسلامة قولها ومناصرتها للمظلوم وإقدامها علىٰ دمغ الباطل كلما حاول الظهور وذلك حتىٰ لا يعم الفساد وينحرف العباد عن مكارم الأخلاق .

ولهـٰذا يجل ذو الجلال والإكرام عباده ويكرمهم في الدارين استخلافاً ووراثة . فمن أراد أن يكون خليفة عليه بالهداية والسلوك القدوة حتىٰ يجله الناس علىٰ ما هو عليه من فضائل قولاً وفعلاً ، ويجله ٱلله ذو الجلال والإكرام علىٰ شيئين :

الأول : لتماثل باطنه مع ظاهره مع ٱلله تعالىٰ : قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ

(1) البقرة ، 30 ـ 37 .

بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) .

والثاني : لإجلال الناس إليه وهو علىٰ الحق ثباتاً : قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (3) .

فالخليفة قدوة حسنة في مسلكه ، قوله يصدق ولا يكذب ، فعله حق فلا يقدم علىٰ باطل ، في الأرض يصلح ولا يفسد ، مؤمن لا يشرك مع ٱلله أحداً ، يركع ويسجد لله تعالىٰ ولا يركع ولا يسجد لسواه ، يتصدق من ماله وما يملك دون أن تحس يده اليسرىٰ بما أعطت يده اليمنىٰ ، يطهر رزقه بالزكاة ولا يقبل بأكل الحرام ، يؤدي فريضة الحج بقدرته طاعة لله وحده ، وفي سبيله يجاهد بالمال والنفس ليحق الحق ويزهق الباطل .

اللهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام أجلنا بعظمتك وأكرمنا بجودك وكرمك ، اللهُمَّ إن جلالك هيبة فاجعلنا مهابي الجانب ولا تجعلنا من السفهاء ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين تُبدَّل سيئاتهم حسنات ومن الذين يتوبون إلىٰ ٱلله متاباً ، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا !

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا .

---

(1) البقرة ، 285 .
(2) الإسراء ، 81 .
(3) سبأ ، 49 ـ 50 .

اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين الوارثين الذين يجلونك طاعة بالوحدانية والصلاة والزكاة والصيام والحج إلىٰ بيتك الحرام والجهاد في سبيلك عبادة ، ونشهد أن جلالك إعجاز وإكرامك إعجاز فآمنا طائعين ! والحمد لله رب العالمين .

✍ ✍ ✍

المُقْسِطُ جل جلاله

المقسط : محق الحق بتوازن واعتدال ، وهو الفاصل بين الحق والباطل ، والمجازي بالثواب والعقاب ، دون أن يظلم أحداً .

المقسط : مظهر العدل جزاء وإنصافاً ، وهو المحاسب علىٰ القول والفعل بما يستوجب أثراً مرضياً وجاء بالكتاب : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . قال تعالىٰ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [1] .

المقسِط : « هو من أسماء ٱلله جل وعلا وهو (العادل) الذي له كمال العدل » [2] .

المقسط : « هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم وكما له في أن يضيف إلىٰ إرضاء المظلوم إرضاء الظالم وذلك غاية العدل والإنصاف ولا يقدر عليه إلا ٱلله سبحانه وتعالىٰ » [3] .

المقسط : هو المنصف الذي يعطي كل ذي حق حقه ، للوالدين حقوق

---

(1) الكهف ، 48 ـ 49 .

(2) قسم العقيدة ، ج 12 ، ص 199 .

(3) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 142 .

علىٰ الأبناء ، وللأبناء حقوق علىٰ الوالدين ، ولله حقوق علىٰ العباد يجب أن يؤدوها واجبات وفروض عليهم ، وللعباد حقوق من عند ٱلله فهو منزلها ومؤتيها لهم رزقاً ونعيماً ورعاية وحفظاً . ولذا تستمد المخلوقات أقساطها من المقسط الأعظم جل جلاله .

والقسط هو الأدق ، أي : مهما صغر الحق فالمقسط يخرجه لمن يستحقه أو من كان له فيه نصيب ، وبهٰذا قلنا : إن ذلك العدل المطلق وانتفاء الظلم .

من أَسماء ٱلله تعالىٰ الحسنىٰ المُقْسِطُ هو العادِلُ ، يقال : أَقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إِذا عدَل ، وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ إِذا جارَ [1] . والإِقْسَاطُ : العَدْلُ في القِسْمَة والحُكْم [2] .

واعلموا أن ٱلله لا يَنام ، وقائم علىٰ كل نفس بما كسبت ، وهو الذي يوزع الأرزاق كيف يشاء ، ودونما غفلة أو سِنَة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [4] ، فٱلله جل جلاله يَخْفِض القِسْطَ ويَرْفَعُه ، والقِسْط : المِيزان العَدْل ، فقولُه تَعَالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [5] : وأراد بذلك

(1) لسان العرب ، ج 7 ، ص377 .
(2) المحيط في اللغة ، ج1 ، ص447 .
(3) هود ، 56 .
(4) البقرة ، 255 .
(5) الأنبياء ، 47 .

أنّ ٱللهَ يَخْفِض ويَرْفَع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه وأرزاقهم النازلة من عنده كما يرفع الوزَّان يده ويخفضها عند الوزن ، وهو تمثيل لما يقدره ٱلله وينزله ، وربما أراد بالقسط القسم من الرزق الذي يصيب كل مخلوق فخفضه تقليله ، ورفعه تكثيره [1] ، وكل ذلك عدل ، ومن قسطه : تقسيم الأرزاق علىٰ عبيده ، فلم يحرم منها كائناً ، فلكل من له نصيب في الحياة نصيب في الرزق ، واختلاف الأرزاق بين عبيده يرجع لقسط كل واحد منهم ، ولحكمة يعلمها ، فلو أن مسلماً غنياً أفقره ربما كفر أو سلك سلوكاً معادياً للناس وربما سبب مشاكل ومتاعب لوالديه أو أسرته بل للمجتمع بأسره ، وكذلك من الناس من لو أغناه ٱلله لكفر وعمل عملاً مشيناً لا يعتقد ولا تظن يوماً أن يقع منه ، كما حدث مع قارون ، فقد قال في حقه تعالىٰ في كتابه المكنون : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ

---

(1) النهاية في غريب الأثر ، ج 4 ، ص93 .

بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (2) ، وعلىٰ المستخلفين أن يكونوا علىٰ بينة من :

1 ـ أن لا يظنوا يوماً أن ٱلله سيضن عليهم في الرزق مادام لهم أجل في هٰذه الدنيا ، فٱلله جل جلاله قد ضمن الرزق لمخلوقاته في سمائه وأرضه ماداموا أحياء ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (3) .

2 ـ أن يعلم المستخلف أن ما كان له لن يخطئه وما كان لغيره لن يصيبه ، وليعلم أن لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأخذوا من نصيبه شيئاً ما استطاعوا ، وكذلك لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوه بشيء لن ينفعوه إلا بشيء قد قسمه ٱلله إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (4) . وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (5) .

3 ـ أن يهرع المستخلف إذا مرت به جائحة أو ضائقة في حياته إلىٰ ربه ، وكذا

---

(1) القصص ، 76 ـ 84 .
(2) الأعراف ، 29 .
(3) هود ، 6 .
(4) الأنعام ، 17 ـ 18 .
(5) يونس ، 107 ـ 109 .

في كل أمر يطرأ عليه وذلك بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار ؛ لأن من سكن لغير ٱلله ذل ، ومن ظن أن غير ٱلله يرزقه أو يغنيه ، أو أن أرزاقه وليدة أفكاره ، فإن ٱلله سيفقره في الدنيا والآخرة إذا شاء فكل شيء بيده ، وسيجد نفسه قد أفلس من الحسنات في الدارين بسبب اعتماده علىٰ غير خالقه وكما جاء في الآيات السابقة الذكر علىٰ لسان قارون قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ ، فهـٰذا الرجل جزاء عمله وطغيانه وظنه أنه هو الذي يطعم نفسه وقومه وجد نفسه في الدرك الأسفل من النار ، وربما كاد أن يؤذي غيره بجره إياهم عندما قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ ، فأراد المقسط جل جلاله بقسطه أن ينجي بقية القوم من العذاب الذي كان سيلحقهم بسبب ما سيترتب من لحوقهم بفئة ذلك الظالم المتجبر ، فقالوا عندما رأوا ما لحق بقارون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، ولذلك فالمستخلف لا يقطع أمراً إلا بمشورة ربه وذلك ما خاب من استخار ربه بركعتين ثم دعا ربه أن يلهمه الطريق الصالح وكذا دأب الصالحين المستخلفين في الأرض لا يقطعون أمراً إلا بعد استخارة العليم الخبير ؛ لأنه خبير بكل شيء وهو الذي يعلم ما ينفع ويصلح حياتنا ودنيانا وآخرتنا .

ومن مظاهر قسطه تعالىٰ :

خلقه السمـٰوات والأرض بالميزان : ودون تفاوت ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [1] ، إن ٱلله جل جلاله

(1) الرحمـٰن ، 7 ـ 13 .

رفع السماء بقسطه وعدله فكما رفع السماء بوزن دقيق في غاية الدقة ، جعل ذلك ظاهراً في الأرض ، بما خصه تعالىٰ من نعمة الميزان علىٰ الإنسان وهـٰذه النعمة قد لا نشعر بقيمتها لكثرة تعاملنا بها ومعها ، إلا أن فضلها كبير فلولا الميزان لسادت الفتن علىٰ أبسط الأمور إذ لا يقبل أحد أن يؤخذ من نصيبه الذي كتب له ، ولذلك قرن العلم بالعدل والقسط ، فمن واجبنا أن نتعلم ما هو الميزان الحقيقي للأشياء ، ويجب أن نعطي كل شيء ، قيمته ووزنه مهما قل أو كبر ، فرب أمر صغير غير ذي بال كان سبباً في أمور عظيمة ، فعلىٰ الخليفة أن ينتبه لكل ما حوله وأن يعطي لكل شيء قيمته ، فلا يستهين بأي شيء ، وذلك ليكتمل عدله ، الذي أمره ربه بأن يسير علىٰ نهجه وطريقه القويم دون زيغ أو حيف ، وللقسط شروط وموجبات منها :

أ ـ **الإيمان** : قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (2) .

ب ـ **العدل** : قيمة بينيَّة تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر ، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن . تؤسس قيمة العدل علىٰ إعطاء كل ذي حق حقه . لذا فهي قول حق وفعل حق ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن

(1) الأعراف ، 29 .
(2) النساء ، 135 ـ 136 .

تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ قال : إذا حكمتم بين الناس ولم يقل إذا حكمتم الناس . فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين ، فالدين لا ينص علىٰ حكم الناس ، بل ينص علىٰ أن يكون الحُكم بينهم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [1] جاء الأمر هنا مطلقاً ، والأمر هو كل ما يتعلق بالناس ومصائرهم ، (السلم والحرب ، والسياسة الداخلية والخارجية ، والزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله) .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [3] .

ج ـ **العلم** : معرفة وبينة فمن علم بالحق حكم به ، أما من جهل فلا يمكنه الحكم بالقسط أي لا يمكن له أن يحق الحق أو يزهق الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [4] .

د ـ **الإحسان** : الإحسان عمل الخير لِمن هم في حاجة إليه . إنه جهود تُبذل

---

(1) الشورىٰ ، 38 .
(2) المائدة ، 8 .
(3) هود ، 85 ـ 86 .
(4) آل عمران ، 18 ـ 19 .

وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقق الرضا النفسي لِمن تُقدّم له (المحتاج أو القاصر) ولِمن قام أو أقدم علىٰ أفعال تقديمها للمستحقين لها .

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر علىٰ ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلىٰ آخرين ، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية ، وبالنسبة للمستخلفين فيها هم الأولىٰ بالقيام بأعمال الإحسان . ولذا فالإحسان القيام بدور يستوجب القيام به ، لمن هم في حاجة إليه ، وهو نتاج القيام بالأعمال المرضية لله تعالىٰ ، فمن أحسن عملاً نال الجزاء الأوفىٰ بما جاز به من إحسان ، ولهـٰذا يضاعفه له ٱلله أضعافاً كثيرة . قال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (2) .

هـ ـ **المساواة** : المساواة قيمة لاعتدال كفة الميزان القسط ، فمن عمل بها كان عادلاً ومحسناً ، وجامعاً للشمل غير مفرقٍ ، ومن تعداها فقد تعدىٰ حدود ٱلله في أرضه ، ولأن ٱلله جعل في الأرض خليفة لأجل أن يصلح لا يفسد ، لذا جاء بالمساواة قيمة إصلاحية بين الناس ، فمن عمل بها كان خليفة لله في الأرض ومن لم يعمل بها فيعد من الذين فقدوا خاصية الاستخلاف التي أرادها ٱلله تعالىٰ لبني آدم دون استثناء منه ، قال

(1) البقرة ، 245 .
(2) النحل ، 90 ـ 91 .

تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (1) .

خلقه الإنسان وتسليمه الخلافة : خلق ٱلله جل جلاله الإنسان من عناصر مختلفة عن عناصر غيره من المخلوقات ، ولهـٰذا فميزه بما امتاز به من صفات : قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (2) ، وبهـٰذا أعطىٰ ٱلله جل جلاله تقديراً وتكريماً لبني الإنسان من أول خلقه ليكون جاهزاً للخلافة علىٰ أرضه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (3) ، وكان أمر الخلافة جلياً واضحاً من حيث ثقلها وأعباؤها ، فعندما عرض ٱلله تعالىٰ في علاه أمر الخلافة علىٰ جميع المخلوقات ، رفضت أمر الخلافة لما أحست بثقلها وحملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (4) ؛ ولأنها ليست مؤهلة كما أنها غير قادرة ، كان الإنسان قادراً عليها ليحملها ، وذلك الحمل لم يحمله عبثاً بل جاء بميزان جعل به الإنسان قادراً علىٰ حملها وإلا لما حصل علىٰ الموافقة من ربه ، ومع ما حدث من استغراب للملائكة عندما سمعت بأمر استلام الإنسان لأمر الخلافة إلا أن الجواب من رب العزة كان حاسماً كما جاء في سورة البقرة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

(1) الحجرات ، 9 ـ 10 .
(2) الرحمـٰن ، 14 ـ 16 .
(3) الإسراء ، 70 .
(4) الأحزاب ، 72 .

إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) .

وبهٰذا كان علىٰ الخليفة أن يضع الموازين القسط كما أمره ربه في محكم كتابه : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (3) . وٱلله جل جلاله خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ليقيم القسط والعدل بين المخلوقات : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (4) . فالإنسان إذا لم يقم القسط بين الناس والمخلوقات فإن ميزان

---

(1) البقرة ، 30 ـ 33 .
(2) النساء ، 135 ـ 136 .
(3) المائدة ، 7 ـ 9 .
(4) الانفطار ، 6 ـ 12 .

الحياة فيها سيتغير ويكون وبالاً عليه ، ويكون هو السبب في الخسران الدنيوي قبل الأخروي ، فعلىٰ الإنسان أن يراعي التوزيع الذي وضعه للمخلوقات ، ولا يعمل علىٰ تغيير ما وضع ٱلله في أرضه ظناً منه أنه قادر علىٰ التغيير والتبديل ، والتغيير الذي حرمه ٱلله الذي وضع كل شيء بميزان كما جاء في سورة النساء ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [1] ، فالذي يجري اليوم من عمليات اللعب بالجينات الحيوانية والنباتية كلها محاولات يائسة يراد به التغيير في موازين الطبيعة ، فكلما ظنوا أنهم وصلوا إلىٰ شيء جديد وجدوا أنفسهم قد بدءوا في الفساد ، فعلىٰ سبيل المثال وعلىٰ مستوىٰ التوزيع الجغرافي للحيوانات حاولوا أن يبيدوا أقوىٰ أنواع الأفاعي السامة في قارة أستراليا وذلك باستيراد نوع من الضفادع القاتلة لها وبكثرة ، وبعد أن أرادوا الاطلاع علىٰ نتيجة ما عملوا وجدوا أنفسهم في مشكلة أكبر وهو كيف يستطيعون القضاء علىٰ الأعداد الضخمة من هـٰذه الضفادع ، فأراد ٱلله جل جلاله أن يريهم كيف خلق كل شيء بميزان وقد خصص له مكاناً وزماناً .

خلقه الشمس والقمر بحسبان : أي خلقه لهما وخلقه الليل والنهار بالقسط فما يستوجب النهار يكون النهار فيه بحسبان وما يستوجب الليل يكون الليل فيه بحسبان وهـٰكذا تكون الشمس والقمر كل بحسبان ، والحسبان قياس بالقسط لا يتعرض للخلل أبداً كل في فلك يسبحون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى

---

(1) النساء ، 117 ـ 121 .

خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ ، ولأن المقسط عادل في ملكه فهو يجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾ [1] ، إن ٱلله جل جلاله خلق الشمس والقمر فالشمس ضياء والقمر نور ، والفرق بين اللفظين واضح ، فٱلله خلقهما بميزان ، ولحكمة يعلمها ، فلا أحد يعلم كنه وجودهما ولماذا أعطىٰ خاصية لأحدهما دون الأخرىٰ ، أما الحكمة الظاهرة فهي :

أ ـ **الضوء** : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴾ [2] ، وقال في آية أخرىٰ : ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾ [3] ، وفي آية أخرىٰ ﴿ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾ [4] ، الشمس هي السراج الوهاج ، والقمر هو المنير ، فالأول متوهج والثاني أقل ، وهو ما أثبته العلم الحديث ، فالشمس هي التي تترأس المجموعة الشمسية ، والضوء ينبعث منها بسبب احتراقها ، فهي متوهجة دائماً ، بسبب احتراق الغازات بداخلها ، أما القمر فقد ثبت في العلم الحديث

(1) يونس ، 3 ـ 6 .
(2) الفرقان ، 61 .
(3) نوح ، 16 .
(4) النبأ ، 13 .

أنه يعكس الضوء الساقط عليه من الشمس ، وبذلك كان نوره خافتاً بالنسبة للشمس التي هي مصدر الضوء ، وللخليفة أن يستفيد من الشمس في الحصول علىٰ الطاقة التي يستفاد منها في الأغراض المتعددة .

ب ـ عدد السنين والحساب : قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [1] ، ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ ، فالمنازل لها معنيان :

أحدهما : أن يكون المعنىٰ وقدر مسيره منازل ، وهي التي يستفاد منها في عدد السنين والحساب الشمسي ، ومنه يتعرف علىٰ الفصول الأربعة والتي يستفاد من معرفتها في تنظيم حركة الحياة علىٰ سطح الكرة الأرضية .

والثاني : أن يكون المعنىٰ وقدره ذا منازل ، وهـٰذا بالنسبة للقمر والذي به يتعرف علىٰ عدد الأيام بقدر صغر أو كبر حجمه في دورة مدتها ثلاثون يوماً تقريباً ، والذي نستفيده منه معرفة المواقيت ، وفي ذلك قال تعالىٰ راداً علىٰ من سأل عن ماهية الأهلة : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3] ، والمواقيت هي التي يراد بها معرفة الأشهر والأيام حيث كل شيء بحسبان ، وهـٰذا يدل علىٰ أن للعلم مصادر يمكن أن يتم بها معرفة الإحصاء والتعداد ، وكذلك معرفة الحركة والسكون ومعرفة الزمان والسرعة ، ورصد المتغيرات الطارئة فوق الأرض وفي أعالي السماء .

---

(1) الرحمـٰن ، 5 .
(2) يس ، 39 .
(3) البقرة ، 189 .

ج ـ **الظل** : قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [1] ، فالشمس هي السبب في وجود الظل ، وهـٰذه من النعم التي أنعم بها رب العزة علىٰ عباده ، فالظل يستفاد منه في معرفة المواقيت ومعرفة اتجاهات الحركة وزمانها ، والظل يمكن أن يتم الركون إليه وقت الحر الناجم عن حرارة الشمس ، وخاصة في فصل الصيف ، ومن قسطه تعالىٰ أن وازن بين الحرارة والبرودة ، بخلق الظل رداً ومعادلة للحرارة ، فقد قال تعالىٰ في معادلته للأشياء : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ [2] ، فنعمة الظل تظهر عندما ترتفع درجة الحرارة في موسمها فيبحث هناك الناس عنه ، وبذلك يجب علىٰ خلفائه في أرضه أن يحمدوه علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ .

د ـ **توزيع النبات ومنه الفاكهة والحبوب** : هـٰذا التوزيع الذي جعله ٱلله تعالىٰ في أرضه للفاكهة لم يكن عبثاً بل كان نعمة من رب العباد علىٰ أهل الأرض وكذلك توزيعه للحبوب والأشجار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] . في الآيات السابقة ذكر ٱلله جل جلاله فضله علىٰ خلقه ليذكر الإنسان ، وليبرهن له أن لهـٰذا الكون خالقاً وأن

---

(1) الفرقان ، 45 ـ 46 .
(2) فاطر ، 19 ـ 21 .
(3) الرحمـٰن ، 10 ـ 13 .
(4) الأنعام ، 99 .

كل شيء عنده بميزان ، فجعل للشتاء فاكهة غير التي في الصيف ؛ لأن فصل الشتاء يتميز بالبرودة والصيف بالحرارة ، وجعل المناطق الاستوائية آية تتميز عن غيرها من مناطق الفصول الأربع ، وكذلك جعل المنطقتين القطبيتين آيتين متميزتين بالبرودة الشديدة ، وهـٰذه كلها نتاج الموازين المقسطة . ولذلك جعل ٱلله تعالىٰ فاكهة الشتاء تحتوي علىٰ مواد ومركبات تقي الإنسان أمراض الشتاء التي يسببها البرد ، وكذلك فاكهة الصيف تحتوي علىٰ مواد ومركبات تمنع الجفاف بسبب الحرارة التي ينتج عنها التبخر ، وكذلك جعل لكل شيء قوته حسب منطقته التي وجد فيها ، فالذي يسكن الجبل غير الذي يسكن السهل والوادي ، والذي يسكن جوف البحر غير الذي علىٰ ظهر اليابسة ، فسبحانه من مقسط عدل عالم لا يغفل عن النملة ونصيبها في جحرها ولا عن الحوت في جوف البحر مهما صغر ، وللخليفة في ذلك درس أن لا يظن أن ٱلله غافل عما يعمل الظالمون ، فواجبه أن يعمل علىٰ ما يرضي ربه من الخيرات وأن لا يبخل علىٰ أهل الأرض بما وجده من الرزق ، وٱلله المستعان .

هـ ـ **توزيعه للرحمة والشدة بين عباده** : فٱلله جل جلاله جعل أقواماً رحماء وجعل أقواماً قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، قال تعالىٰ : ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [1] ، وهناك من الناس من جعله رحيماً وقت الرحمة وشديداً وقت الشدة ، كما جاء

---

(1) البقرة ، 73 ـ 76 .

في قوله تعالىٰ : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ (1) . الناظر إلىٰ الآيات السابقة يرىٰ عجباً أو استغراباً لماذا خلق ٱلله تعالىٰ كلا الأمرين ، أما القسوة فكانت نتاج الكفر والجحود ، وأما اللين والرحمة فكانت نتاج الإيمان ، هـٰكذا ظهر معنىٰ القسوة الذي هو أساسه العناد وخراب الفكر وما بني علىٰ الباطل ، واللين الذي هو أساس الرحمة والشفقة التي زرعها ٱلله جل جلاله في قلوب خلفائه ، ليملكوا بها ود الآخرين وليزدادوا إيماناً ، وليكون قلب الخليفة ليناً عليه أن يكون :

أ ـ مؤمناً إيماناً صادقاً بربه وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ (2) .

ب ـ باحثاً عن رضا ٱلله تعالىٰ ، والذي يكون نتاجه الحصول علىٰ فضله تعالىٰ في الدارين كما قال تعالىٰ : ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ (3) ، ويكون ذلك بالقربات التي أمرنا ٱلله بها سواء أكانت مفروضة أم مندوبة ، والذي يأتي بعمل الصالحات ، كلٌ في ذلك سواء لا فرق بين ذكر وأنثىٰ ، قال

(1) الفتح ، 29 .
(2) البقرة ، 177 .
(3) الحشر ، 241 .

تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (1) .

ج ـ **إحقاقه الحق وإزهاقه للباطل** : فالحق هو أساس عدل الميزان أما الباطل علىٰ العكس ، فبقسطه تعالىٰ جل جلاله خلق الحق ليدمغ به الباطل فيصير زهوقاً بإذنه تعالىٰ ، قال تعالىٰ جل في علاه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (2) .

د ـ **تفرده بالألوهية** : قال تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (3) .

هـ ـ **خلقه الفتنة للامتحان** : تعرض بنو آدم من أول ما جاؤوا إلىٰ الخلق لامتحانات ، وكان الهدف هو اختبار الإنسان هل هو يستحق ذلك المكان العالي الذي تحدىٰ به الملائكة البررة في أعلىٰ العليين أو هو دون ذلك ، ليس لعدم معرفته تعالىٰ بكنهه بل ليري ذلك للمخلوقات الأخرىٰ التي تعجبت بتكريم رب العزة له دون غيره من المخلوقات ومن هٰذه الامتحانات الآتي :

(1) النساء ، 124 ـ 126 .
(2) الفتح ، 16 ـ 19 .
(3) الفتح ، 22 ـ 24 .

1 ـ الامتحان من أول وجود آدم عليه الصلاة والسلام وبعدما خلق له حواء ، وجعل لهما الجنة التي أراد ٱلله له إعمارها والسكن فيها في رغد وهناء ، وخلق له عدواً من قبل أن يخلقه ، واستطاع ذلك العدو أن يستدرجهما بالرغم من التحذيرات المتكررة من ربه أن لا يتبعا رأي عدوهما ، ولـٰكن حدث ما حدث عندما اقتربا من الشجرة التي نهاهما ٱلله جل جلاله من عدم الاقتراب منها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (1) .

2 ـ والامتحان الثاني كان لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، بما تعرضوا له من عداوة الشياطين الجن والإنس ، ومثال ذلك قوله تعالىٰ في خطابه لرسول ٱلله ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟

(1) طه ، 115 ـ 125 .

﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ (1) . من هـٰذه الآيات الكريمة نصل إلىٰ أن زهرة الحياة الدنيا للفتنة لمن لم يأخذ حذره منها ، وبذلك يجب علىٰ الخليفة أن لا يلتفت إلىٰ الدنيا ومفاتنها بل يسعىٰ لكسب الدنيا والآخرة بالصالحات ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ .

و ـ ميزانه لليل والنهار سواء في الطول والقصر ، أو في الحركة والسبات : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ (4) . ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

---

(1) طه ، 131 ـ 135 .

(2) الفرقان ، 47 .

(3) النبأ ، 9 ـ 11 .

(4) الأنعام ، 11 ـ 15 .

تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) .

ز ـ ميزانه في فلق الأشياء : ويظهر ذلك في الآتي :

أ ـ **فلق الحب** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ (2) .

فالق الحب والنوىٰ ، يقصد مخرجهما من الشيء الذي خلقه أولاً كما أخرج آدم وحواء من الأرض (من التراب) ، وبذلك كان خلق الذكر والأنثىٰ من كل ما خلق لأجل التكاثر والبقاء إلىٰ النهاية ، ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ﴾ يخرج المتحرك والمتكاثر من الثابت الذي لا يتغير إلا نسبياً ولا يتكاثر أبداً ، مثل الأرض في ثباتها أرض ، وتغير بني آدم من بعد آدم وحواء الذين أخرجهما من الميت (الأرض) ، وسبحان الذي يحيي الأرض بعد موتها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ (3) ولهـٰذا تتحسن الجينات وتسوء ، وهـٰذا الفلق هو الذي يستدل به علىٰ بداية الحياة ، ودليل علىٰ وجودها ، وهـٰذه الآية توضح بجلاء وتحل مسألة كثيراً ما تنازع عليها العلماء ، وهي

(1) الزمر ، 5 ـ 7 .
(2) الأنعام ، 95 .
(3) الروم ، 19 ـ 24 .

أيهما الذي سبق الآخر الذكر أم الأنثىٰ ؟ فيقول جل جلاله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (2) .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ تعني : مخرج الأرض هو ٱلله ، فالأرض ميتة أي ساكنة ثابتة في ذاتها وهي متحركة بفعل قوة الحي الذي لا يموت وهو ٱلله جل جلاله . أي أن كل مخلوق هو من الحي الدائم جل جلاله ، وهـٰذا هو ٱلله الحي فلا تكذيب والحمد لله رب العالمين .

فلق الصبح : قال تعالىٰ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، فٱلله جل جلاله خلق الليل والنهار ، للموعظة ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (4) .

ب ـ **فتق السمـٰوات والأرض** : آيات ٱلله العظام لا تحصىٰ ولا تعد ولـٰكن لمن آمن وأسلم وجهه لله وكان من المستخلفين فيها يدرك ذلك جيداً دون أن يراوده ظن أو حتىٰ شك مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

(1) الذاريات ، 49 .
(2) النجم ، 45 ـ 55 .
(3) الأنعام ، 96 ـ 97 .
(4) الفرقان ، 61 ـ 62 .

يُؤۡمِنُونَ ﴾ [1] . والفتق انفكاك وفصل بالقسط ، ولذا كان الاتزان في الحركة والزمان دون أن يحدث الخلل ، وهـٰذه آية إعجازية مثل انتظام الشروق والغروب دون أن يقدر أحد علىٰ التبديل أو المساس بهـٰذه المنظومة الإلـٰهية .

ج ـ **فلق البحر** : الفلق بالقوة المُحكمة لا يتم إلا بقسط زماني وحركي وموضوعي ، وذلك لأجل تحقيق غاية بالتمام ، وهـٰذا الفلق هو الفلق الموزون والمحسوب بالقسط . قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] . والخليفة هو الذي يستمد قوته المقسطة من قوة المقسط المطلق فلا يقدم علىٰ شيء هـٰكذا ، بل لا يقدم إلا والغايات من وراء الفعل بينة لا لبس ولا غموض فيها ، ولهـٰذا لكل شيء حساب ، ومن كل شيء قسط ولا يُظلم أحد .

د ـ **ميزانه في خلق الأرض** : قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [3] . الرواسي هي الجبال المثبتة لحركة الأرض وتوازنها واعتدالها بالموازين المقسطة للحركة والزمان ، ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [4] وهـٰذه الرواسي موازين تحول دون حدوث أي اختلال بها سواء في حركتها حول نفسها أو في مسايرتها لمجموعتها في درب التبانة ، هـٰذه الجبال بقدر ما لها من الارتفاع إلىٰ أعلىٰ يكون ذلك لها في العمق داخل باطن الأرض ،

(1) الأنبياء ، 30 .
(2) الشعراء ، 63 ـ 68 .
(3) الأنبياء ، 31 .
(4) ياسين ، 40 .

وهـٰذا هو تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [1] ، فسبحان ٱلله الذي أوجد الميزان لكل شيء بهـٰذه الدقة في الصغير والكبير ، وجاء هـٰذا التفسير جديداً بعد ظهور المناظير ، والتقدم العلمي للأشياء ، وليجدوا أن القرآن الكريم أثبت كل هـٰذه الأمور في كلمتين خفيفتين في اللفظ ثقيلتين في المعنىٰ ، فهـٰؤلاء العلماء ظنوا أنهم قد جاءوا بالجديد فوجدوه مكتوباً في كتاب ٱلله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وليثبتوا هم أعداؤه بأنفسهم أن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان ، والحمد لله ، وميزانه في خلق الجبال حيث لم يجعلها عوائق أمام من يريد أن ينتشر في الأرض ، وذلك كما قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . وهـٰذا الميزان هو القسط فلو لم يكن يصاحبه وزن في السماء ما كان لميزان الأرض قيمة دونها ، فالسماء بمثابة السقف للأرض وبذلك أضاف بقوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ كمالاً وجمالاً علىٰ الآية الكريمة وليخرس بها أفواه الذين يلحدون في أسمائه وبأن له شركاء في الأرض والسماء ، ولـٰكن كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [2] ، والخليفة بين هـٰذا وذاك لابد أن يعمل علىٰ ما يحقق به الميزان بالقسط في الدنيا فيعمل علىٰ العدالة ، وحسن التوجيه لنفسه وللآخرين ، فيكون صادقاً في ميزانه في أهل الأرض فيمهد الطرق والممرات ويزيل العوائق بصدق وإخلاص ، وبذلك يستطيع أن يحقق الميزان بين بني البشر في السير علىٰ الأرض .

هـ ـ **ميزانه في خلقه للموت والحياة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ

(1) النبأ ، 7 .
(2) الفرقان ، 2 .

فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾[1] ، وهـٰذا الميزان الذي جعله بين الحياة والموت ، بحيث :

1 ـ لا يطغىٰ الموت علىٰ الحياة فيفنىٰ البشر ، والمخلوقات والكائنات ، والموت من ناحية أخرىٰ له وقع علىٰ نفوس أقارب الميت ؛ لما زرعه ٱلله جل وعلا في نفوس الكائنات من الحنان ، والشوق وحب الاجتماع والألفة ، فكانت مصيبة بالنسبة لمن فقد أحد أبويه ، أو أحد أقاربه وكذا وبهـٰذه اللفظة جاء ذكرها في القرآن قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾[2] ، وعلىٰ المستخلفين أن يقابلوها بصبر ويقين بأن كل نفس ذائقة الموت ، وعليه فعلىٰ الخليفة أن يردد ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[3] .

2 ـ **لا تطغىٰ الحياة علىٰ الموت** : فلو أن الحياة كانت في الدنيا أبدية لما قام أحد بعمل ينفع به نفسه أو غيره ، ولذلك جعل ٱلله الموت ليعلم ابن آدم أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار المقر وبالتالي يكون جاداً في الحصول علىٰ ما يرضي به ربه في آخرته ، وذلك لا يكون إلا بالعمل الصالح في الحياة الدنيا ومن ثم يكون أداة خير ونماء ، وهـٰذا هو هدف المستخلفين علىٰ الأرض

(1) الأنبياء ، 34 ـ 35 .
(2) المائدة ، 106 .
(3) البقرة ، 155 - 157 .

في أن يطيعوا ربهم حتىٰ يرضىٰ عنهم ويكونوا قد فازوا بسعادة أبدية سرمدية وهي جنات عدن خالدين فيها أبداً كما قال تعالىٰ : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (1) .

و ـ ميزانه في خلق الإنسان من نفس واحدة : هٰذه النفس البشرية خلقت من نفس واحدة وذلك لحكمة يعلمها كما قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (2) . ويستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أن ٱلله واحد لا شريك له ؛ لأن هٰذا الخلق دليل علىٰ وحدانيته تعالىٰ ، ودليل علىٰ وجوده ودليل علىٰ كمال قدرته ودليل علىٰ علمه بمخلوقاته ، والسؤال هنا الذي يطرح نفسه هل أمُّنا حواء خلقت من ضلع آدم أم أن الآية لا تشملها ؟ والسؤال الثاني يقول : هل سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام خلق من السيدة مريم أم لا فالقرآن دل علىٰ أنه مخلوق من الروح أو الكلمة ؟ أما بالنسبة لخلق سيدنا عيسىٰ حسب ما يقتضيه تفسير الآية من قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ إن النشأة تختلف عن الخلق ؛ لأن النشوء لا يدل علىٰ الابتداء بل يدل علىٰ النمو والزيادة . وعلىٰ كل ناحية فإن الذي أريد قوله : إن خلق بني آدم من نفس واحدة يظهر الغاية منها هو انتشار المساواة بين بنيه علىٰ ظهر البسيطة التي عليها نحيا ومنها نعود ، فلو أنهم خلقوا من أنفس عدة لما استوت في المعاملة وبالتالي في الحساب ، وٱلله قادر علىٰ كل شيء ولٰكن لحكمة يعلمها ، وحتىٰ يخلق بيننا روح التنافس ، إذا ما كان الجنس من نفس المادة . قال

(1) البقرة ، 25 .
(2) الأنعام ، 98 .

تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (1) خلقكم من نفس واحدة : تعود علىٰ نفس الخالق الواحدة ، أي أن الناس جميعهم مخلوقون من نفس ٱلله عز وجل ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى﴾ (2) ، وهـٰذه دليل إثبات نفس ٱلله الواحدة ، وخلق منها زوجها : أي أن النفس الواحدة هي نفس ٱلله تعالىٰ التي خلقت الزوجين الذكر والأنثىٰ ، ولذا فكلمة زوجها لا تخص الذكر لوحده ولا تخص الأنثىٰ لوحدها ، ولـٰكنها ضمير يعود علىٰ الزوج الذي هو يعد ويثنىٰ ، ومن ذات الجنس والنفس ، ومن هـٰذين الزوجين (الذكر والأنثىٰ) كان التكاثر رجالاً ونساء .

وعليه قلنا : إن حواء لم تكن من ضلع آدم كما يدعي البعض اجتهاداً بل هي من ذات النفس التي خلقت منها نفس أبينا آدم عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) .

ز ـ ميزانه وإقساطه في السمـٰوات والأراضين : قال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (4) ، ٱلله جل جلاله خلق وأبدع السمـٰوات والأرض بغير مادة يحتاجها أو زمن يحبسه عليها فيكون منشغلاً بها دون غيرها ، وفي هـٰذا رد علىٰ من يظن أن ٱلله كل يوم هو في شأن ، أو أن ٱلله تعالىٰ ينسىٰ ، حاشا لله أن يضل أو ينسىٰ ، فٱلله ليس محتاجاً لأنه قادر علىٰ خلق كل شيء دون الحاجة إلىٰ أبناء أو زوجة أو شريك ، ولذلك جاء ذكر العون من الأبناء والأزواج رداً علىٰ من يظن ذلك ، لأن هـٰذا الخلق الكبير وبهـٰذا الوزن الدقيق مع سعته وكبر حجمه ،

---

(1) النساء ، 1 .
(2) طه ، 41 .
(3) الذاريات ، 49 .
(4) الأنعام ، 101 .

ربما احتاج إلىٰ مساعدين ومعاونين حتىٰ جاء علىٰ هـٰذا النسق العجيب والغريب فالمقسط هو الذي أبدعها ، وجعلها سبعاً شداداً ، ومن ثم جعل من الأرض مثلها ، فالسماء زينها بالكواكب والنجوم ، وحفظنا بها من كل شيطان مريد ، قال تعالىٰ : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (3) ، أما الأرض فقد جعلها ممهدة من جهة وجعل فيها الجبال لتثبتها من جهة أخرىٰ ، وذلك ليسهل علىٰ الخليفة إعمارها ، وعمل الصالحات فيها ، وجعل فيها نعماً لا تعد ولا تحصىٰ ، ومصداقاً لذلك قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ (4) .

ح ـ **إقساطه في توزيع المطر** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (6) ، إن ٱلله تعالىٰ خلق الأرض ،

---

(1) الصافات ، 5ـ10 .
(2) فصلت ، 12 .
(3) النبأ ، 12 .
(4) النبأ ، 6ـ8 .
(5) الروم ، 48ـ50 .
(6) النبأ ، 14ـ16 .

وخلق الإنسان ليعمرها بالخير والبركة ، ووزع في الأرض أقواتها ، فجعل المطر وتوزيعها لكل جهة حسب ما تحتاجه ، والمطر أنواع :

ـ مطر جعل البركة في قطراتها لمن أراد بهم خيراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (1) ، فهـٰذه المطر وما تحمله من البركة ، والبركة يراد بها المضاعفة واستمرار الرزق ، فهي التي تسقي الحب بأنواعه المختلفة ، فتنتج سنابله مئات الأضعاف ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وٱلله جعل لكل مكان موسماً يستقبل فيها الأمطار ويقابل ذلك إنتاج الحب وأنواعه ، والثمار وأشكالها ، فجعل كل ناحية لها نوع يختلف عن أي ناحية بما يناسب حياتهم ومناخهم فجعل للشتاء حباً وفاكهة تختلف عن التي تظهر في فصل الصيف ، وجعل للذين يقطنون في المناطق الباردة حباً وفاكهة بما يقيهم البرد ، وهـٰذا الذي ورد في سورة قريش في وصف حياة أهل مكة وما جاورها ، قال تعالىٰ : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (3) ، فقد مَنَّ ٱلله عليهم بنعمتين :

أ ـ **الأمن من الخوف** : وذلك في زمن كانت القبائل يأكل فيها القوي الضعيف دون رادع أو وازع ، فتحصلت قريش علىٰ هـٰذه النعمة العظيمة .

ب ـ **الطعام** : الذي كان متوافراً عندهم برحلتين :

---

(1) ق ، 9ـ11 .
(2) البقرة ، 261 .
(3) قريش ، 1ـ4 .

إحداهما : في الصيف إلىٰ الشمال حيث بلاد الشام التي يكون فيها المنتجات الصيفية قد نضجت ، وليغطي بها أهل قريش فترة الشتاء .

وثانيتهما : إلىٰ بلاد اليمن حيث موسم النضج بالنسبة للحبوب والثمار المختلفة تنضج في فصل الشتاء ؛ لأن أمطارهم موسمية صيفية ، بذلك يكون أهل مكة وما جاورها من قبائل قد ضمن ٱلله لها الرزق بما جعله المقسط جل جلاله من التوزيع الذي يضمن حق كل أحد ، وحكمة هٰذا الاحتياج لهاتين الرحلتين جعله ٱلله جل جلاله سبباً لزيادة الروابط بين الناس وليعلم كل إنسان أنه في حاجة أخيه ، فعليه أن يربط نفسه بأبناء المجتمع لا أن يبتعد عنهم فيكون بذلك قد حرم نفسه من أشياء وفوائد كثيرة ، منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه ، وكل هٰذا التوزيع هو توزيع قسطي بعد المقسط جل جلاله . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، فقوله تعالىٰ : ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ﴾ فترىٰ الفاكهة تتشابه في لونها وتختلف في طعمها كما هو في الزيتون والرمان ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [2] . والبركة في قطرات الماء يكون وفق ما يرضاه ٱلله ، فهٰذا الخليفة يكون رزقه مباركاً إذا استوفىٰ شروط البركة ، وهٰذه الشروط تتمثل في :

---

(1) الأنعام ، 99 .
(2) الأنعام ، 141 .

1 ـ **الطهارة** : وطهارة الرزق تكون بالزكاة ، في جميع أصناف المنتجات ، كما قال تعالىٰ : ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ ، فمن دفع حقه يوم حصاده سواء أكان العشر أم نصف العشر يكون قد نظف رزقه من الأدران والأوساخ ، وبما صحبه من الصدق وحسن النية التي هي أساس العمل وخوف العقاب ورجاء الثواب في الدنيا والآخرة ، وهـٰذا هو دأب الخليفة في أرضه ، فكلما كان مطيعاً كلما ازداد قربة من ربه تعالىٰ ، وذا ركن من أركان الشريعة الغراء وبما نزل به الوحي من السماء .

2 ـ **عدم الإسراف** : **قال تعالىٰ** : ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ (1) ، فالإنسان إذا زاد عنده الرزق لابد له من أن يحفظه في مكان أمين عن الآفات ؛ ليتقي به السنين المستقبلة ، ولا يجعل أهله وقومه عالة علىٰ غيرهم ، فلابد أن يفكر في طرق الحفظ ، وهـٰذا هو من موجبات الخليفة ، وليكن لنا من قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام درس وفائدة نستقبل بها ما هو محتمل الحدوث ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (2) ، فالحب الذي يبقىٰ في سنبله يكون أقل عرضة للسوس من ذاك الذي أُخرج منها ، وهـٰكذا استطاع الخليفة أن يخرج قومه من أزمة خانقة

(1) الإسراء ، 25ـ27 .
(2) يوسف ، 45ـ49 .

استمرت سبع سنوات دون أن يحتاج للتسول والاستلاف من الأمم الأخرىٰ فيبقي شعبه مرفوع الرأس وذلك بما عمله من الحفظ وعدم الإسراف .

أما مطر العقاب والعذاب ـ والعياذ بالله ـ : ومطر السوء أنواع منها :

1 ـ **مطر الحجارة** : والتي ورد ذكرها في القرآن في قصة قوم لوط ، والذين كانت لهم خمس قرىً ، ولـٰكنها ظلمت نفسها وخرجت عن أمر خلفائها فجاءهم العذاب من فوقهم بتلك المطر وما بقي لهم من آثار ، بين بلاد الشام وأهل مكة ، ولـٰكن هل اتعظ أهل مكة في ذلك الوقت قبل مجيء الرسول الكريم ﷺ إليهم ؟ بالطبع لا ، والسؤال يقول : لماذا لم يتعظ أهل قريش أو غيرهم في تلك الفترة مما يرونه من دمار فنيت فيه خمس قرىً بأكملها ؟ الجواب عن هـٰذا السؤال ورد في قول تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [1] ، فالذي لا ينتظر العودة أو جحدها لأي سبب كان لا يعطي الأشياء حقها في التفكر والموعظة والتي لا ينتظر من تلك الموعظة والتفكر الأجر العظيم ، والآيات بتمامها قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [2] .

2 ـ **مطر الماء الغزير** : وهو ما حدث مع قوم نوح عليه الصلاة والسلام ، فقد وردت القصة بتفاصيلها في سورة هود ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا

(1) الفرقان ، 40 .
(2) الفرقان ، 40ـ43 .

يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ
فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ
ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ
إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ
ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ
كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن
رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى
وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ
فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ
سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ
أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) .

3 ـ **مطر السجيل** : هـٰذه الحجارة لم يكن سقوطها علىٰ هيئة مطر من السماء مباشرة ، بل كانت تحملها طيور لم تألفها العرب من قبل ، وأصحاب الفيل قوم جاءوا من اليمن ؛ ليهدموا الكعبة الشريفة ، والتي تكفل ٱلله

(1) هود ، 32ـ49 .

بحمايتها ، فحل عليهم أمر ٱلله جل في علاه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ (1) .

ط ـ **ميزانه في مراحل العمر** : فقد خلق ٱلله الحيوان عمره أطوار وكل نوع له كيفية في مراحل عمره فنجد بعض الحيوانات تعيش سنة أو أقل من ذلك ، فتكون القدرة علىٰ الحركة أسرع من تلك التي تعيش عشرات السنين كالإنسان مثلاً ، فٱلله جل جلاله جعل لكل عمر مرحلة من القوة والضعف ، فقد قال تعالىٰ في ذلك : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (2) ، فالجنين يتكون في بطن أمه علىٰ مراحل ، ومدة هـٰذه المراحل تختلف طولاً وقصراً من مخلوق إلىٰ آخر ، تبعاً لحجمه وصنفه ونوعه ، والنكتة في وجود هـٰذه المراحل هو رؤية الإنسان كيف يخلق ٱلله جل في علاه المخلوقات ولتكون له درساً وعظة ، ودلالة علىٰ وجود خالقه ليكون أقرب للإيمان منه للكفر والجحود ويكون جاهزاً لاستقبال الرسل والأنبياء الذين يتم إرسالهم لكل قوم من الأقوام ، والخليفة هو الذي يُرِي الناس ذلك حتىٰ يكتمل عمله ورسالته تجاه ربه سبحانه ، قد وصف ٱلله تعالىٰ مراحل نمو الجنين في كتابه العزيز مما أعجز العلماء وأيقن كثير منهم أن القرآن ليس من كلام البشر ، بما حققه من المعجزات الربانية ، والذي جاء قبل أن تكون هناك تقنيات وتصوير وتدقيق ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ

---

(1) الفيل ، 1ـ5 .
(2) نوح ، 13ـ20 .

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (2) .

ي ـ **ميزانه في الصلوات المفروضة والمسنونة** : والتي هي صلة العبد المباشرة مع ربه ، وهٰذه الصلة التي لم يرد ٱلله جل جلاله لها الانقطاع ، جعلها خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (5) .

ك ـ **ميزانه في إرسال الرسل** : بحيث جعل لكل أمة شرعة ومنهاج فبعث الأنبياء والرسل برسالات خاصة ورسالة عامة ختمها بسيدنا محمد ﷺ ، وكان الهدف الظاهر من إرسالهم هو هداية الناس إلىٰ الصراط المستقيم ،

---

(1) الرعد ، 8_9 .
(2) الحج ، 5 .
(3) هود ، 114_115 .
(4) طه ، 14_16 .
(5) العنكبوت ، 45 .

قال تعالىٰ : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (1) ، من هـٰذه الآيات الكريمة يتضح لنا جلياً لماذا أوجد الله جل جلاله الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم :

1 ـ رحمة بعباده رب العالمين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

2 ـ رفع الشك الذي ملأ به الشيطان قلوب الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴾ .

3 ـ التحذير ورفع الملامة بعدم العلم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

وبهـٰذا كان ولا يزال مقسطاً في خلقه إلىٰ أن يلقوا خالقهم الذي أحصىٰ كل شيء وعده عداً .

ل ـ ميزانه في المواقيت وتقسيمها بدقة متناهية من الثانية إلىٰ الدقيقة إلىٰ الساعة إلىٰ اليوم ، ثم إلىٰ الأسبوع إلىٰ الشهر ، إلىٰ السنة إلىٰ العقد إلىٰ القرن

(1) الدخان ، 1ـ16 .

إلىٰ الدهر إلىٰ العصر ، والذي نتج عنها تنظيم حياة الناس اليومية كالصلوات الخمس ، والسنوية كالحج والزكاة ، هـٰذا في العبادات ، وأما الحياة الأخرىٰ وما نتج عن معرفته من تنظيم بديع للفصول الأربعة وما يجب أن يستعد له من الحرارة والبرودة ، فقد جعل ٱلله تعالىٰ ما يقيه ذلك سواء من حيث الملبس والمسكن ، والإقامة والرحيل ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (1) ، فٱلله تعالىٰ جعل لنا من الجبال المادة التي نبني بها ما نكنُّ إليه في الصيف والشتاء ، وجعل كل ما يحتاجه البناء من أصل ما كُوِّنَ به الجبال كالإسمنت والحديد وطوب البناء وغيرها مما يحتاجه الإنسان في مراحل البناء المختلفة ، فالخليفة تجاه هـٰذه النعم يجب أن يكون شكوراً مطيعاً لربه ليكون مقسطاً بالإضافة إلىٰ ربه بما يقدمه من شكر علىٰ هـٰذه النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ ، وبما يجب عليه من حسن استغلال دون تبذير أو إسراف ولا يعبث بالطبيعة ؛ لأن كل ما فيها مخلوق بميزان في منتهىٰ الدقة والحساسية ، وإن ما نراه اليوم من عبث وفساد سواء بالتدخل في تكوين الخلايا وما تحمله من مورثات جينية ، هـٰذا في المنظار الدقيق ، أو علىٰ مستوىٰ الجبال والبحار والقمم الجليدية وما يحدث فيها من الذوبان المفاجئ ، وما أحدثه الإنسان من خروقات في الغلاف الجوي ، وما ظن أنه يعمل علىٰ إعمارها وهو يحدث العكس ، وما قام به من صناعات مدمرة تأتي علىٰ الأخضر واليابس .

(1) النحل ، 80ـ83 .

إذاً المقسط هو ٱلله جل جلاله محق الحق ، وهو الذي لا يظلم أحداً ، وهو الذي جعل كل شيء موزوناً في زمانه وحركته وسكونه أو ثباته ، ولأنه المقسط جعل كل شيء بيده رحمة علىٰ العباد ، وهو الذي في توزيعه يعدل فجعل لكل شيء نصيباً موصولاً لا يقطعه أحد .

وعليه فالمقسط هو الموسع علىٰ مخلوقاته بالنعم والفضائل وهو الذي لا يقصي أحداً من أخذ نصيبه منها والخليفة هو المقسط بالإضافة وهو الذي يدرك حقه ويعمل علىٰ بلوغه ويعرف واجبه ولا يتأخر عن أدائه ويعرف مسؤولياته فيقدم علىٰ حملها . ولهٰذا يعد الاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية ، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته . واستناداً علىٰ مبدأ التقبل يستوعب الخليفة ذوي العلاقة به من بني جنسه كما هم لأجل أن ينقلهم إلىٰ ما يجب أن يكونوا عليه . ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض ولا تُحل المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز علىٰ التقارب ويؤدي إلىٰ التفاهم .

والاستيعاب قيمة إنسانية تؤسس علىٰ افتراض قبول الآخر كما هو فيه خير كثير ، ولذا علىٰ الخليفة إذا أراد أن يحث علىٰ أفعال الخير ألاَّ يغفل عن الآتي :

1 ـ استيعاب الإيجابيات ، والتأكيد عليها ، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة ، تمكنهم من التعرف عليها ، وتحفِّزهم علىٰ العمل بها .

2 ـ استيعاب السلبيات ، وتحديدها ، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل علىٰ إزالتها ، وتنقية الموضوع منها ، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها .

وبناء عليه لم يكن الخليفة مستوعباً لبني جنسه ليتركهم علىٰ ما هم عليه بالتمام بل ليسهم في تغيير أحوالهم فيما يرضي ٱلله تعالىٰ ، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إزالي ،

يُثبِّت المعلومات الموجبة ، ويزيل السالبة ، ولهـٰذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة ، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف ، حتىٰ تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل ، والإزالة للسالب غير المفضل .

وعليه يعد الاستيعاب قيمة احتوائية ، تقبل بالاختلافات وتعمل علىٰ احتوائها . من طبيعة الخلق لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتىٰ في الرغبات والحاجات ، ولا في درجة الفهم والمعرفة ، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التقدير ، حتىٰ تتمم الفروق الفردية بين الناس بعضها البعض . ولهـٰذا كل مفردة هي في حالة نقص ، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب . وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة ، ولأجل ذلك فإن قيم ممارسة الأفعال المقسطة وحدها التي تمكن من الاستيعاب . وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات .

والاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد علىٰ القيم الآتية :

1 ـ **الفهم** : فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها ، من حيث تاريخها ، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب ، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها .

2 ـ **التفهُّم** : إلمام بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالعميل ، ومراعاة آثارها علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي والمجتمعي حتىٰ لا تسود المظالم ويتم الانحياز لأحد علىٰ حساب الآخر .

والتفهم إلمام بالموضوع والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته علىٰ السطح أو أنتجته بين الأيدي ، وهو دراية عن كتب ومعرفة تامة بأسبابه

وعلله ومبرراته وخفاياه المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة .

إنه تقدير للظروف التي أثرت علىٰ سلوك الأفراد ، وهو دراية بما ينبغي أن يتم حيالها ، وكيف ومتىٰ وأين يتم ؟

التفهم قيمة تقديرية يُقدِّر فيها الأنا الآخر . ويفسح له مجالاً واسعاً يسمح له بالحركة والامتداد الحر ، وباعتماد التفهُّم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تقدّر ظروف كل خصوصية وتحترم مما يؤدي إلىٰ تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب ، وتخفيف للآلام وعلىٰ ضوئه يتحقق التوافق الاجتماعي .

وعليه فالتفهُّم يُمكِّن من الاستيعاب ، وبما أنّ التفهّم يُمكّن من الاستيعاب .

إذاً لماذا لا يفسح المجال بين بني آدم من الاطلاع علىٰ كل ما من شأنه أن يؤدي إلىٰ الاستيعاب ؟

وبناء علىٰ القيم المتضمنة في النظرية الاجتماعية (الإنسان اجتماعي بطبعه) فإن التفهُّم الذي به يتم تقدير الحالة وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية والذوقية والثقافية هو المُمكن من تأكيد وتحقيق قيمة الاستيعاب بكل إرادة .

ولهٰذا علىٰ الخليفة بالآتي :

ـ تفهُّم ظروف الآخر .

ـ تفهُّم الواقع كما هو .

ـ تفهُّم الصعوبات التي تواجه بني آدم .

ـ أن يكون مقدراً لأحوال الناس وظروفهم .

ـ أن لا يصدر أحكاماً مسبقة فعليه بالتبيُّن . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ

تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [(1)] .

ـ أعطِ الفرص وافترض خيراً .

ـ اعرف أن كل شيء ممكن .

بناء علىٰ ذلك فإنه يلحظ أن في الاستيعاب تكمن الرغبة ، والرغبة هي طاقة استيعابية .

ولهـٰذا لا استيعاب بدون رغبة .

وعليه : علىٰ الخليفة أن يهيئ الناس للاستيعاب ، إذا أراد العمل معهم من حيث هم إلىٰ حيث ما يجب ، لأجل إحداث النقلة التي لها يُصنع المستقبل .

3 ـ **الاعتراف** : الاعتراف بالفرد أو المواطن أو العبد من حيث أن له حقوقاً ومن حقه أن يطالب بها ويمارسها . وأنّ له واجبات ويقدم علىٰ أدائها . وأنّ له مسؤوليات فلا يتأخر عن حمْلها ، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء . الاعتراف قيمة إثباتية بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين ، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل ، فهي تربط الفرد بالمنزلة ، وتربط الخصوصية بالمكانة . ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية ، يريد هو

---

(1) ص ، 23 ـ 26 .

الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح . ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع . ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما ، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف . ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولاً من أبائهم وثانياً من الآخرين . وهٰكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به . وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شواذ .

ولذا فمن الضرورة أن يشعر الخليفة سواء كان فرداً أو جماعة أو مجتمعاً بأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته علىٰ العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلىٰ النهاية .

4 ـ **التقدير** : تحسيس بني آدم بأنه قيمة في ذاته ، وأنه مُقدَّر في شخصه وفي قراراته ، ومشاعره وخصوصيته ، وفيما يرغب أو يقبل أو يرفض . التقدير قيمة تقييمية ، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات . وقيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة علىٰ المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة ، وبناء علىٰ النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين . ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إذا لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي .

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها ، وتحديد دور الخليفة حيالها وفقاً لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب ، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب .

التقدير مطلب يُشبع رغبة ، مما يستوجب من راغب في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة ، أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هٰذه الحقوق وامتلاكها . ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلىٰ هٰذا المستوىٰ من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة ، ويتمكنان من العيش سوياً في المكان

والزمان الواحد ، وينال كل منهما مكانة عند الآخر ، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلاً منهما علىٰ درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها ، وهـٰكذا يكون الخليفة علىٰ أرضه .

والمقسط هو الذي جعل الخليفة في حالة توافق مع ما أمر به ونهىٰ عنه ، فهو لا يعتدي علىٰ حق الآخرين وما حلل لهم المقسط من نصيب ، وهو المنتهي عما نهىٰ عنه ولا يظلم أحداً ، ولذا فالتوافق قيمة تحقق الرضا بين المستخلفين فيها علىٰ المحبة وأخذ الحق وأداء الواجب وحمْل المسؤولية .

والتوافق انسجام إرادي ، تتماثل به الأقوال والأفعال بملاءمة علىٰ الموضوع بين المستخلفين فيها ، ويتضمن التوافق انسجاماً ومشاركة موضوعية تتطابق فيها وجهات النظر أو الأفكار ، ما يجعل المشاركة بين الطرفين موجبة لتساوي كفتيهما بإرادة . وهـٰذا لا يعني أن لا يكون التوافق سالباً ، فمثلما يتوافق الإصلاحيون كذلك يتوافق المفسدون ، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه . ولذلك يكون التكيف للضرورة ، ويكون التوافق للوجوب . والتوافق يؤدي إلىٰ مغالبة الصعاب والتكيف يؤدي إلىٰ التسليم إليها . ولذا فالتكيف في مضمونه السلبية إلا إذا كان مترتباً علىٰ عملية توافقية . وفي التوافق يكون للإنسان رأي ومشاركة بدون ضغوط من أحد ، أما التكيف في معظم الأحيان فلا .

التكيف مواءمة نفسية بين الفرد أو الجماعة والبيئة التي هم فيها أو البيئة التي تحيطهم ، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات ، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع من هم في حاجة للتكيف . ولذا فالسجين في بداية أمره لا يمكنه التكيف مع السجن ، ولـٰكن بمرور الزمن يتكيف مع السجن كأمر واقع لا مفر منه ، ومهما تحقق له من تكيف مع السجن والسجانين ، لا يمكن أن يتوافق معهم ولا مع السجن ، ما يجعل الفرق كبيراً بين التكيف الذي لا يتم إلا بتنازلات وبين التوافق الذي لا يتم إلا بإرادة ، وبدون تقديم تنازلات .

ولذلك فالتكيف تآلف وتقارب يتم به تعديل السلوك أو تغيير اتجاهه وفقاً لِما هو كائن ، ومثل هـٰذه السلوكيات لم تكن نتاج أفعال المقسط الرؤوف بعباده وهو الرحمـٰن الرحيم ، إنها صفات المفسدين الذين هم بأفعالهم وأقوالهم يظلمون ويتبلون علىٰ الناس بما ليس فيهم فيجعلونهم بين الجدران مساجين وحينها يريدونهم أن يتوافقوا مع السجون التي لا تتوافق معها حتىٰ الجرذان ، ومع ذلك قد يكون لهم مع التكيف جلسة أو موعد . ولذا فالمقسط لا يظلم أحداً أما غيره فمن الظالمين .

وعليه الاستيعاب قيمة امتدادية ترسي قاعدة القبول بين الأنا والآخر وفقاً لقاعدة النسبية حيث لا مطلق إلا من عند ٱلله تعالىٰ ، ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه ، لذا فإن استيعاب البعض للبعض هو الذي يؤدي إلىٰ توسيع دائرة القبول والرفض التي تؤسس قاعدة للتعامل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات .

وبما أن الاستيعاب قيمة احتوائية تطوي الهوة بين الأنا والآخر .

إذاً :

القاعدة هي :

الاستيعاب يطوي الهوة .

والاستثناء هو :

الإقصاء يزيد الهوة اتساعاً .

ولهـٰذا فالاستثناء هو الاستثناء .

ولتوضيح ذلك ، علينا أن نجيب علىٰ السؤال : كيف يصبح الاستثناء هو الاستثناء ؟

عندما تستثني جماعة ما عضواً من أعضائها من المشاركة ، أو يستثني مجتمع ما جماعة من جماعاته من المشاركة ، فإن هـٰذا الاستثناء يخالف

القاعدة التي تستوجب مشاركة كل أعضاء الجماعة دون استثناء .

ولهٰذا فالمشاركة استيعابية ، وهٰذه قاعدة .

والاستثناء لا استيعابي وهٰذا استثناء .

الصحيح أن يتم الاستيعاب .

والاستثناء تتخذ مواقف من البعض فلا يتم الاستيعاب .

ولأن في الاستيعاب القوة وفي الاستثناء الضعف .

إذاً القاعدة هي :

في الاستيعاب القوة .

والاستثناء هو :

في الاستثناء الضعف .

ولهٰذا الاستيعاب قيمة احتوائية تطوي الهُوة بين الأنا والآخر .

والاستثناء يزيد الهوة بينهما .

ووفقاً لقاعدة المتوقع وغير المتوقع ، يمكن أن يكون الضعف قوة استيعابية ، ويمكن أن تكون القوة ضعفاً استثنائياً .

علىٰ سبيل المثال : طاعة الوالدين .

هل هي ضعف أم قوة ؟

الإجابة الموضوعية أنها تقع في دائرة الممكن .

كيف ؟

من ناحية أنها قوة إيمانية (طاعة الوالدين في غير معصية ٱلله واجبة) .

ومن ناحية عقلية منطقية مجردة . فهي القبول بالخضوع ، بتنازلات قد

لا تكون مرضية للأنا (علىٰ عكس من رغباته أو طموحاته) ولهٰذا قد ترغب الأنا الإقدام علىٰ فعل الشيء ، وفي الوقت ذاته تواجهها قوة ممانعة أو رفض من الوالدين أو أحدهما .

وهٰكذا الحب أيضاً هو الآخر ذو أثر قوة ، وأثر ضعف في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

ولذا فالحب قوة موجبة ، وقوة سالبة .

قوة موجبة : حيث يُمكّنك من استيعاب الآخر بلا تردد .

وهنا نلحظ شيئين متناقضين هما :

الاستيعاب الموجب : الذي فيه فُسحة للنفس وللذوق الرفيع ولقوة الحواس ، حيث ينقلك من مواقع الغفلة إلىٰ قمم الفطنة ، التي تمدك بالصحوة في كل حين ، وتفتح عليك آفاقاً تُمكّنك من نيل الاعتراف والتقدير ، وتجعل مشاعرك في حالة فيض كلما تُبادل . وهنا يكون الحب قوة تمركز التعادل بين المحبين بالقسط الحق ، والخليفة المقسط هو الذي لا يكون في نفسه حب علىٰ حساب حب آخر ، أي لا ينبغي أن يكون حب الوالدين علىٰ حساب الدين الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ ، ولا يكون حب الزوجة علىٰ حساب حب الوالدين اللذين يستوجبا الطاعة في غير معصيته عز وجل ، ولا حبهما علىٰ حساب حب الأبناء ، ولهٰذا المقسط بالإضافة هو الذي في حبه عدل وتقوىٰ وتوازن دون ميل . فكلما امتدت مسافة لتملأ الآخر مودة تقدم نحوك بالتماثل لتملأك وداً . حينها يكون الحب بين (الأنا والآخر) قوة استيعابية ، تُمكّن من الإبداع والعمل المنتج والتحدي لمواقع الضعف .

الاستيعاب السالب : هو الذي يجعلك في حالة تنازلات كلما فكَّرت في الابتعاد ، أو الانفصال ، حيث لن تطيق الفراغ من بعده (بعد غزوته) التي جعلتك أسيراً بلا قوة .

والذي يسيطر عليك هنا ليس القوة ، كما تعتقد ، بل الضعف (القوة السالبة للإرادة) ولذا وفقاً لقاعدة المتوقع ستكون أسيراً خائفاً متردداً .

أما بالنسبة لغير المتوقع فمن الممكن أن تقبل بدفع الثمن وتنفض الغبار من علىٰ ظهرك . ما يجعلك في حالة استرداد للقوة . وتأكد أنك تستطيع أن تفعل إذا كانت الغزوة استعمارية استعبادية أو استعلائية . أما إذا كان وداً متبادلاً إرادياً فيكون الحب قوة .

وعليه ، الحب قوة غازية متحدية ليتها لا تغيب عن ذكر ٱلله ويا ليتها لا تنفصم عن حبه .

وفي كلتا الحالتين الحب قوة بضعفه وبقوته . ولهـٰذا لو لم يكن الضعف قوة ما كان له الأثر السالب ، ولو لم يكن الحب قوة ما كان له الأثر الموجب .

ولهـٰذا فإن الهُوة بين الأنا والآخر لا تُطوىٰ إلاَّ بالاستيعاب بدون إكراه حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الحق من المقسط جل جلاله .

ولذا فإن طي الهوة يتطلب الأتي :

ـ تقبل الآخر كما هو ، حتىٰ لا تُزوَّر صفاته التي تميزه عن الغير .

ـ التواصل مع الآخر اجتماعياً وإنتاجياً وسياسياً ونفسياً وذوقياً وثقافياً وأخلاقياً قسط بقسط دون مبالغة في الزيادة والنقصان .

ـ التعامل بشفافية ووضوح فإن الحق بيِّن لا لبس ولا غموض فيه فلا داعي للتستر .

ـ التجرد من الأنانية ، التي بها يحدث الميل عن الحق مما يجعل صاحبها فاقداً لصفة المقسط التي بها يعتدل في القول والفعل ويعدل إذا حكم بين الناس ، ولهـٰذا الخليفة هو من يأخذ حذره حتىٰ لا يميل كل الميل .

ـ الاعتراف بالآخر هو كما هو دون فرض رؤية إكراهاً .

ـ التطلع لما يجب ، وهو المستهدف بالتغيير للحق .

ـ التقييم بمنظور معياري يمكن قياسه بالمنافع والفوائد المسببة في الإصلاح .

ـ استيعاب الخصوصية .

ـ الإقرار بوجوبية أخذ الحقوق ، وبأحقية أداء الواجبات ، وبأهمية تحمّل المسؤوليات .

ـ التقدير لمن يجب ولما يجب .

وعليه فان القاعدة هي :

1 ـ الاستيعاب احتوائي .

2 ـ الاستيعاب طاوٍ للهوَّة .

والاستثناء هو :

1 ـ الإقصاء إبعادي .

2 ـ الاستيعاب لا يطوي الهوة .

ولذا فإن أخذ الحق والمطالبة به قاعدة ، الحرمان منه استثناء . وبالتالي يجب استيعاب من له الحق وإعطاؤه له . أما من يُستثنىٰ ويحرم من حقه ، فهو في حاجة للمساعدة الهادفة مما يجعل دوراً في إحقاق الحق بالقسط . قال تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [1] .

إذاً تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي من ورائه غاية .

(1) الكهف ، 49 .

وبما أن تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي .

إذاً :

لا تقبل إلا لآخر أو من آخر .

ولهـٰذا فالاستيعاب فعل لطي الهوة بين المستوعِب والمستوعَب .

ولا يمكن أن يتم الاستيعاب إلا بإعطاء فسحة للامتداد المتبادل مع قبول كل طرف للطرف الآخر .

ولأنه كذلك فإن الاستيعاب قيمة إرادية .

لذا فإن القاعدة هي :

1 ـ الاستيعاب امتداد متبادل .

2 ـ الاستيعاب قيمة إرادية .

والاستثناء هو :

الاستيعاب امتداد بلا تبادل .

الاستيعاب قيمة لا إرادية .

وبما أن تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي .

إذاً :

ـ تقبله كما هو .

ـ بادله التقدير .

ـ بادله الاعتراف .

ـ بادله الاعتبار .

ـ عامله بشفافية .

ـ عامله بلين ومرونة .

وعليه :

ـ تمسّك بالقيم الأخلاقية وابتعد عما يبعدك عنها .

ـ قدِّر الآخر يُقدِّرك .

ـ تمسّك بالقيم التي تطوي المسافة بينك وبين الآخر .

ـ تقبل الآخر كما هو واعمل علىٰ تغييره إلىٰ ما يجب .

ـ استوعب الآخر الذي باستيعابه يزوِّدك بالمنفعة .

ـ استوعب الآخر الذي هو في حاجة للمساعدة .

ـ اعمل مع الآخر لأجل أن تحدث لكم النقلة .

ـ اعترف بالآخر يعترف بك .

ـ اغرس الثقة في الآخر يغرس الثقة فيك .

ولهٰذا فإن الغاية من وراء العملية الاستيعابية هي : أن ىالإنسان قيمة في ذاته . ولأنه قيمة في ذاته ، فإن تقبُّله واجب قيمي .

ولهٰذا الاستيعاب القيمي قاعدة والانسلاخ عنه استثناء .

وعليه :

ـ لا تكن أنانياً فالأنانية نقيصة .

ـ لا تكن انسحابياً فالانسحاب عيب من المواقف الموجبة .

ـ احترم ذاتك يحترمك مجتمعك ويُقدّرك الآخرون .

ـ تطلّع إلىٰ ما هو أفضل تحدث لك النقلة وتصنع لك مستقبلاً خيِّراً .

ـ كن موضوعياً تنال الاحترام والتقدير وتكسب الهيبة .

ولذا فالاستيعاب أفعال عمدية لقرار مسبق .

من أجل ذلك ، يتعمَّد الطبيب استيعاب مريضه . ويتعمّد الأخصائي الاجتماعي استيعاب عملائه ، سواء كانوا في حالة اتزان ، أو في حالة اضطراب وخوف ، وسواء كانوا معتمدين لمنطق ، أو كانوا في حالة حيادٍ نسبيٍ عنه ، وهـٰكذا الخليفة هو الذي عليه حق الدعاية للدين والدعاية إلىٰ الإصلاح والتعارف والتآلف والتحاب في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، وهو الذي ينذر دون عداء ، ويزهق الباطل بالحجة ويدمغه بها حتىٰ يزهق وهو الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، ولهـٰذا فعليه بأن يقول خيراً في كل مجلس أو مجمع ويعمل بالقسط إذا وزن أو اكتال أو إذا حكم بين الناس ولهـٰذا فإنه يصلح دائماً ولا يفسد مرة واحدة .

ولذلك فالقاعدة هي :

الوعي عن عمدٍ وإرادة .

والاستثناء هو :

الوعي عن غير عمد وإرادة .

وبناء علىٰ ما سبق :

1 ـ اسمح برغبة .

2 ـ تقدّم برغبة .

3 ـ اعمل بوعي .

4 ـ انطلق بقوة الإرادة .

5 ـ استوعب عن عمد .

6 ـ حلّل بمنطق .

7 ـ شخّص علىٰ واقع .

8 ـ قوِّم بموضوعية .

ولهٰذا فبالاستيعاب يمتد الاعتبار ، وبدونه ينكمش .

ولذا فالقاعدة هي :

امتداد الاعتبار .

والاستثناء هو :

انكماش الاعتبار .

لذلك يُعد الاعتبار سمواً للرقي القيمي ، مما يجعل السمو القيمي قاعدة ، وانعدامه استثناء .

ولذلك فالاستيعاب مكمن الاعتبار للأنا والآخر .

ومن لا يَستوعِب لا يُستوعَب ، ولهٰذا من يعاني من تأزمات في حاجة لمن يستوعبه .

وبما أن الاستيعاب يُشبع الحاجة .

إذاً البحث عنه ضرورة .

وبما أنه ضرورة .

إذاً لا يجب الإغفال عن أهميته ، لمن هم في حاجة إليه .

ولذلك يزداد الاستيعاب امتداداً ، في حالة التقدير المتبادل . ولو لم يكن للتقدير مكان ، ما كان للاستيعاب امتداد .

ولأن الإنسان قيمة في خلقه ، فهو المقدّر في ذاته .

ولذا فإن تبادل التقدير وجوبي .

وبما أنه وجوبي .

إذاً تبادل التقدير قاعدة ، وعدم تبادله استثناء .

وعليه :

1 ـ اعتبِر تُعتبر .

2 ـ قدِّر تُقدَّر .

3 ـ استثنِ تُستثنَ .

4 ـ اسمح بالامتداد يُسمح لك بمثله .

5 ـ تطلَّع للآخر يتطلَّع إليك .

وعليه فالاستيعاب محفِّز لنيل التقدير ، وبما أنه لا تقدير بلا استيعاب .

إذاً لماذا لا يتم الاستيعاب حتىٰ يتم نيل التقدير ؟

وبما أن نيل التقدير حاجة ماسة للفرد والجماعة والمجتمع . ولا يتم نيله إلا بالاستيعاب . فلماذا لا يسعىٰ الجميع إلىٰ نيله بالاستيعاب ؟

وبما أن نيل التقدير حاجة ضرورية .

إذاً نيل التقدير هو قاعدة قيمية ، وفقدانه هو الاستثناء .

ولهٰذا الاستيعاب مكوِّن قيمي ، للاعتبار والاعتراف والتقدير .

فأينما وُجِد الاستيعاب ، وُجِد في مضمونه ، قيم الاعتبار وقيم الاعتراف وقيم التقدير .

وعليه :

ـ تقبّل بلا حدود .

ـ استوعب بلا تردد .

ـ امتد إلىٰ النهاية .

لذلك يستوعب الآباء أبناءهم ، والزوج زوجه ، والطبيب مريضه ، والأخصائي عملاءه ، والجار جاره ، والمدرس تلاميذه .

وعندما تُفقد أو تنعدم هـٰذه القيم ومثيلاتها ، يحدث التفرّق والصدام والصراع ، وتتجذّر العداوات .

ولأن المقسط هو محق الحق فمحق الحق لا يخاف أبداً ، والخليفة المقسط هو الذي يخاف علىٰ ولا يخاف من ، وعلينا أن نفرق بين الخوف من ، والخوف علىٰ .

فالخوف من ، لم يكن هو الخوف علىٰ ، ولهـٰذا قد يكون الخوف مصحوباً بحرص وقد يكون مصحوباً بكره ، وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نميز بين ما يجب تأييده وبين ما يجب الابتعاد عنه .

1 ـ **الخوف من** : كالخوف من الظلم ، والاستعباد ، والاستغلال ، فعندما يختلف طرفان فقد يغضب أحدهما من الأخر وعندما يتصالحان قد تنتهي هـٰذه المشاعر ، فعندما يغضب الأب من أبنائه بسبب تقصيرهم فيما يجب القيام به أو نتيجة سرقة أو كذب فهـٰذا الخوف شخصي ، وهو موجب ، أما إذا كان مقابل تلك الأعمال غير المرضية فيكون الرضا في هـٰذه الحالة سالباً ، ولهـٰذا ينبغي أن يكون الخوف حتىٰ يتحقق الرضا الموجب .

إذاً الخوف يحقق الرضا عندما يكون موجباً . وعليه يغضب المواطن من بلده وأمته أو حتىٰ أخوته ورفاقه إذا لم يُعترف له بأهميته ويقدر دوره الإيجابي في مجال تفوقه ، ومن حقه أن يغضب أيضا من أمته إذا لم تعمل جادة من أجل التقدم والتطور العلمي والتطور الثقافي والحضاري .

2 ـ **الخوف علىٰ** : الخوف علىٰ الشيء أو الآخر موجب ، فالخوف علىٰ الأمة عندما تغفل عن مهامها القومية والأخلاقية والدينية لا يعد عيباً

ولا محضوراً لأنه من أجلها ، والخوف علىٰ الأبناء عندما يفشلون أو يقصرون عن أداء المهام المكلفين بها لا يعد عيباً ، وهٰكذا خوف المسؤول علىٰ الموظفين عندما يتأخرون عن أعمالهم وواجباتهم ويخاف الصديق علىٰ صديقه عندما يُغفّل أو يتم تسخيره لأداء مهام ليست خيّرة ، وقد يعم الغضب جيلاً بكامله عندما يخاف علىٰ أمته التي لم تستجب لرؤاه أو لم تعمل علىٰ تحقيق طموحاته أو تحقيق وحدتها فيما يرضي ٱلله تعالىٰ .

والخوف علىٰ قد يكون علىٰ أفراد وقد يكون علىٰ مواقف ، فإذا توقع الشعب من الحكومة مواقف قومية تجاه تحقيق الوحدة ، وسلكت الحكومة اتجاهاً مغايراً لذلك ، فيكون الغضب عليها من الشعب نتيجة عدم تحقيقها ما كان متوقعاً منها ، وعليه يخاف المواطن علىٰ بلده وأمته إذا وضعت نفسها في مكان لا يليق بكرامتها وكبريائها . ويخاف المؤمن من الذين يستخفون بدينه نتيجة أنهم لم يؤمنوا به ، ويخاف عليهم إذا كانوا من الذين يدينون به ولٰكنهم لم يلتزموا بنواهيه وأوامره وإرشاداته في حياتهم العامة والخاصة .

وعليه فالمقسط المطلق هو المتوازن الذي لا يميل عن الحق وإحقاقه والباطل ودمغه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو القوي العادل في ملكه والمهيمن علىٰ عرشه والحافظ لخلقه . اللهُمَّ اجعلنا من المقسطين الذين يستمعون إلىٰ القول فيتبعون أحسنه دون ميل أو حياد عن الحق وإحقاقه .

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا عادلين مقسطين مع أبنائنا ووالدينا وزوجاتنا ومن لهم حق علينا ، ولا تجعلنا ممن يظلمون الناس ويعتدون علىٰ ممتلكاتهم وحرماتهم !

اللهُمَّ يا المقسط من مكر بالناس فأنت كفيل بالمكر به ومن يكيد للناس أنت كفيل بكيده !

اللهُمَّ إنك أمرت بالقسط فاجعلنا من المقسطين الذين يوفون الكيل ولا يطففون الميزان !

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا من الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ !

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا شهداء بالقسط واجعلنا من الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ !

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا من القَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ والشُهَدَاء لك بالحق وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ !

اللهُمَّ إنك تحب المقسطين فاجعلنا من أحبائك واجعلنا إن حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ولا نظلم ولا نميل !

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يوفون الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وهم لعهدك من الموفين . وَلا نبْخَسُ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا نعْثوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ !

الجامع جل جلاله

الجامع : هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات ومسير أمورها دون خلل ، أما جمع ٱلله المتماثلات فكجمعه الخلق الكثير من الإنس علىٰ ظهر الأرض وكحشره إياهم في صعيد القيامة ، وأما المتباينات فكجمعه بين السمـٰوات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والنبات والمعادن المختلفة كل ذلك متباين الأشكال والألوان والطعوم والأوصاف وقد جمعها في الأرض وجمع بين الكل في العالم وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن المخلوق ، وأما المتضادات فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات وهي متنافرات متعاديات وذلك من أبلغ وجوه الجمع ، وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة وكل ذلك مما يطول شرحه تنبيه .

الجامع من أسماء ٱلله الحسنىٰ « هو الذي يَجْمع الخلائق ليوم الحِساب ، وقيل : هو المؤَلِّف بين المُتماثِلات والمتباينات والمُتضادّات في الوجود » (1) .

الجامع : « الذي جمع الفضائل وحوىٰ المكارم والمآثر » (2) .

---

(1) لسان العرب ، ج 8 ، ص 53 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 109 .

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب ، فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع ، ولذلك قيل الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وكان الجمع بين الصبر والبصيرة متعذراً لذلك ترىٰ صبوراً علىٰ الزهد والورع لا بصيرة له وترىٰ ذا بصيرة لا صبر له ، والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة والسلام [1] .

فالحمد لله جامع جميع مخلوقاته ، ليوم الجمع استعداداً لملاقاته ، فيجازي كلاًّ بسيئاته وحسناته ، والصلاة والسلام علىٰ سيد مخلوقاته ، وعلىٰ من سار علىٰ نهجه طمعاً في جناته .

الجامع : الذي بيده كل شيء ولا شيء خارج يده ، فهو الجامع للحق كله ، فبيده كل الملك وكل الأمر ، وهو الجامع للشيء ونقيضه في المخلوق الواحد ، كالقوة والضعف في الإنسان مما يجعل المخلوق يقوىٰ ويضعف ولكل أسباب ، ويجعله يمرض ويشفىٰ ويمشي ويقعد ، وبهـٰذا كل من يريد أن يؤمن فبإمكانه أن يؤمن ، ومن يريد أن يكفر فبإمكانه أن يكفر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [3] . أي بما أن ٱلله الجامع جل جلاله جامع للشيئين في المخلوق الواحد إذاً طبيعة التخيير مغروسة في المخلوق في أحسن تقويم ، ولهـٰذا كل شيء ممكن فلا تستغرب أن يضل البعض ويهتدي البعض الآخر ، ولهـٰذا الحساب يسجل ويؤجل إلىٰ يوم إنزال العقاب جنة أو نار .

اسم الجامع من أسماء الصفات ، الجامع لكل كمال ، المنزه عن كل

(1) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ، ص 144 .
(2) البقرة ، 272 .
(3) القصص ، 56 .

نقص ، وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ؛ فجَمَعَ صفات العظمة والجلال والكبرياء ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، الجامع لكل صفات البقاء ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، وهي التي لا يستحق غيره أن يتصف بها إلا علىٰ سبيل الإضافة إلىٰ ٱلله عز وجل ؛ لأنه سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة ، والأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ، وهو يثني بنفسه علىٰ نفسه ، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه ، وهو الجامع ؛ لأنه القوي المتفرد بما يستحق غيره أن يبقىٰ تحت طوية يمينه ، فهو القوي الذي يستطيع أن يجمع كل المخلوقات في قبضته يوم يريد لها ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (3) ، وهو الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة علىٰ النفع والضر ، فٱلله جل جلاله هو الجامع الذي جمع المُتماثِلات بتأليفه بين المُتضادّات في الوجود ، وجَمَعَ الشيءَ بعد تَفْرِقة فيَجْمَعُه جَمْعاً من هنا وهنا ، فيصير من الشيء القليل الشيء الكثير ، ومن الشيء الصغير الشيء الكبير ، ومن مظاهر ذلك :

1 ـ جمعه للماء حتىٰ يصير سيلاً ، فيلتقي من كل مكان ويجمعه من كل موضع في الموضع الذي يريده ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(1) الحشر ، 22ـ24 .

(2) الحديد ، 3 .

(3) الزمر ، 66 ـ 67 .

قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ (1) ، كذلك الخليفة عليه أن يكون نافعاً حتىٰ يمكث ذكره في الناس كما يمكث الماء النافع المبارك أثره في الأرض ولا يكون الخليفة نافعاً إلا بإحقاق الحق فإذا الباطل زاهق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴾ (2) ، والماء كما يريده ٱلله جل جلاله ، فيجعل فيه البركة حيث يشاء ، ومصداقاً لذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ (3) ، ويجعله نقمة علىٰ من أشرك بٱلله وظن أنه العالي ، كما فعل بقوم لوط ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ (4) ، فعلىٰ الإنسان أن يحمد ٱلله جل في علاه علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ ، بما اصطفىٰ به خلفاءه بأن نجاهم من العذاب الدنيوي قبل الأخروي وبما كانوا جادين من فعل الحسنات فسلمهم من كثير من المهلكات ، أبدل لهم العذاب بأمطار نافعة

---

(1) الرعد ، 16 ـ 17 .
(2) الأنبياء ، 16ـ19 .
(3) ق ، 9ـ11 .
(4) النمل ، 56ـ58 .

يغرسون تحت بركتها الشجر والحدائق الغناء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [1] .

2 ـ **جمعه للقوم** : فيكونون من هنا وهنا ، قبائل وأفخاذ وجماعات وشعوب وأمم ، والذين أساسهم الفرد ؛ وذلك للتعاون والتعارف ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [3] ، فعلينا أن نحافظ علىٰ بني البشر بفعل الخير واجتناب الشر ، وألا نحاول العبث بنواميس الطبع والطبيعة ، والتي خلقها ٱلله جل في علاه بنظام لا نعلم من حقائقه إلا ما أراده ٱلله لنا أن نعلمه ، ولذلك يجب علينا ألا نعمل ما يعمله الملحدون والذين يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، فمثلاً عندما حاولوا أن يزرعوا الجنين في أنبوب وظنوا أنهم نجحوا حتىٰ إذا ما وصلوا إلىٰ نقطة الصفر وجدوا أنفسهم كأن لم يفعلوا شيئاً ؛ لأنهم دخلوا في ما هو علمه عند ٱلله فوجدوا أنفسهم لا يعلمون شيئاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [4] ، وهٰذه الصفة التي تجمع بين الجسد والروح لا يقدر عليها إلا من كان يحمل هٰذا الاسم فكيف يكون جامعاً وهو لا يملك قدرة علىٰ الجمع ، فقدرة الإنسان علىٰ الجمع إلا بقدر الإضافة التي حدد ٱلله قدرها

---

(1) النمل ، 59 ـ 60 .
(2) الحجرات ، 13 .
(3) الفرقان ، 54 .
(4) الإسراء ، 85 .

للإنسان فليكن الخليفة جمعه في الخير ووحدة الصف ، وجعلهم كالبنيان المرصوص ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٞ﴾ (1) ، ليكونوا قوة رادعة يُرهبون عدو ٱلله وعدوهم امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ (2) . فعمل الخليفة يتمثل في قدرته علىٰ جمعه للناس علىٰ الأمر الجامِع بما يفعله من الخير وهو الأمر الذي يَجمع خلفاءه علىٰ أرضه ، وفي التنزيل قال تعالىٰ جل في علاه : ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ (3) .

3 ـ **جمعه للنقيضين في الشيء الواحد** : الإنسان واحد يعد ويجمع ، ومن مكوناته الشخصية الحب والكراهية ولكل منهما مكانة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، فعندما يكون خليفة يحب فعل الخير قولاً وعملاً ، ويكره الشر قولاً وعملاً وكلاهما موجب ، وفي مقابل ذلك من لم يكن خليفة قد يحب الخير لنفسه ويكره أن يكون الخير لغيره ، وفي هاتين الحالتين سلبية لا تليق بمكارم الخلاق .

في المخلوق الواحد يلتقي المرض مع الشفاء ، والطرب مع الغضب والظلم مع الحق ، والحقد والكره والبغض مع التواد والتراحم والمودة ، وكلها نقائض في واحد ، ومن يكون من المستخلفين يغالب بالموجبات أقوالها وأفعالها علىٰ السالبات أقوالها وأفعالها . ومن يكون

(1) الصف ، 4 .
(2) الأنفال ، 60 .
(3) النور ،62 .

غير ذلك قد يجتني مظالم ويرتكب مفاسد ويسفك دماً بغير حق ، وفي ذلك تشب نار الفتنة . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [(1)] .

4 ـ **جمعه للنقيضين المستقلين في المكان الواحد** : الإنسان مع الشيطان ، المؤمن مع الكافر ، المصلح مع المفسد ، الخروف مع الذئب ، القطط مع الفئران ، الليل مع النهار (الشروق مع الغروب) ، قال تعالىٰ : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [(2)] .

5 ـ **جمعه للكون** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ [(3)] ، هٰذه القدرة العظيمة التي عمر بها الكون ليست من قدرة مخلوق مهما كان حجمه أو قدرته ، كهٰذه السمٰوات التي لا ترون أعمدتها ، وكيف استطاع أن يسخر فيها الشمس والقمر وكلاهما بهٰذا الحجم ودونما إعياء أو تعب ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [(4)] ، وما جعل من تعاقب لليل والنهار وكلاهما يطلب صاحبه وهو جديد مع كل شروق وغروب ،

---

(1) النساء ، 1 .
(2) يس ، 36ـ40 .
(3) الرعد ، 2 .
(4) ق ، 15 .

وكلاهما تحت تدبيره وتصرفه ، فهل من مخلوق يستطيع أن يجمع بين كل هـٰذه الأشياء العملاقة الضخمة ؟ وكأن أمراً يسيراً يحدث في أمورنا المعتادة ، وكل ما نراه لم يستغرق عنده سوىٰ ستة أيام ، فالجامع هو الذي له القدرة والعلم والقوة والإرادة علىٰ فعل كل ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) ، وحظ الخليفة من هـٰذا الجمع العظيم الذي لم يكن ليعيش فيه لولا فضل ٱلله الجامع المانع إلا أن يجمع الحسنات بفعل الحسنات والبعد عن كل ما يغضب ٱلله تعالىٰ في علاه ، فليكن شاكراً لأنعم ٱلله علىٰ كل ما حباه من الخيرات وفي كل الأوقات ، وكيف يكون الإنسان شاكراً ! وذلك بالعمل بما يرضي ربه والتوجه له بالدعاء جهراً وخفية لأن يوفق مستخلفيه إلىٰ العمل الصالح ، وعمل الصالحات وكل ما يعمر به الأرض والبعد عن الفساد والدمار امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) .

6 ـ **جمعه البَيْداء** : فجعل فيها الشجر ومختلف النبات والجبال ، وأمدها لمسافات شاسعة يعجز الإنسان عن قطعها بدون مساعدة ، وجعل فيها الجبال الراسيات المختلفة الأشكال والألوان ، وخصها بنوع معين من النبات وميزه بالقدرة علىٰ تحمل الحرارة العالية ، وندرة الأمطار ، وفي المقابل شقها في بعض الجهات بالأنهار ؛ رحمة بالناس ، سواء في ذلك

(1) الأعراف ، 54 .
(2) الأعراف ، 55 ـ 56 .

المؤمن والكافر ؛ لأن ذلك لا يزيد ولا ينقص من خزائنه شيئاً جل في علاه ، وجعل فيها الواحات وبحارًا من الرمال ، كل ذلك جمعه الجامع جل جلاله في بيئة واحدة نسميها الصحراء ، أو البيداء لأنها تبيد كل من لا يحسن الدخول إليها ، ليريه ربه أن الاستعداد جزء من حسن التوكل علىٰ ٱلله ، فٱلله جل جلاله يأمرنا بحسن التوكل عليه ؛ وليعلمنا أننا أضعف من أن نتحداه في خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (2) .

7 ـ **جمعه البحرين** : ومَجْمَعُ البحرين مُلْتَقاهما ، أي العذب والمالح الأجاج ، فٱلله جل جلاله جعل بينهما حاجزاً لا يصل أحدهما إلىٰ الآخر ، وقد حاول العلماء قياس قوة هـٰذا الحاجز فوجدوه مانعاً قوياً لا يمكن لأي قوة أن تخترقه ، وهم لا يعلمون أنه سبق فيه قول البارئ عز وجل : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (3) ، فسبحانه من جامع قوي جمع بعدل بين البحرين ودونما ظلم أو بغي لأيهما علىٰ الآخر ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ

---

(1) الرعد ، 3 ـ 4 .

(2) فاطر ، 27 ـ 28 .

(3) الفرقان ، 53 .

حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] ، والخليفة الذي يرىٰ هـٰذا الجمع بين النقيضين وما جعله بينهما من الحواجز التي لا نراها إلا بما نحسه من الفارق بين طعمهما ، ليعلم في أن الطرف المقابل أن ٱلله جل جلاله لا يوجد بينه وبين من يدعوه حاجز ، حيث قال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ، وهو الذي يسمع المضطر إذا دعاه ، وذلك عندما تعلو من حوله الأمواج فيجد نفسه ضعيفاً لا يقوىٰ علىٰ ردها من غير تدخل إلـٰهي ، وبذلك يخرج متيقناً بأن ٱلله هو الذي جمع القوة والإرادة والقدرة والعلم ، فيعبده بحق بعدما رأىٰ رأي العين ما كان فيه من الموت المحقق ، إلىٰ ما صار إليه من النجاة ، فيكون صادقاً حريصاً علىٰ مرضاة ربه في البر والبحر ، وفي السر والعلن ، وبذلك يكون مستحقاً للخلافة الحقة في أرضه وصولاً إلىٰ جنته في أخراه ؛ وتنفيذاً لقوله تعالىٰ في علاه : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [2] .

وفي الناحية المقابلة نجد الذين ينكرون نعمة ربهم بعدما يخرجهم من محنتهم التي كانوا فيها ، فقد قال تعالىٰ في حقهم : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ

---

(1) النمل ، 61 ـ 62 .

(2) لقمان ، 31ـ33 .

﴿ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [1] . وإذا ما غصنا في البحر لنرىٰ من العجائب والغرائب في الجمع بين مختلف الكائنات من حيث الحجم والأشكال ما يفوق كل تصور ، فنرىٰ الأودية والجبال والرمال والنبات المختلف في شكله وحركته وحجمه وكيف تسلك طريقها في الحياة بنظام بديع فلا تأكل إلا بقدر حاجتها وتنصرف تاركة حق غيرها ، دونما عبث بالطبيعة وما حوت ، وكيف تحافظ هـٰذه الكائنات علىٰ بقائها بطرق الحماية المختلفة ، فتختار المكان والوقت المناسب لتكاثرها من حيث الجو والحرارة والتيارات البحرية وأمواج السمك الضخمة والتي تعد بمئات الآلاف ، فسبحانه من قادر علىٰ جمع هـٰذه المتضادات لتعيش في بيئة متناسقة ومتآلفة ودون أن يؤثر أحد في وجود الآخر ؛ والحمد لله رب العالمين .

8 ـ **جمْعه بين الأزواج** : وإدامته بينهما ، بما غرسه وأَدامه ٱلله من أُلْفَة بين القلوب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] ، فالخليفة هو ذلك الذي يعمل علىٰ بناء البيوت الأسرية ولتعمر الأرض بأهلها وتزداد في بهائها بما تنجبه من أهل الخلافة الحقة والذين أسسوا من أول يوم وجدوا فيه علىٰ البر وتقوىٰ ٱلله جل جلاله ليكونوا خلفاء ٱلله في أرضه بما يقدمونه من الأعمال الصالحة ، ولتحقيق ذلك يجب أن يكونوا علىٰ الأسس التالية :

أ ـ **تقوىٰ ٱلله** : فالبيت الذي يريد ٱلله له الخلافة لابد وأن ينشأ علىٰ الخوف من الجليل الجامع الذي يجمع الناس ليوم تشخص فيه الأبصار والقلوب لدىٰ الحناجر كاظمين الغيظ ، فالجامع الذي يجمع كل عمل عمله من

---

(1) الأنعام ، 63 ـ 64 .
(2) الروم ، 21 .

خير أو شر ، فٱلله جل جلاله هو لا يغفل عما يعمله الظالمون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (1) .

ب ـ **عمل الصالحات** : هو العمل الذي يبقىٰ لصاحبه ، كثر أو قل فكل شيء مسجل في مكانه إلىٰ يوم لقائه سبحانه ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (2) ، وتنقسم الصالحات إلىٰ :

ـ ما هو فرض لازم ، كما هو الحال في الصلوات الخمس والزكاة وصيام رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

ـ وما هو سنة مؤكدة أو مندوبة والتي تتمثل في سنن قبل وبعد الصلوات الخمس ، وصيام النوافل والصدقات .

وفي كل الأحوال الأجر ثابت عنده بإذنه ويضاعفه كيف يشاء ، وأما ذكر الكتاب فإنه لا يعني أنه ينسىٰ وإنما المراد به أنه تعالىٰ أحفظ مما تحفظونه عندكم في الكراريس والسجلات والدفاتر المختلفة الأشكال والأنواع تبعاً لمادتها جودة وضعفاً فالجامع ليس بحاجة لأن يعمل كل ذلك ، فالكون عنده لا يساوي قيمة بعوضة علاوة علىٰ أن يشتغل به ، ولو كان الكون عنده يساوي جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافراً شربة ماء ، تعالىٰ ٱلله عن ذلك علواً كبيراً .

ج ـ **حفظ الأمانة** : فٱلله جل جلاله أمر أن نؤدي الأمانة إلىٰ أهلها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (3) .

---

(1) إبراهيم ، 42 .
(2) طه ، 52 .
(3) النساء ، 58 .

د ـ **بالعدل بين الناس** : وذلك في أمور منها :

ـ **الحكم** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (1) .

ـ **الميزان** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (2) .

ـ **القضاء** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (3) .

ـ **المنازعات** : قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (4) .

ـ **في مكاتبة الديون** : قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

(1) الحجرات ، 9 .
(2) الرحمـٰن ، 7ـ9 .
(3) النساء ، 58 .
(4) النساء ، 59 .

جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

ـ **صون الأعراض** : والذي يكون بالبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن تبعاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

هـ ـ البعد عن النميمة والغيبة ورمي المحصنات الغافلات بما ليس فيهن : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (3) .

9 ـ **جمعه الجمعة** : جعل ٱلله يوم الجُمعة ليَجتمع فيها القوم ولا يتفرّقوا خوف الضلال ونحوه ؛ لأنها هي التي تَجْمَعُهم ، فأَمر المؤمنين إذا كانوا مع نبيه ﷺ في جماعة فيما يحتاج فيه نحو الحرب وشبهها مما يحتاج إلىٰ الجمْع فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (4) .

١٠ ـ **جَمعهُ للكلام من حروف** : حتىٰ أعطىٰ معنىً ، وجاء منه جوامع

---

(1) البقرة ، 282 .
(2) الأعراف ، 33 .
(3) النور ، 23ـ25 .
(4) الجمعة ، 9 ـ 10 .

الكلم ، وهو من قول النبي ﷺ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ »[1] ، يعني به القرآن وما جمع ٱلله عز وجل بلطفه من المعاني الجَمَّة في الأَلفاظ القليلة كقوله عز وجل : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2] ، والخليفة من صفته أَن يتكلم بجَوامِعِ الكَلِم أي أَن يجمع كثير المعاني في قليل الأَلفاظ كما هو الحال في الدعاء فهو الذي يجْمع الأَغْراض الصالحةَ والمَقاصِدَ الصحيحة بحسن الثناء علىٰ ٱلله تعالىٰ وآداب مسأَلته تعالىٰ .

11 ـ **جمعه الخلائق ليوم الحِساب** ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[3] ، الجامع جل في علاه قادر علىٰ جمعهم كما خلقهم أول مرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[4] ، وفي صفة السرعة المذهلة التي تجمع ملايين الملايين من الإنس والجن ، وكافة المخلوقات مهما كان حجمها ، قال تعالىٰ : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[6] ، وفي ذلك اليوم لا تخفىٰ منكم خافية ، بل يحاسب كل إنسان

---

(1) مسند أحمد ، ج 15 ، ص137 .
(2) الأعراف ، 199 .
(3) هود ، 103 .
(4) الأنعام ، 94 .
(5) المعارج ، 42ـ44 .
(6) القمر ، 4ـ8 .

بما قدم من عمل صالحا كان أو غيره ، ذكراً أو أنثىٰ ، ومن أي أمة كان إنسًا أو جنًا ، مؤمناً كان أو كافراً ، قال تعالىٰ : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (1) ، بل يحاسب علىٰ كل كبيرة وصغيرة ، قال تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ (2) ، ويجد كل ما عمله حاضراً ومجموعاً في صحيفة ، حتىٰ إن الإنسان ليستغرب الدقة المتناهية في جمعه الجامع تعالىٰ في علاه لكل ما عمل ، فيسأل كيف هـٰذا الكتاب استطاع أن يجمع كل هـٰذه الدقائق وعلىٰ طوال العمر طال العمر أم قصر ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (3) ، وقال تعالىٰ في صفة حساب المؤمن والكافر : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ (4) ، وبالنسبة لحساب المؤمن الوارد في الآيات السابقة فيراد به يوم العرض فٱلله جل جلاله أكرم من أن يعذب عباده الصالحين ، ولـٰكن من شدة يوم الحساب ترىٰ الناس قد أخذتهم العلامات العظيمة التي يظهرها لمخلوقاته وما يرون من القوة والقدرة الربانية التي لم تكن في حسبان خلقه يذهلون من هول ما يرون ودون أن يصل إليهم العذاب الذي وعد به رب العزة الكافرين ، فذلك اليوم يقول في صفته جل

---

(1) الحاقة ، 18 .
(2) الأنبياء ، 47 .
(3) الكهف ، 47ـ49 .
(4) الانشقاق ، 7ـ15 .

جلاله وما يحدث فيه من الإرباك والاضطراب لكافة المخلوقات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٕٖ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٖ شَأْنٞ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوْمَئِذٖ مُّسْفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسْتَبْشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (2) ، وعن ذكر الأعمال والحساب لم يجدوا رب العزة ظالماً بل يجدونه رحيماً بعباده روؤفاً بهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ .

وعوداً علىٰ بدء فيما يتعلق بذكر العرض والجنة والنار يلوح سؤال في الأفق : هل المؤمن يعرض علىٰ جهنم ؟ ! وإذا كان كذلك فكيف يكون ذلك ؟ وبادئ ذي بدء نعرج علىٰ ما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وخاصة فيما يتعلق بهـٰذه المسألة ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، فقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ قوله الحق ، ولهـٰذا كل ما قاله هو حق لا باطل فيه ، وإحقاق الحق إصدار حكم ، وحكمه بالقدرة والقوة وامتلاكه للأمر المنفذ للحكم (كن) ، وامتلاء جهنم يدل علىٰ شيئين اثنين :

---

(1) الحج ، 1 ـ 2 .
(2) عبس ، 33ـ42 .
(3) السجدة ، 11ـ14 .

الشيء الأول : اتساع جهنم ، فهي ذات سعة تستوعب كل من خلق من الجنة والناس ، ولهٰذا فهي لا تضيق بأحد .

الشيء الثاني : القدرة والإرادة الألوهية ، فهو بإمكانه أن يدخل الجميع جهنم ، وهٰذا الأمر ممكن حيث كل شيء تحت أمره ولا وجود للمستحيل .

قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ (1) . فقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ فوربك ، قسم برب محمد عليه الصلاة والسلام أي القسم بالذات الألوهية ، وعندما يكون القسم برب محمد عليه الصلاة والسلام ، فإن الأمر يدل علىٰ مكانة محمد الرفيعة صلوات ٱلله وسلامه عليه عند ربه عز وجل ، والحشر في قوله ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ جمع بين الشياطين والذين أغووهم من الإنس ، وهٰؤلاء جميعاً هم في جهنم ، ولهٰذا لا محل للاستثناء في ذلك ، أي لا علاقة في هٰذا القول بالذين آمنوا بربهم ولم يشركوا شيئاً .

وقال الآلوسي في تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) : « وأما تفسير ما سأله الكفرة من الرجوع إلىٰ الدنيا أو بالهداية إلىٰ الجنة فليس بشيء لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلىٰ دار الجزاء ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ أي ثبت وتحقق قولي وسبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

---

(1) مريم ، 66ـ74 .
(2) تفسير الآلوسي ، ج 16 ، ص 74 .

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وهو المعنىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ كما يلوح به تقديم الجِنَّة علىٰ الناس فإنه في الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك ؛ لأنه الأوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة ، وقيل : التقديم في الموضعين ؛ لأن الجهنميين من الجِنَّة أكثر . ويعلم وجه العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا ﴾ إلىٰ ضمير الوحدة في قوله جل وعلا : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ؛ وذلك لأن ما ذكر إشارة إلىٰ ما وقع في الرد علىٰ اللعين وقد وقع فيه القول والإملاء مسندين إلىٰ ضمير الوحدة ليكون الكلام علىٰ طرز قوله تعالىٰ : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ ﴾ في توحيد الضمير ، وقد يقال : ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ ﴾ والناس أو يقال : إنه وحد الضمير في الوعيد لما أن المعني به المشركون فكأنه أخرج الكلام علىٰ وجه لا يتوهم فهي متوهم نوعاً من أنواع الشركة أصلاً أو أخرج علىٰ وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد إلىٰ ما ارتكبوه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك ، أو يقال : وحد الضمير في ﴿ لَأَمْلَأَنَّ ﴾ ؛ لأن الإملاء لا تعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك في ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي ﴾ والإيتاء يتعدد بتعدد المؤتىٰ فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره في ﴿شِئْنَا ﴾ فتدبر ، ولا يلزم من قوله تعالىٰ : ﴿أَجْمَعِينَ ﴾ دخول جميع الجن والإنس فيها ، وأما قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فالورود فيه غير الدخول ؛ لأن قوله : ﴿أَجْمَعِينَ ﴾ تفيد عموم الأنواع لا الأفراد فالمعنىٰ لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً كملأت الكيس من الدراهم والدنانير جميعاً كذا قيل ، ورد بأنه لو قصد ما ذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقال كليهما ، واستظهر أنها لعموم الأفراد والتعريف في ﴿ ٱلْجِنَّةِ ﴾ للعهد والمراد عصاتها ، ويؤيده الآية المتضمنة خطاب إبليس ، وحاصل الآية لو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتيناها إياه لـكن تحقق القول مني لأملأن جهنم . . . إلخ الآية ،

فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدىٰ علىٰ العموم بل منعناه من اتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلىٰ الغي بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدىٰ واخترتم الضلال لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البررة »[1] ، وهم الخلفاء في أرضه الذين لم يبدلوا إيمانهم بظلم بل كانوا كما أراد ٱلله لهم من الهداية واتباع طريقها ، أولئك الذين جمعوا الحسنيين في الدارين ، فكيف لا يكونون خلفاء جامعين ، وهم علىٰ علم باتباع طريق الرشاد فكانوا مخلصين لله تعالىٰ في الدارين ، فصح عليهم القول أن يكونوا الجامعين بالإضافة إلىٰ خالقهم .

12 ـ **جمعه الجيش المتفرق فيكون به خميساً** : بعد أن كان مجرد أفراد قلة في العدد والحجم كما هو الحال في أسراب الجراد والنمل والنحل والزنابير ، فهٰذه المجاميع الضخمة إذا نظرت إليها وهي في حال الإفراد لوجدتها مجرد جرادة أو نملة أو نحلة ، ولٰكن بقدرة الجامع جل جلاله يتكون منها الجيوش الجرارة القادرة علىٰ إحداث الكوارث في المحاصيل الزراعية ، ويجعلها الجامع جل جلاله رسلاً وعقاباً لمن ظن أنه قادر علىٰ أن يبرز في الأرض بغير الحق ، وخير مثال ما حدث مع فرعون وجنده ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[2] ، والجيش في العادة يتكون من خمسة أقسام : ميمنة وميسرة ومقدمة ووسط

(1) تفسير الآلوسي ، ج 16 ، ص 74 .
(2) الأعراف ، 131ـ135 .

ومؤخرة ؛ ولذلك سمي خميساً ، وعلىٰ الخليفة الجامع أن يعد جيشه ويجمعه جمعاً ؛ استعداداً لكل مواجهة ونصرة لدين ٱلله في كل مكان من أراضي المسلمين ؛ لأنه محاسب أمام ٱلله علىٰ كل تقصير في حق هـٰذه النصرة سواء علىٰ الصعيد الشخصي أم علىٰ مستوىٰ الجماعة والأمة ، واتباعاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (1) ، وإعداد الجيش يلزمه المال الذي يجمعه الخلفاء من الطرق الصحيحة والسليمة ؛ ولأنه الجامع بالإضافة فلابد له من تدبير في طرق ووسائل الجمع ليعد الجيش الذي هدفه نصرة الإسلام والمسلمين وإظهار الحق بالحق دونما إزهاق لأرواح الأبرياء ، ويكون إعداد الجيش لغرض قهر الشعوب الاستيلاء علىٰ خيراتها ونهب ثرواتها ؛ لأن ٱلله عادل في ملكه ويحب العدل في كل الأمور .

13 ـ **جَمعه الأحياء ليتكون المجتمع** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) ، لقد خلق ٱلله الجامع جل جلاله بني الإنسان علىٰ المفرد (فرادىٰ) الجنس واحد ولكل خصوصية ، ثم جعل آياته في جمعهم كُثراً ، وهـٰذا هو الأساس لتكوين الأسرة وهي نواة المجتمع فكان أساس الناس سيدنا آدم ثم من بعده ذرية نوح ، فإذا هم قبائل وجماعات وشعوب جعلها ٱلله جل جلاله لتعمر الأرض بالخير والنماء ولا عداوة ولا بغضاء إخواناً متقابلين ، يعمرون الأرض بكل خير وبر ، لذلك علىٰ

(1) الأنفال ، 60 ـ 61 .
(2) النحل ، 72 .

الخليفة أن يعمل علىٰ بناء المدن والقرىٰ التي تساعد زيادة العدد ليبني جنسهم ، الذي أساسه الاستخلاف في الأرض لأجل إعمارها وإصلاحها دون إفساد أو سفك دماء بغير حق .

14 ـ **جمعه الرِّمال** : والتي كانت أساس الصخور العملاقة التي بنيت عليها السلاسل الجبلية ، من ثم جاء العكس فبعوامل الطبيعة من سيول ورياح واختلاف في درجات الحرارة وما نتج عنه من تشقق في الصخور بفعل عامل التمدد والانكماش من ثم تفتت تلك الصخور إلىٰ حبيبات صغيرة نقلتها مياه الأمطار فتكونت بها بطون أودية ومن ثم نقلتها الرياح إلىٰ حيث يشاء ٱلله فتجتمع لتكون الكثبان التي نراها منتشرة في أرجاء الصحراء ، ومن ينظر إلىٰ هـٰذه الكثبان وكيف تجمعت وكيف تتحول من مكان إلىٰ مكان وبأحجام مختلفة وربما لمسافات بعيدة لما وراء البحار فكثيراً ما نرىٰ الكثبان التي هي منظر مألوف في السواحل الجنوبية للبحر المتوسط قد تحولت إلىٰ السواحل الشمالية منه ، وهل يظن أحد أن هـٰذه التنقلات الدقيقة الهائلة ليست بعلم ٱلله جل في علاه ، نعم ، كل ذلك بعلمه وبأمره فهو الذي يعطي أوامره في أي وقت يريد فتنقل بالواسطة التي يريدها ٱلله لها ، فهو الجامع لما يشاء وكيف يشاء وفي أي وقت شاء ، وكل ذلك بعلمه مهما كان حجم تلك الذرة في البر أو البحر ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) ، ولأن رب العزة عالم بكل

(1) سبأ ، 1ـ4 .

صغيرة وكبيرة فكيف لا يعمل الخليفة علىٰ ما يرضيه باتباع ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر ، ولعلمنا أن ٱلله جل جلاله سوف يجمع لنا كل كبيرة وصغيرة فعلينا أن نتقيه في السر والعلن ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [1] .

15 ـ **جَمعه الثياب وإلباسها** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] . واللباس نوعان :

ـ **لباس ظاهر** : ليُبْرَز الإنسان به إلىٰ الناس وعادة يتكون من :

ـ الإزار .

ـ والرِّداء .

ـ والعمامة .

ـ والمِلْحَفة .

ـ والخِمار .

ـ والسرابيل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

---

(1) البقرة ، 281 .

(2) الأعراف ، 26 ـ 27 .

(3) النحل ، 81 .

ـ لباس الحرب ، ومنه :
ـ الدرع .
ـ الخوذة .
ـ الترس .
ـ **لباس باطني** : ويتمثل في لباس التقوىٰ ، قال تعالىٰ : (وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) ، والذي يعتبر الأهم بالنسبة للخليفة ، فالتقوىٰ أزين ما يلبسه ، وإذا فقده فإن تعويضه ليس سهلاً أو ربما لا يجده مرة ثانية ، ولذلك علىٰ الخليفة أن يحتاط لكل شيء يمس هـٰذا اللباس الثمين الذي لا يساويه ثمن وتكون المحافظة عليه من وجوه :
ـ أن يعمل كل ما يرضي ٱلله .
ـ أن يراعي شعور الناس ولا يحاول خدشهم .
ـ الابتعاد عن النميمة ، والغيبة ، وكل ما يمس أعراض الناس .
ـ أن يصلح ويفلح في الأرض ولا يفسد فيها .
ـ أن يقول الحق .
ـ أن يفعل الحق في كل زمان ومكان .
ـ أن يحكم بالعدل إذا بين الناس حكم .
ـ أن يتطهر في نفسه وماله .

16 ـ **جمعه الإِثْم في الخَمر** : أَي مَجْمَعهُ ومِظَنَّته فاتَّقوا هـٰذه الأَهواء التي جِماعُها الضلالةُ ومِيعادُها النار ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) ، ٱلله جل جلاله ذكر الإنفاق بعد ذكر الخمر ، ليبين أن الصرف الصحيح لا يكون في

(1) البقرة ، 219 .

الخمر و ما شابهها من الموبقات المهلكات بل يجب الصرف في حيثما أمر والابتعاد عن ما نهىٰ عنه من المحرمات ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

17 ـ **جمعه الدين والشريعة الحقة** : الجامع جل جلاله جمع الشريعة بما لها من أحكام أصولية والفروع بين مفصل ومجمل ، وعبر رسل وأنبياء ليتوارثوا الملة القويمة و الشرع المستقيم نسلاً بعد نسل حتىٰ محمد الخاتم الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه ، والكتب جامعة بين الظاهر والباطن ، وجعل جل جلاله القرآن الكريم خاتماً لها ، وهو العلم الإجمالي الجامع لهداية الناس إلىٰ عبادة ٱلله وحده وأتىٰ به تنبيهاً للمأمورين وتشريفاً لهم ، فالقرآن جاء جامعا في عناوينه ، وجامعاً لتفاصيل العلم ، وهو الجامع للتكاليف ؛ ولذلك أمر سبحانه باتباعه ونهىٰ عن اتباع غيره ، فيا أيها الخلفاء المؤمنون عليكم بهٰذا الكتاب الجامع لصفات الكمال الهادي إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ مقام الرحمة ، استمعوه وعليكم بما جاء به فلا تتأخروا وعليكم بالعمل بما جاء به أمراً ونهياً ، ليحصل المطلوب ، ولعلكم ترحمون .

18 ـ **جمعه بين اللطف والقهر** : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [3] . فالجامع جل جلاله مع لطفه ما ظهر لنا منه وما لم يظهر

(1) الأعراف ، 32 ـ 33 .
(2) الأنعام ، 61 .
(3) الملك ، 13 ـ 14 .

فهو قاهر لكل جبار متكبر ، فالمتكبر مع تكبره وتعنته يوجد له رزقه وعمره الذي أراده له حتىٰ إذا جاءت ساعة القهر فإنه لا يفلت من قبضته ، بل يأخذه من حيث يظن في نفسه أنه قادر علىٰ فعل الذي يريد ، فٱلله من لطفه وقوة قهره لا يعذب أحداً حتىٰ يرسل الرسل حيث فعل ذلك مع فرعون ، وقوم نوح ، وغيرهم ممن طغوا وكانوا بآيات ٱلله يجحدون ، فلطف بهم علىٰ كل جانب حتىٰ إذا كذبوا جاءهم النصر الإلـٰهي فإذا القاهر ينتصر بقهره للجبابرة ، ويذلهم ليلطف بآخرين قد ظنوا بٱلله الظنون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

19 ـ **جمعه للنطفة** : أَي أَن النُّطفة إذا وقَعت في الرحم فأَراد ٱلله أَن يخلق منها بشراً يجَمْعُها ، والمراد بالجَمْع مُكْث النطفة بالرحم أَربعين يوماً حتىٰ تتهيَّأَ للخلق والتصوير ثم يكون الخلق بعد الأَربعين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ (2) ، وبهـٰذه الصورة العجيبة يتم جمع الجامع للجنين في بطن أمه وفقاً للمراحل الآتية :

(1) يوسف ، 109 ـ 111 .
(2) المؤمنون ، 12ـ17 .

المرحلة الأولىٰ : التقاء الختانين ، الذي ينتج عنه التقاء الحيوان المنوي فيلتقي مع البويضة ويتم الاتحاد ومن ثم الالتحام ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .

المرتبة الأولىٰ : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ والسلالة الخلاصة ، وهي أصل تكوين النوع البشري ، الذي به يتميز عن بقية المخلوقات حتىٰ يتصف بالإنسان .

المرتبة الثانية : قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ومعنىٰ جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع في قرارٍ مكين ، والقرار المكين هو رحم المرأة الذي تستقر فيه النطفة بكل أمان وسلامة ، وذلك لمناسبته للنمو السليم مع الحفاظ التام في ظل الرعاية الربانية .

المرتبة الثالثة : العلقة ، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ ، أي حولنا النطفة عن صفاتها إلىٰ صفات العلقة وهي الدم الجامد ، وهي التي بدورها تنزل لتلتصق بجدار الرحم لتكون العلقة ، هـٰذه العملية المعقدة التي لا تتم بالصدفة بل لابد من خالق يرعاها ، وفي ظلمات ثلاث : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (1) .

المرتبة الرابعة : قال تعالىٰ : ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ ، ولـٰكن كل شيء تحت القوة والإرادة الألوهية الخالقة ، والمضغة هي المعجونة أو التي تم سبكها

---

(1) الزمر ، 6 .

وخلطها بغيرها دون ظهور فواصل بين الممضوغة (المضغة) .

المرتبة الخامسة : وهي التحول من اللحم إلىٰ العظام ، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ ، والعظام تماسك كلسي ذو قوة تفوق قوة تماسك النطفة والمضغة والعلقة ، وهو الذي به يتم بناء الهيكل الذي يجعل المخلوق في صفة القوام والاستواء في مخالفة مع المخلوقات التي تمشي مكبة علىٰ وجوهها .

المرتبة السادسة : وهي تغطية العظام باللحم ، ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ ، بناء ملامح الشكل الظاهر الذي به يتميز خلق الإنسان عن بقية ما خلق جل جلاله ، واكتساء العظام لحماً لأجل اكتمال المخلوق في أحسن صورة .

المرتبة السابعة : قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ، خلقاً مختلفاً عما سبقه في جميع المراحل السابقة فيكون الاتضاح والاكتمال الخلقي للنوع البشري متميزاً ذكراً كان أم أنثىٰ .

وعندما يكون جاهزاً يضفىٰ عليه اسمه بقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . فقد أعجبه جمعه للإنسان بما أضافه إليه من نعمة العقل والنطق ، فجعله مباركاً ليكون خليفته في الأرض ، وليخرج إلىٰ الأرض ليصلح ويعمرها بما هو نافع ومفيد في هـٰذا الكون ، ويمد في عمر من شاء منهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [1] .

وليكون جاهزاً للحياة الأبدية بقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

20 ـ **جمعُه للرأي** : فيجعله شديداً إذا أراد النصرة لصاحبه ، وجعل ذلك الرأي في يد ورأس إنسان واحد ، وجَمعه أَمْره وعزمه عليه . وأَجْمَعَ أَمرَه

---

(1) النحل ، 70 .

وجعلَه جَميعاً بعدَما كان متفرقاً ، وجمع الرأي فيه إتمام الحجة ، وتوليف المتنـاقضـات والمتمـاثـلات والمتشـابهـات والمتنـوعـات والمتعـددات والمتباينات .

21 ـ **جمعُه الثمَرة في النبات** : فهٰذه الحبة ، أو الغصن يغرس في الأرض علىٰ يد الخليفة الذي يريد أن يحصد ثمارها كما يريد أن يحصد أجرها ، فيضعها في الأرض ويبادر بسقايتها ، حتىٰ تخرج فتَجَمَّعُ وتتكون الأغصان التي تحمل علىٰ رؤوسه براعمه ، ومن ثم يأتي موسم الأزهار فتزين الأرض بما أراده ٱلله لها من ذلك الجمال والبهاء ، فتلتقي حبوب اللقاح بمياسيمها ، وتبدأ مرحلة الثمار في الظهور من جديد ، وكل ذلك بفضله تعالىٰ بما أنزله من الماء المبارك ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] .

22 ـ **جمعه الأيام** : فيكون الأسبوع ومنه الشهر ليكون السنة ومن ثم القرن والدهر والعصور ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

23 ـ **جمعه بين الأبوين والجنين** : فهو يجمع بين الناقة وفَصِيلها ليرضَعَها ، وبين الطائر وفراخه ليطعمها ، وبين الشجرة وثمارها فيصعد له الماء في أعلىٰ قمتها ، وكل ذلك تحت كلمة الحنان الذي غرسه ٱلله في أجوافها ،

---

(1) النحل ، 10 ـ 11 .

(2) التوبة ، 36 .

فهو بهـٰذه الغريزة جعل الكائن يحمي جنينه ، ويلطف به ، ويحافظ عليه ، لينمو ويزدهر ومن ثم يحافظ علىٰ نوعه وبقائه كما أراده ٱلله له ، كيف يكون ذلك لولا قدرة الجامع علىٰ خلق هـٰذه الغريزة الجامعة لكل كائن مع نوعه فتجد الطائر يدافع عن أفراخه ، ويجعل لها عشاً علىٰ الأرض أو في الشجر أو علىٰ رؤوس الجبال ، ويتحد علىٰ إطعامهم الأبوين حتىٰ إذا ما كبرا علمه الطيران ويشق طريقه في الحياة علىٰ نهج أبويه . وإذا ما نظرنا إلىٰ النحلة كيف تسعىٰ دائبة طول النهار لأجل أن تجمع الرحيق لتغذي الملكة والتي بدورها تضع البيض ، والذي يفقس أنواعاً من النحل تبعاً لغذائه الذي يتغذىٰ منه ، فيخرج منه الشغالة والملكة ، وليكون خلية أخرىٰ من جديد ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1] . وكل ذلك فيه المنافع الظاهرة والباطنة للإنسان ، فيأكل من ثمار الأشجار كما يأكل من لحم الطير والدواب ، ويشرب منها الحليب بين فرث ودم ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [2] .

24 ـ **جمْعه الدّراهم** : فيكون منه الدينار مع الدينار ، ومنه تتكون الأموال الطائلة ، وهي التي جعلها الجامع جل جلاله زينة الحياة الدنيا ، وتكون الأموال ربحاً في الدنيا والآخرة لمن عمل بها الصالحات تصدق وتزكىٰ وأصلح وعمَّر ، وتكون غير ذلك لمن لم يحسن التصرف فيها فبغىٰ وعتا ، كما فعل قارون ، وذلك هو الخسران المبين ، قال تعالىٰ في حقه : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ

(1) النحل ، 68 ـ 69 .
(2) النحل ، 66 ـ 67 .

أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] ، وبذلك علىٰ الخليفة أن يجمع المال ابتغاء مرضاته في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [2] ، وٱلله جل جلاله جعل المال نعمة ونقمة ، فعلىٰ الخليفة الجامع أن ينفقها في سبيل ٱلله ونصرة دينه في البر والبحر ، لتجتمع القلوب علىٰ المحبة والمودة والطاعة لله تعالىٰ ، وقبل ذلك عليه أن يجمعها من الرزق الحلال فلا يكذب ولا يسرق ولا يغش ولا يحتال ولا يتبع أي طريق غير مشروع ، ولا يقترب من أي شبهة أو شك ، بل دائماً علىٰ يقين وصحة ، وليعلم أن الباقيات الصالحات وأن البر ، وهي كلمة جامعة لكل معاني الخير ، لا يأتي إلا بحسن الإنفاق وفي وجوهه التي أمر الجامع بالتصدق بها عليهم ، وهٰذا البر الذي جعل أوله الإيمان بٱلله أتىٰ بعده بذكر نفقة المال في الوجه الصحيح ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [3] . وعليه نستنبط من هٰذه الآيات الكريمة ملامح الإيمان والبر والإنفاق في وجهه وهي ذات علاقة بأفعال الخير الحسان ومنها :

أ ـ **الإيمان بٱلله تعالىٰ** : لأن الكافر مهما أنفق فإن ٱلله تعالىٰ لن يقبل منه ؛ لأن

---

(1) القصص ، 76 ـ 77 .

(2) الكهف ، 46 ـ 47 .

(3) البقرة ، 177 .

عمله حبط قبل أن يقبل منه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (1) ، ولذلك أمر ٱلله تعالىٰ أن يعبد في الأرض والسماء بالحق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (2) .

ب ـ **الإيمان باليوم الآخر** : ونظراً لما للإيمان باليوم الآخر من أهمية للإنسان في عقيدته وتوجيه سلوكه نحو الاتجاه الصحيح جعل ٱلله ذكره بعد الإيمان به تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) ، في هـٰذه الآيات الكريمة يقسم جل جلاله أنه سيجمعهم وأنه قادر علىٰ جمعهم بسهولة ؛ لأنه هو الجامع لما أراد وقتما أراد ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الذي يسجد له من في السمـٰوات والأرض طوعاً وكرهاً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (4) .

ج ـ **الإيمان بوجود الملائكة** : قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

(1) الزمر ، 65 ـ 66 .
(2) النساء ، 136 .
(3) التغابن ، 7ـ9 .
(4) آل عمران ، 83 .

رُسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] ، والملائكة منهم :

ـ **الحفظة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [2] ، لحافظين لأعمال العباد كبيرها وصغيرها ، وكذلك وهم الذين كلفوا بحفظ الإنسان من الشياطين والمردة الذين أخذوا العهد علىٰ أنفسهم أن يضلوا عباد ٱلله قدر ما استطاعوا ، وقد جاء ذلك جلياً واضحاً في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [3] ، ورد عليه ٱلله جل جلاله علىٰ قوله وعهده ، قال تعالىٰ في علاه : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [4] ، ومن توكل علىٰ ٱلله فليس للشيطان عليه سبيل ، فٱلله هو الذي بيده القوة والرد والحماية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [5] .

ـ **الكتبة** : وهم الذين يكتبون الأعمال الصالحة وغيرها فهما موجودان عن يمين الإنسان وشماله وهما يكتبان حسناته فور وقوعها ، أو ورود النية

---

(1) البقرة ، 285 .
(2) الانفطار ، 10 ـ 12 .
(3) الأعراف ، 14ـ18 .
(4) الإسراء ، 62 ـ 65 .
(5) الأنعام ، 61 .

بقصد عملها أو الأمر بها ، وتكون مضاعفة لما يشاء ٱلله ذلك ، ولمن يشاء من عباده ، ويترددان في كتابة السيئة ، ولا يكتبانها إلا بعد التأكد من وقوعها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (2) .

ـ **وجبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : وهو الذي ينزل بالوحي من السماء إلىٰ الأرض علىٰ رسله ، ووُصِف بالقوة والأمانة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ (3) ، هٰذا الملك الكريم جاء في وصف هيئته وقوته ما لا تتوقعه العقول والقلوب ، وهٰذا الملك عندما نزل بالقرآن علىٰ رسولنا الكريم أبغضته اليهود طمعاً في نزول الرسالة عليهم فرد ٱلله عليهم قولهم وفضحهم في أقوالهم وتصرفاتهم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) .

ـ **وميكائيل** : وهو أحد الملوك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (5) .

ـ **ملك الموت** : وهو الذي ورد اسمه بملك الموت ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (6) .

---

(1) ق ، 16ـ18 .

(2) الزخرف ، 80 .

(3) الشعراء ، 192 ـ193 .

(4) البقرة ، 97 .

(5) البقرة ، 98 .

(6) السجدة ، 11 .

ـ **ملوك النفخات** ، وهي :

الأولىٰ : **نفخة الفزع** : والتي قال تعالىٰ في وصفها : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ (1) ، وما ينتج عن هـٰذه النفخة من هول ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴾ (2) ، ويستثنىٰ من ذلك الفزع الشهداء الذين هم في فضل من ٱلله ورحمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (3) .

الثانية : **نفخة الصعق** : (صعقة الموت) قال تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ (4) .

الثالثة : **نفخة البعث** : للقيام ، قال تعالىٰ : (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

ـ **حملة العرش** : وهم الذين يحملون العرش الإلـٰهي ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ (5) .

ـ وخزنة الجنة ، وهم الذين جعلهم ٱلله جل جلاله علىٰ أبواب الجنة ، ليستقبلوا المؤمنين عندما يدخلون الجنة التي وعدهم رب العزة بها ، ويستقبلونهم بالتحية والسلام ، وبكل كلام طيب يطيب به الخاطر ؛ جزاء

---

(1) ص ، 15 .
(2) الحاقة ، 13ـ16 .
(3) النمل ، 87 .
(4) الزمر ، 68ـ70 .
(5) الحاقة ، 17 .

أعمالهم الصالحة الصادقة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

ـ **وخزنة النار** : قال تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (2) .

وكلهم يسبحون بحمده لا يفترون ليل نهار كذا وصفهم القرآن الكريم في محكم آياته ، قال تعالىٰ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) .

د ـ **الإيمان بالكتاب** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَانَ

---

(1) الزمر ، 73 ـ 74 .
(2) الزمر ، 71 ـ 72 .
(3) الشورىٰ ، 5 .
(4) الحديد ، 26 ـ 29 .

ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1) .

هـ ـ **الإيمان بالرسل والأنبياء** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ (2) .

و ـ **التصدق بالمال عن طيب خاطر وحسن نية** : قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، ويكون الصرف في الوجوه التي أمر ٱلله تعالىٰ بها :

ـ **ذوي القربىٰ** : قال تعالىٰ : ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (4) .

ـ **اليتامىٰ** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ

(1) البقرة ، 213 .
(2) النساء ، 69ـ71 .
(3) البقرة ، 215 .
(4) النحل ، 90 .

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (1) .

ـ **المساكين** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) .

ـ **ابن السبيل** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) .

ـ **السائلون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ .

ـ **الغارمون** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ز ـ **الوفاء بالعهد** : ومن الأمور التي حافظ عليها العرب في جاهليتهم هو الوفاء بالعهد ، والتاريخ يشهد لهم بذلك وكان لهم من الصدامات الدامية مع جيرانهم الفرس في ذلك الوقت في ذي قار ، والذي كان سببه الوفاء الذي لم يرجع فيه العربي قيد أنملة ولو كان علىٰ حساب حياته ، وجاء الإسلام وأكد علىٰ هـٰذه الخصلة النبيلة الحميدة ، ومدح بها خلفاءه في أرضه أمرهم بأن يتحلوا بها وأن يتبعوا نهجها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (4) ،

---

(1) النساء ، 36 .

(2) النور ، 22 .

(3) التوبة ، 60 .

(4) البقرة ، 177 .

وقال تعالىٰ : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (1) .

ح ـ **الصبر في كل الأوقات** : والصبر علىٰ الفرح كما هو الصبر علىٰ الضراء ، أما ترىٰ أن ٱلله نهىٰ عن الفرح في غير موضعه أو في حال زيادته والإسراف فيه خوفاً من أن يجر صاحبه إلىٰ الغرور وغيره ، وذلك ما حدث مع قارون عندما تجاوز الفرح عنده إلىٰ مرحلة الكفر والاغترار ، قال تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ (2) ، وكذلك عندما رفض سيدنا سليمان الهدية فقد جاء في القرآن الكريم ما جاء علىٰ لسانه عليه الصلاة والسلام : قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ (3) ، كل ذلك بعداً عن ما هو سبب في العجب بالنفس ، وعلىٰ الحالات فالمؤمن هو الذي في حقه قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ . قال تعالىٰ : ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ (4) .

ط ـ **إقامة الصلاة** : بين فرض وسنة ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (5) .

---

(1) النحل ، 91 .
(2) القصص ، 76 .
(3) النمل ، 36 .
(4) البقرة ، 214 .
(5) هود ، 114 .

الصلاة عبادة بالإمكان أن يمارسها الإنسان وحده دون إلحاق ضرر بالآخرين من تأديتها ، ويفضل أن تقام جماعية . وفيها يتساوىٰ المصلون في صفوف واحدة دون تمايز بينهم ، لا فقير محروم ولا غني مفضل في صفوفها المجتمعة ، الكل متساوون أمام ٱلله ولا فرق بينهم إلا بالأعمال ، وتؤخذ العبرة منها بهدم قواعد التمايز الاجتماعي بين البشر ، فلا تركع الناس إلا لله تعالىٰ ، ولا تسجد إلا له ، مما يجعلنا نَسخَرُ من الذين يركعون ويسجدون لغير ٱلله خوفاً وطمعاً ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [1] .

هٰذه الآية تحرض علىٰ استعمال الوعي في الحياة الدنيا حتىٰ لا يقع الأفراد والمجتمعات في الرذائل التي تنحرف بهم إلىٰ الركوع والسجود لغير ٱلله عز وجل ، فهي الشك في كل ما يخيف الإنسان من دون ٱلله ، فلا وجود لخائف ومخيف في الصلاة ، مما يجعلنا نتمرد ونرفض أي مصدر خوف عندما نحب ٱلله ونخافه ، وتجعلنا ندعو إلىٰ قيام سيادة الجميع التي يتساوىٰ فيها البشر دون انتقاص من أحد لحساب أحد آخر . ففي الصلاة مواقيت ، أي فيها تنظيم المواعيد وتحديدها من أجل العمل الذي يكون فيه الضبط الذاتي رقيباً وسلطاناً ، وفيها احترام الذات والآخرين ، ومنها تؤخذ القدوة الحسنة .

في الصلاة لا رئيس للمصلين بل لهم إمام يصلي بهم دون إكراه أو خوف منه ، وليس له سلطة عليهم سوىٰ الضبط الذاتي التلقائي . ولا تؤدىٰ الصلاة بمقابل مادي ، وليس للإمام رأي علىٰ المصلين . لا طاعة له إذا خرج عن الكتاب والسنة ، الكتاب من حيث التزامه بقراءة القرآن عند قيام الصلاة ، والسنة من حيث التزامه بعدد الركعات . ففي الأولىٰ إذا أخطأ عن عمدٍ أو عن

---

(1) العنكبوت ، 46 .

غير عمد يجب علىٰ الجميع متابعته وتصويبه إلىٰ الحق ، ويمنع اتباعه في الخطأ ، ولا يجيز له غير ذلك حتىٰ يتم التصويب إلىٰ الذكر الحكيم . وفي الثانية إذا أخطأ في عدد الركعات بالزيادة أو النقصان فلا يتبع من قبل المصلين بل يجب تذكيره إلىٰ الحق وإلىٰ أن يصوَّب لتتم الصلاة دون تفريط .

وعليه لماذا لا تكون هـٰذه عبرة للمسلمين في تنظيم شؤون أمرهم ليكونوا هم الرؤساء الأفاضل في دولهم دون أن يتولىٰ أمرهم من يكرههم علىٰ غير مرضاة ٱلله ؟

يلتقي المسلمون في جماعات وتجمعات خمس مرات في المساجد في اليوم الواحد ، لممارسة شعائرهم في الصلاة التي هي عبادة ٱلله وعامل وحدة بين المستخلفين في الأرض ، وهي أحد أشكال التنظيم الذي يظهر الضبط والنظام أثناء تأديتها دون تدخل من أحد ، وبدون قوانين وضعية وأجهزة تشرف علىٰ تنفيذها ، وبدون مقابل مادي يعطىٰ كأجرة للمصلين . وبالرغم من أن الصلاة تؤدّىٰ علىٰ المستوىٰ الفردي ، فإنها محببة ومفضلة في تأديتها علىٰ المستوىٰ الجمعي الذي يحقق للمستخلفين فيها من خلال التقائهم في اليوم الواحد خمس مرات الاستئناس والأمان وهم في لحمة الوحدة والقوة الاجتماعية متفقدين بعضهم بعضاً وهم متآزرون علىٰ القول الحق والفعل الحق ، ويتم هـٰذا علىٰ مستوىٰ القرية أو المحلة ، أو الجزء الجغرافي المحيط بدائرة كل مسجد .

تنص الشريعة علىٰ صلاة الجمعة التي هي مرة واحدة في الأسبوع من أجل أن يلتقي أبناء القرية أو القرىٰ المجاورة في المسجد . وعند اللقاء لتأدية العبادة تحدث الوحدة في أداء الصلاة والوحدة في المشاعر والأفراح لمن منهم كانت له مناسبة فرح ، أو ستكون له ليلتقي في مشاركته فرحته أو التخفيف عنه إذا أصابته كارثة ، وبالتالي ، تزداد الوحدة والألفة والحاجة للجماعة ، إنها مراجعة أسبوعية لسكان القرية والمدينة الذين قد شغلتهم أعمالهم والظروف

المتعلقة بها عن اللقاء اليومي بينهم في كل صلاة .

وهناك مناسبتان مهمتان في السنة يجتمع المسلمون فيها في الجامع مفتوحاً أو بناء فسيحاً ، والعيدان هما : عيد الفطر ، وعيد الأضحىٰ . وعليه ، إذا كانت ظروف الحياة قد جعلت سكان المدينة أو القرىٰ المتجاورة لا يلتقون في اليوم خمس مرات ، أو حتىٰ مرة واحدة في الأسبوع (يوم الجمعة) ، فقد جعل ٱلله للمسلمين عيدين يلتقون فيهما جماعات في ألفة ومحبة ، وذلك من أجل تأكيد الوحدة وتقوية العلاقات الاجتماعية بينهم والاحتفال الجماعي بالمناسبات الدينية ذات الفضائل والمكارم في تاريخ الخليفة ، إنهما عيدان للتسامح والتآخي .

إن الهدف من صلاة الجماعة واللقاءات العامة هو : استمرار الصلة الروحية والاجتماعية ، وحتىٰ لا يظن المسلم في أخيه المسلم ظن الجاهلية ، وخاصة من تربطه علاقات بهم ظن إثم فجعل ٱلله بين المسلمين مواقيت (أعياد) يلتقون فيها وهم في خشية من ٱلله للتشاور والنقاش المباشر حتىٰ لا تكون بينهم غيبة عندما يتدخل الوسطاء في تناقل الحديث بينهم وقد يحرفونه عن مواضعه ، لهـٰذا كان للقاء معنىً وفق فرائض وسنن لا خلاف عليها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

ي ـ **الحج** : الحج شعيرة من شعائر الإسلام وهو من أيام إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وتعني كلمة الحَج بفتح الحاء كما يقول لسان العرب المحيط

(1) الحجرات ، 12 ـ 13 .

القصد والتوجه ، أو القدوم إلىٰ المكان الذي فيه غاية الزيارة فرضاً وسنة [1] . الحج فرض باعتباره مكمن الأسرار مما جعله واجباً من عند ٱلله ، وسنة من حيث أنه يتم وفق ما عمل الرسول ﷺ من خطوات القيام به كواجب علىٰ المستطاع .

الحِجُّ ، بكسرِ الحاء ، هو الزيارة والإتيان . ولهـٰذا كان الحِجُّ إلىٰ بيت ٱلله الحرام بمكة فرضاً علىٰ كل مسلم مستطيع . ولـٰكن إذا تساءل أحد : لماذا الحِجُّ يرتبط بزمانٍ ومكانٍ معينٍ ؟ الحِجُّ يرتبط بقداسة المكان والزمان المعين لسرٍ يتعلق بهما مما يجعل العرفان به واجباً . فهناك من يقول أنه من ذلك المكان كانت لحظة الانفجار العظيم التي امتدت منها الأرض . ونحن نفسر تحديد الزمان والمكان في أشهر معلومات وبمكة التي نزلت فيها خاتمة الرسائل السماوية نفسره بأنه الزمان والمكان اللذان امتدت فيهما الأرض والتي ستطوىٰ فيهما في النهاية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [2] ، ولهـٰذا هناك قداسة إلـٰهية لمكان وزمان بداية الخلق ، ولمكان وزمان طيهما ، وهو يوم النهاية .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ [3] . ويقـول ٱلله

---

(1) لسان العرب المحيط للعلامة أبن منظور ، ج 1 ، ص 570 ـ 571 .
(2) الأنبياء ، 103 ـ 104 .
(3) الحج ، 26 ـ 28 .

تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ (1) . بمعنىٰ أشهر معروفات ومحددات ، ويقال أنها شوال وذو القعدة وذو الحَجة . ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ (2) هناك من يقول أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر ، وهناك من يقول هو يوم عرفة ، الذي يقال أن الرسول قال عنه الحجُّ عرفة . والذي قال عنه ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (3) . هٰذه أماكن مقدسة ندب ٱلله عباده إليها لحكمة هو يعلمها ، فالمَشعَر الحرام كما يقول ابن منظور في لسان العرب المحيط هو مزدلفة وهو مَعلَمُ تعبد ندب ٱلله الناس للقيام عليه . ويقال من أسرار الوقوف بعرفة أن آدم لما هبط من الجنة لم يلتق مع حواء إلا في عرفات ويوم لقائهما هناك بعد ضياع أطلق عليه عرفات حيث لقيها في ذلك الموقع فعرفها وعرفته (4) ، ولذا سمِّي عرفات لأنه مكان التعارف بين آدم وحواء ، وفي هٰذه أسرار تقديس المكان الذي يقال أيضاً عنه أنه المكان الذي طاف منه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكان يُرِيه المشاهد العظام ليعرِّفه عليها حتىٰ قال إبراهيم عرفت عرفت . وسواء أكان هٰذا مكان تعرف أبينا آدم بأمنا حواء ، أو أنه المكان الذي التقىٰ فيه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بسيدنا إبراهيم ليعرِّفه علىٰ أماكن التوحيد المقدسة ، في كلتا الحالتين يكون مكمن السر الإلٰهي الذي يستوجب التوجه إلىٰ مكانه ولزيارته .

وعليه تؤخذ العبر من الحج الذي فيه يتساوىٰ كل المستخلفين في دعواتهم ولباسهم أثناء أدائهم فريضة الحج ، فلا يلحظ بين الحجيج خلال ارتدائهم ملابس الإحرام (الملابس الخاصة لفترة من فترات الحج) أنهم طبقات أو

---

(1) البقرة ، 196 .
(2) التوبة ، 3 .
(3) البقرة ، 196 .
(4) لسان العرب المحيط . أبن منظور ، المجلد الثاني ، ص 748 .

فقراء وأغنياء ، بل يلحظ بينهم وحدة الفكرة ووحدة السلوك وفقاً لوحدة العقيدة . قال تعالىٰ : ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [1] . إنه فرض علىٰ كل مستطيع بجهده أو بتسخير ماله في أداء الفريضة .

الحج يمارس جميعاً ، فيه الناس سواسية ، كلهم سادة ولا سيد عليهم ، لا رئيس يرأسهم ولا شرطة بينهم تتدخل في شؤونهم لتعلمهم كيف يمارسون العبادة ، العبادات في الإسلام جميعها إرادية ، ولا سلطان عليها إلا سلطان الجامع جل جلاله ، وليس لهم مدافع وكتائب مسلحة تنوب الدفاع عنهم ، ولا يتقاضون المرتبات مقابل أدائهم الفريضة ، ولا حزب لهم يتولىٰ تثقيفهم بثقافته ، جميعهم ينشدون ٱلله أكبر ولله الحمد الجامع علىٰ الحق جل جلاله .

في موسم الحج يلتقي ملايين المسلمين لأداء الفريضة وهم علىٰ درجة انضباط عالية وقدوة حسنة في التعاطف والتراحم والتعاون والتواد ، لأنهم يلتقون علىٰ الواحد الأحد . إن اللقاء علىٰ تعاليم واحدة منزهة تجعل المؤمنين بها في مسلك واحد نزيه . فالحج ملتقىٰ جمعي يتساوىٰ الناس فيه ، وهم ليسوا في حاجة لمن يتولىٰ أمورهم أو ينوب عنهم ، فالأمر أمرهم وهم المسؤولون عنه . إنه الوعي الكامل بوحدانية ٱلله تعالىٰ ، والرفض الكامل لكل الأشكال والأدوات التي تشرِّع بغير حكم ٱلله .

في الحج ترتقي الروح بالبدن لتطهره من دنس الرذيلة حتىٰ يتجلىٰ الإنسان بالحب الإلـٰهي فيسمو إلىٰ عالم المثل السرمدي ثائراً علىٰ نفسه ليعود بها بعد رحلته إلىٰ عالم الإيمان ، مستنهضاً بها إلىٰ الحياة الواعية ، متبيِّناً ما كان فيه وما يجب أن يكون عليه .

الحج خشوع لله وعودة بالنفس إلىٰ حياة الفطرة ، من خلال الإحرام الذي

---

(1) آل عمران ، 97 .

يرتقي بنا إلىٰ الشك في النفس ، وما ترتديه من ملابس وما تنطق به من كلمات وما تمتلكه من ماديات ، لتعود بنا إلىٰ حياة الفطرة بأن ٱلله لا ينظر إلىٰ ملابسنا وأموالنا ، ولـٰكنه ينظر إلىٰ أفعالنا . فالحج مثال للمسلمين يجتمعون ويتساوون فيه ، ليس بينهم من يلبس الحرير ومن يلبس الخيش ، وليس بينهم من يحس بالغبن والظلم ، بل كلهم يحسون بخشية ٱلله وعظمته التي جمعتهم علىٰ كلمة سواء وجعلت بينهم مودة وهم ملايين من البشر من مشارق الأرض ومغاربها جميعهم أخوة متحابون في ٱلله ، يرددون ٱلله أكبر ويرجمون بضمائرهم وأيديهم كل الخبائث التي تفرق بينهم ويلعنون مسببيها من الجنة والناس ، متحررون من الماديات التي تضعف نفوسهم أو تذلها والتي كانت سبباً في وهنهم وضعفهم ، إنهم في وحدة وتجمع وشعورهم القوة .

ك ـ الصوم : جمعه في العبادة بين النية والعمل : فالصيام من لم يجمع فيه الصِّيامَ من الليل بين النية والعمل فلا صِيام له ، فالإجْماعُ إحكامُ النيةِ والعَزيمةِ علىٰ أداء الفريضة تنفيذاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (1) .

الصوم فريضة علىٰ المسلم البالغ القادر ، وفيه يتساوىٰ المفروض عليهم في الامتناع عن جميع المفطرات من شرب وأكل وجنس نهاراً مع تهـذيب

---

(1) البقرة ، 183ـ185 .

الأخلاق ، وفيه مودة ومحبة بين الناس مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (1) .

الصوم ثورة علىٰ النفس لتفطن من غفلتها التي تلهيها عن عمل الخير ، فتكون الكلمة صدقة ويكون التصدق خيراً . في شهر رمضان يتوحد المسلمون في صيامهم وقيامهم ، ويلتفت بعضهم إلىٰ بعض ، بعد أن قضوا أحد عشر شهراً وهم محرومون من أهميته . ولهٰذا إذا كان الحج شكاً فيما نلبس ، فإن الصوم شك فيما نأكل ونشرب ، مما يجعل الصائم يتساءل : هل ما نأكله ونمتلكه ونشربه هو نتيجة حرمان الآخرين منه ، أم أنه من جهدنا وعرق جبيننا ؟ إنه الشك من أجل اليقين ، ومراجعة مسلكية لِمَا نحن عليه خلال سنة تقريباً في شهر رمضان لنُطهر أقوالنا وأفعالنا من كل شك ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (2) ، إنه منهج بناء الفرد الذي يقوم عليه بناء المجتمع متضمناً مساءلة بين الروح والجسد ، وقوة فاعلة تمكن الفرد من أن يكون أمة كاملة عندما يتوحد شعوره وحبه وآماله مع آمالها وحبها وشعورها . شهر رمضان هو الشهر الذي يجمع كل المسلمين علىٰ صيامه بالعبادة من مشارق الأرض ومغاربها ، إنه الشهر الذي تظهر فيه قوة التحمل والتعاطف والتراحم ، لأنه شهر مراجعة الظروف الاقتصادية للمسلمين القادرين وغير القادرين ، حتىٰ يوفر المحتاج وجبة له ، وحتىٰ يتذكر غير المحتاج أولئك المحتاجين فينفق عليهم من زاده دون منّة منه ، ودون إجبار من أحد . وهو نظام ذاتي لا يحتاج في تطبيقه إلىٰ أجهزة وموظفين وقوانين إلزامية ، إنه علاقة مباشرة مع ٱلله تعالىٰ في الحياة الدنيا . وهو تنظيم اجتماعي

(1) البقرة ، 186 .
(2) فصلت ، 45 .

يهدف إلىٰ إبراز السلوك الخيّر بين الناس ، وله مواقيت ونواميس أثناء الإفطار وأثناء الإمساك والصيام هي الأخرىٰ تهدف إلىٰ احترام الوقت ومراعاة أهميته بين الناس وفيما يعملون ، إنه الشهر الجامع للألفة والمحبة والجامع لأعمال الخير وأفعاله ، والجامع للحسنات بما تقدم أيدي المستخلفين فيها علىٰ كل خير .

ل ـ الزكاة : قال تعالىٰ : (وَآتَىٰ الزَّكَاةَ) ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) .

الزكاة تشبع الحاجة ، والكل في حاجة إليها ، (الغني والفقير) :

الغني : لأنه المالك للحلال ، ولأنه كذلك فهو في حاجة لتطهير ماله الحلال بها (بالزكاة) ، وهـٰذه قاعدة (المال الحلال يطهر) أي يزكىٰ ، وبتزكيته يتم إشباع الحاجات الروحية التي بها تطمئن الأنفس ، ثم يسود المال المزكىٰ السلامة من الشرور والمخاطر فيتبارك ، مما يجعل المزكي خليفة من المصلحين فيها ، وعليه الغني إن لم يزكِّ سيظل في حاجة ، وإن زكىٰ أصبح في حالة إشباع وعلىٰ حمدٍ لله ربه العالمين .

الفقير : هو صاحب الحق في المال الحلال البالغ للزكاة ، ولأن الزكاة حق في الحالتين :

ـ حالة الإخراج (تطهير المال الحلال) .

ـ حالة الأخذ ، (أخذ المال الحلال) أي أن الفقير له الحق في مال الغني وبالتالي عليه بأخذ حقه منه ، دون خشية ، ولأن إظهار الزكاة بدون منة ، لذا فأخذها حق دون ريبة . وعليه فالفقير الذي لم يأخذ الزكاة التي هي

(1) البقرة ، 110 .

حق له ، سيظل في حاجة ، وإن أخذها أصبح من المشبعين بالحلال .

الزكاة عبادة تكمن فيها رعاية المحتاجين ، وهي ضمان اجتماعي أمر به ٱلله تعالىٰ بأن يخرج الذين في أموالهم حقوق معلومة للمحتاجين من سائل ومحروم ، وتعطىٰ لهم عن طيب خاطر . وبناءً علىٰ هٰذه الرؤية التي تكّون عامل توحيد بين المستخلفين في الأرض ، تظهر أحاسيس الود والتراحم بينهم فلا يكون بينهم شقي ولا محروم .

والزكاة تعني « ما أخرجته من مالك لتطهره به » (1) ، وهي فرض علىٰ المسلم الذي يمتلك ثروة تزيد عن حاجاته ، وهي ركن من أركان الإسلام ، فإذا انهدَّ هٰذا الركن اختل التنظيم الاجتماعي ، وإخراجها ليس منة من أحد ، بل إنها الحق المعلوم للسائل والمحروم في الحصول علىٰ الحق من آخذيه مباشرة من خلال الاستعباد والاستغلال أو غير مباشر من خلال التوسع في التملك والاحتكار الذي لا يسمح للمحتاجين بالحصول علىٰ حاجاتهم ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (2) .

إن الغاية من فرض الزكاة هي تحقيق المساواة وإحقاق الحق بين الناس والقضاء علىٰ متغيرات العبودية وأسباب الفقر ، من أجل تأكيد قيمة الإنسان وحقه في التملك وفق الحاجة ليمارس الحرية مع الآخرين الذين يعيش معهم . ولهٰذا كان الغرض من الزكاة هو تحرير المحتاجين والعبيد من التبعية والاستغلال .

---

(1) لسان العرب المحيط . ج 2 ، ص 36 .

(2) البقرة ، 177 .

وعليه ، لقد عرفنا مما سبق بشكل عام الزكاة علىٰ من تجب ولمن تجب . ولٰكننا لم نعرف بعد ، هل المستهدف من ورائها هو إلغاء الطرفين أم طرف واحد ؟ في اعتقادنا لم يكن المستهدف إلغاء طرف واحد ، بل الهدف إلغاء الطرفين من خلال إعادة تنظيم المجتمع علىٰ قواعد المساواة التي توّلد مجتمعاً جديداً ، وذلك بأخذ الزائد عن الحاجة وإعطائه لمن هو محتاج ، فيتكون مجتمع لا محتاج فيه . إذاً يكون الاختيار بين ثلاثة مستويات لتنظيم المجتمع تكوِّن ثلاث طبقات في الدولة هي :

1 ـ **المستوىٰ الأول** : طبقة الأغنياء ، التي هي نتاج سوء توزيع الثروة بين أبناء الأمة ، وفي حالة تكوُّن هٰذه الطبقة بالضرورة تتكوَّن من بعدها طبقات أخرىٰ مترتبة عليها . وهٰذه الطبقة ينبغي أن تتغير إلىٰ الأحسن وهو مجتمع الإشباع الذي لا يترتب علىٰ وجوده طبقات ، وذلك بتحرر عقلية أفراده من استغلال بعضهم لبعض ، وتحرر عقلية الأغنياء من احتقار الآخرين أو التقليل من شأنهم .

2 ـ **المستوىٰ الثاني** : طبقة الفقراء ، والتي هي نتاج وجود الطبقة السابقة والمترتبة عليها . ولٰكن عندما يكون مجتمع الدولة بكامله في مستوىٰ الفقر يكون هٰذا المستوىٰ مستقلاً عن المستوىٰ السابق وغير مترتب عليه ، وفي مثل هٰذه الحالة ينبغي أن يتحول المجتمع بأكمله إلىٰ الإنتاج لينتقل من مستوىٰ الفقر إلىٰ مستوىٰ الإشباع الذي يحرره من التعرض إلىٰ الاستغلال والمستغلين وبه يتطور . وعندما يكون المجتمع متكوناً من أغنياء وفقراء ، يكون المجتمع في حالة عدم تساوٍ ، أي أن الفروق بين أفراده تمتد علىٰ مستقيم التباين ، وهٰذا الأمر في حاجة لإعادة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي ، فكانت الزكاة هي الحل الذي يقرب الهوة ويطوي مسافات التباين بين أبناء الأمة الواحدة في المجتمع الخليفة .

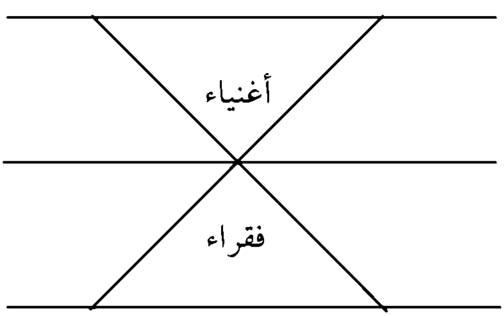
3 ـ **المستوىٰ الثالث** : طبقة إشباع الحاجة ، وهي الطبقة الفاصلة بين

الطبقتين السابقتين من خلال تدرج المستوىٰ الاقتصادي لأفراد المجتمع ، وفي هـٰذه الحالة يصبح المجتمع مكوَّناً من ثلاث طبقات متراتبة هي :

- طبقة الأغنياء علىٰ رأس الهرم .
- الطبقة المتوسطة التي هي في حالة الإشباع .
- طبقة الفقراء (المحتاجون) في أسفل الهرم الطبقي . ولـٰكن عندما يصل المجتمع بكامله إلىٰ مستوىٰ الإشباع ينتفي بالضرورة وجود مجتمع طبقي وتكون المساواة هي المبدأ العام لتنظيم المجتمع الفاضل .

وعليه كان المجتمع العربي في العصر الجاهلي ينتظم وفقاً لقاعدة الغني والفقير والسيد والعبد كما هو مبين في الشكل رقم (1) . وجاء الدين الإسلامي ليصحح قواعد تنظيم المجتمع علىٰ قاعدة المساواة فأوجب الزكاة وهي حق المحتاجين في الثروات الزائدة عن الحاجة .

الشكل رقم (1)



مثلث الزائد عن الحاجة

خط إشباع الحاجة

مثلث فقدان الحاجة

إن تنفيذ فريضة الزكاة بأخذ الثروات الزائدة عن الحاجة وإعطائها لمن في حاجة إليها ، هو من أجل إعادة تنظيم المجتمع علىٰ قاعدة يتساوىٰ فيها كل الناس . فأخذ المال الزائد عن إشباع الحاجة وإعطاؤه لمن هم في حاجة إليه ، يؤدي إلىٰ رفع المستوىٰ الاقتصادي والاجتماعي للمحتاجين بحيث يصيرون في مستوىٰ إشباع الحاجة ، ولذا يؤدي أخذ الزائد عن الحاجة عندما يعطىٰ إلىٰ المحتاجين إلي شيئين :

الشيء الأول : تطهير أموال الأغنياء ، وتثبيت حقهم الذي لا يحاققهم فيه أحد وذلك بوقوفهم علىٰ خط إشباع الحاجة الذي هو حقهم .

الشيء الثاني : رفع المستوىٰ الاقتصادي للمحتاجين بالزكاة وذلك بما يمكنهم من الوقوف علىٰ خط إشباع الحاجة .

والنتيجة من هـٰذين الشيئين هي : قيام مجتمع لا طبقي وذلك بعودة طبقة الأغنياء إلىٰ خط الإشباع ، وارتفاع طبقة الفقراء إلىٰ خط الإشباع مما يجعل الطبقتين تلتقيان في خط واحد مستقيم ويطوىٰ الشكل رقم (1)ويقوم المجتمع المتساوي في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات ، وحمْل المسؤوليات ، ويترك مجال الزيادة والنقصان بين الأفراد والجماعات والمجتمعات إلىٰ المجهود المبذول من أجل الإنتاج ، وبناء علىٰ ذلك ينتظم المجمع علىٰ خط واحد هو ، خط المساواة (خط إشباع الحاجة) كما في الشكل رقم (2) .

خط إشباع الحاجة ————————————————

(خط تنظيم المجتمع) شكل رقم (2)

وعليه ، لو كان العرب المسلمون وجميع المجتمعات المسلمة يخرجون الزكاة منذ بداية الدعوة إليها ويعطونها لمن هم في حاجة إليها ، لما وُجد اليوم فقير وغني في المجتمع العربي المسلم ، أو أي أمة من الأمم الإسلامية الأخرىٰ ، ولما كان هناك داع للحديث عن الزكاة إلا ذكرىٰ لمنفعة المستخلفين في الأرض . وحسب هـٰذه القاعدة فإن دفع الزكاة لا يستمر مع حياة الإنسان المسلم إذا أعاد الحاجات الزائدة عنه إلىٰ مستحقيها أولاً بأول ، وأصبح ينتج حسب حاجاته المتطورة ، أي يفترض أن دفع الزكاة في صورته المبدئية قد انتهىٰ منذ زمن . ولـٰكن نتيجة الممتنعين عن دفعها والمتحايلين عليها أوجد

الحاجة إلىٰ إخراجها والحاجة إلىٰ أخذها .

ولذا فالمجتمع المسلم الذي يخرج الزكاة ينبغي أن لا تكون هناك مبررات قيام الطبقية بل ينبغي أن يتأكد المجتمع الحر المتساوي في نظمه وتنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمكن أفراده من امتلاك سلطتهم وثروتهم وسلاحهم دون تمايز قانوني .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [1] . تؤكد هٰذه الآية أن الصدقات لمن هم في حاجة إليها . فالفقير هو الإنسان الذي يحتاج لما يبقيه حياً ، والمسكين هو الذي لا دخل له بل يعيش ليومه ، ويحس بآلام الحاجة عندما يلاحظ ظروف أسرته المحتاجة ولا يجد سبيلاً إلىٰ العمل علىٰ إشباعها خاصة عندما يكون جميع أفرادها قصَّراً . أما العاملون عليها فهم الذين تم اختيارهم أو تكليفهم لجمع الزكاة ، وبالتالي لا دخل لهم إلا منها ، والمؤلفة قلوبهم هم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة لدخولهم في الإسلام حديثاً ، وفي الرقاب ويقصد بها دفع الصدقات من أجل تحرير العبيد وفك رقابهم . والغارمون هم المدينون ، وفي سبيل ٱلله في الجهاد لإعلاء كلمة الحق (كلمة ٱلله) ، أما ابن السبيل فهو الذي ينتقل من بلد إلىٰ آخر بحثاً عن الأمن أو العلم وهو في حاجة للصدقة .

يتضح من الآيات السابقة أن الزكاة من أهم المصادر الضمانية لحياة المحتاجين إليها من المجتمع ، وهي أيضاً مسؤولية اجتماعية عامة . والمجتمع الإسلامي مجتمع تكافل إنساني لا ينبغي أن ينتظم علىٰ أساس طبقي (فقير وغني) فالفقر والغنىٰ علامة من علامات الجاهلية الغابرة . ولهٰذا فالزكاة نظام اقتصادي يهدف إلىٰ المساواة بين أبناء الأمة بإزالة مثلثي الفوارق

(1) التوبة ، 60 .

الاجتماعية من أجل الانتظام في خط مستقيم لا فوارق فيه بين الناس . والزكاة بهٰذه الحكمة الاقتصادية تتجاوز ما يطرحه النظام الرأسمالي من حلول ، والذي لم يتجاوز الأجرة ولا شيء يعطىٰ دون مقابل من الدولة في هٰذا المجال . والزكاة في المجتمع المسلم لم تدفع من قِبل الدولة ، بل تُدفع للناس من الناس أنفسهم ، ولهٰذا هي تكافل اجتماعي بينهم مؤسس علىٰ قاعدة الرزق الحلال ، وهي ليست أجرة مقابل مجهود كما هو الحال في مجتمعات الأجرة المستغلة ، ولهٰذا فإن تأدية الزكاة بالنسبة للمسلمين هي تأدية عبادة علىٰ كل من تجب عليه منهم ، وإعطاؤها يبرهن علىٰ المحبة والوفاء بين أبناء الأمة ، ويبرهن علىٰ الطاعة التامة لله رب العالمين جامع العباد علىٰ العبادة والمحبة ، ولهٰذا فهي حق بين الناس .

م ـ **الجهاد** : إنه عبادة من أجل الدفاع عن النفس والدين والأمة . وبما أنه عبادة ، فكل المستخلفين معنيون به ، فعندما يحين وقته يتم التنادي بينهم ويجتمعون كصف واحد في مواجهة الأعداء ، إنه ليس جيشاً مجبراً علىٰ القتال ، بل شعب واحد دون إجبار من أحد إلاّ من الضمير المؤمن بأهمية الجهاد في ممارسة العبادة . وإذا نظرنا اليوم إلىٰ خريطة العالم ، نلحظ أن الدين الإسلامي منتشر في آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، والأمريكتين ، وأستراليا ، فأي قوة نشرته إذاً ؟ هل دخل العرب المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلىٰ هٰذه القارات الخمس ؟ لقد انتشر الدين بإحقاق الحق وإزهاق الباطل أي بقوة العقيدة (قوة الحجة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوة العسكرية ، فكل ما ينتشر بالقوة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستدمار (الاستعمار) . والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توحد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس . أما الحرب فهي التي يدخلها المقاتل كرهاً لأنها تهديد للوجود وتدمير للحق ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعاً عن النفس البريئة .

الجهاد أمر يخص كل من يحرص علىٰ معتقده ومصيره مما جعل الرسول ﷺ يستشير المسلمين في أمرهم ، وكان يأخذ برأيهم حول كل أمر في السلم أو في الحرب . فعندما سمع الرسول ﷺ أن كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربة رسالته والمؤمنين بها قبل غزوة بدر جمع الناس وأخبرهم بالأمر ، فكان من بين المتكلمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو الذي قال : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون ، مما جعل المسلمين يقررون بأجمعهم قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم . وكان عدد المقاتلين الذين خرجوا مع الرسول في غزوة بدر حوالي ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً منهم مائتان وسبعة من الأنصار ، ومائة وستة من المهاجرين . وفي أثناء الاستعداد للمعركة تقدم المنذر بن الحباب يناقش الرسول لتغيير المكان الذي يوجد فيه المسلمون ، وعمل القوم برأيه وتم تغيير المكان . بعد انتهاء المعركة اجتمع المجاهدون للتشاور في الأمر المتعلق بالأنفال والأسرىٰ فتباينت الآراء حيث رأىٰ الرسول وأبو بكر وطائفة من المسلمين أخذ الفداء ، بينما رأىٰ آخرون وعلىٰ رأسهم عمر بن الخطاب رفض الفداء وهٰكذا تباينت الآراء حتىٰ نزل قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (1) . بعدها كان الرأي بالإجماع بعدم أخذ الفداء .

وفي معركة أخرىٰ حينما علم الرسول بقدوم كفرة قريش ومن معهم لقتال المسلمين ، جمعهم للتشاور في الأمر ، فكانت آراء الأغلبية منهم الخروج إليهم لملاقاتهم خارج المدينة ، وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك . أما الرأي الآخر فكان علىٰ رأسه رأي الرسول الذي أكد علىٰ البقاء في المدينة نتيجة حصانتها ، ولٰكن في النهاية

(1) محمد ، 4 .

اقتنع الجميع بمن فيهم الرسول صلوات ٱلله وسلامه عليه بالرأي الأول فخرج حوالي 1000 ألف مجاهد لمقاتلة المعتدين [1] .

لقد كانت الشورىٰ قاعدة التنظيم الاجتماعي العربي في فترة رسول ٱلله ﷺ حيث كان أكثر التزاماً بها حتىٰ ولو كان القرار المترتب عليها مخالفاً لرأيه . ففي غزوة الأحزاب طرح الرسول علىٰ المسلمين الأمر بينهم شورىٰ حتىٰ يقرر كل منهم بإرادته الخروج أو عدم الخروج لملاقاة الأعداء . وعندما خرج المجاهدون منهم للجهاد تشاوروا في أفضل الخطط القتالية ، طرح سلمان الفارسي فكرته الحربية التي تعلمها من الفرس وهي حفر خندق كبير شمال المدينة المنورة ، وأقرها الجميع مما جعل النصر حليفهم [2] .

إن أمر الحرب شورىٰ بين من يخصهم الأمر ، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد مما جعل الرسول لا يتجاوز التحريض علىٰ الجهاد بعد أن أُذن له وللمؤمنين بذلك ، ومن لا يرغب ذلك يكون مع الخوالف . ولهٰذا لم يكن للرسول جيوش نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده ، لأن الجيوش عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها ، وعندما تكتب عليهم الحرب يدخلونها متثاقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم ، وهم لا رأي لهم فيها مما يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش النظامية . ولهٰذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقاً لقوله تعالىٰ للرسول ﷺ في سورة النساء : ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ... ﴾ . إن المسلمين لم يخوضوا المعارك إلا في حالة إكراههم علىٰ ذل أو باطل ، ولهٰذا حاربوا الفرس لأن كسرىٰ أرسل إلىٰ عامله

(1) فرج محمد الهوني ، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية . طرابلس ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الثانية ، 1987م ، ص 36 .

(2) يعقوب محمد المليجي ، مبدأ الشورىٰ في الإسلام . الإسكندرية ـ مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص 93 .

في اليمن يأمره بتأديب الرسول أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه ، وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلىٰ تبوك [1] .

وعليه ، برغم الخسارة الحربية للعرب المسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد زبانية العصر الجاهلي (الكفار والمشركين) إلا أن الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكراراً لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها . والفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية ومن يقاتل من أجل حكومة . فالذي يقاتل من أجل قضية سماوية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين الناس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد مما يحقق للمقاتل النصر أو الاستشهاد ، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل ، مما يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقاً .

أسباب التجمع لإعلان الحرب :

من خلال العرض السابق تتضح أسباب الجمع لإعلان الحرب في الآتي :

1 ـ أي اعتداء من العدو علىٰ الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع علىٰ كل مواطن ومواطنة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [2] .

2 ـ الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد ، ﴿۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

(1) عباس محمود العقاد ، بحوث إسلامية . بيروت ـ المجلد الخامس ، دار الكتاب العربي ، 228 .
(2) البقرة ، 194 .

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [1] .

3 ـ نقض العهد : في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرىٰ ، ثم تنقض الأمم الأخرىٰ عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق ، يحق عليهم القول وهو إعلان الحرب مصداقاً لقول الجامع جل جلاله : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [2] .

4 ـ إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة ، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقاً لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] .

5 ـ **في حالة الردة** : إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [4] . وقد سبق وأن ارتدت عن الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العرب وهم بنو مُذجح وكان رئيسهم ذو الحمار الأسود العنسيّ الذي تنبأ في اليمن ، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربه أبو بكر رضي ٱلله عنه بجند المسلمين وهلك ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، تنبأ فبعث له

(1) النساء ، 74 ـ 75 .
(2) التوبة ، 12 .
(3) البقرة ، 193 .
(4) المائدة ، 54 .

رسول ٱلله ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ أن أسلم بعد هروبه إلىٰ الشام وحسن إسلامه [1] .

إن النقاط السابقة تعتبر أساسية في تنظيم المجتمع المسلم . ولأن الحرب أمر يخص كل فرد من أبناء الأمة فلا يجوز لأحد أن يقرره نيابة عنه ، وذلك لتحمل المسؤوليات الجسام المترتبة عليه ، وإذا لم يعرض أمر الحرب بين المعنيين به ، فستكون النتيجة الهزيمة في معظم الأحيان ، لأن قرار الحرب من الحاكم قد لا يكون نتيجة للأسباب السابقة ، بل قد يكون لأمر يخص الحكومة كامتصاص الغضب الداخلي أو الطموح التوسعي علىٰ حساب الآخرين ، أو نتيجة الزيادة الكبيرة في عدد السكان أو لأسباب اقتصادية أو لغرض الهيمنة العسكرية ، أو لأسباب طاغية لا مبرر لها . والخليفة الذي لا يمتلك الحرية فيما يتعلق بمصيره علىٰ المستوىٰ السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، لا يمكنه أن يكون مقاتلاً أو مدافعاً منتصراً عن تراب الوطن وذلك نتيجة الروح المعنوية المنهزمة علىٰ هـٰذه المستويات الثلاثة والتي بدورها تؤدي إلي الهزيمة في ميدان القتال . وهـٰذا ما نلمسه اليوم علىٰ جبهات القتال المنهزمة ، فالمقاتل الذي يمتلك حريته وهو علىٰ جبهة القتال يستطيع أن يقرر النصر أو الهزيمة ، يقرر النصر عندما يحس بأنه يقاتل من أجل دينه أو وطنه الذي يملؤه بالحب والأمان أو أنه يقاتل من أجل حريته التي يمتلكها قراراً وتنفيذاً ورقابة ، وذلك في كل ما يتعلق به من أمر يخصه ، وفي مقابل ذلك بإمكانه أن يقرر الهزيمة عندما يعرف أن النصر لا يعود عليه بل يعود علىٰ الحكومة التي تزيد من هيمنتها عليه وعلىٰ سيادة الأمة وتراب الوطن ، مما يجعله لا يقاتل بإرادة وقد يفضل الاستسلام أو يتآمر مع المتآمرين أو يهاجر مع المهاجرين حيث أرض ٱلله

(1) محمد أحمد كنعان ، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي . بيروت ـ دار العلم للملايين ، 1984م ، ص 148 .

واسعة . وإذا سأله أحد لماذا لا تقاتل من أجل العِرض الذي يهتكه الأعداء ؟ أو لماذا لا تقاتل من أجل الحرية التي تهدد ، أو عن تراب الوطن ؟ فقد يجيب إذا كان القتال من أجل العِرض فعلىٰ أن أقاتل الحكومة التي هتكت كل عِرض . وإذا كان القتال من أجل الحرية فعلىٰ أن أقاتل الحكومة التي كبلت كل الحريات ، وإذا كان القتال من أجل الوطن فيجب أن نحرره أولاً من قيود الحكومة التي حولت ترابه إلي سجون ، وهـٰكذا إذا كان القتال من أجل امتلاك مسكن أو مزرعة أو جزء من الثروة التي تخصه ، فعليه أن يقاتل المتحكمين في أمره . وعليه أصبح المواطن يطرح السؤال علىٰ المواطن ، لماذا لا تقاتل من أجل تحرير الأرض ؟ ويجيب : إنني لا أقاتل من أجل تحرير الأرض حتىٰ لا يتسع نفوذ الحكومة .

ن ـ **الجامع** : ملتقىٰ المستخلفين علىٰ الطاعة وممارسة العبادة في مواقيتها ، فالجامع يوحِّد علىٰ المحبة ولا يفرق بالمظالم ، إنه العنوان الدائم في حياة المستخلفين فيها ، وعلامة للاجتماع ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (1) .

في العصر الجاهلي كانت اللقاءات والاجتماعات تتم في أماكن للسهر والبيع والشراء وحفلات الزواج ، إلا أنه بعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين الذين معه من مكة إلىٰ المدينة ، ليحل بين مناصريه ، أراد بناء مكان يلتقي فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار أخوة ، ويعتبر هـٰذا المكان ملكاً للجميع حيث يباشرون فيه العبادة مع غيرها من ألوان المعاملات الحسنة بينهم . فأنشئ المسجد وسمي بيت ٱلله حيث يتعبدون ويتعلمون ويتقاضون ويزاولون مهمة البيع والشراء ، إلا أن ذلك أكثر الضجة حول المتعبدين ، فخصص مكان للتعليم ومكان لمزاولة مهمة البيع والشراء ، وخصص مكان للصلاة بعيداً عن

(1) الأعراف ، 31 .

الضجيج أطلق عليه اسم المسجد تمييزاً له عن اسم الجامع الذي يضم كل ما سبق ذكره في هـٰذا الخصوص .

وهناك أهداف من بناء الجامع منها :

الهدف الأول : التعبد الروحي ، وهـٰذه مهمة تتم في المسجد الذي هو جزء من الجامع حيث تقام الصلاة وتعلم الحكمة .

الهدف الثاني : التعبد الاجتماعي (وأمرهم شورىٰ بينهم) ، وهو تأكيد أهمية اللقاء والمناقشة في الأمر شورىٰ بين الناس ، وهو مركز إداري ينظم شؤون المجتمع من خلال الصلاة والتعلم والمشاورة في الأمر (أي أمر) سواء تعلق بشؤون الأسرة أو شؤون الفرد والجماعة ، أو شؤون الأمة بأسرها ، وعلىٰ المستوىٰ الداخلي أو الخارجي . إنه مركز اجتماعات الناس ومقر حكومتهم ، والحكومة هي : هم ، الذين يتنادون عندما يسمعون الأذان الذي يُعلن من خلاله حضورهم لمناقشة الأمر سلماً كان أم حرباً ، فحي علىٰ الصلاة تعني أمر سلم ، وحي علىٰ الجهاد تعني أمر حرب ، وبعد المشاورة في الجامع بين المجتمعين ، وهم كل من يتعلق الأمر به في السلم أو في الحرب ، بعدها يستطيعون أن يتخذوا القرار بوعي لأنه خضع للمشاورة الجادة بينهم . ولأنهم حكومة فهم المسئولون علىٰ تنفيذه ، فالحكومة هي التي تتخذ القرار ، وهي المنفذة له دون نيابة عن أحد ، ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [1] ، ولهـٰذا كانت الحكومة فترة الرسول ﷺ هي كل الناس وهو لم يكن حاكماً ، بل رسول ٱلله ونبي ٱلله المبشر والمنذر والمحرض علىٰ القول الحق والفعل الحق ، فلو كان رسول ٱلله صلوات ٱلله عليه وسلم حاكماً لكان هو مصدر القرار دون غيره ولكانت أدواته المساعدة هي العاملة علىٰ تنفيذه . وعليه لماذا لا نقتدي ؟ ولماذا تغييب الناس

(1) الجمعة ، 6 .

عن ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم بغير حق ؟

الهدف الثالث : المساواة بين أبناء الأمة في كل شيء اقتداء بالمساواة بينهم في صفوف متساوية لا فرق فيها بين الفقراء والأغنياء .

الهدف الرابع : لا رئيس لهم فيما يتعلق بأمرهم ، ولا يحق لأحد أن يمثل غيره في شيء .

الهدف الخامس : تعلم الأدب والنظام والطاعة لأولي الأمر في غير معصية ٱلله . وأولو الأمر هم الذين لا ينوبون عن موليهم في كل شيء ، بل فقط فيما خولهم فيه ، وإذا خرج عما أولي عليه فلا طاعة له في ذلك وفي هـٰذه الحالة ، مثل حالة الإمام أثناء إقامة الصلاة إذا خرج عن الفرض والسنة لسهو أو نسيان فلا طاعة له في خروجه عن المصدر (الكتاب والسنة) ، ولهـٰذا لا طاعة لولي بدون أمر من موليه يلتزم به ، وهـٰذه أمانة ، فإذا لم يلتزم بها كما وصاه أو كلفه وليه بها ، يكون من الخائنين لأماناتهم ، وبالتالي فلا طاعة له . ولهـٰذا لا طاعة بالمطلق إلا لله الجامع علىٰ الحق بالحق .

الهدف السادس : أن تكون الجوامع باعتبارها أماكن عامة ملتقيات ومثابات للكافة فيها يتم الاجتماع ومنها تصدر القرارات بين أبناء الأمة من أجل وحدتها وقوتها لا من أجل شتاتها وتدمير ممتلكاتها .

ولذلك كان المسجد مكاناً للترغيب وليس مكاناً للتزمت والتحزب ، لأنه المنارة التي تهدي كل ضال من بحار الجهالة إلىٰ بحر الأمان ، وهـٰذه جعلت للمسجد مكانة ودوراً بارزاً في تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ومدرسة يتعلم فيها المهتدون الحكمة .

في الختام ، لماذا أصبح الجامع مقراً للسكوت بعد أن كان مركزاً للتخطيط الأعلىٰ ترسم فيه السياسة الداخلية والخارجية والأمر شورىٰ بين الناس ؟ ولماذا أصبح مكاناً للعمل البوليسي السري والعلني بعد أن كان مثابة

للنـاس وأمنـا ؟ ولمـاذا لا تُقـرأ مـن علـىٰ المنـابـر إلا الخطـب المكتـوبـة أو المعتمدة ؟ ، ولماذا أصبحت الخطب تختتم بالدعاء بطول عمر الحاكم بعد أن كانت تختتم بتوحيد ٱلله تعالىٰ والصلاة والسلام علىٰ رسوله الأمين ؟ وهل هـٰذا يدل علىٰ التطور عن الجاهلية أم يدل علىٰ العودة إليها ؟

وعليه ، إن الرسول ﷺ لم يكن حاكماً ، ولم يستخلف أحداً من بعده ، ولم يعين نظاماً سلطوياً ، وفترته كانت فترة نزول الوحي ومسؤوليته التبليغ والتبشير به ، وتفسيره لمن يحتاج إلىٰ ذلك . إنه لم يبن دولة ، بل إنه أعاد تنظيم أمة علىٰ أساس الحرية والعدل والشورىٰ والمساواة بين الناس ، دون تمايز أو فوارق ، وحاول تطبيق ذلك بداية مع بني قومه والذين آمنوا به وبرسالته السماوية ، وكانت بدايته معهم من حيث هم ليحرضهم علىٰ الوصول إلىٰ ما يوحي إليه (تحقيق الحاضر والمستقبل الأفضل) ، ولهـٰذا استمر نزول الوحي 23 ثلاثاً وعشرين سنة حتىٰ يحفظ ويتقبل بنو قومه المبادئ والأهداف التي يتضمنها القرآن الكريم . إن الحكمة من نزوله علىٰ مدىٰ هـٰذه السنين يعني مراعاة الخالق قدرات واستعدادات المخلوق (الذي خلق في أحسن تقويم) والبدء معهم من حيث هم ، لأنهم عاشوا في مجتمع جاهلي مظلم . ولهـٰذا بدأ معهم من عقليتهم إلىٰ أن وصل بهم إلىٰ تدمير تلك العقلية بأنفسهم وهم راضون بعد استغفار من بعده توبة .

وعليه إذا تساءل أحد ما هو الفرق بين غاية الدين وغاية الحكومة ؟ تكون الإجابة أن الفرق واضح بين الدين والحكومة ، الدين غايته الناس ، أمَّا الحكومة فغايتها السلطة . وإذا تساءل آخر ما هو الحل ؟ فالحل إذا حكم الناس بشرعة ٱلله ، يكون الناس حكومة ، ولهـٰذا تتحقق غاية الدين عندما يكون الناس حكومة علىٰ الطاعة بين يدي الجامع جل جلاله .

وحظ الخليفة من الاسم الجامع ، أن يكون مصلحاً لا مفسداً في

الأرض ، موحداً بين العباد لا مفرقاً بينهم ، يلم بالكلم ، ويقوله أينما يجب قوله ، يعظ الناس بالحق وينهاهم عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وينهاهم عن المنكر ويجنبهم من الشرور التي بها تتقد نار الفتن .

وأن يكون عادلاً في قوله وفعله حتىٰ تجتمع الناس معه وعليه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وأن يكون مؤلفاً بين القلوب لا مفرقاً بينها ، موحداً بين ذوي العلاقات وطافئاً لنيران الفساد والضلال والخراب .

وأن يكون قدوة حسنة في تقدير الآخرين واحترامهم واعتبارهم لأنهم المخلوقون في أحسن تقويم ، ولـٰكن بأسباب المعلومات الخاطئة انحرف بعضهم وحاد عن الحق ، فبدوره العمل علىٰ إصلاح حال المنحرف وذلك بتصحيح المعلومات الخاطئة لديه لأجل إعادته إلىٰ قواعد السلامة والطمأنينة التي تجعله مندمجاً في مجتمعه علىٰ الحق والإصلاح .

اللهُمَّ باسمك الجامع اجمع شمل أمتنا علىٰ الحق وإحقاقه ، واجعلنا من العاملين المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء بغير حق ، اللهُمَّ باسمك الجامع اجمعنا علىٰ التقوىٰ واجعلنا علىٰ الهداية والصراط المستقيم ولا تجمعنا علىٰ الفتنة ولا تجعلنا من الضالين ، اللهُمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك .

اللهُمَّ يا الجامع للأقوال والأعمال اجمع أقوالنا مع أعمالنا علىٰ أفعال الخيرات !

اللهُمَّ يا الجامع للروح مع البدن مع النفس اجمعها فينا علىٰ الرحمة والمودة والمحبة ولا تجمعها فينا علىٰ الشقاء يا خالق الأرض والسمٰوات والعلا !

اللهُمَّ اجمعنا علىٰ الحق ولا تجمعنا علىٰ الباطل ، واجمعنا علىٰ الشهادة

بوحدانيتك وطاعتك وطاعة رسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ولا تجمعنا علىٰ الكفر والشرك بك !

اللهُمَّ يا الجامع اجمع بيننا وبين الصالحين من عبادك لنكون من خلفائك الذين يصلحون ويأخذون علىٰ يد المفسدين ، واجمع الخير في قلوبنا وأعمالنا ، واجمع بيننا وبين ما تحب ، وباعد بيننا وبين ما تكره كما باعدت بين المشرق والمغرب ، واجمع بيننا وبين من ساروا في طريق الهداية في الجنة ، وباعد بيننا وبين الكافرين والمنافقين الذين ستجمعهم النار الذين قلت فيهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [1] !

اللهُمَّ أبعدهم عنّا وأبعدنا عنهم في الدنيا وفي الآخرة .

اللهُمَّ إنك جمعت الماء في قلب السماء سحاباً وسقته حيث تشاء لمن تشاء فلا تحرمنا من غيثك النافع واجمعنا في الأرض أخوة متحابين حتىٰ ننال رضاك !

اللهُمَّ إنك جمعت في نفوسنا مشاعر الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذي القربىٰ فاجعلنا بحبلك معتصمين غير متفرقين !

اللهُمَّ إنك جعلت صلاة الجمعة صلاة جامعة فاجعلنا من الذين يدرؤون البيع ويسعون إلىٰ ذكرك واجعلنا من بعدها من الذين ينتشرون في الأرض إصلاحاً ولا تجعلنا من المفسدين !

اللهُمَّ إنك جمعت الأحرف في الكلمة فاجمعنا علىٰ الشهادة والطاعة ويسر لنا من أمرنا رشداً !

اللهُمَّ يا الجامع إنك جمعتنا يوم العيدين فلا تجعلنا من بعدهما مفتونين ،

---

(1) النساء ، 140 .

وجمعتنا علىٰ جبل عرفات نشهد لك بالوحدانية فاكتب لنا حَجَّة واجعلنا من بعدها معصومين من الوقوع في الخطيئة !

اللهُمَّ يا الجامع قد اجتمعنا في بيتك المحرم الذي جعلته للناس مثابة وَأَمْنًا واتخذنا من مقام إبراهيم مصلىٰ فاجعلنا آمنين مطمئنين وجمعتنا نسعىٰ بين الصفاء والمروة إظهاراً للحق فاجعلنا قوة مجتمعة علىٰ الحق !

✍ ✍ ✍

الغَنِيُّ جلّ جلاله

الحمد لله الذي جعل الغنىٰ غناه ، والفضل له دون ما سواه ، ولم يكن معبوداً بحق سواه ، والصلاة والسلام علىٰ من اتبع هداه ، ومن أراد اللحاق بسفينة النجاة ، وتبعه بحق ووالاه .

اسم الغني : « من أَسْماء ٱللّٰه تعالىٰ في علاه ، وهو الذي لا يَحْتاجُ إلىٰ أَحدٍ في شيءٍ ، وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إليه ، وهـٰذا هو الغِنىٰ المُطْلَق » [1] .

الغني : « الذي قد كمل في غناه » [2] .

الغنىٰ : « صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنىٰ مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما » [3] .

الْغَنِيُّ : « الَّذِي وَسِعَ غِنَاهُ مَفَاقِرَ عِبَادِهِ ، وَوَسِعَ رِزْقُهُ جَمِيعَ خَلْقِهِ » [4] .

الغنيُّ : مصدر الغنىٰ البدني والروحي والنفسي والعقلي ، وبهـٰذا فهو مصدر الغنىٰ الكمي والكيفي ، ولننظر كيف ؟

البدن غنىً مادي جمالي وهو مظهر من مظاهر الوجود في دائرة الممكن

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص135 .
(2) القائد إلىٰ العقائد ، ج 1 ، ص 158 .
(3) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 10 .
(4) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 115 .

المتوقع وغير المتوقع ، والروح غنىٰ البدن بالحياة المنبعثة فيه بالأمر الخارج عنه ، والنفس غنىٰ الروح بالبقاء المؤقت مع المظهر المادي للمخلوق في محيط البدن ، والعقل غنىٰ النفس بما يطمئنها ، حيث فقدانه مقلق ، أما الروح فأمرها بيد الغني المطلق جل جلاله .

وعليه سلامة البدن وطهارته غنىً يجعل كل عضوٍ شاهداً بالسلامة والطهارة في مرضاة الغني المطلق جل جلاله .

وانبعاث الروح في البدن غنىً من التلف والفساد ، لتسيره حركة وسكوناً فيما يشاء ٱلله أن يكون عليه ويكون به .

وغنىٰ النفس امتلاؤها بالطمأنينة ، التي بها تسكن علىٰ الحق ثباتاً لا حياد عنه دون ظن .

وغنىٰ العقل بإرشاده إلىٰ ما به تتم الهداية وبه يحق الحق ، أي نور يضاء به البدن والنفس .

ورأت اليهود أن معنىٰ الغنىٰ مقصورٌ ضدُّ الفَقْر ، قال تعالىٰ : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (1) ، وحدث ذلك عندما سمعوا قوله تعالىٰ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (2) .

الغني : هو الذي ليس في حاجة ، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة ، يهب ما يشاء لمن يشاء وهو لا يوهب إليه ، يرزق وهو في غير حاجة للرزق ، يملك وهو في غير حاجة للملك ، إنه ذو الرحمة والمغفرة والتوبة

---

(1) آل عمران ، 181 ـ 182 .
(2) البقرة ، 245 .

لكل عبد منيب ومستجيب له واحد أحد لا شريك له ، له ما في السمٰوات وما في الأرض وهو علىٰ كل شيء قدير ، وهو الذي يُفْتَقرُ إليه وهو الغني الحميد .

وهو الذي كمل في غناه عما سواه ، كما أن الحليم الذي كمل في حلمه . فٱلله جل جلاله غني في ذاته بذاته لعدم حاجته أو احتياجه لغيره ، ولغناه عن الحاجة في ذاتها ، فكيف يحتاج من ليس له طريق للحاجة بل هو الذي خلقها ، وليس ليحتاج إليها ، لقد خلقها لكي تسبحه كثيراً وتمجده كثيراً في علاه ، وتعلم رفعته ، وتظهر مجده الأبدي الأزلي الذي ليس للعوز طريق إليه بأي حال كان ، وللخليفة أن يستمد منه الغنىٰ ، فالخليفة هو الذي يبحث عن مشبعات حاجاته بما يرضي ربه تعالىٰ فعليه مما عليه بالآتي :

1 ـ **التقوىٰ** : وهي خير الزاد ، وذلك بالسير علىٰ الجادة التي لا يحيد عنها إلا هالك ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) . ولهٰذا فمن يتقِ ٱلله يجد له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سبحانه جل جلاله إنه الغني .

2 ـ **الإنفاق في وجوه الخير** : قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) .

---

(1) التغابن ، 16ـ18 .

(2) البقرة ، 1ـ5 .

واعلم أن غنىٰ الغني جل جلاله له صور :

أ ـ من حيث عدم الاحتياج :

لأن غناه في ذاته بذاته ، ومستغن عن الحاجة ، فهو لم يتصف بالعوز والافتقار ، فٱلله جل جلاله رفيع الدرجات ، جاء ذلك في قوله : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (1) ، فٱلله الغني جل جلاله ليس له علاقة بالحاجة إلا من حيث المشبعات فهو مالك الملك وهو المغني جل جلاله ، وهٰذه المشبعات تتطلب من الخليفة الآتي :

الخوف باتقائه تعالىٰ : حيث قال تعالىٰ : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ جل في علاه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (3) . ففي الآيات السابقة توضيح لشروط التقوىٰ منها الإسلام : فلا تقوىٰ بدون إسلام ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (4) .

---

(1) غافر ، 15 ـ 16 .
(2) البقرة ، 212 .
(3) آل عمران ، 102ـ104 .
(4) آل عمران ، 19 .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (1) .

ويكون بالاعتصام به تعالىٰ ذكره ، فهو الحبل المتين الذي ما ذل من التزم بما أمر وانتهىٰ عما نهىٰ ، وهـٰذا الذي يكون عليه الخليفة من السير علىٰ النهج الصحيح ، فعليه أن يعمل علىٰ توحيد الأمة جميعها ، وأن يكافح ما يجد فيها من شقاق وتفرق ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ، ويكون التوحيد بردع الفئة الباغية حتىٰ ترجع إلىٰ أمر ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (2) .

ذكر النعم التي أنعم ٱلله جل جلاله بها علىٰ الخلق : حيث أمرنا تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وهو من موجبات الخليفة الذي يعرف النعم حق المعرفة ، والمعرفة تكون بالشكر والحمد علىٰ النعم التي لا تحصىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (3) ، ولا يظنن الخليفة أن ٱلله محتاج لأحد من خلقه شكر أم لم يشكر ؛ لأنه غني في ذاته بذاته ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (4) ، والخليفة ليكون غنياً فلينظر كيف جعله غنياً بما ركبه في جسمه من عجائب ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ

(1) آل عمران ، 85 .
(2) الحجرات ، 9 ـ 10 .
(3) إبراهيم ، 7 .
(4) النساء ، 147 .

عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ (1) ، وكذلك مطلوب منه النظر في ما حوله من المخلوقات وكيف خلقها تعالىٰ جل في علاه ، قال عز وجل : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (2) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهـٰذا لا يكون إلا من صفات الخليفة الحق الذي إذا انتهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفلح ، والفلاح لا يأتي إلا باتباع ما أمر الغني جل جلاله ، والانتهاء عما نهىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الالتزام : ويكون بالسير علىٰ قواعد الإسلام وفق نصوصه الغراء ، والتي وصفها الرسول الكريم ﷺ بقوله : « قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ المحجَّة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ » (3) .

ب ـ ومن حيث عدم امتناع شيء عليه :

أراده بجميعه أو بشيء منه ، من إعزاز من أراد إعزازه ، وإذلال من أراد إذلاله ، وغير ذلك من الأمور ؛ قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

(1) الطارق ، 5ـ9 .
(2) عبس ، 24ـ32 .
(3) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص50 .

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ؛ ولأن الخلق خلقه ، إليه الفاقة والحاجة ، وبه قواهم وبقاؤهم ، وهلاكهم وفناؤهم ، وهو الغني الذي لا حاجة تحلّ به إلىٰ شيء ، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إليهم ، ولا إلىٰ غيرهم .

وما جعل اسم الحميد مقترناً باسمه الغني إلا لما استوجب عليكم أيها الخلفاء من الحمد بصنائعه الحميدة إليكم ، وآلائه الجميلة لديكم ، فاستديموا ذلك أيها الخلفاء باتقائه ، والمسارعة إلىٰ طاعته فيما يأمركم به والانتهاء عما نهاكم عنه ، فٱلله جل في علاه أورد في حق نفسه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ (2) ، فهو غنيّ عن خلقه ، حميد مستحمد بفضله عليهم ، ولذلك وجب الحذر من عقابه ، فهو قادر علىٰ استبدالنا بأقوام آخرين ليسوا من جنسنا أصلاً ، إذا لم نكن في مقام حمده وشكره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ (3) ، قال أبو جعفر : يقول ٱلله جل ثناؤه : (وربك) ، يا محمد ، الذي أمر عباده بما أمرهم به ، ونهاهم عما نهاهم عنه ، وأثابهم علىٰ الطاعة ، وعاقبهم علىٰ المعصية (الغني) عن عباده الذين أمرهم بما أمر ، ونهاهم عما نهىٰ ، والغني عن أعمالهم وعبادتهم إياه ، وهم المحتاجون إليه ؛ لأنه بيده حياتهم ومماتهم ، وأرزاقهم وأقواتهم ، ونفعهم وضرهم ، فلم أخلقهم ، يا محمد ، ولم آمرهم بما أمرتهم به ، وأنههم عما نهيتهم عنه ، لحاجةٍ لي إليهم ، ولا إلىٰ أعمالهم ، ولـٰكن لأتفضَّل عليهم برحمتي ، وأثيبهم علىٰ إحسانهم إن أحسنوا ، فإني ذو الرَّأفة والرحمة (4) . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .
(2) النساء ، 131 .
(3) النساء ، 133 .
(4) تفسير الطبري ، ج 12 ، ص126 .

ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) ، فالخليفة إذا أقام الشهادة لإنسان أو عليه ، فعليه أن يقوم فيها بالعدل ، ولو كانت شهادتهم علىٰ أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم وأقربائهم ، ولا يحملنهم غِنَىٰ من شهدوا له أو فقره أو قرابته ورَحِمُه منهم علىٰ الشهادة له بالزور ، ولا علىٰ ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها . والملاحظ أن هـٰذه الآيات جاءت تأديبًا للخلفاء وتصحيحاً لمن يرىٰ أن الفقير لا يظلم الغنيَّ ، فأبىٰ ٱلله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ . فيا خلفاء ٱلله في الأرض قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو حين شهادتكم ، ولو علىٰ أنفسكم ، أو علىٰ والديكم أو أقاربكم ، وأقيموها علىٰ صحّتها بأن تقولوا فيها الحق ، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لغناه علىٰ فقير ، ولا لفقير لفقره علىٰ غنيّ ، فتجوروا ، فإن ٱلله الذي سوَّىٰ بين حكم الغنيّ والفقير فيما ألزمكم ، أيها الناس من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل أولىٰ بهما ، وأحق منكم ؛ لأنه مالكهما وأولىٰ بهما دونكم ، فهو أعلم بمصلحة كلّ واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم ، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما . فعلىٰ الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبهاً لمن هو محتاج إلىٰ العون والمساعدة فعليه أن يتحرىٰ سيماهم من خلال أفعالهم ومظاهرهم التي أمر ٱلله جل جلاله بملاحظتها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ

---

(1) النساء ، 135 .

فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] ، وسِيَم الذين يستحقون النظر إليهم والاهتمام بهم رثاثة في ثيابهم ، فلا يظهر عليهم الجوع بل كل ذلك خفي عن الناس ، ولٰكن آثار الحاجة فيهم لا تخفىٰ ، فالخليفة يدركهم كما يدرك الطبيب علامات المرض في المريض دون الصحيح بالمعاينة دون الحاجة إلىٰ الوصف ، فالغني أحياناً يلبس ملابس الفقير فزيه يكون مشابهاً له ولذلك يجب النظر بالمعاينة دون الوصف ، فأول صفاتهم :

1 ـ **المظهر الخارجي** : الذي يعرفه الخليفة بالنظر الثاقب والصحيح ؛ لأن كل شيء له دليل عليه ، كما أنه قادر علىٰ معرفة المنافق بما وصفه ٱلله جل جلاله به من صفات ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [2] ، وعلم الهيئة من العلوم التي تمرس عليها المستخلفون فيها منذ زمن بعيد ، وجاء القرآن ليؤكد عليها ، وبما طلبه منهم العلي الغني معرفة كل أحد بسيماه ؛ لأن الذي يعلم ما بالداخل هو ٱلله جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [3] ، وعلىٰ الخليفة أن يتحرىٰ الحق من خلال القرائن والأدلة ، وهٰذا ما جعل الاهتمام بالأدلة الخارجية واجباً لما له من دور في تتبع المذنبين وكشف أخطائهم ، وما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ

(1) البقرة ، 272ـ274 .
(2) محمد ، 29ـ31 .
(3) غافر ، 19 ـ 20 .

عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [1] ، الآية تأكيد لما نراه اليوم في تطبيقهم لما يسمىٰ ببصمة العين والتي من خلالها يتم معرفة البريء من المتهم ، وهـٰذا هو الذي جاء في نص الآية الكريمة ، قال تعالىٰ : ﴿ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ .

2 ـ **السلوك الذي يكون عليه المحتاج** : وهو التعفف ويكون ذلك واضحاً لدىٰ الخليفة الذي يريد أن يعرف الحقيقة ، والذي من موجباته أن يتتبعها ويتحراها ، فهم لا يسألون الناس حاجتهم ، ولذلك علىٰ الخليفة أن يسأل قبل أن يعطي حتىٰ لا يذهب معروفه سدىً مع من هو يتصنع الحاجة ، وهو في واقعه ليس محتاجاً ، فالصدقات معروف أصحابها وواضحة جلية ، وربما كان هـٰذا الشرح سببه عدم قدرة الخلفاء ذلك الوقت التمييز بين من يتصنع وبين المحتاج حقيقة ، فجاءت الآية الكريمة لتنجدهم وتأخذ بيد الخلفاء إلىٰ الطريق الصحيح ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ ﴾ [2] ، فالقانع : الحامد لله والشاكر له ، والمعترّ : من اعتراك من الناس . وقال تعالىٰ في توضيح الذين يستحقون الصدقة : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [3] ، قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندي : أن ٱلله جعل الصدقة في معنيين :

ـ **أحدهما** : سدُّ خَلَّة المسلمين ، وعلىٰ الخليفة الغني بالإضافة أن لا يتبجح بكثرة الولد والمال ، وما بسط به ٱلله عليه من الدنيا ، وما وسَّع به

---

(1) الأحزاب ، 18 ـ 19 .
(2) الحج ، 36 .
(3) التوبة ، 60 .

عليه في الرزق ، وما حصل عليه من سهلها وجبلها ، وما كان له فيها من أصناف المال كله ، من الإبل والبقر والغنم والخيل ، وما لا يكون لإنسان آخر أفضل منه في العِدة والكثرة ، وما كان الغني جل في علاه قد أعطاه من أهل وولد ومن رجال ونساء ، فعليه أن يكون برًّا تقياً رحيماً يطعم المساكين ، ويحمي الأرامل ، ويكفل الأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلِّغ ابن السبيل ، وأن يكون شاكراً لأنعم ٱلله وحامداً له ، مؤدّيا لحق ٱلله في ماله ، وأن لا يصيب منه عدوّ ٱلله إبليس ما أصاب من أهل الغنىٰ من العزّة والغفلة ، والسهو والتشاغل عن أمر ٱلله بما هو أولىٰ من اتباع رزق من الدنيا .

ـ **والثاني** : معونة الإسلام وتقويته . فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه ، فإنه يُعطاه الغني والفقير ، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه ، وإنما يعطاه معونةً للدين ، وذلك كما يعطىٰ الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل ٱلله ، فإنه يعطىٰ ذلك غنيًّا كان أو فقيراً للغزو ، لا لسدّ خلته ، وتبعاً لذلك المؤلفة قلوبهم ، يعطون كذلك ، وإن كانوا أغنياء ، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده ، وقد أعطىٰ النبي ﷺ من أعطىٰ من المؤلفة قلوبهم ، بعد أن فتح ٱلله عليه الفتوح ، وفشا الإسلام وعز أهله . فلا حجة لمحتجّ بأن يقول : « لا يتألف اليوم علىٰ الإسلام أحد ، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم » ، وقد أعطىٰ النبي ﷺ من أعطىٰ منهم في الحال التي وصفت [1] .

ج ـ من حيث عدم القدرة علىٰ إحصاء ما خلق :

فهل لأحد القدرة علىٰ أن يحصي ما خلق الغني جل جلاله من النعم والفضائل ؟ هـٰذا علىٰ مستوىٰ ما نرىٰ ، وما خفي كان أجل وأعظم ، ولو أننا أردنا أن نعد النعم فقط ، والتي أنعم بها ٱلله علينا لعجزنا ، فما بالك من يريد

(1) تفسير الطبري ، ج 14 ، ص 316 .

أن يعد كل ما خلق ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (2) .

ومن مظاهر غنىٰ الغني :

1 ـ غناه عن الولد والوالد :

ويظهر غناه في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) . يقول ٱلله منزهًا نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ ﴾ ، تنزيهًا لله عما قالوا وادَّعوا علىٰ ربهم ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ ﴾ فٱلله غنيٌّ عن خلقه جميعًا ، فلا حاجة به إلىٰ ولد ؛ لأن الولد إنما يطلب للعون في الحياة والذكر له بعد الموت ، وٱلله غنيٌّ عن كل ذلك ، فلا حاجة به إلىٰ معين يعينه علىٰ تدبيره ، ولا يحيدُ فيكون به حاجة إلىٰ خلف بعده ، إنه ٱلله الغني جل جلاله .

---

(1) إبراهيم ، 32ـ34 .
(2) النحل ، 15ـ20 .
(3) يونس ، 68 .

2 ـ غناه عن الشريك و النديد والصاحب :

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (4) ، أثبت تعالىٰ في علاه أن الولد لا يكون إلا بالصاحبة ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ، وما كان أن يحدث من خوارق في الكون إلا بأمره تعالىٰ ، فأمره تعالىٰ بين الكاف والنون ، قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (5) ، فهو بقدرته خلق آدم من غير أب ولا أم ، بل من تراب ، قال تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (6) ، وخلق سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من أم بدون أب ، قال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن

(1) الإخلاص ، 1ـ4 .
(2) الأنعام ، 100ـ101 .
(3) الإسراء ، 111 .
(4) الأنعام ، 101 .
(5) يس ، 81ـ83 .
(6) ص ، 71ـ73 .

رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [1] . فالغني جل جلاله لو لم يكن غنياً لما استغنىٰ عن الولد والصاحبة والتي نرىٰ أننا في أمس الحاجة إليهما لتحمل جزء من أعباء الحياة معنا بسبب فقرنا وافتقارنا إليهم ، وهـٰذا ما تؤكده الآية الكريمة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

3 ـ غناه بتأخير عقابه :

وفي تأخير العقاب دلالة علىٰ غنىً الغني جل جلاله فلو لم يكن غنياً ما أخر العقاب ؛ فلو كفر جميع من في الأرض فٱلله جل جلاله غني عنهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [3] ؛ ولأن غناه جل في علاه مرتبط برحمته ومغفرته فكان تأخير العقاب والعذاب من مظاهر غناه ، فلو كانوا يساوون جهداً أو وزناً لعجل بالعذاب ، ولما لم يكن من قيمة للأشياء التي نراها لديه ؛ ومع أنه قادر علىٰ تعجيل العذاب ، ولـٰكن لحكمة يعلمها ، قال تعالىٰ : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [4] ، والغني لو شاء لعجل بالعذاب ولـٰكن هـٰذه الدنيا عنده لا تساوي أي قيمة أو وزن ، فقد جاء في الحديث ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء » [5] . والخليفة الغني هو الذي يعفو ويصفح عن كل

---

(1) آل عمران ، 58ـ60 .
(2) الروم ، 20 ـ 21 .
(3) إبراهيم ، 8 .
(4) الأنفال ، 37 .
(5) سنن الترمذي ،ج8 ، ص299 .

من أساء إليه ، فلا يستعجل الرد علىٰ من أساء إليه ؛ امتثالاً لقوله تعالىٰ في علاه : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) ، وأن يكون حذراً من أن يجر إلىٰ الاستعجال بالعقوبة ؛ ولأن في تأخير العقوبة وضوحاً أكثر لحقيقة الذنب وتبيين صاحبه ، وهـٰذا هو من الأمور التي توصل الخليفة للعدل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

4 ـ غني باستطاعته :

فلو لم يكن مستطيعاً ما كان غنياً بذاته عن الذوات ، إنه فعال لما يريد ، قال تعالىٰ في حق نفسه : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (3) ، فهـٰذه الصفات لا تكون لمن لم يكن مستطيعاً بنفسه في القيام بنفسه علىٰ المغفرة والتي ليس لها حدود ، وما كان ودوداً بخلقه ، ولا كان مالكاً لعرشه ، والذي جاء في وصفه ما جاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (4) ، فأي ماء يستطيع أن يحمل عرشه ؟ ! وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴾ (5) ، وأي ثمانية يستطيعون حمله ؟ ! هم الذين لا نستطيع تصور قوتهم ولا قدرتهم ،

---

(1) البقرة ، 237 .
(2) المائدة ، 8 ـ 9 .
(3) البروج ، 13ـ16 .
(4) هود ، 7 .
(5) الحاقة ، 17 .

ولما كان لمغفرته أن تسع كل ما نعلم وما لا نعلم ، كان له أن يفعل ما يريد وكيف يريد دون شريك أو نديد ، فهو تعالىٰ بيده مقاليد الأمور كلها ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ (1) ، فهل للخليفة أن يعبد غيره ، وهو يرىٰ قدرته وجبروته وقهره ، وهل يفعل هـٰذا إلا الجاهل ، وهل يأمره بذلك إلا من كان جاهلاً ، وهو الذي بيده الغنىٰ والفقر ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (2) ، الناظر لهـٰذه الآية الكريمة يرىٰ أن اسمه اللطيف التقىٰ مع اسميه القوي والعزيز إضافة إلىٰ فعل الرزاق ، وهـٰذه الأسماء تبين وبجلاء أن الذي يرزق لابد وأن يكون لطيفاً بمن يرزقه ، ولابد وأن يكون قوياً عزيزاً ، فلا أحد يستطيع أن يمنعه من أن يرزق أو يحرم من يشاء ، وهو الذي بيده المغفرة والعذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، والخليفة الغني بالإضافة عليه أن يكون غنياً بصفحه وكرمه ، كما يحب أن يغفر ٱلله جل جلاله له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) . والخليفة الغني بالإضافة يكون غنياً في الآتي :

غنًى معنوياً : وذلك بما يستمده من غنىً بصلته بالغني المطلق جل في علاه ، وليعلم قوله تعالىٰ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن

(1) الزمر ، 62ـ64 .
(2) الشورىٰ ، 19 .
(3) آل عمران ، 129 .
(4) النور ، 22 .

﴿ تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [1] ، وكلما اقترب الخليفة من ربه بالقربات والطاعات كلما ازداد غنىً ؛ لأنه يعلم أن الغني سيزيده من فضله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [2] .

غنًى مادياً : ويكون ذلك بما يستكشفه الخليفة من خيرات سواء علىٰ ظاهر الأرض أم بما يستخرجه من جوفها وذلك امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [3] ، هـٰذا النفوذ من أقطار السمـٰوات والأرض لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة والتي تحتاج إلىٰ جهد ووقت يصرفه فيه الخليفة حتىٰ ينفذ من أقطار السمـٰوات والأرض ، والنفوذ في أقطار الأرض هو بقدر ما يكتشفه الإنسان من المعادن والثروات والتي تؤدي به إلىٰ الازدهار وليتمكن من طاعة ربه علىٰ الوجه الصحيح الأكمل ، فالغني بالإضافة هو الذي يعمل علىٰ غنىٰ ما يمكن إغناؤه من الآتي :

ـ **نفسه** : وبما يرفع به نفسه في مجتمعه ، وذلك بالسعي بنفسه إلىٰ الأفضل ، وامتثالاً لقوله تعالىٰ في علاه : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [4] .

ـ **وأسرته** : وصلاح الخليفة يبدأ من أسرته ، فيحرضهم علىٰ طلب ما يرضي الغني جل جلاله كأن يأمرهم بطلب العلم فهو الذي يغني صاحبه بما يترك في قلبه من القناعة والإيمان الحقيقي الصادق ، فيرتفع به في الدنيا

(1) محمد ، 38 .
(2) إبراهيم ، 7 .
(3) الرحمـٰن ، 33 .
(4) التوبة ، 105 .

والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (1) .

ـ **ومجتمعه** : وذلك بقدر ما يكون فعالاً فيهم ، يكون تأثيره علىٰ مجتمعه بالصلاح والفلاح والسعادة وليعلم أن صلاح مجتمعه من صلاحه وصلاح أمته ، فيعيش في مجتمع سعيد متماسك ومترابط ، وبما يعمله الخليفة من تغيير في القلوب والنفوس يكون رده إيجابياً علىٰ المجتمع ، قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (2) .

ـ **وأمته** : وذلك بقدر ما يعمل به علىٰ توحيدهم واتحادهم ، والسعي علىٰ حل المشكلات التي تحول وتعمق ذلك ، وبقدر الكد تكون النتيجة فلا مستقبل لهٰذه الأمة إذا لم يسع خلفاؤها في تعمير أرضه وتحقيق نهضتها وليعيشوا أغنياء بدل أن يكونوا عالة علىٰ الأمم الأخرىٰ ، وبذلك أمر الغني جل جلاله بالتوحد والاعتصام بالدين الحنيف ، قال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ (3) .

ـ **ودينه** : وهو الذي به نلاقي ربنا في الدنيا والآخرة ، وهو الذي به تحيا قلوبنا وهو النور الذي يقودنا إلىٰ الغنىٰ الأبدي الذي وعدنا به جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ

---

(1) المجادلة ، 11 .

(2) الرعد ، 11 .

(3) النساء ، 175 .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [1] .

غناه بسعته : فسعته ليس لها حدود ولا معيار ولا مقياس فكيف يقاس أو يحدد أو يعير ما ليس له معيار يشمله أو حيز يحدده ، أو ميزان يحمله ، ولـٰكن للخليفة أن ينظر في حيثيات سعته :

من حيث سعة ملكه :

بملكه جميع ما حوته السمـٰوات والأرضون : فهو جل جلاله خلقها بقوته وجبروته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [2] ، والذي خلق هـٰذه السمـٰوات وهـٰذه الأرضين السبع ليس بعاجز عن مسحها من الوجود وخلق ما هو جديد ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [4] ، ٱلله الغني تعالىٰ ذكره له مُلك ما في السمـٰوات وما في الأرض من شيء هم عبيده ومماليكه وخلقه ، لا شريك له في ذلك ، ولا في

---

(1) الحج ، 77 ـ 78 .
(2) آل عمران ، 189 ـ 190 .
(3) المائدة ، 17 .
(4) الحج ، 64 .

شيء منه ، وإن ٱلله هو الغنيّ عن كل ما في السمـٰوات وما في الأرض من خلقه وهم المحتاجون إليه ، الحميد عند عباده الخلفاء في أفضاله عليهم ، فعلىٰ الخليفة الفقير أن يستعفف تنفيذاً لأمره تعالىٰ : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (1) ، إن يكن هـٰؤلاء الذين تُنْكِحون من أيامىٰ رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر ، فإن ٱلله يغنيهم من فضله ، فلا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم ، فٱلله واسع الفضل جواد بعطاياه ، فزوّجوا إماءكم من خلفائكم ، فإن ٱلله واسع يوسع عليهم من فضله ، إن كانوا فقراء ؛ لأنه ذو علم بالفقير منهم والغنيّ ، لا يخفىٰ عليه حال خلقه في شيء وتدبيرهم ، وأما الذين لا يجدون قدرة علىٰ تكاليف النكاح فعليهم بالتعفف ، قال تعالىٰ : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ، فالعفة هنا مطلب أساسي من المستخلف فيها ، حتىٰ لا يقع في ما هو محرم من الفواحش ، وحتىٰ يغنيه ٱلله من سعة فضله ، ويوسِّع عليه من رزقه . وأما ما هو موجود من مظاهر الاختلاف بين الناس فقوله يوضح أن كل هـٰذه الفروق موجودة للفتنة ، قال تعـالـىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (2) ، امتحن ٱلله الناس بعضهم ببعض ، جعلهم هـٰذا نبياً وخصصه بالرسالة ، وهـٰذا ملِكاً وخصصه بالدنيا ، وهـٰذا فقيرًا وحرمه الدنيا ليختبر الفقير بصبره علىٰ ما حرم مما أعطيه الغنيّ ، والملك بصبره علىٰ ما أعطيه

---

(1) النور ، 33 .

(2) الفرقان ، 20 .

الرسول من الكرامة ، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطي ، وقسم له ، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطي غيره ، وعلىٰ ذلك الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبهاً لما حوله فيعطي كل أحد حقه ، وليكن علمه ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [1] ، وبها فعلىٰ الخليفة أن يلتزم بما يلي :

أن يكون إيمانه بألله تعالىٰ هو الغني الرزاق ، وهو الذي يبسط ويرزق لمن يشاء وكيف يشاء ، ومتىٰ ما يشاء ، ويقدر لكل واحد رزقه في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

علىٰ الخليفة الغني بالإضافة أن لا يغفل عن الزمن وأهميته فيما يملك فيعطي كل ذي حق حقه ، ومن أصحاب الحقوق ذو القربىٰ والمساكين وأبناء السبيل ؛ لأن ذلك هو السبيل لمن يريد وجه ربه ومن ثَمَّ الفلاح في الدارين ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وعلىٰ الخليفة الابتعاد عن الربا : لأن الربا أساس رئيس لكل الفروق بين الناس في الرزق لما ينتج عنه من ربح سريع ومن طرق استغلالية لظروف الناس ، فيكون سبباً لوجود الشحناء والحسد بين الفقراء والأغنياء ، ولذلك فالمال المرابىٰ به لا يزيد عند ٱلله بل كل ما نراه صورياً ومظهراً من المظاهر الزائفة الخادعة التي يغتر بها أصحاب العقول والنظرات القصيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(1) الروم ، 37ـ39 .

التصدق بالمال الحلال : وأن يجعله متقبلاً عند خالقه جل جلاله بما يستوفيه من الشروط المنوطة بالزكاة المتقبلة ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ . أن لا يخشىٰ الفقر ولا يبطره الغنىٰ وليجعل الخليفة نصب عينيه قوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (1) .

قراءة القرآن : القرآن قول الحق ، من الحق المطلق جل جلاله ، فيه الرحمة للعباد وفيه شفاؤهم ، وبه تطمئن القلوب ، وتنيب إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ومن أَغْناه ٱلله فقد غَنِيَ وذلك بالاسْتغْناء بالقرآن عن غيره ولا يَذْهَبْ إلىٰ البحث عن غيره ؛ لما فيه من الكنوز المعرفية والموصلة إلىٰ طريق النجاة ودون أي شك في ذلك ، ومن لجأ أو حاول الاستعانة بغيره وجد نفسه ذليلاً مخذولاً ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (2) ، وهـٰذا الغنىٰ الذي جاء به القرآن لم يأت صدفة ، فهو كلام ٱلله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قال تعالىٰ : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (3) .

إقامة الصلاة : فالصلاة هي التي تورث القناعة عند الخليفة ؛ لأنها هي الوسيلة المتلازمة لربطه بخالقه ، فتمنعه من أن يرتكب أي خطأ في حق نفسه ، أو في حق غيره أمام خالقه عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾

---

(1) الروم ، 37 .
(2) فصلت ، 40 .
(3) فصلت ، 42 .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وهـٰذا هو الرباط الحقيقي الذي يورث الخليفة قناعة عن تجربة ملامسة للواقع ، ولهـٰذا تكون الصلاة مانعة من ارتكاب الفواحش والمنكرات ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (2) ، وإذا ما واظب الخليفة علىٰ صلاته أورثه ٱلله الغني جل جلاله قناعة تامة ، في الدنيا بما يريه ربه تعالىٰ من أن هـٰذه الدنيا زخارف لا تصلح أن يملأ الإنسان بها نفسه ، وأما الذي لا يقيم صلاته فإنه لا يرىٰ شيئاً علىٰ حقيقته ، فيبقىٰ متحسراً عندما يجد نتائجها مكذوبة مخلوطة بما زين له أعداء الإنسان من تلك الزخارف والألوان البراقة حتىٰ إذا جاءها ليتشبث بها وجدها هباء منثوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) .

الصوم : ومعناه الامتناع عن كل ما هو ممنوع لمدة محدودة من أكل وشرب وجماع والنظر في غير محله ، وفي الصوم عن المفاسد والحسد غنىً ؛ لأن الحسد يؤدي بصاحبه إلىٰ أسواء الأحوال وأرداها فالذي يحسد يتمنىٰ زوال نعم غيره وهـٰذه أمنية لا تتحقق بل ترجع علىٰ صاحبها بالوزر والإثم ؛ لأنه تعالىٰ في علاه نهانا عن ذلك بقوله العزيز : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ

---

(1) النور ، 37 ـ 38 .

(2) العنكبوت ، 45 .

(3) النور ، 39ـ42 .

عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ (1) ، وأما في الصوم البدني الذي أمر الغني جل جلاله به في القرآن الكريم قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (2) ولذا في الصوم مقاصد كبيرة منها :

1 ـ طاعة ٱلله تعالىٰ .

2 ـ شفاء ورحمة وصحة .

3 ـ تحمَل وصبر .

4 ـ التعاون علىٰ الحق والبر ونهضة المغلوب .

5 ـ اعتراف بالآخرين وحقوقهم .

6 ـ عبادة للواحد الأحد .

7 ـ تهذيب النفوس .

8 ـ معصية الشهوات المؤدية للانحراف .

9 ـ بعث روح الإيقاظ والتيقظ لما حول الإنسان من القيم .

10 ـ خلق روح المودة بما ينتجه من إحساس بحاجات الآخرين .

---

(1) النساء ، 32 .

(2) البقرة ، 183ـ185 .

الحج إلىٰ البيت العتيق : تنفيذاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، فالذي يريد الحج لا يكون قصده إلا لله الغني الحميد ، فهو الذي يعلم قصده من كل ذلك التوجه حيث جاء في الحديث عن الرسول ﷺ : « الأعْمَالُ بِالنِّيَّةِ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللهِ وَرَسُولِهِ» [2] ، فٱلله هو الذي يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما يجترح الإنسان ليله ونهاره ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [4] ، والناظر هنا يجد أن داخل الإنسان هو المطلوب وما السلوك الخارجي إلا مظهر ودليل لما يجري في الداخل فالإنسان بما جعل ٱلله تعالىٰ له من جسد عجيب يحمل داخله نفساً وعقلاً وروحاً وما تحمله من غنىً ، فالنفس الغنية هي التي تكون مطمئنة في سلوكها أي في حركاتها وسكناتها وفي حلها وترحالها وما تقوم به من واجبات ، ولتكون نفس الخليفة مطمئنة وجب عليها ذكر ٱلله ليل نهار سيراً علىٰ النهج الناجع والمؤدي إلىٰ النتيجة التي جاء بها القرآن الكريم مصداقاً لقوله

(1) آل عمران ، 95ـ97 .
(2) صحيح البخاري ، ج 12 ، ص287 .
(3) الرعد ، 8ـ10 .
(4) الأنعام ، 60 ـ 61 .

تعـــالـــىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [1] ، وهـٰذا الغنىٰ الداخلي لابد وأن يظهر تأثيره علىٰ السلوك الخارجي ، فبذلك نرىٰ البدن المطمئن في حركاته وسكناته ، سليماً معافىً ، وسيرته طيبة ناجحة فتكون أهدافه في الحياة واضحة ونبيلة لا عوائق أمامه ويكون سالماً من الآفات التي تصيب غيره من الذين ليسوا أسوياء ، فلا يكون كسولاً ولا خمولاً بل جاداً في حياته ومسيرته يبني مجد خلافته علىٰ طريق سليم وقويم خال من كل ما هو رديء وسيئ فيكون وبلا شك حياً في الدنيا والآخرة حياة طيبة ؛ لأنه سار علىٰ مسلك صحيح ، وعلىٰ قنطرة الحق ؛ فحق فيه قوله تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

من حيث سعة كلماته تعالىٰ جل جلاله :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] ، لو أن شجر الأرض كلها بريت أقلاماً والبحرُ له مداد و﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي لتكسرت تلك الأقلام ، ولنفد ذلك المداد ، ولم تنفد كلمات ٱلله .

من حيث سعة رزقه :

قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [4] ،

---

(1) الرعد ، 28 .
(2) النحل ، 96 ـ 97 .
(3) لقمان ، 27 .
(4) الذاريات ، 55ـ60 .

من حيث سعة نعمه :

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [2] .

من حيث سعة علمه :

قال تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] .

من حيث سعة فضله :

قال تعالىٰ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [6] .

---

(1) النحل ، 17ـ19 .
(2) إبراهيم ، 34 .
(3) البقرة ، 28 ـ 29 .
(4) المائدة ، 97 ـ 98 .
(5) البقرة ، 268 .
(6) آل عمران ، 73 ـ 74 .

من حيث سعة وجوده :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) .

من حيث سعة مغفرته :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ (3) .

من حيث سعة سمعه :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(1) البقرة ، 115 .
(2) البقرة ، 261ـ264 .
(3) النجم ، 31ـ35 .

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (2) .

من حيث سعة بصره :

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (4) .

من حيث سعة لطفه :

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (5) .

من حيث سعة حلمه :

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ

---

(1) الأعراف ، 196ـ201 .

(2) الأنفال ، 42ـ44 .

(3) البقرة ، 110 .

(4) آل عمران ، 15 .

(5) الحج ، 63 ـ 64 .

ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) .

من حيث سعة علوه :

قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (2) .

من حيث سعة كبره :

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (3) .

من حيث سعة قوته :

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (4) .

من حيث سعة رحمته :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ

---

(1) الحج ، 58 ـ 59 .
(2) الإسراء ، 42ـ44 .
(3) الحج ، 60ـ62 .
(4) الشورىٰ ، 17ـ20 .

﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (1) .

من حيث سعة حكمته :

قال تعالىٰ : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (2) ، فالخليفة الغني بالإضافة هو الذي ينفق علىٰ الفقراء والمحتاجين ، ولسعة حكمته تعالىٰ لم يشأ أن يجعل النفقة مدعاة للفقر فالذي ينفق علىٰ الفقراء والمحتاجين لا يسرف حتىٰ لا تنقلب عليه الآية ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ (3) ، وفي الحديث : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غِنًى ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» (4) ، أَي ما فَضَل عن قوت العيال وكفايتهم فإذا أَعطيتها غيرك أبقيت بعدها لك ولهم غِنًىٰ وكانت عن استغناء منك ومنهم عنها . « وخير الصّدقة ما أغنيت به من أَعطيته عن المسأَلة قال ظاهر هـٰذا الكلام أنه ما أَغنىٰ عن المسألة في وقته أَو يومه وأَما أَخذه علىٰ الإطلاق ففيه مشقة للعجز عن ذلك» (5) .

ومن حكمته الواسعة أن جعل طلب الرزق عليه أجر ، فأنت تطلب الغنىٰ وٱلله يجازيك عليه ، وهـٰذا هو الطلب محمود وهو ما كان علىٰ قواعد صحيحة منها :

---

(1) الأعراف ، 56 ـ 57 .
(2) النساء ، 26 .
(3) الإسراء ، 29 ـ 30 .
(4) المعجم الكبير للطبراني ، ج 10 ، 294 .
(5) لسان العرب ، ج15 ، ص135 .

ـ **ألا يؤثر في عبادة الإنسان** : كأن يؤخره عن صلاته أو يبعده عنها ؛ فالذي يستغني بالمال عن عبادة ربه فإن ٱلله جل جلاله يستغني عنه ، وٱلله غني حميد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [2] .

ـ **ألا يكون مدعاة للفخر والاستعلاء والتكبر والاستهزاء** : وبالتالي استعباد الناس علىٰ غير حق ؛ لأن المستغني بعلوه هو ٱلله جل في علاه ، وفي ذلك مظنة أنه أعطىٰ نفسه بنفسه ، وهـٰذا ما حدث مع قارون الذي ظن أنه أعطىٰ نفسه من معرفة وذكاء وفطنة ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا

---

(1) التوبة ، 67 ـ 68 .
(2) الجمعة ، 9ـ11 .
(3) القصص ، 78ـ81 .

فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [1] ، فالله لا يحبّ أن يكون الخليفة متكبراً بما أوتي من الدنيا ، فخوراً به على الناس ، فالله تعالىٰ جل في علاه لا يحبّ الباخلين بما أوتوا في الدنيا مع اختيالهم وفخرهم بذلك علىٰ الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾ .

ـ **أن يكون طلب الرزق مبنياً علىٰ التعفف والرفعة** : وبما لا يمس قدر الإنسان ومنزلته التي وضعه الله عليها ، فالإنسان جعله الله رفيعاً عالياً في قدره ومنزلته فلا يجب علىٰ الخليفة أن يحط من قدره وقيمته تبعاً لدنيا يطلبها ؛ لأنها أساس كل فتنة إذا لم تكن علىٰ فطرة صحيحة وسليمة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [2] .

ـ **أن يظن المؤمن أن ماله لا يغنيه عن ملاقاة خالقه غداً** : وليعلم أن ماله لن يغنيه إذا تردىٰ وهلك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ أي ما يُغْني عنك هـٰذا أي ما يُجْزِئُ عنك وما ينفعك ولا يكفيك يوم الآخرة .

ـ **أن لا يطلب الغنىٰ من غيره تعالىٰ** : فالذي استغنىٰ بغير الله افتقر

---

(1) الحديد ، 22ـ24 .
(2) الأنفال ، 27ـ29 .
(3) الليل ، 8ـ12 .

واحتاج ، فالفضل كله لله دون سواه ، فالخليفة الغني هو الذي يدعو ٱلله أن يغنيه من فضله دون سواه ، فهل الغنىٰ بغيره تعالىٰ إلا أساس المذلة والهوان ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (1) .

ـ **ألا يبخل بالنفقة في سبيل ٱلله** : لأن الذي يبخل إنما يبخل علىٰ نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (2) ، وإنما حضكم علىٰ النفقة في سبيله ، ليُكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه ، ومن يبخل بالنفقة في سبيل ٱلله ، فإنما يبخل عن بخل نفسه ؛ لأن نفسه لو كانت جواداً لم تبخل بالنفقة في سبيل ٱلله .

ـ **ألا يسخر من الفقراء في حالة غناه** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (3) ، قال الطبري : « هي سخرية الغنيّ من الفقير ، ونهي أن يسخر من الفقير لفقره» (4) ، فهٰذه موعظة من ٱلله لخلفائه حتىٰ لا تفتنهم الدنيا وما حوت من الملذات والشهوات ، فتؤدي به إلىٰ التولي عن الطريق الصحيح ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (5) ، ومن يدبر معرضا عن عظة ٱلله ، تاركاً العمل بما دعاه إليه من الإنفاق في سبيله ، فرِحاً

---

(1) الجاثية ، 18ـ20 .
(2) محمد ، 38 .
(3) الحجرات ، 11 .
(4) تفسير الطبري ، ج 22 ، ص298 .
(5) الممتحنة ، 6 .

بما أوتي من الدنيا ، مختالاً به فخوراً بخيلاً فإن ٱلله هو الغنيّ عن ماله ونفقته ، وعن غيره من سائر خلقه . ولذلك وجب علينا أن تكون لنا الأسوة الحسنة الطيبة الذكر في الدنيا والآخرة في رسولنا الكريم ، والذي أمرنا ٱلله جل جلاله الاقتداء به في كل أحواله ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [(1)] .

ـ **ألا يكلف الإنسان نفسه فوق طاقته** : لأن ذلك يؤدي به إلىٰ الإرهاق ، ومن ثم يقع بنفسه في عكس ما كان يطمح أو يريد ، ولذلك أمر ٱلله جل جلاله بأن لا نكلف أنفسنا فوق ما نقدر وما نستطيع ، قال تعالىٰ : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [(2)] ، فٱلله الغني لا يكلف ٱلله أحدًا من النفقة علىٰ من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا ما أعطاه ، إن كان ذا سعة فمن سعته ، وإن كان مقدورًا عن رزقه فمما رزقه ٱلله علىٰ قدر طاقته ، لا يُكلف الفقير نفقة الغنيّ ، ولا أحد من خلقه إلا فرضه الذي أوجبه عليه ، فهو جل جلاله لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنيّ ، قال تعالىٰ : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ ، فٱلله لا يكلف الفقير أن يتصدّق وليس عنده ما يتصدّق به ، ولا يكلفه ٱلله أن يزكي وليس عنده ما يزكي ، وليكن الخليفة حسبه قوله تعالىٰ ذكره : ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ، وليعلم أن من بعد كل شدّة رخاء ، ومن بعد ضيق سعة ، ومن بعد فقر غنىً ، وأن يهرع الخليفة في ضيقه إلىٰ الصلاة والتي هي روح العبادة ، فهي التي تمنع الشح والحرص وهما أساس كل جزع ، قال تعالىٰ جل جلاله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [(3)] ، ومن صفات الهلوع الجزوع

(1) الممتحنة ، 6 .
(2) الطلاق ، 7 .
(3) المعارج ، 19ـ23 .

القلق من كل ابتلاء في كل ما يلم به وفي الرزق خاصة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ (1) ، وليخرج الخليفة من هـٰذه الصفات فعليه :

ـ **بالقناعة بما قسمه له الغني جل جلاله** : وتأتي القناعة بالبحث عن حسن الخاتمة في الدنيا والآخرة ، وذلك باليأس مما في أيدي الناس والاعتماد علىٰ ٱلله في كل كبيرة وصغيرة ؛ لينجو الخليفة من النفس الأمارة ، والشيطان المريد ، وليعلم الخليفة أن ٱلله جل جلاله لا يكرم من أكرم بكثرة الدنيا ، ولا أهان من أهان بقلتها ، ولـٰكن إنما أكرم من أكرم بطاعته ، وأهان من أهان بمعصيته ، وعلىٰ الخليفة أن يحمده علىٰ الأمرين جميعاً ، علىٰ الغنىٰ والفقر .

ـ **وأن يحسن الظن بٱلله** : فلا يظنن بٱلله إلا خيراً ، فكيف يهين الغني جل جلاله من كرمه في البر والبحر وعلىٰ سائر الكائنات ؟ ! قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (2) ، ويكون علاج ذلك بحسن التوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ ؛ لأنه جل في علاه قد تكفل بأن يكون حسب من توكل عليه ، وأن يجعل له من كل ضيق مخرجاً ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (3) .

ـ **إكرام اليتيم** : وذلك تبعاً لعدم نهره حيث أمر تعالىٰ جل جلاله ؛ لأن

---

(1) الفجر ، 16ـ19 .
(2) الإسراء ، 70 .
(3) الطلاق ، 2 ـ 3 .

في النهر كسراً لخاطر اليتيم ، وإشعاراً للخليفة بقيمة هٰذا الأمر كرر جل جلاله أمر عدم النهر في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (1) .

ـ **إطعام المسكين** : وهو من الأصناف الذين أمر ٱلله جل جلاله في كتابه العزيز بالتصدق عليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) . وقد ذم جل جلاله الذين يقللون من أهمية الاهتمام باليتيم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (3) ، فعلىٰ الخليفة أن يحسن مثلما أحسن ٱلله إليه تنفيذاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ (4) .

ـ **إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم من الميراث** : ويكون ذلك علىٰ الكيفية التي نزل بها القرآن الكريم فهٰذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (5) ، وقد جاء ذكر الميراث واضحاً في صورته العامة في قوله تعالىٰ : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (6) ، جاء بتفاصيل عن كيفية توزيع الميراث حيث جاء في قوله تعالىٰ : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ

(1) الضحى ، 9 .
(2) التوبة ، 60 .
(3) الحاقة ، 34 .
(4) القصص ، 77 .
(5) فصلت ، 41ـ43 .
(6) النساء ، 7 .

ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ (1) ، ولٰكن هٰذه الآيات سبقتها آية تأمر بعدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بقدر نفقتهم ودون تفريط أو إفراط في حقوقهم ، وقد توعد من يقترب من ماله بغير حق فإنه سيصبح ناراً في بطنه يوم القيامة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (2) . وعلىٰ الخليفة أن يتبع آداب أمر ٱلله جل جلاله بها أثناء القسمة ومنها :

ـ **القول الحسن أثناء قسمة الميراث** : كما رعاه في صغره ، فليلطف به في كبره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ

(1) النساء ، 11ـ14 .
(2) النساء ، 9 ـ 10 .

عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

ـ **عدم حرمان من يحضر قسمة الميراث** : من ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (1) .

ـ **الابتعاد عن الجشع** ، والجشع إذا أنكره الإنسان حمد ربه جلّ ثناؤه علىٰ نِعمه دون فقره ، وشكواه الفاقة والفقر والاحتياج ، ظناً بربه الغني دون رجائه ، والعياذ بٱلله .

والأسباب السابقة الذكر هي سبب الابتلاء ، ولذلك علىٰ الخليفة أن يتبع طريق الحق في كل معاملاته المالية والاجتماعية فلا يقرب ما ليس من نصيبه بالنصب والاحتيال علىٰ اليتامىٰ والمساكين ، وأن يجعل قلبه كبيراً بما بحث به عن القناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، وليجعل حق اليتيم والسائل نصب عينيه امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (2) . فلا تظلم اليتيم ، فتذهب بحقه ، استضعافًا منك له ، وهٰذا الذي هو الاستخدام غير المحمود للقوة وذلك عندما يظن الإنسان أنه صار أقوىٰ من ذلك الفقير أو ذلك اليتيم فيعامله معاملة سيئة فيها من الاستعلاء ما فيها ويصاحب ذلك من القسوة والنهر وسلب الحقوق ما يستوجب غضب الجبار جل جلاله ، وليحذر الخليفة من حوله .

وعليه فالغني : هو من لا ضعف فيه ، وهو الكامل الذي يشبع الحاجة ولم يكن في حاجة ، وهو الذي يعطي ويهب ويمنح ولا يأخذ شيئاً ، وهو الذي يعلم بما لا نعلم ، وهو الذي خلق الشيء وأوجده من لا شيء .

إنه مالك الملك بالمطلق ، يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء

---

(1) النساء ، 8 .

(2) الضحىٰ ، 9ـ11 .

الإناث ، وهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، تحتاجه المخلوقات وهو لم يكن في حاجة إلي شيء منها ، بيده القوة والقدرة ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ يا الغني اجعلنا بغناك علىٰ القوة ولا تجعلنا علىٰ الوهن والضعف ، واجعلنا من الذين حاجاتهم مشبعة ولا تجعلنا من المحتاجين لأحد سواك !

اللهُمَّ اجعل الغنىٰ والطمأنينة في أنفسنا ، واجعل العلم يملأ صدورنا ، وآتنا الحكمة من خيرك الكثير ، وازرع المحبة بيننا أخوة متلاقين علىٰ توحيدك يا واحد يا أحد يا مغني عن كل أحد ، وارو ظمأنا بمائك العذب الطاهر ، الذي تنهمر به السماء علىٰ الأرض وتثور به الينابيع وتفيض ، وتجري به الأنهار والوديان !

اللهُمَّ يا الغني إننا في حاجة إليك لا تجعلنا نلتجئ إلا إليك ، توكلنا عليك ، توكلنا عليك ، توكلنا عليك ، أنت الغني جل جلالك واحد أحد ، لك الحمد ولك الشكر يا نعم المولىٰ ونعم النصير !

اللهُمَّ إنك الغني عنا وعن أعمالنا ونحن الفقراء إليك وفي حاجة لأن نعمل ما يرضيك حتىٰ ترضىٰ عنا !

اللهُمَّ يا الغني بالعلم والحكمة والقوة والقدرة والملك والعظمة يا علام الغيوم أغننا بواسع فضلك ونعمك ورحمتك في كل شروق وغروب ، وأغننا بشكرك وحمدك في كل حركة وسكون ، فإن حمدك وشكرك يزيدنا غنىً ، وإن رضاك عنا يجعلنا من المستخلفين ويجعلنا من أصحاب الجنة فلك الحمد والشكر يا الغني يا من لا غني غيرك .

المُغْنِي جلّ جلاله

المغني : هو الذي بيده الملك المطلق يغني به من يشاء كما يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب ، وهو الذي بيده الملك وهو في غير حاجة له ، ولذا فهو المغني لمن هم في حاجة له ولملكه .

المُغْني : « وهو الذي يُغْني مَن يشاء من عبادِه» (1) .

المغني : هو « الذي كمل بنعوته وأوصافه ، المغني لجميع مخلوقاته ، وهو الذي له الغنىٰ التام المطلق من كل الوجوه» (2) .

المغني : « له ما في السمٰوات والأرض ، وهو السالم من كل عيب ونقص ، ومانح السلامة ومعطيها ، وهو السلام ، ومنه السلام» (3) .

الْمُغْنِي : « بِمَعْنَىٰ الْكَافِي مِنَ الْغَنَاءِ» (4) .

المغني المطلق لا وجود للحاجة في ذاته ، والمغني بالإضافة هو الخليفة الذي هو في حاجة في ذاته ويفعل الخير الذي به يغني من هم في حاجة ، فخلق ٱلله متنوع متعدد ، ومن هٰذا التنوع والتعدد يتم الإغناء بين

(1) النهاية في غريب الأثر ، ج 3 ، ص 739 .
(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 51 .
(3) كتب العقيدة ، ج 7 ، ص 114 .
(4) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 216 .

المخلوقات ، وذلك حيث لا غناء ذاتي غير ذات المغني المطلق جل جلاله ، ولهٰذا فالإنسان في حاجة لبني جنسه ، وفي حاجة للنبات والطير والحيوان ، وفي حاجة للسمك والبحر وفي حاجة للهواء والطعام وفي حاجة للنور والضياء ، وفي حاجة للطاقة والنار ، وفي حاجة للتراب والماء ، وفي حاجة لكل ما يعد ويحصىٰ في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع .

المغني : هو من يغني بالصحة والعافية ، ويغني بالطمأنينة والطموح والأمل ، وبالعلم والحكمة ، وبالتذكر والتفكر ، والمغني بالحركة والسكون ، وبالحب والعاطفة وبالضمير الذي يجعله عادلاً إذا ما حكم بين الناس ، ومغني بالتزاوج والإنجاب ، ومغني بالتعاون بين من هم في حاجة .

المغني : هو الذي بيده التوبة والرحمة والمغفرة ، فيغني بها من هم في حاجة إليه وإليها ، وهو المغني بالثواب والعقاب ، وهو المغني بالحياة والممات والبعث ، وبالنار لمن كفر وبالجنة لمن آمن وكان من المستخلفين فيها فكان من الوارثين في الدارين .

إنه المغني بالبدن والروح والنفس والعقل ، وهو المغني بالبصر والسمع والذوق والشم واللمس وكل ما يؤدي إلىٰ الإدراك الظاهر والباطن (المتوقع وغير المتوقع) ، إنه مغني الأذن بالسمع ومغني السمع بالإنصات ، ومغني العين بالبصر ومغني البصر بالرؤية ، ومغني الرؤية بالمشاهدة ، ومغني العقل بالإدراك ، ومغني الإدراك بالملاحظة ، وهو المغني الذي يغني العقل بالتدبر وبالتفكر والتذكر والاستبصار والاستنباط والاستقراء .

المغني : هو الذي يغني الخليفة بالإيمان والهداية من الضلال ، ويغنيه بحكم العدل كلما حكم بين الناس ، ومغنيه بالصدق من الكذب ، وبالأمانة من الخيانة ، ومن العفة من الزنا ، وهٰكذا فهو المغني من الغش والتزوير والتطفيف والخيانة وشرب المسكرات ، ومغني بالانتهاء والتجنب عما نهىٰ .

المغني : هو الذي يغني الأبناء بالأبوة والأمومة والأخوة والعمومة والخؤولة ، ويغني الآباء بالتزاوج والإنجاب ، ويغني الإنسان بالإسلام ويغني بالإسلام القلوب سبحانه إنه ربِّي جل جلاله .

المغني : هو المالك الذي يملك أصل الموارد ، وهو علمه سبحانه المطابق لإرادته ، فإن شاء أعطىٰ ، وإن شاء منع ، فمن أعطاه أغناه ، ومن منعه افتقر ، يقول المغني المالك سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [1] ، « شبهت مقدوراته تعالىٰ الغائبة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع وفور رغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه بحيث متىٰ تعلقت الإرادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية فذكر الخزائن علىٰ طريقة الاستعارة التخيلية ، وجوز أن يكون قد شبه اقتداره تعالىٰ علىٰ كل شيء وإيجاده لما يشاء بالخزائن المودعة فيها الأشياء المعدة لأن يخرج منها ما شاء فذكر ذلك علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية ، والمراد ما من شيء إلا ونحن قادرون علىٰ إيجاده وتكوينه» [2] .

وأمره في الخلق أنه مُغْنٍ بمعنىٰ أن أغنىٰ مخلوقاته بأن جعلها قادرة علىٰ الاكتفاء بالعمل والتعاون من أجل ديمومة الحياة ، فالإنسان أغناه ٱلله بأن جعل خلقه متكاملاً فجعل له عينين يبصر بهما ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [3] ، وآذاناً يسمع بها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [4] ، وعقلاً

(1) الحجر ، 21 .
(2) تفسير الآلوسي ، ج 9 ، ص 471 .
(3) البلد ، 8 .
(4) المؤمنون ، 78 .

يفكر به ، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ (1) ، ولساناً يتكلم به ، ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (2) ، وقلباً يشعر به فيحب ويكره ويفرح ويحزن ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) ، ويداً لأداء الأعمال ، ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (4) ، ورجلاً يسعىٰ بها ، ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ ﴾ (5) ، وغير ذلك من صور الخلق المتكامل صورة مبهرة تدل علىٰ الاكتمال وتشير إلىٰ الاكتفاء عطاءً من المغني جل وعلا .

وجعل فيه إضافة إلىٰ ذلك غريزة البقاء والتكاثر ، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (6) ، وهـٰذا من المغني وبخلافه لن يكون للإنسان وإن سعىٰ امتلاك البنين أو الحفدة لأن مادة التكاثر من عطاء المغني سبحانه ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (7) ، وهو إما يغني الإنسان هبةً منه بنين فقط أو بنات فقط أو يجمعهما ، ويمنع من يشاء لأنه هو المغني ولا أحد سواه إن شاء أغناك بما تحب وإن شاء أفقرك ، ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (8) .

(1) المدثر ، 18 .
(2) البلد ، 9 .
(3) الحج ، 46 .
(4) يس ، 35 .
(5) الأعراف ، 195 .
(6) النحل ، 72 .
(7) الواقعة ، 58ـ59 .
(8) الشورىٰ ، 49ـ50 .

إضافة إلىٰ الأعضاء الداخلية ووظائفها المعقدة ، فالإنسان أغناه المغني في ذاته فهو غير محتاج لأحد ليتنفس عنه أو لينظر عنه أو ليفكر بدلاً منه ، أو ليأكل نيابة عنه ، فالاغتناء هنا جاء من المغني للمخلوقات بأن جعل لها كفاية تغنيها عن الحاجة إلىٰ الغير في الخلق ، وجعل بينها تعاوناً بالحاجة والفطرة ليغنيها عن العازة والفاقة ، ولذا فالحاجة هي الغريزة التي تدفع الإنسان إلىٰ القيام بكل ما يشبعها مهما تعددت وتطورت وتنوعت مستعيناً بما أعطاه المغني من نعم .

وهو مُغْنٍ لكل مخلوقاته الأخرىٰ كالحيوانات والنباتات ، فالحيوانات جعل لكل منها هيئة خلقية تغنيها عن الحاجة إلىٰ حيوان آخر أو إلىٰ الإنسان لتعيش ، فالحيوانات البرية جعل لها أشكالاً تغنيها فتمنحها قدرة المحافظة علىٰ ديمومة حياتها ، فجعل لبعضها مخالب تصطاد بها وتدافع عن نفسها ، وكل ذلك في دائرة النسبية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [1] ، وجعل لبعضها قروناً ، ثم خلق بعضها علىٰ هيئة تغنيها عن الحاجات الملحة ، فخلق الإبل بالهيئة التي نعرف لتكتفي خارجياً بتحمل الصحراء ويسهل عليها السير فيها ، وداخلياً وذلك بقدرة إضافية علىٰ خزن الماء والطعام واستخراجه عند الحاجة ، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [2] ، أليس هـٰذا صورة مذهلة للاغتناء يضربها المغني لقوم يعقلون .

أما الحيوانات البحرية فقد جعلها قادرة علىٰ استخلاص الأوكسجين من الماء بوسائل متعددة ، ومنها الأسماك والبرمائيات وأغناها بالقدرة علىٰ اختزان الهواء لفترات طويلة ، ومنها ما جعل فيها إمكان امتصاص الأوكسجين من الماء من خلال مسامات جلدها .

---

(1) الأنعام ، 146 .
(2) الغاشية ، 17 .

أما النباتات فقد خلق لها هيئة خاصة تساعدها علىٰ الاغتناء بذاتها علىٰ المعيشة بأن جعل لها أوراقاً خضراء هي الأساس في منح النبات الغذاء الكافي لديمومة حياته . كذلك جعل فيها غريزة البقاء والتكاثر بالنسبة للحيوانات وبالنسبة للنباتات ، فالحيوانات خلقها أزواجاً وأغناها بأجهزة تناسلية متكاملة الخلق ، ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] .

وفي النبات نجد أن المغني جعله علىٰ نوعين ذكري وأنثوي وهٰكذا خلق الأزواج كلها ، ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] ، ولكونه ثابتاً مستقراً في موضع واحد سخر المغني سبحانه وتعالىٰ الرياح لتقوم بدور التلقيح ونقل السحب إلىٰ الأرض الجرز ، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [3] ، وجعل بعض النباتات حاملة للقاح الذكري إلىٰ جانب الوعاء الأنثوي . فالمغني أغنىٰ المخلوقات بمنحها مقومات الاستغناء الخَلقية عن الغير .

أما في المعايش فالمغني أغنىٰ خلقه بأن منحهم القدرة علىٰ كسب الرزق وعلمهم سبله ، ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [4] ، والآية واضحة

(1) الأنعام ، 143ـ144 .
(2) الذاريات ، 49 .
(3) الحجر ، 21ـ22 .
(4) المائدة ، 4 .

الإشارة إلىٰ تعليم المغني بعض سبل الحصول علىٰ موارد العيش في قوله تعالىٰ : ﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ والإشارة هنا إلىٰ العلم الموهوب للإنسان ، فالتعليم هنا لم يكن بمعنىٰ التدريب ، وإنما بمعنىٰ المعرفة .

والإنسان يمتلك العقل والقدرة الجسدية التي تعينه علىٰ كسب رزقه فهو مستغنٍ عن الحاجة إلىٰ الغير ، والحيوانات جعل فيها المغني الغريزة التي تمكنها من البحث عن طعامها الذي يجعلها تستغني عن عون غيرها من الحيوانات فما من حيوان يُترك للبحث عن طعامه إلا وجد بما أغناه ٱلله فمنحه قدرة البحث والتحصيل .

والنباتات جعلها قادرة علىٰ القيام بعملية التبادل الضوئي وجعل في خلقها مقومات الاستغناء فجعل فيها اليخضور وهي الأساس في عملية صنع الغذاء في النباتات .

ثم أتم المغني سبحانه وتعالىٰ كل ذلك بأن أغنىٰ الأرض فوفر للمخلوقات عليها متطلبات العيش ، فوهبها تلك المواد الطبيعية الهائلة التي لم يزل الإنسان ينهل من خيراتها فأغناها بمصادر الطاقة المكتشفة منها كالنفط واليورانيوم والفحم والغاز والزيت إضافة إلىٰ الوقود البدائي الممثلة بالغابات المنتشرة في بقاع الأرض ، وغير المكتشف والمغني أعلم به .

ثم أغنىٰ الأرض بالماء الذي هو أساس كل شيء حي ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، فجعل فيها الأنهار ، ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، وجعل فيها العيون ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ

(1) الأنبياء ، 30 .

(2) النمل ، 61 .

وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ (1) ، ثم أمد البقاع الأخرىٰ بالمطر ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (2) ، ويسر سبل العيش فبسط الأرض وسهل الاستفادة من خيراتها بأن جعلها ذلولاً ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (3) ، وما من جبل إلا وتجد في سفحه وادياً فيه سيل من الماء وبقربه أرض خصبة وخيرات أخرىٰ ذكرها المغني عز وجل في قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (4) ، وما من بحر إلا وتجد فيه من الخيرات والطيبات ما تعجز عن وصفه ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (5) .

وأوجد المغني علىٰ الأرض قوانين الطبيعة كقانون الجاذبية الذي خص المغني به الأرض ومن عليها بينما القمر ليس فيه هٰذه النعمة التي لولاها لما تمكن الإنسان من استعمار الأرض والخلافة فيها ، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (6) ، إلىٰ دقة حركة الأفلاك ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (7) ،

---

(1) يس ، 34 .
(2) الشورىٰ ، 28 .
(3) الملك ، 15 .
(4) الرعد ، 17 .
(5) النحل ، 14 .
(6) هود ، 61 .
(7) يس ، 38ـ40 .

وما ينتج عنها من تقدير الزمن ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [1] ، وحركة الليل والنهار ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [2] ، إلىٰ التبادل الضوئي إلىٰ قوانين الفيزياء كقانون المساحة السطحية الذي تسير به السفن في البحار ، ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [3] ، وزجا لفظة عربية تدل علىٰ التيسير والاستقامة والدفع كما تنص المعاجم العربية : زجَا الشَّيءُ يَزْجو زَجْواً وزُجُوّا وزَجاءً تَيَسَّر واسْتقام . . . ، والتَّزْجِيةُ دَفْعُ الشيء) [4] ، وفي تلك اللفظة إشارة واضحة إلىٰ تدخل القدرة الإلـٰهية في عملية إرساء السفن في البحر وذلك بالقوانين الطبيعة التي من أولها قانون المساحة السطحية ، كذلك فيها إشارة إلىٰ حركة الرياح ، والىٰ ذلك ذهب المفسرون فقالوا : « وأصل الإزجاء السوق حالاً بعد حال والمراد به الإجراء وكأن اختياره عليه لما أنه أدل منه علىٰ القسر وهو أوفق بالمقام وأعظم في الإنعام أي هو سبحانه وتعالىٰ القادر الحكيم الذي يجري لنفعكم السفن في البحر بالريح اللينة وبالآلات حسبما جرت به عادته تعالىٰ ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ تصريح بالنفع أي لتطلبوا من رزقه الذي هو فضل من قبله سبحانه أو من الربح الذي هو جل شأنه معطيه ، إِنَّهُ كَانَ (أزلاً وأبداً) (بِكُمْ رَحِيماً) حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه ، وهـٰذا تذليل فيه تعليل لما سبق من الإزجاء والابتغاء للفضل» [5] .

إلىٰ قانون مقاومة الجاذبية الذي به ترتفع الطائرات ، وقوانين الكيمياء

(1) البقرة ، 189 .

(2) لقمان ، 29 .

(3) الإسراء ، 66 .

(4) لسان العرب ، ج 14 ، ص 355 .

(5) تفسير الآلوسي ، ج 11 ، ص 16 .

وما ينتج عنها من مخلوطات وتفاعلات كيميائية أغنت الأرض فوفرت كثيراً من المتطلبات وسهلت حياة الإنسان في الأرض .

ولاشك أنه ما من مخلوق أو كائن أو شيء قادر علىٰ أن يغني كل هـٰذه المخلوقات بكل هـٰذه الموارد إلا ٱلله المغني القادر الغني الذي يمنح كل هـٰذا ولا ينقص من ملكه شيء فتبارك الملك عز وجل ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

وبعد فهو مغني الأشياء ، فقد أغنىٰ الأرض بالخيرات وأغنىٰ المخلوقات بالقدرة علىٰ الاستفادة من هـٰذه الخيرات ، فمنح الإنسان عقلاً يجعله قادراً علىٰ استخراج مواهب المغني سبحانه ، وأغنىٰ بقية المخلوقات بالغرائز اللازمة لتحقيق الاكتفاء والعيش علىٰ الأرض .

والمغني بعد ذلك جاعل الغنىٰ في الشيء : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (2) .

« فالخبز لا يشبع والماء لا يروّي كما أنّ المال لا يغني ، والعدم لا يفقر ، لأن اللّه هو المطعم المسقي وهو المشبع والمروي ، كما هو المغني المفقر بما شاء ، كيف شاء وهو جاعل الشبع والري في المطعوم والمشروب ، وفي النفس بالغنىٰ والفقر لحكمته ورحمته ، كما يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وهـٰكذا كل في فلك يسبحون سبحانه المغني القادر جل جلاله .

ويمكن للخليفة أن يكون مغنياً بأن يكسب أعماله صفة التمام ، وهو ما يمكن أن يقوم به البشر كما يخبر سيد البشر محمد عليه الصلاة

(1) الملك ، 1 .
(2) طه ، 50 .

والسلام : « وإن العبد إذا عمل عملاً أحب ٱلله أن يتقنه» [1] ، فيكسبه القدرة علىٰ الاستغناء عمن يتمه ، كما يمكن للخليفة أن يكون مغنياً بتيسير الموارد وحسن توظيفها من أجل خدمة الناس .

وفي لسان العرب : « رَجُلٌ مُغْنٍ أَي مُجْزِىءٌ كافٍ ، لذا يقال الغَناءُ مصدرُ أَغْنىٰ عنْكَ أَي كَفاكَ [2] ، وبهـٰذا يَكُونُ الْمُغْنِي بِمَعْنَىٰ الْكَافِي [3] . وقد ورد المُغني بمعنىٰ الكافي في القرآن الكريم بأسلوبين ، الأول مباشر ، والثاني إيحائي ، فأما المباشر فمن آياته قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [4] ، أَلَيْسَ ٱللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، ذكره بلفظ الاستفهام المراد منه تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر علىٰ كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالىٰ عالم حاجات العباد وقادر علىٰ دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً حتىٰ يمنعه بخله وحاجته من إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هـٰذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ولما ذكر ٱلله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ يعني لما ثبت أن ٱلله كاف عبده كان التخويف بغير ٱلله عبثاً وباطلاً ، أما لفظة عِبَادِهِ فالمراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم كفاه النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالىٰ كافيك يا محمد كما كفىٰ هـٰؤلاء الرسل قبلك [5] . فالكفاية في هـٰذه

---

(1) الجامع الكبير للسيوطي ، ج 1 ، ص 5549 .
(2) لسان العرب ، 15 ، 135 .
(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 216 .
(4) الزمر ، 36 .
(5) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 265 .

الآية شكل من أشكال الاغتناء ، وذلك بصرف العبد عن الحاجة إلىٰ غير المغني جل وعلا .

وقد تكون الكفاية تحقيقية ، أي بتحقيق مطلب ما مادي كان أم معنوي ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (1) ، كانت الكفاية بتحقيق النصر ، وَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱلله تسلية لرسوله محمد ﷺ ، وتفريحاً للمؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والإعزاز علىٰ أبلغ وجه وذلك باستخدام السين مع الكفاية لدلالة علىٰ تحقق الوقوع البتة ، أو للتذييل الآتي حيث أن السين في المشهور لا تدل علىٰ أكثر من التنفيس عقب ذكر ما يؤدي إلىٰ الجدال والقتال ، والمراد سيكفيك كيدهم وشقاقهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال ، وتلوين الخطاب بتجريده للنبي ﷺ مع أنه سبحانه أنجز وعده الكريم بما هو كفاية للكل ، وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المشاق ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالىٰ في الكفاية والنصرة في حقه أتم وأكمل ، وَهُوَ السميع العليم الذي لا تخفىٰ عنه خافية في الأرض ولا في السمـٰوات العلىٰ وما بينهما سبحانه جل جلاله .

وقد تكون الكفاية المغنية لغاية الحفظ والرعاية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (2) ، وكفىٰ ٱلله المؤمنين عن القتال أي أغناهم سبحانه عنه فحفظهم وحفظ أموالهم ونساءهم وأولادهم من أن يصيبهم مكروه ، فيكون قد تحقق لهم ما يريدون بدون قتال ، والمغني قادر علىٰ جعلهم يقاتلون إذا أمرهم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ

(1) البقرة ، 137 .
(2) الأحزاب ، 25 .

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (1) وفي مثل هـٰذا الأمر في وصفه للملائكة قال تعالىٰ : ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (2) ، لـٰكن أراد تحقيق النصر لهم وحفظهم من مكاره القتال وذلك بالكفاية التي أشارت إليها الآية كنوع من أنواع الاغتناء .

وقـد تكـون الكفـايـة المعنيـة بمعنـىٰ سـد النقـص كمـا يشيـر قـولـه تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (3) ، فالكفاية هنا سد الحاجة وفوقها الغنىٰ بناءً علىٰ أن الزيادة علىٰ نفي الحاجة والإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالاً بعد حال ، ويقال مد في السير إذا استمر عليه ، وامتد بهم السير إذا طال واستمر ، وعن بعضهم ما كان بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمده يمده إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه : مده مداً .

وقد تأتي الكفاية إيحائية في الآيات الكريمة وهي النوع الثاني علىٰ ما ذكرنا سابقاً ، أي أن توحي الآية بكفاية المغني سبحانه لعباده ، وهو كثير في القرآن الكريم ، منه قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (4) ، فالمغني سبحانه كفىٰ عباده عن طلب المطر من غيره وذلك بأن أنزل من السماء الماء ، وكذلك كفاهم عن طلب المرعىٰ إذ أغنىٰ الأرض بالأعشاب الطبيعية فما أن ينزل المطر ثم تشرق الشمس حتىٰ تخضر الأرض كما ترىٰ أعين المؤمن والكافر علىٰ حدٍّ سواء ودون تدخل من

---

(1) التوبة ، 123 .
(2) التحريم ، 6 .
(3) آل عمران ، 123ـ125 .
(4) الحج ، 63ـ64 .

أحد لأن ذلك كله من كفاية المغني سبحانه وتعالىٰ ، فالكفاية هنا أوحت بها الآية مع دلالة واضحة إلىٰ أن مصدرها المغني تتجلىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

ثم أن أنزل المطر بما يحقق الكفاية كما يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ ، أي بحسب الكفاية لزرعكم وثماركم وشربكم ، لأنفسكم ولأنعامكم .

ثم أن المغني كفانا كثيراً من الأمور ، فهو الذي سخر لنا ما لا نستطيع أن نسخره لخدمتنا فحقق لنا الكفاية ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، أي جعل ما في الأرض من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف تشاءون .

والمغني كفىٰ عباده عن كثير فخفف عنهم ، وصرفهم عن البحث عن من يكفيهم ، فهو الذي كفاهم بأن مد لهم الظل ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (2) . وفي الآية دلالات عميقة من المغني عز وجل ، فقوله أَلَمْ تَرَ يوحي بالرؤية البصرية التي تجعلك مستشعراً لكفاية المغني وأنت ترىٰ الظل وهو يمتد فيكفيك عن البحث عما يقيك حر الشمس ، وفيه دلالة علىٰ الرؤية العقلية التي توحي بالقدرة العظيمة للمغني عز وجل في التأثير في الظل من حيث حرمته ، وتصور لو أن الظل ساكن ! لكان الناس بحثوا عمن يمد لهم الظل وهو أمر كفاهم المغني عنه .

وفي الآية بيان نعم ٱلله تعالىٰ بالظل ، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبيههم لهـٰذه النعمة وتمكينهم من الاستدلال بها علىٰ وجود الصانع .

---

(1) الحج ، 65 .
(2) الفرقان ، 45 .

والظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلىٰ طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهـٰذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية ، فإذاً أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (1) ، والظل الممدود المستمر في الاتصال دون انقطاع وذلك بالديمومة الأبدية .

ثم أنه كفانا عن طلب الراحة فجعل لنا الليل وقدره سكناً ، ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، فانظر إلىٰ نفسك أيها العبد المؤمن حين يجن الليل هل تطلب من أحد أن يهبك النوم ؟ أم أن المغني كفاك هـٰذا بجعل الليل سكناً ؟

وهو الذي كفىٰ عباده البحث عمن يحملهم في البحر فأنعم عليهم بتقدير حمل مياه البحار والأنهار لسفنهم ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (3) ، وتشير الآية الكريمة إلىٰ أن حمل البحر للفلك وحركتها فيه إنما كانت بنعمة المغني الذي كفىٰ عباده هـٰذا الأمر الصعب .

وهـٰكذا فإن المغني كافٍ عباده ما داموا علىٰ الطاعة والشكر ، فإذا كفروا منعوا الكفاية ، وقد ضرب لنا المغني سبحانه مثلاً عن قرية قد تكون مخصوصة ، وقد تكون لعموم العباد وغير مختصة بقوم أو بقرية فقال : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

(1) الواقعة ، 30 .
(2) النمل ، 86 .
(3) لقمان ، 31 .

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (1) ، فالمثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن موجوداً وقد يضرب بشيء موجود معين ، فهٰذه القرية التي ضرب ٱلله بها هٰذا المثل يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً ويحتمل أن تكون قرية معينة ، وعلىٰ هٰذا التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها ، وذكر ٱلله تعالىٰ لهٰذه القرية صفات منها :

الصفة الأولىٰ : كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (2)

والصفة الثانية : قوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾، معناه أنها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلىٰ الانتقال عنها لخوف أو ضيق ، وإن كان المراد أنهم لا يحتاجون إلىٰ الانتقال عنها بسبب الضيق ، فهٰذا هو معنىٰ قوله : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وعلىٰ كلا التقديرين فإنه يلزم التكرار .

وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ إشارة إلىٰ الكفاية .

قال المفسرون وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ السبب فيه إجابة دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو قوله : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (3) ، ثم أنه تعالىٰ لما وصف القرية بهٰذه الصفات الثلاث قال : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعم جمع نعمة والمعنىٰ أن أهل تلك القرية كفرت بالنعم فحق قول ٱلله عليها .

وعلىٰ الخليفة تحقيق الكفاية لمن يعيش في معيته فيكون مغنياً بالإضافة ، وبكل أنواع الكفاية مادية كانت من حاجات العيش والنمو والتطور ، وهو بذلك

---

(1) النحل ، 112 .

(2) العنكبوت ، 67 .

(3) إبراهيم ، 37 .

يحقق لهم الكفاية التي تغنيهم عن التفكير بهـٰذه الأمور ، الأمر الذي يدفعهم إلىٰ التفكر والتأمل لإعمار الأرض وتحقيق العدل عليها ومنع الفساد فيها . وكذلك علىٰ الخليفة أن يحقق الكفاية المعنوية بأن يبث ثقافة القناعة والرضا وغنىٰ النفس فتحقق الكفاية عند كثير من العباد فيستغنوا عن زوائد المتطلبات ومباهج الرغبات مما يجعل الإنسان مستغنياً بما عنده عن ما عند غيره .

والمغني هو الذي يصرف الأشياء ، فالعرب تقول : أَغْنِ عَني شَرَّكَ أَي اصْرِفْه [1] ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ ﴾ [2] .

المغني هو الذي يصرف عن ما يشاء ، فهو الذي يصرف الكيد عن عباده المؤمنين ، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [3] ، والصرف هنا بمعنىٰ إقرار منفرات في قلب العبد تعينه علىٰ رد الكيد ، وكان قد حصل في حق يوسف عليه الصلاة والسلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة ، ومتىٰ كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك ، فطلب من ٱلله سبحانه وتعالىٰ أن يحدث في قلبه أنواعاً من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هـٰذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خالياً عما يعارضه ، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [4] .

وصرف الكيد من أكبر نعم المغني جل وعلا لأنه يحل في أوقات عصيبة

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 135 .
(2) الجاثية ، 19 .
(3) يوسف ، 33 .
(4) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 37 .

علىٰ المؤمنين أولاً ، ولعدم العلم به من قبل المؤمنين ثانياً ، فالكيد في الغالب ما يكون سرياً خفياً ، لـٰكن العالم المحيط لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (1) ، فهو المطلع علىٰ هـٰذا الكيد وقد أغنىٰ عباده المؤمنين فصرف عنهم شر هـٰذا الكيد ، يقول المغني سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (2) ، لا يضركم كيدهم لأنه أحاط بهم وبكم ، فصرف كيدهم عنكم فأبطله ، وأحسن إليكم لصبركم وتقواكم لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ومن تحلىٰ بذلك كان في كنف ٱلله تعالىٰ ، وحمايته من أن يضره كيد عدو .

وإذا كنا عرضنا للصرف المعنوي ، فإن المغني قادر علىٰ الصرف المادي أيضاً لأنه القادر القوي ، فقد صرف كيد هدم الكعبة عندما شرع في التنفيذ مع عجز العباد آنذاك عن القيام بحمايتها ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ (3) ، « اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير علىٰ الخفية ، إن قيل : فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا : نعم ، لـٰكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلىٰ نفسه وإلىٰ بلدته» (4) ، ولأنه أراد صرف الناس عن الكعبة صرف المغني سبحانه وتعالىٰ كيده عن بيته الحرام .

---

(1) آل عمران ، 5 .

(2) آل عمران ، 120 .

(3) الفيل ، 1ـ5 .

(4) تفسير الرازي ، ج 7 ، ص 214 .

والمغني هو الذي يصرف عن عباده المؤمنين عذاب النار برحمة منه ، فالله عز وجل كتب علىٰ العباد ورود النار فقال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (1) ، فالنجاة المذكورة في الآية تكون بصرف النار وعذابها عن هـٰؤلاء ، ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (2) ، فالصرف هنا غايته التكريم لهـٰؤلاء العباد المستخلفين فيها .

ولصرف المغني سبحانه وتعالىٰ غايات أخرىٰ ، منها تمييز الكفار من المنافقين ، ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (3) ، وظاهر الآية يدل علىٰ أن هـٰذا الصرف عقوبة لهم علىٰ انصرافهم ، والصرف عن الإيمان لا يكون عقوبة ، لأنه لو كان كذلك ، لكان كما يجوز أن يأمر أنبياءه بإقامة الحدود ، يجوز أن يأمرهم بصرف الناس عن الإيمان . ويحتمل هـٰذا الصرف وجهين : أحدهما : أنه تعالىٰ صرف قلوبهم بما أورثهم من الغم والكيد . الثاني : صرفهم عن الألطاف التي يختص بها من آمن واهتدىٰ (4) .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (5) ، فهي من آيات التأمل في غاية الصرف ، هل هي إرادة المغني بصرف بعض عباده عن

---

(1) مريم ، 71ـ72 .
(2) الفرقان ، 65 .
(3) التوبة ، 127 .
(4) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 189 .
(5) الأعراف ، 146 .

الإيمان إلىٰ الكفر ؟ وهـٰذا لا يليق برحمته وبكونه رباً للعالمين ! والجواب هو أن هـٰذه الآية فيها مسائل منها :

المسألة الأولىٰ : اعلم أنه تعالىٰ لما ذكر في الآية المتقدمة قوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [1] ، ذكر في هـٰذه الآية ما يعاملهم به فقال : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أما قوله تعالىٰ سَأَصْرِفُ فإنه يتناول المستقبل وقد بين تعالىٰ أنهم كفروا فكذبوا من قبل هـٰذا الصرف ، لأنه تعالىٰ وصفهم بكونهم متكبرين في الأرض بغير الحق وبأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، فثبت أن الآية دالة علىٰ أن الكفر قد حصل لهم في الزمان الماضي ، فهـٰذا يدل علىٰ أنه ليس المراد من هـٰذا الصرف الكفر بٱلله وهـٰذا وجه .

والوجه الثاني : أن قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ مذكور علىٰ وجه العقوبة علىٰ التكبر والكفر ، فلو كان المراد من هـٰذا الصرف هو كفرهم ، لكان معناه أنه تعالىٰ خلق فيهم الكفر عقوبة لهم علىٰ إقدامهم علىٰ الكفر ، ومعلوم أن العقوبة علىٰ الكفر بمثل ذلك الفعل المعاقب عليه لا يجوز ، فثبت أنه ليس المراد من هـٰذا الصرف الكفر .

الوجه الثالث : أنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه فكيف يمكن أن يقول مع ذلك ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، فثبت أن حمل الآية علىٰ هـٰذا الوجه غير ممكن فوجب حملها علىٰ وجوه أخرىٰ .

فالوجه الأول : إن هـٰذا الكلام تمام لما وعد ٱلله موسىٰ عليه السلام به من إهلاك أعدائه ، ومعنىٰ صرفهم إهلاكهم فلا يقدرون علىٰ منع موسىٰ من تبليغها ولا علىٰ منع المؤمنين من الإيمان به ، وهو شبيه بقوله : ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(1) الأعراف ، 145 .
(2) الانشقاق ، 20 .

رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ (1) ، فأراد تعالىٰ أن يمنع أعداء موسىٰ عليه الصلاة والسلام من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة .

والوجه الثاني : سأصرف هـٰؤلاء المتكبرين عن نيل ما في آياتي من العز والكرامة المعدين للأنبياء والمؤمنين ، وإنما يصرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم ، وذلك يجري مجرىٰ العقوبة علىٰ كفرهم وتكبرهم علىٰ ٱلله تعالىٰ .

والوجه الثالث : أن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان . فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات ، فحينئذ يصرفهم ٱلله عنها (2) .

ومن غاياته استشعار النعم ، ففي اليوم الموعود وعندما ينعم المغني علىٰ عباده بأن يكتب لهم الجنة يصرف أبصارهم نحو أهل النار ليستشعروا النعم التي أنعم ٱلله سبحانه بها عليهم ، ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (3) ، ودليل علىٰ أن الصرف أنما كان بأمر المغني سبحانه وتعالىٰ هو استخدام الفعل بصيغة المبني للمجهول ﴿صُرِفَتۡ ﴾ أي أن الصرف لم يكن بمشيئتهم هم وإنما كان بمشيئة المغني جل وعلا ، وعلىٰ الخليفة فهم دلالات الآية واستشعار الفائدة من صرف العباد إلىٰ صور الثواب والعقاب لتكون لهم عبرة يعتبروا بها فيعوا واجباتهم ويعرفوا حقوقهم ، فالصرف هنا للوعي ، ﴿ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ (4) .

---

(1) المائدة ، 67 .
(2) تفسير الرازي ، 7 ، 247 .
(3) الأعراف ، 47 .
(4) الواقعة ، 12 .

وعلىٰ الخليفة امتلاك القدرة والوسيلة لصرف العباد تلقاء الخير ، وهو بذلك يغنيهم عن الشر المؤدي إلىٰ الفساد ، ثم علىٰ الخليفة السعي لصرف السوء بكل أنواعه عن الرعية لأن في ذلك إغناءً لهم .

المغني : هو مغني عن الحاجة إلىٰ غيره بما يمتلك من كمال الصفات والفعال ، فهو الذي حجته مغنية ، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) ، أي أو لم يكف بربك شاهدًا أن القرآن من ٱلله تعالىٰ . ومعنىٰ الكفاية هاهنا : أن ٱلله عز وجل قد بين من الدلائل ما فيه كفاية ، يعني : أو لم يكف بربك لأنه علىٰ كل شيء شهيد ، شاهد لا يغيب عنه شيء (2) .

كذلك ينص المغني علىٰ حجته البالغة المغنية بقوله : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3) ، هـٰذا بلاغ لّلنَّاسِ أي هـٰذا التذكير والموعظة بلاغ للناس ، فهي كفاية في الموعظة لما في الكتاب من بيان النواهي والأمر بتركها ، والرخص وكيفية أخذها ، كما أن فيه تفصيل كل شيء ، ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (4) ، فما من شيء إلا وتجد له ذكراً وتفصيلاً في الحجة البالغة المغنية عن غيرها لأنها من المغني المطلق كما ينص قول المغني جل شأنه : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ (5) .

---

(1) فصلت ، 53 .
(2) تفسير البغوي ، ج 7 ، ص 179 .
(3) إبراهيم ، 52 .
(4) الأعراف ، 145 .
(5) الأنبياء ، 106 .

وعليه فالقرآن حجة تفوق كفاية العبد ففيه من الأسرار ما يفوق قدرة كثير من العباد علىٰ الفهم والاستيعاب كما يقول المغني تعالىٰ جل وعلا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، يعني إن كان إنزال الآية شرطاً فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتىٰ يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهٰذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة وذلك لوجوه منها :

الأول : أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن من يؤمن بكتب ٱلله ويكذب بوجود هٰذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله .

الثاني : هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلىٰ المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوه في قُطر وسقط إيوان كسرىٰ في قُطر وانهدت الكنيسة بالروم في قُطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام .

والمغني يغني المعدم فيمنحه ما لا يملك أغنانا بالكليات والأساسيات ، فالمغني هو الخالق الذي أغنىٰ الإنسان بالخلق ، فمنحه الهيئة ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى

(1) العنكبوت ، 51 .

يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، فأغناه عن طلب ما عدمه من غير المغني ، ثم منحه العيون والسمع واللسان ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (2) ، والقـدرة علـىٰ التمييـز ، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (3) ، النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار ، وإلىٰ هٰذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر ، وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : « يا أيها الناس أنيبوا إلىٰ ربكم إن ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ ، يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ، يا أيها الناس اتقوا النار ولو بشق تمرة» (4) ، وهو حديث مؤكد بقول المغني عز وجل : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (5) .

والكلام عن الخلق الذي أغنانا به المغني سبحانه عن غيره كثير ولا يحصىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (6) .

ثم بعد الخلق أغنىٰ المغني عباده بالأرزاق من الأرض التي أخرجهم منها أي خلقهم منها خلقاً ، وخلق فيها خيراتها الكثيرة فهي أرض قابلة للاستعمار ،

---

(1) آل عمران ، 6 .
(2) البلد ، 8ـ9 .
(3) البلد ، 10 .
(4) جامع الأحاديث ، ج 23 ، ص 159 .
(5) الإنسان ، 1ـ3 .
(6) النحل ، 18 .

والإصلاح الذي هو من مهمة المستخلفين فيها ، قال تعالى في سورة الزمر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ ، وقال : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (1) ، فالأرض طبيعتها معطاءة تصلح للحياة عكس الكواكب الأخرىٰ حيث لم يجد العلماء حتىٰ الآن كوكباً يصلح لحياة الإنسان ، ولـٰكن بالبحث العلمي وعبر الزمن سيصلون فالأرض تناسب أنواع البشر ومختلف الزروع فتنتج ثماراً مختلفة في أوقات مختلفة ، وهـٰذا من آيات عطاء المغني أغنانا بها عن طلب كل هـٰذه الأشياء من غيره وكل ما سبق الحديث كان عطاء أي أن الإنسان يعدم وجود هـٰذه الأشياء لولا نعمة المغني جل شأنه .

والاغتناء بعد عدم شأن يختص به المغني جل وعلا ، فما من خلق أو شيء أو رزق صغيراً كان أم كبيراً إلا وكان مصدره المغني فيما هو مدرك من الحاجات ، وقد يكون الاغتناء بعد العدم من آيات المغني المفحمة لأعدائه ، كما في قصة سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام التي يذكرها المغني بتفصيلاتها لتكون عبرة للمعتبر يستدل بها علىٰ قدرة المغني سبحانه وسعة كرمه فقال عز من قائل : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ

(1) الأعراف ، 74 .

ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ [1] . فلو تنبه الغافل إلىٰ نوع هـٰذا العطاء لأيقن أن ربه المغني قادر علىٰ أن يهب أكثر من ذلك ، فكيف لمن يطلب أقل ؟ إنه المغني الذي يهب لمن يشاء ما يشاء فيغنيه عن الحاجة إلىٰ غيره .

وليس المعدم هو المخصوص بعطاء المغني ، فالعطاء عام لكل مناجٍ ربه معدماً كان أم غنياً ، لان المغني رب كل العباد فكرمه أكبر من أن يختص به عبد دون آخر ، والمغني هو المختص بإزالة النقائص والحاجات [2] ، فسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يكن معدماً ، وإنما كان فقيراً عندما دعا ٱلله أن يغنيه ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ۝٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ [3] ، فكان

---

(1) مريم ، 16ـ34 .

(2) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 1 ، ص 115 .

(3) القصص ، 24ـ28 .

الاغتناء بالزوجة والعمل من إجابة الدعاء ، وقد يكون الاغتناء بالتمكين ، ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) ، ويلفت النظر في هٰذه الآية أن خطاب يوسف عليه الصلاة والسلام كان موجهاً للملك الإنسان لطلب التمكين ، لٰكن الممكن في الآية هو المغني ! لا عجب في ذلك ، والتمكين الذي منحه المغني ليوسف عليه الصلاة والسلام يتمثل في حرية التصرف وحسن التدبير في خزائن الأرض ، وقد يكون التمكين من المغني بالقدرة وتمهيد الأسباب كما حصل مع ذي القرنين ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (2) .

وقد يأتي الاغتناء من المغني عز وجل عن طريق التسخير وهو تذليل الشيء وجعله منقاداً (3) ، فقد أغنىٰ المغني سبحانه عبده وخليفته داوود بتسخير قوىٰ الطبيعة لخدمته ، فقد سخر له الجبال ، ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (4) ، وألان له الحديد ، ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (5) ، ألان ٱلله له الحديد حتىٰ كان في يده كالشمع وهو في قدرة ٱلله يسير ، فإنه يلين بالنار وينحل حتىٰ يصير كالمداد الذي يكتب به ، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة ٱلله .

وقد يكون الاغتناء من ٱلله سبحانه وتعالىٰ بالجعل ، وهو إما جعل مادي

---

(1) يوسف ، 55 ـ 56 .
(2) الكهف ، 83 ـ 84 .
(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 50 .
(4) ص ، 17ـ18 .
(5) سبأ ، 10 .

كما أشار المغني سبحانه بقوله : ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ (1) ، فالمغني سبحانه أغنىٰ عبده بأن جعل له بستانين مثاليين من حيث الهيئة ومن حيث العطاء ، فهما يحويان الأعناب والرطب إشارة إلىٰ نوعين فصليين من الزروع ، فالعنب في الصيف ومع اكتمال نضوج الأعناب تظهر عراجين النخيل لذالك قال سبحانه كلتا الجنتين أتت أكلها لأن ثمار الكروم والنخيل تجتمع في وقت واحد مع اختلاف في نسبة نضوجهما ، فما أن تنتهي الأعناب حتىٰ تطيب الأرطاب لتدخل في فصل الشتاء ثمارها ، إشارة إلىٰ مثالية العطاء من حيث استمرار وجود الثمار في هاتين الجنتين . وهـٰذا أقصىٰ وجوه الغنىٰ من المغني سبحانه وتعالىٰ ، فما من إنسان إلا وتمنىٰ أن تكون عنده جنة واحدة مثل هـٰذه الموصوفة في الآية الكريمة .

وقد يكون الجعل المغني روحياً كما يشير قول المغني سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، فالجعل روحي يتحدد بالمَوَدَّةَ وذلك بأن يوافقوكم في الدين ، وعدهم ٱلله تعالىٰ بذلك لما رأىٰ منهم التصلب في الدين والتشدد في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطييباً لقولهم ، ولقد أنجز ٱلله سبحانه وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحابّ والتصافي ما تم (3) . وهـٰذا من عطاء المغني سبحانه فقد أغناهم عن المعاداة بالمودة ، وعن القطيعة بالصلة والرحمة .

وقد يكون الاغتناء بالهبة وهي « العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ

(1) الكهف ، 32ـ33 .
(2) الممتحنة ، 6ـ7 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 20 ، ص 462 .

والأَغْراضِ»[1] ، والهبة التي يخص بها المغني سبحانه بعض عباده ليغنيهم منها أنواع :

أ ـ تفضيليـة ، أي تفضيـل المُعطىٰ علىٰ غيـره لصـدق القـول والعمـل ، كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه وعلىٰ نبينا وجميع الأنبياء الصلاة والسلام ، ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾[2] ، أي وهب لهم من النبوة ما وهب .

ب ـ اكتمالية ، مثلما حدث مع سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾[3] ، ولهـٰذه الهبة أسبابها التي ذكرها القرآن ، فهي مما سأل موسىٰ ربه ، ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[4] ، والسؤال غايته مفسرة في آية أخرىٰ ، ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[5] ، وعند العودة إلىٰ التفاسير في هـٰذه الآية الكريمة وجدت أن بعض المفسرين كالرازي يذهب إلىٰ وجود لثغة في لسان موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ قوة الاثنين معاً عن الواحد في الدعوة ، ولـٰكن ربما يجد المتأمل أمراً آخر يتمثل في طبيعة القوم الذين أرسلوا إليهم (اليهود) ، فهـٰؤلاء كانوا علىٰ أشد ما يكون من الكفر ومخالفة أمر ٱلله إلا قليل منهم ، فقد أبدلوا نعمة ٱلله المنزلة من السماء إليهم بلا عناء ببعض ما يرون في الأرض من الثمار ، وكانوا يكفرون بآيات ٱلله ، وكانوا يقتلون النبيين كما وصفهم رب

(1) لسان العرب ، 1 ، 803 .
(2) مريم ، 49ـ50 .
(3) مريم ، 53 .
(4) طه ، 29ـ32 .
(5) القصص ، 34 .

العزة فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ (1) .

وهم بعد ذلك رغبوا عن عبادة ٱلله إلىٰ عبادة عجل من ذهب بوجود نبيهم هارون ، ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ (2) ، فمثل هٰؤلاء يلزمهم أكثر من نبي وهو ما حدث ، فأنبياء بني إسرائيل أكثر من حيث العدد من أنبياء الأقوام الأخرىٰ ، ربما يكون هٰذا من أسباب هبة المغني سبحانه لعبده موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (3) .

ج ـ روحية ، وهي تلك الهبة التي أغنىٰ بها المغني سبحانه نفوس عباده ليؤنسهم بها ، كما فعل سبحانه مع سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (4) ، واعلم أنه تعالىٰ بيّنَ انقطاع زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ربه تعالىٰ لما مسه الضر بتفرده ، وأحب من يؤنسه

---

(1) البقرة ، 61 .
(2) طه ، 88ـ91 .
(3) القصص ، 35 .
(4) الأنبياء ، 89ـ90 .

ويقويه علىٰ أمر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته ، فدعا ٱلله تعالىٰ دعاء مخلص عارف بأنه قادر علىٰ ذلك ، وإن انتهىٰ الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلىٰ اليأس من ذلك بحكم العادة . أما قوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما : أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما ذكره في جملة دعائه علىٰ وجه الثناء علىٰ ربه ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلىٰ ٱلله تعالىٰ .

والثاني : أي أنت الذي بأسبابك كان المستخلفون فيها وارثين في الدارين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [2] .

وعليه لم تكن حاجة زكريا إلىٰ الولد حاجة مادية بل كانت روحية لأجل الاستئناس من الوحدة وإغناء الروح بهٰذا الولد ، فاستجاب له المغني سبحانه فوهبه يحيىٰ هبةً روحية مميزة تشعر فيها بإرضاء المغني سبحانه لنفس عبده المؤمن ، فقد قال المغني الكريم لزكريا : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [3] ، والمواساة الروحية واضحة في الآية تتجلىٰ في إخبار المغني لعبده أنه سمَّىٰ الولد الموعود وفي ذلك أكبر أنواع

---

(1) المؤمنون ، 1ـ11 .
(2) الأعراف ، 100 .
(3) مريم ، 7 .

المواساة كون ٱلله سبحانه هو الذي يسمي الولد ، وهي تسمية مميزة لم يتسمَّ بها أحد من قبل وفي ذلك مواساة أخرىٰ ، ثم أشفىٰ المغني حاجة عبده وأكمل عطاءه عليه بأن قال ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ .

والهبة الروحية إغناء روحي لحاجات لا يقدر عليها إلا ٱلله المغني وحده ، وهي من عظيم الآيات علىٰ قدرته سبحانه وتعالىٰ ، فلو نظرنا في هبة المغني لسيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام لأيقن كل ذي لب أن له رباً عظيماً كريماً غنياً مغنياً ، لأن نوع العطاء لأيوب لا يجانسه فعل بشري بالمطلق ، يقول المغني سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] ، وهـٰذه الهبة آية من آيات العظمة ، فتكاد تُجمع كتب التفسير علىٰ أن المغني سبحانه أعاد إحياء أهله ممن أهلكوا أثناء محنته ، وقال صاحب البحر المحيط أن جمهور المفسرين يذهب إلىٰ : « أنه تعالىٰ أحيا له من مات من أهله ، وعافىٰ المرضىٰ ، وجمع عليه من شتت منهم» [2] ، بينما يذهب الرازي إلىٰ : « وهبه من كان حياً منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتىٰ بلغ عددهم عدد من مضىٰ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ فكان له ضعف ما كان» [3] وإن كان لنا تعليق علىٰ هـٰذه الاستشهادات وغيرها كثير أقول : إنها لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع .

والاغتناء قد يأتي بصورة التفوق علىٰ الغير ، فكثير من العباد غني بتفوقه علىٰ غيره وذلك بما أعطاه المغني من مميزات خاصة جعلته بمرتبة أعلىٰ من غيره فامتنع من الحاجة إلىٰ الغير ، وذكر لنا المغني بعض آيات الاغتناء بالتفوق ، فأشار إلىٰ سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى

(1) ص ، 43 .
(2) البحر المحيط ، ج 9 ، ص 343 .
(3) تفسير الرازي ، ج 17 ، ص 357 .

ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ (1) ، ثم ذكر سيدنا سليمان وأشار إلىٰ منحه التفوق في عدة آيات ، فأشار إلىٰ تفوقه بالعلم إلىٰ أن وصل به الأمر إلىٰ معرفة لغات ومنطق بعض المخلوقات الأخرىٰ من غير الإنسان ، فقد عرف لغة الطير ومنطقه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (3) ، وهـٰذا التفوق المميز قابله سليمان وغيره من عباد ٱلله الصالحين بالشكر والعمل الصالح وهو ما يجب علىٰ الخليفة القيام به ، فإذا كان المغني قد أغناه بالخلافة وميزه عن الآخرين بأن وهبه ما لم يهب غيره عليه أن يشكر المغني علىٰ هـٰذا التفوق ، والشكر اعتراف بالفضل والوحدانية مع فائق التسليم للمغني جل جلاله .

وهـٰذا التفوق المميز مذكور علىٰ وجهين : إيجابي وهو ما ورد مع سيدنا سليمان ، ثم سلبي وأمثلته في القرآن كثيرة منها تفوق قارون الذي جعله المغني سبحانه آية توضح بجلاء قدرته عز وجل علىٰ منح العباد الاغتناء المميز بالتفوق علىٰ الغير ويبقىٰ علىٰ الإنسان أن يعرف كيف يرد هـٰذا العطاء فإذا شكر زاده المغني ، ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ (4) ، وإذا كفر عاد عليه سوء عمله ، ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ

---

(1) سبأ ، 10ـ11 .
(2) النمل ، 15ـ16 .
(3) النمل ، 18ـ19 .
(4) إبراهيم ، 7 .

مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (1) ، لذا فإن علىٰ العبد عدم التفكير ولو بقليل من الأمر في أنه استغنىٰ بالمطلق عن المغني عز وجل كقارون ، فٱلله عز و جل هو المغني وهو القادر علىٰ الإفقار أيضاً وهـٰذا درس للخليفة عليه أن يعيه وأن يعلمه من معه ، فما من غنىً مطلق إلا غنىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وما من غني مطلق إلا ٱلله ، وما من مُغْنٍ مطلق إلا ٱلله جل شأنه . ولهـٰذا فما دونه لا يخرج عن دائرة النسبية .

ومثله في عطاء المغني وجحود العبد قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ (2) ، المال الممدود القابل للزيادة والمباركة في كل زمان ومكان ، سأرهقه صعوداً ، أي لن يبلغ مقصده وذلك لعدم تيقُّنِه لآياتنا الكريمة التي تستوجب الحمد والشكر وتستوجب الإصلاح لا الفساد .

---

(1) القصص ، 76ـ82 .
(2) المدثر ، 11 ـ17 .

وكل هـٰذه النعم هي عطايا المغني الذي أغنىٰ هـٰذا العبد بكل مقومات الغنىٰ من مال إلىٰ أبناء إلىٰ الجاه المميز لـٰكنه أبىٰ وكفر ، وبدل هـٰذه النعم بالجحود والنكران .

أما بنو إسرائيل فإنهم نموذج للتعالي علىٰ عطاء الغني وتبديله ، فقد أغناهم ٱلله عن طلب حاجات الدنيا من مأكل ومشرب ، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (1) ، وهـٰذه النعم هي من أعلىٰ مراتب الاغتناء فما من حاجة من حاجات المعيشة إلا وأغناهم المغني عن الاحتياج إلىٰ غيره في قضائها ، إلا أنهم أبوا هـٰذا الاغتناء وأبدلوه بالأدنىٰ ، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ (2) .

ومن صور الاغتناء التي اختص بها المغني تفرداً وتحديداً للمقدار ، الاغتناء بالبركة ، لأن البركة من خاص أفعاله لا يشترك معه فيها أحد ، والبركة هي : « الزيادة والنماء من حيث لا يوجد بالحس ظاهراً ، ويوصف بها كل شيء لزمه وثبت فيه خير إلـٰهي . وليس لضدها اسم معروف ، فلذلك يقال فيه : قليل البركة ، ولا يسند فعل البركة إلا إلىٰ ٱلله ، فلا يقال : بارك زيد في الشيء ، وإنما يقال : بارك ٱلله فيه» (3) . ولهـٰذا فالبركة مدد في الطعام

---

(1) الأعراف ، 160 .

(2) البقرة ، 61 .

(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 96 .

والرزق والعلم والصحة ، وبركة في الحركة والعمل والفعل . قال تعالىٰ : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [1] ، فيربي الصدقات يعني يضاعف علىٰ أصحابها في الدنيا والآخرة ، يقول الرسول محمد الصادق عليه الصلاة والسلام : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ كُنْتُ لَحَالِفًا عَلَيْهِنَّ لا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا» [2] .

أنواع الاغتناء :

والمغني هو الوهاب لأنواع العطاء ، فمن أنواع الاغتناء ما هو بالمادي ، فهُوَ الَّذِي جَبَرَ مَفَاقِرَ الْخَلْقِ ، وَسَاقَ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، فَأَغْنَاهُمْ عَمَّا سِوَاهُ [3] ، يقول المغني عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ فٱلله هو المغني الذي له الغنىٰ التام المطلق من كل الوجوه وهو المغني جميع خلقه ، غنىً عاماً [4] ، فهو الذي وهبهم العام والخاص من الحاجات ، فمن العام هو الذي أغناهم بالكون وما فيه ، فجعل الشمس والقمر ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [5] ، وهو الذي تكفل بالمطر ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [6] ، وهو الذي أتم صورة الخلق ووهبهم الحواس ، ﴿ قُلْ

---

(1) البقرة ، 276 .

(2) مسند أحمد ، 3 ، 208 .

(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ج 216 .

(4) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 51 .

(5) يونس ، 5 - 6 .

(6) النحل ، 10ـ 11 .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [1] ، ومن الخاص وهبهم كل حاجاتهم التي دعوا ٱلله مخلصين فأجابهم وهـٰذا مختص بكل عبد وبحاجاته ، فمنهم من يطلب اغتناء المال ، ومنهم من يطلب اغتناء الذرية ، ومنم من يطلب جاهاً والمغني قادر علىٰ أن يهبهم كل حسب طلبه ما أخلصوا الدين لله ، إنه المالك بالمطلق لكل قول وفعل وأمر وملك وهو العزيز الحكيم .

وهناك الاغتناء الروحي ، فهو المغني لخواص خلقه ، بما أفاض علىٰ قلوبهم ، من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية [2] . وأوجه الاغتناء الروحي عديدة منها :

1 ـ هو الذي أغناهم بالهدىٰ ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [3] .

2 ـ فأنزل لهم الكتب السماوية المغنية عما سواها ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [4] .

3 ـ هو الذي أغنانا بالخلافة علىٰ الأرض : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [5] .

(1) الملك ، 23 .
(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 51 .
(3) التوبة ، 33 .
(4) آل عمران ، 7ـ8 .
(5) فاطر ، 39 .

4 ـ أغنانا بالصلاة ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (1) . والصلاة من ٱلله رحمة ، ومن حلت عليه رحمة ٱلله أغنته عن الحاجة إلىٰ أي شيء سواها .

5 ـ أغنانا بالسكينة العامة والخاصة ، فمن العامة ما شملت جميع المؤمنين ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (2) . ومن الخاصة ما شملت الزوج زوجه ، ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (3) .

6 ـ أغنانا بالألفة ، وهو أمر اختص به وحده ولم يشترك معه في ذلك أحد ، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (4) .

وهناك الاغتناء بالانبساط العلمي والجسمي ، وقد خص ٱلله به قليلاً من عباده خصوصاً ممن أخلصوا له القول والعمل ، كما خص طالوت بالجمع بين الاغتناء الروحي والمادي فقال عز من قائل : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (5) ، فقد وهبه

---

(1) الأحزاب ، 43 .
(2) الفتح ، 4 .
(3) الأعراف ، 189 .
(4) الأنفال ، 63 .
(5) البقرة ، 247 .

وأغناه المغني سبحانه بالعلم وهو اغتناء روحي ، ثم أغناه بالقوة الجسدية فجمع بذلك بين الاثنين وعلىٰ وجه الخصوص من بين كثير من أقرانه آنذاك ، ودليل ذلك تعجب بعضهم من اختياره ملكاً عليهم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ ، ثم الإجابة الدالة علىٰ أمر المغني بالجمع بين المادي والمعنوي من العطاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾ .

كذلك خص المغني عبده الاسكندر : ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ﴾ ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ (1) .

وأجمع المفسرون علىٰ أن هـٰذا الاسكندر إما نبي أو صالح ، فقال بعضهم : إن الذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً ، ومنهم من قال إنه كان عبداً صالحاً ، ومع ذلك فلم ينص عليه جل جلاله بذلك وضوحاً ، وقد جمع بين الاغتناء الروحي الممثل بالإيمان بالله وبقدرته ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾ ، والاغتناء المادي الممثل بالقوة التي أغناه المغني بها من دون كثير من خلقه ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ .

---

(1) الكهف ، 83ـ97 .

والمغني بعد ذلك مُغْنٍ بالحساب لعباده المؤمنين ، فهو الذي يضاعف الحسنة ، فالمعلوم أن لبني آدم ميزاناً توزن به الأعمال يوم القيامة ، والإنسان في ذلك اليوم فقير مهما كانت أعماله إلا برحمة ٱلله التي تغنيه وتثقل كفة ميزان الأعمال الحسنة له ، وأول وجوه الاغتناء يتمثل في تقدير العمل ، إذ يشعر الإنسان أن أعماله الحسنة ما هي بالثقل الذي يرجح كفة ميزان أعماله ، لـٰكن المغني يقدر غير ذلك ، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (1) .

ثم تأتي صور المضاعفة كشكل من أشكال الاغتناء ، ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، فهو الذي يغني المنفقين فيضاعف الحساب جزاء الإنفاق للعموم ، ثم يزيد في هـٰذه النسبة لمن يشاء ، فمن يمكن أن يكون من هـٰؤلاء المضاعف لهم فوق ذلك ؟ المغني سبحانه عالم خبير بعباده ، فهو يضاعف للمحتاج إلىٰ المضاعف في ميزانه من المؤمنين ، ويضاعف كذلك لغير المحتاجين كرماً منه ، فمن هم الذين لا يضاعف لهم إلا علىٰ قدر النسبة التي أقرها المغني لعموم الناس ؟

ومن أشكال المضاعفة تقدير القرض الحسن ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (3) .

ونتيجة ذلك الاغتناء لا محالة لأن المغني نسب القرض إليه ، ثم ذكر أمر المضاعفة بدون تحديد سقفها ، وفي ذلك تشويق للمُقرض إذ ستبقىٰ مخيلته تبحث عن قيمة المضاعفة الموعودة ، وكلما استذكر كرم ٱلله كلما شعر بالكثرة وطلب المزيد ، فسبحان المغني .

---

(1) النور ، 15 .
(2) البقرة ، 261 .
(3) الحديد ، 18 .

اللهُمَّ يا المغني أغننا بحلالك عن حرامك ، وبك عمن سواك ، واجعلنا من المستعففين الذين تعفهم ، واكتبنا من المستغنين الذين أغنيتهم !

اللهُمَّ لا غنىً لنا عن رزقك ورحمتك وإحسانك ، وأنت الغني عن العالمين ، والمغني للأولين والآخرين ، فنسألك أن تغنينا بكل خير وتمنع عنا كل شر في كل سماء وبحر وبر !

اللهُمَّ يا الغني أغننا بتوحيدك وبالصلاة والسلام علىٰ رسولك محمد عليه الصلاة والسلام ، واحشرنا في زمرته غير ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين فنسألك هـٰذا الغنىٰ يا المغني ، واجعل اللهُمَّ غنانا من لدنك في نفوسنا ، واغرسه في قلوبنا ، فمن كان غناه في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا ، إنك الغني الحميد !

اللهُمَّ يا الغني يا الحميد يا المبدئ يا المعيد يا الرحيم يا الودود أغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك وجودك وحلمك وحكمتك وعلمك وكرمك وقوتك ومقدرتك وعزتك إنك أنت الغني سبحانك ، وأسألك يا المغني أن تغنينا بالقرآن ، فوٱلله ما دون القرآن من غنىً ولا بعده من فاقة ، اللهُمَّ أغننا به إنك الغني الحميد !

المانع جل جلاله

اسم المانع من أسماء ٱلله وصفاته الحسان جل جلاله .

المانع : هو « الّذي يَمْنَعُ منِ اسْتَحقَّ المَنْعَ » [1] .

المانع : هو الحائل بين ما يجب وبين ما لا يجب ، وهو القوة المانعة من الاختلاط بغير حق وهو الفاصل بين تركيبات النقائض . قال تعالىٰ : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [3] . مياه تتدفق جنباً إلىٰ جنب ولا تختلط دون أن يكون بينها جدار قابل للمشاهدة ، فقط يلحظ الفرق بينها من حيث المذاق العذب جنباً إلىٰ جنب مع المذاق الملح ، والمانع هو القوة الحركية بقوة المانع المطلق جل جلاله ، التي جعلت الملامسة والاحتكاك دون الاختلاط ، ولأنه المانع بالقوة والقدرة فهو ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ولا يوجد بينها مانع مادي إلا القدرة وهـٰذه آية باقية إلىٰ الأزل لا يمكن أن تخفىٰ عن أحد .

---

(1) تاج العروس ، ج 1 ، ص 5552 .
(2) الرحمـٰن ، 19 ـ 20 .
(3) الفرقان ، 53 .

وللمانع معنيان :

ـ **أحدهما** : ما روي عن النبي ﷺ أَنه قال : « اللهُمَّ لا مانِعَ لما أَعْطَيْتَ ، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ» [1] ، فٱلله عز وجل يُعْطِي من استحقَّ العطاءَ ، ويمنع من لم يستحق إلاَّ المنع ، ويعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، وهو العادل في جميع ذلك .

ـ **والثاني** : في تفسير المانع أَنه تبارك وتعالىٰ يمنع أَهل دينه ، أَي يَحُوطُهم ، وينصرهم ، وقيل : يمنع من يريد من خلقه ما يريد ، ويعطيه ما يريد . ومن هـٰذا يقال : فلان في مَنَعةٍ ، أَي في قوم يحمونه ويمنعونه ، وهـٰذا المعنىٰ في صفة ٱلله جل جلاله بالغ ، إِذ لا مِنْعَةَ لمن لم يمنعه ٱلله ، ولا يمتنع من لم يكن ٱلله له مانعاً [2] ، ومن لم يعطه ٱلله شيئاً لن يبلغ شيئاً ، أي من يمنعه ٱلله عن شيء لا يمكن أن يجد من يُمكِّنه منه ، ولذا فهو المانع بالمطلق .

والمنع لا يكون إلا بسبب ، وفي هـٰذا عين العدل ، أما المنع بدون سبب فمظلمة ، وهـٰذه من صفات المفسدين في الأرض وهي الصفة المخالفة لصفات الخلفاء الذين لا يمنعون حلالاً عن حلال ولا يخلطون حراماً مع حلال إنهم المؤمنون حقاً .

المانع : هو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ وقد سبق معنىٰ الحفيظ وكل حفظ فمن ضرورته منع ، ودفع فمن فهم معنىٰ الحفيظ فهم معنىٰ المانع والمنع إضافة إلىٰ السبب المهلك والحفظ إضافة إلىٰ المحفوظ من الهلاك وهو مقصود المنع وغايته إذ المنع يراد للحفظ والحفظ لا يراد للمنع فكل حافظ مانع وليس كل

---

(1) صحيح البخاري ، ج3 ، ص348 ، رقم799 .
(2) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ، ص 145 .

مانع حافظاً إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع أسباب الهلاك والنقص حتىٰ يحصل الحفظ من ضرورته .

المانع : هو الذي يمنع ما أحب منعه ويعطي ما أحب عطاءه فإذا أعطىٰ تفضل ولا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع [1] .

المانع : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ يوحي بالإرادة والحماية والقوة والقدرة ، فٱلله تعالىٰ معطٍ ومانعٌ برحمته وحكمته وعدله ولا يمكن لأي مخلوق أن يملك رد أو منع ذلك الفضل المقرر منه تعالىٰ ، أو أن يمنع الضرر عنه ، قال عز وجل : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] .

واتصاف ٱلله تعالىٰ بالكرم المطلق يتنافىٰ معه البخل والحرمان والمنع ، والكرم والعطاء لا يكونان في شكل أو زمن واحد متتالٍ ، فقد اقتضت حكمة ٱلله تعالىٰ وعلمه المطلقان توزيع العطاء والمنع بالشكل العادل والصحيح بين الناس ، إنه العادل عز وجل في جزائه وثوابه ، إذ أن ٱلله تعالىٰ لا يظلم أحداً من عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [3] ، فالذي يظلم هو الإنسان ولو نفسه هو وذلك بمنعها من فعل الخير وطاعة الخالق .

والمانع جل جلاله لا يمنع امتلاك العبد لنعمة من نعمه تعالىٰ إلا لحكمة ومصلحة وفائدة بدون أن يدرك العبد نفسه لهٰذا المنع المفيد له من ربه ، فعلم الإنسان وإدراكه محدودان لا يصلان لبواطن وأسرار هٰذا العطاء والمنع ، لذلك نجد أن كثيراً من البشر يقضي حياته ندماً وأسفاً علىٰ ضياع غاية أو أمل

---

(1) الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ص 63 .
(2) يونس ، 107 .
(3) فصلت ، 46 .

كان يسعىٰ لتحقيقه في الدنيا ، في الوقت الذي لا يدرك فيه هـٰذا الإنسان أنه في عدم تحقيق هـٰذا الهدف أو عدم الوصول إلىٰ غايته وهدفه خير ومنفعة تعود عليه آخراً في دينه ودنياه ، بل وفي بعض الأحيان قد يكون في تحقيق هـٰذا الهدف والحلم بؤس وشقاء ينقلب عليه ، وأحياناً قد يُعرض الإنسان كارهاً ومانعاً لأمر ما علىٰ اعتبار أنه يحمل شراً وبؤساً له ، مع أنه في باطن الأمر قد يكون في هـٰذا الأمر الخير الكثير ، قال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، فلا يدري الإنسان أين الخير هل هو في تحقيق غايته أو في منعها من التحقيق . أو قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [2] ، فهـٰذا الذي فرح بامتناعه عن الخروج مع المسلمين للقتال خوفاً من الاستشهاد ، لا يدري أنه قد منع نفسه من نعيم دائم وخير خالد مقابل حياة زائلة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] ، ففهم المنع هنا من الإنسان هو للخير ولـٰكنه غير ذلك عند المانع المطلق ، فقد منع عن هـٰؤلاء الخير لتعلقهم بالحياة الدنيا ولعلمه بما في قلوبهم من زيف وكذب ونفاق .

ومن شأن الإيمان بهـٰذا الاسم أن يجعلنا نتوكل في كل أمورنا مهما كانت

---

(1) البقرة ، 216 .
(2) النساء ، 71ـ73 .
(3) آل عمران ، 169ـ171 .

صغيرة أو كبيرة ، وأن نبدأ يومنا بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (1) ، من هنا يتولد اليقين بأنه لا مانع لضررٍ أو خيرٍ سواه عز وجل .

وكثير من العباد البسطاء من يضع أموره بين يدي من يستطيع أن يدفع الضرر بمنصبه أو مكانته ، مثال ذلك في نطاق العمل الوظيفي نجد أن الإنسان دائماً يتمسك ويتقرب لمن بيده أن يمنع أذىً معين أن يصيبه يتمثل أحياناً بقرار فصله أو إنهاء خدمته ويكون دائماً علىٰ علاقة طيبة برب العمل ، ولله المثل الأعلىٰ فهو وحده تعالىٰ من بيده أمر كل شيء ولـٰكنه لا يمنع إلا ما هو ضرر وشر لنا لحبه لنا ويا ليتنا نبادله هـٰذا الحب لاستحقاقه جل جلاله ذلك منا نحن عباده علىٰ الأرض .

ولـٰكن المؤمن الواثق من المانع هو علىٰ يقين أن كل ما قُدّر عليه خير من ٱلله تعالىٰ فيرضىٰ به ويقنع لثقته برحمة وحب المولىٰ عز وجل له ، وهو بذلك يمنع نفسه من الشك والتحسر والندم ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَن صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (2) ، فالمنع والعطاء إذا وصلا إلىٰ مفهوم الإنسان وأحسن فهمها استحق بذلك رضا المولىٰ عز وجل وحبه لأن الإنسان لابد أن يكون شاكراً في حالة العطاء وصابراً حامداً في حالة المنع .

ولأنَّ بعض النعم لا تُنال إلا بالصبر إذا منعها ٱلله علىٰ العباد وحرمها عليهم لتكون لهم حلالاً في الدار الآخرة ، ولهـٰذا نجد في منع ٱلله تعالىٰ لبعض النعم علىٰ البشر في الدنيا تأخيراً وادخاراً لخير قد كتبه ٱلله تعالىٰ لهم في الآخرة

---

(1) التوبة ، 129 .

(2) صحيح مسلم ، ج 14 ، ص 280 .

كجزاء لهـٰؤلاء علىٰ صبرهم وإيمانهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (1) ، فتأخير كل هـٰذه النعم بمنعها عن المؤمن في الدنيا إنما هو تأخير خير وثواب ليكون سروراً وفرحاً له في آخرته ، فالمفاجأة أروع من الواقع والانتظار يزيد الشوق واللهفة أكثر من سرعة حصولها ، ووعد ٱلله تعالىٰ لعباده الصالحين بكل ذلك النعيم إنما هو عطاء مؤخر في الدنيا يمنعه عنهم فيها لأنه يستحيل الخلود في الدنيا فيكون هـٰذا العطاء زائلاً ، أما تأخير هـٰذا العطاء لهم في الآخرة فليكون هـٰذا النعيم دائماً لهم لا يزول لأن في الآخرة حياة خلد في الجنة ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (2) ، بذلك منع ٱلله زوال النعيم بمنعه في الدنيا الفانية ، وأعطاه في الآخرة حيث الخلود فيه ، وفي ذلك استشعار بل تيقن من رحمة وحب ٱلله لعباده الصالحين حتىٰ وإن منع عنهم التمتع بذلك النعيم إلىٰ حين لقائه يوم القيامة ، فمن الرائع أن تهدي من تحب أمام العالم بأسره ما يتمناه وما وعدته ، وهـٰذا لا يتحقق إلا بتأخير العطاء إلىٰ يوم جامع للبشر أجمعين فتكون هدية الرحمـٰن التي منعها عن عباده في الدنيا هي لهم أمام العالمين ، وليتحسر من سيتحسر ويندم من يتندم ، لما سيلاقيه عباده المتقون من خير وتكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(1) الرحمـٰن ، 46 ـ 58 .

(2) النساء ، 57 .

ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (1) .

والمانع يأتي بمعنىٰ الحماية والحفظ ، فالخالق عز وجل هو المانع لحلول البلاء بحفظه وحمايته ، فهو الذي يحفظك من وقوع هـٰذا الشر عليك ، وهو الذي يحميك من نفسك ومن غيرك إذا شاء ، وهناك اعتقاد خاطئ في أذهان بعض الناس هو أن كل مكروه يصيب الإنسان هو من عامل خارجي بعيد عن الإنسان ولا دخل له فيه ، بالرغم من أن الإنسان قد يكون له دور في أغلب الأحيان ، ليعود الضرر علىٰ النفس من جرّاء ما استحقه ، قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) ، فمنع الخير في هـٰذه الحالة استحقها هـٰذا الإنسان بما ارتكبه وليس ابتلاءً من ٱلله أو امتحان له كما يحدث في أحوال أخرىٰ لمنع ٱلله تعالىٰ .

وٱلله تعالىٰ المانع بمعنىٰ : أنه يمنع عنك البلاء ويدفعه بقدرته وإرادته إذا كان في ذلك خير لك في دينك ودنياك ، ولـٰكنك قد لا تدرك ذلك الخير في حينه بعلمك المحدود وقدرتك علىٰ الفهم ، فهو الحافظ لك من وسوسات الشيطان الرجيم إذا أحسنت اللجوء إليه وأخلصت له في الطاعة ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (3) ،

---

(1) آل عمران ، 106 ـ 108 .
(2) آل عمران ، 165 .
(3) ص ، 75 ـ 83 .

فمن الآية نستخلص أن حماية ٱلله لنا ومنعه الشر عنا يقابله الإخلاص في الطاعة ومنع النفس من اتباع الأهواء ، لأن الإخلاص في العبادة تمنع أي مفسدة أو ضلالة أن تصيب الإنسان بفضل مشيئة وقدرة الخالق المانع عز وجل ، وهو أيضاً المانع والحافظ لك من شرور الفساد والرذائل التي قد تصيبك من بعض الناس من حولك ، وذلك المنع لا يتم لك إلا إذا أطعته واتبعت ما أمر به فتكون بذلك قد فزت في الدنيا والآخرة بفضل حفظه ومنعه لك ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (1) .

وفي اسم ٱلله المانع يتبادر إلىٰ ذهنك فوراً أنه المانع عنك الشرور والأذىٰ فتشعر بقربه الأمان والسكينة والقوة فيمنع عنك هـٰذا الشعور الالتجاء لغيره لطلب المعونة والمساعدة في أمر تعسّر عليك ، ولله المثل الأعلىٰ ، ففي قرب الابن من والدته حيث أنها مكمن الأمان والحنان بأنها مانعة عنه كل ما يخيفه وتبعد عنه كل أذىً وتدافع عنه بحبها وحنانها ، فالإنسان وهو طفلٌ رضيع يكون مكانه أروع وأدفأ مكان في الدنيا وهو حضن الأم ، لا يفهم من هـٰذه الدنيا إلا هـٰذا الشعور الدافئ والآمن ، ويكبر معه هـٰذا الشعور مع والده حيث أنه بالنسبة له السور القوي الحامي له من الأذىٰ والمانع له من كل سوء قد يصيبه ، بالتالي يكون في ضمة الوالدين لولدهما شعور يزيد لدىٰ الابن بالأمان والود والترابط الروحي بمنعهما عنه كل مكروه وخطر ، فيتحقق الشعور بالطمأنينة والأمان في نفس الابن ، مما يعزز ثقته بمن حوله وبنفسه أولاً ، فينشأ قوياً واثقاً ينتمي لنفسه ولمجتمعه لشعوره بأنه محاط بمن يحميه ويدعمه ، وإذا كانت هـٰذه صلة الإنسان بالإنسان فكيف ستكون صلة العبد بربه إذا استقام العبد واقترب من الخالق عز وجل .

(1) النور ، 51 ـ 52 .

فشعورنا بالأمان يكون مضاعفاً وبالحب يكون أطهر وأنقىٰ ، فلا يكون انتماؤنا لغيره جل جلاله ، ولا نتجه إلا له في طلب العون والحماية والأمان ، لأن السعادة الحقيقة لا تتوفر للإنسان ولا يحصل عليها إلا بقربه من ٱلله ، فقد يملك الإنسان المال والأبناء والنفوذ والسلطان لـٰكن يبقىٰ قلبه ممنوعاً ومحروماً من السعادة التي سيجدها في سجدة لله أو دمعة استغفار في جوف الليل ، قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [1] .

فيقيننا نحن بني الإنسان وإيماننا باسم ٱلله المانع لابد أن يكون سبباً في زيادة الإيمان في قلوبنا وشعورنا بالاطمئنان فتسكن أرواحُنا لأن أمرنا بيده وحده فتهدأ النفس ولا تتحسر ولا تطمع ، ولو أن المسلم وصل إلىٰ هـٰذا الإدراك لكان أشد سكان الأرض إنتاجاً وإبداعاً ورضاً ، إذ تتوفر لديه الصحة النفسية حيث أنه في سلام مع ذاته مما ينعكس علىٰ محيطه بالهدوء والاستقرار والأمان .

وهو المانع لعطائه أحياناً لابتلاء الإنسان واختبار صبره علىٰ هـٰذا المنع ، وهنا يختلف البشر في تَقَبّل هـٰذا المنع ، فمنهم الصابر ومنهم المتذمر ، وطوبىٰ لمن صبر لأن جزاء ٱلله له سيكون كبيراً ، وكيف لا ؟ أليس هو الكريم المطلق والمانع المطلق جل جلاله ؟!

والمانع المطلق يجعلنا نلجأ إليه لأنه لا أحد يستطيع أن يمنع شيئاً نخافه أو أن يصيبنا مكروه إلا ٱلله تعالىٰ ، وأعطانا لذلك وسائل عديدة وكثيرة نلجأ إليها مثل التقرب منه عز وجل بالصلاة والعمل الصالح لكي يمنع عنا الشرور ويحفظنا بحفظه تعالىٰ .

---

(1) الإسراء ، 57 .

ولـٰكن كيف يكون حفظه تعالىٰ ؟

بأن يكون المانع لكل سوء قد يصيبنا ، وبالتالي فإن اسم ٱلله المانع من شأنه أن يجعلنا نلتمس الطرق والوسائل التي تقربنا من ٱلله تعالىٰ فنحصل بذلك علىٰ الأجر والثواب في الآخرة ، ففي اسمه المانع دافعٌ لنا للحصول علىٰ الثواب والحسنات التي تعطينا الجنة ، بأن يجعل المانع حاضراً في ذهنه بأن يكون مداوماً علىٰ طاعته وحبه بالتسبيح والاستغفار ، قال تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (1) ، فيستشعر القرب والحماية والأمان في ظله جل جلاله ، وخاصة أن الحياة أصبحت مخيفة لا توحي بالأمان والاستقرار كما نرىٰ بأم أعيننا ما يحدث لبعض البشر في بقاع مختلفة من الأرض كما حصل مؤخراً في إعصار (تسونامي) ، فلحكمة لا يعلمها إلا المولىٰ عز وجل قد حصره ٱلله هناك ومنعه أن يصل لبقاع أخرىٰ في الأرض ، فلو تدبرنا في هـٰذا المنع قد نستطيع أن نصل إلىٰ مقدار حماية الخالق لنا وقدرته علىٰ منع الكوارث أن تحل بنا ، فبحمد ٱلله وشكره نمنع الكثير من المصائب والشرور ، وهـٰذا يجعلنا علىٰ يقين بأن ٱلله هو المانع الذي أنعم علينا بالخير الكثير ، وأن ٱلله تعالىٰ منع أن يجعل إنساناً معيناً قادراً علىٰ ضرر جميع الخلق أو يمنع عنهم ما يفيدهم وإلا لكانت مصيبة كبيرة بين العباد .

والمعطي يكون عطاؤه عاماً ولكل البشر ، إذ أن المولىٰ عز وجل أعطىٰ ووهب الحياة لمن أرادها وأحبها واشتراها ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (2) ، وأعطاها أيضاً لمن زهد فيها ، فأسعد بعض الناس بالغنىٰ والقوة والجمال والسلطان ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا

---

(1) الذاريات ، 17 ـ 18 .

(2) هود ، 15 .

يَشْعُرُونَ ﴾ [1] ، وبعض العباد مانعت عنهم بعض أو أغلب هـٰذه النعم ، وهـٰذه السعادة وهـٰذا الشقاء يحدده فهم الإنسان لجوهر هـٰذا العطاء والمنع ، لأنه قد يكون في باطن العطاء منع وفي باطن المنع عطاء ، ولـٰكن لا يصل لهـٰذا المفهوم إلا من كان واثقاً أن أمره تعالىٰ بالعطاء والمنع هو خيرٌ لمن آمن واتقىٰ ، وهنا يأتي إلىٰ الأذهان صبر سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام علىٰ مرضه ، فهو بالرغم من إصابته بالمرض لسنوات عدة وتزايد الابتلاءات عليه إلا أنه كان واثقاً في ذلك الخير كله من ٱلله إليه ، وأنه لن يمنع وقوع الفرج أحد إذا أراد المانع عز وجل أن يمنع الكرب ، بمثل هـٰذا الإيمان وهـٰذه الثقة كان مستحقاً لأن يكون من أولياء ٱلله الصالحين ومن خلفائه علىٰ الأرض ، ومع أن مفهوم المنع عند أغلب الناس يكون منبعه الكره والنفور ، لا الحب والمنفعة ، إلا أن منع ٱلله تعالىٰ لعبد من عباده يكون سببه حبه عز وجل له ورحمته به ، ولا يصل لفهم ذلك الحب وتلك الرحمة إلا من عرف وآمن بٱلله ووثق بحكمته ورحمته ووده ، ولا يمكن أن يرقىٰ لهـٰذا الفهم الصحيح للمنع إلا من نأىٰ بنفسه عن النقائص والشرور ، وأكبر دليل علىٰ ذلك منعه لأغلب رسله وأنبيائه من ما تشتهيه الأنفس فتضعف بأسبابه ، فقد منع الخالق عز وجل عن بعضهم الغنىٰ ، أو الصحة أو السلطة والجاه أو غيرها من النعم العديدة ، ذلك وهم أحب الخلق إليه وأقربهم منه ، ليكون في هـٰذا المنع عطاء لهم في الآخرة وخير وفير ، ودروس يتعظ منها باقي المستخلفين لأن رسلنا هم القدوة لنا ، فنسلك مسلكهم وننهج منهجهم في الحياة الدنيا .

وتتفاوت النفوس البشرية في قبول أو منع الحق ، لأن الحق دائماً بحاجة لمن يدعو إليه ويدافع عنه كي لا يسود الباطل ويعم ، وقبل رسالة محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه كان الأمر كلما زاد الفساد وانتشرت الرذائل في الأمم

---

(1) المؤمنون 55 ـ 56 .

بعث ٱلله تعالىٰ رسولاً أو نبياً يدعو للحق ويُنفّر من الباطل ، وفي كل أمة يكون منهم من هو مكذّب ومن هو مصدّق ومؤمن ، وهٰذا التفاوت في تقبل الدعوة أو النفور منها يعبر عن امتناع النفس أو قبولها لهٰذه الدعوة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (1) ، ففي الآية السابقة يشمل ٱلله عز وجل جميع الأزمان والأماكن التي كان الباطل يسود فيها فيبعث ٱلله بشيراً لمن اتبع الحق ، ونذيراً لمن امتنع عن اتباعه ، فلا يكون حجة لأي إنسان يوم القيامة عند ٱلله في كفره وعصيانه وجهله ، وقد كان في كل أمة سابقة عدد الممتنعين عن اتباع الحق أكثر منه من المؤمنين به ، ذلك أنهم تركوا أنفسهم للشيطان يتبعون أوامره ويأخذونه ولياً لهم ، فيقف بينهم وبين الحقيقة فيكونون بذلك من الخاسرين ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (2) ، وقد كان الرسول ﷺ آخر رسول يبعثه الخالق لمنع سيادة الباطل ولإحقاق الحق علىٰ الأرض بعد أن زاد الكفر والجحود بين الناس ، فكانت بعثته عليه الصلاة والسلام تُمَثّل رادعاً للباطل ومانعاً للفساد ، لأنه لا يمكن أن يسود الحق مع الباطل في آن واحد ، وقد استقبل أغلب الناس هٰذه الدعوة بالنفور والتكبر والكفر ، حسب إقبال النفس البشرية أو صدّها للحق بغض النظر عن الشخص نفسه وصلته بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلقد كفر به أول من كفر عمه أبو لهب في حين آمن به أول من آمن من هو بعيد الصلة به كبلال وسلمان الفارسي رضوان ٱلله عليهم ، وهٰكذا إلىٰ أن عمَّ الإسلام المعمورة التي

(1) فاطر ، 24ـ26 .

(2) الأعراف ، 30 .

لا مستقبل لها إلا به ، فلم تكن صلة الرحم والقربىٰ مع النبي ﷺ بمانعة عمه بالمجاهرة بكفره وفي محاربته له ، قال تعالىٰ : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ (1) ، وبهٰذا الكفر والعناد والجهل استحق عم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُمْنع عنه استغفار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام له ، أو حتىٰ شفاعته يوم الحساب ، مع أنها ستُعْطىٰ لغيره من المسلمين ، وكذلك زوجة سيدنا لوط فبالرغم من أنها زوجة النبي لوط لم يمنع ذلك عنها العذاب كباقي القرية الظالمة ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ (2) .

واسم المانع في حق ٱلله تعالىٰ يتضمن عدة صفات وأسماء أخرىٰ منها :

المانع هو العليم : فٱلله عز وجل بعلمه المطلق بأحوال البشر وما ينفعهم وما يضرهم فهو المانع والمعطي لهم حسب علمه المطلق بخلقه ، فمن شاء منعه ومن شاء أعطاه ذلك لعلمه بما فيه صالح البشر وخيرهم ، ولقد منع ٱلله تعالىٰ جميع الخلق من معرفة الغيب ، قال تعالىٰ : ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (3) ، فهو بذلك وحده المعطي والمانع وذلك لعلمه ببواطن وسرائر الأمور ، التي تخفىٰ علىٰ الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي

(1) المسد ، 1 ـ 5 .
(2) العنكبوت ، 31 ـ 32 .
(3) الأنعام ، 59 .

ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) ، فتراه أحياناً يعطي بلا حدود لإنسان جاحد بنعمته لا يزيده عطاء ٱلله تعالىٰ إلا كفراً وعصياناً ، فيتكبر ويطغىٰ ويُفسد في الأرض ، ونرىٰ في أحيان أخرىٰ ذلك المؤمن التقي قد نقص عليه رزقه وولده ، ولهـٰذا فقد يتساءل بعض الناس ما الغاية من ذلك .

قد يمنح ٱلله تعالىٰ الإنسان الجاحد بنعمه عز وجل لعله يستفيق من غيبوبة الجهل والعناد التي هو غارقٌ فيها فبعطائه يرحمه ٱلله بنجاته من الضلال ، فإذا لم يستفق وبقي علىٰ ما هو عليه كان عطاؤه ليزيد في غرقه وتفاخره ليأتي له العذاب بغتة بدون أن يشعر بقدومه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (3) ، فمن شأن عطاء ٱلله ونعمه أن يكونا سبيلي صحوة أو غفوة للإنسان ، فإذا كان هـٰذا الإنسان عاصياً شغلته هـٰذه العطايا عن

---

(1) الرعد ، 26 .

(2) الإسراء ، 30 .

(3) القصص ، 76ـ82 .

طاعة المعطي لها وأخذه التفاخر والتكبر بها بعيداً عن الشكر والحمد عليها ، وتكون صحوة للإنسان المؤمن الشكور الذي لا يغيب عن ذهنه رحمة المعطي وقدرة المانع ، فلا يتجبر ولا يتكبر بل يسعىٰ بها في سبل الخير والمعروف ، وتكون هـٰذه العطايا بمثابة رابط قوي بين العبد وربه فهو الذي يعطي عز وجل والعبد يشكر ويطيع ويعطي من عطائه كما أراد الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (1) ، فيكونون بذلك مانعين لثلاثة أمور هي :

أ ـ **للبخل في النفوس** : لأن الإنسان خُلق وخُلق معه حب الشهوات ، فكان العقل هو مركز التحكم وضبط النفس بما يجعلها مسيطرة علىٰ شهواتها ، فلا تتغلب عليه ولا تقدر علىٰ التحكم فيه فتضله ، ومن هـٰذه الشهوات حب المال وكنزه ، قال تعالىٰ : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (2) ، لـٰكن يخرج من دائرة هـٰذا الحب المانع للإنفاق والخير خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض ، إذ أن هـٰذا المال لا يزيده إلا حباً للإنفاق والعطاء ولا يجعله إلا مانعاً للشح من التمكن في نفسه فيمنعها بذلك من طاعة أوامر ٱلله والاستسلام لأوامر النفس التي قد تأمر علىٰ هواها فتصل بصاحبها إلىٰ الخسران والضلال ، كما نلاحظ

---

(1) البقرة ، 261ـ264 .
(2) الفجر ، 20 .

في بعض الناس حبهم الغريب للمال ، إذ أنهم يقدّمونه حتىٰ علىٰ أنفسهم وأولادهم ، أو أن تكون هـٰذه النعمة مصدر إسراف وبذخ دون فائدة سوىٰ المباهاة والجهل بالنعمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (1) ، وكما جاء في الآية الكريمة السابقة بأن المعطي هو ٱلله لمن يشاء من عباده وبعد ذلك يأتي التفاوت بينهم في الاستفادة من ذلك ، فيكونون مانعين للخير بمنعهم تنفيذ أوامر ٱلله بالإنفاق والعطاء ، أو مانعين للخير بالإسراف غير السليم في الاتجاه غير السليم ، فٱلله يعطي ويمنع عباده بعلمه المطلق بهم ، والإنسان الذي وصل إلىٰ هـٰذا الإيمان يرضىٰ ويقنع بما قسمه المعطي له وبما منعه منه ، فيحمده ويشكره ولا ييأس من كرمه جل جلاله ، فالمانع والمعطي هو ٱلله تعالىٰ وحده ولا يملك ذلك إلا هو ، فلو اجتمعت الأرض ومن عليها والسماء ومن فيها علىٰ أن توصل رزق إنسان منعه ٱلله أو أن تمنع رزق إنسان أعطاه ٱلله لما استطاعوا ، لأن الخالق هو المهيمن والمسيطر والفعّال لكل شيء إذا أراد أن يتم عطاءه كان ذلك ، وإذا منعه كان ذلك .

لذلك علىٰ خليفة ٱلله أن لا يتملكه اليأس من انقطاع نعمة من نعم ٱلله عليه من مالٍ أو ولدٍ أو صحة ، بل لابد أن يكون علىٰ يقين أن في ذلك الخير كله والعطاء كله ، وهو بذلك يمنع عنه بلاءً أعظم ، لأن المانع دائماً رحيم حتىٰ في منعه لأي نعمة من نعمه للإنسان التقي الصادق المطيع ، فهو الكريم ولا حدود لكرمه وعطائه عز وجل .

ب ـ لانتشار الفقر بين المسلمين : إن ٱلله عز وجل بصفتيه الخبير

---

(1) الإسراء ، 29ـ31 .

المطلق والعليم المطلق خلق أرزاق الناس متفاوتة ، فليس كل البشر أغنياء ولا كلهم فقراء ، بل لقد أعطىٰ ٱلله تعالىٰ عطاء سخياً لبعض الناس ، وأوسط العطاء للبعض الآخر وقدّره علىٰ بعضهم ، ومن هنا كان لزاماً خلق نظام بينهم للوصول للتكامل الاجتماعي والعدالة والحق في المجتمع الإسلامي ، فأمر ٱلله المالكين للمال والميسورين الحال بالمساعدة والإنفاق علىٰ من هم بحاجة لذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، كما وأن ٱلله تعالىٰ جعل من أركان الإسلام الزكاة وهي فرض علىٰ المسلمين كالصلاة والصوم لا يُعفىٰ منها أي مسلم قادر علىٰ إخراجها ، فٱلله تعالىٰ مانع للفقر والحاجة بين المسلمين بفرضها عليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (3) ، فالخالق عز وجل جمع بين عباداته والزكاة لبيان ما لها من

(1) البقرة ، 271ـ274 .
(2) البقرة ، 110 .
(3) النساء ، 162 .

أهمية وقيمة في المجتمع المسلم ولما فيها من منع الحاجة ، ورغبة الإسلام في تكوين شخصية المسلم علىٰ العزة والكرامة ، فلا نصر ولا تقدم بنفوسٍ مكسورة يرهقها السعي وراء الحاجة .

ج ـ **لقطع صلة الرحم** : فقد وضّح ٱلله تعالىٰ وبيّن للمسلم أنه من أحق الناس بماله وعطائه عند حاجتهم هم رحمه ، فبهـٰذا الوصل المادي يمنع ٱلله قطع صلة الرحم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

وعليه فالمَنْعُ إن حدث التدخل يكون حائلاً بين الشيء المرغوب وبين راغبه أو بين الحاجة ومشبعاتها ، ويكون ذلك في حق الخليفة بأن يحول بين المرء وبين الذي يضره ، سواء في الدنيا أم في الآخرة ، وبذلك علىٰ الخليفة أن يتبع قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) ، فالخليفة عليه أن يحول بين نفسه وبين الذي يضره ، وذلك بأن يتقي مهاوي الردىٰ فعليه بالتقوىٰ ، فعلىٰ الخليفة أن يتقي ٱلله ربه في السر والعلن ، والتقوىٰ تتمثل في المقامات الحسان والأفعال الحسان التي هي في مرضاة ٱلله والعباد ومنها :

أولاً : إقامة الصلاة : قال تعالىٰ : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (3) ؛ لأن في إقامة الصلاة وفي ميقاتها تأتي النصرة

(1) البقرة ، 215 .
(2) البقرة ، 195 .
(3) الإسراء ، 78 ـ 80 .

الإلـٰهية ، وبهـٰذا يأوي إلىٰ السلطان النصير الذي لا يخذل من استند إليه ، ففي إقامة الصلاة قربة لله ، وبعدٌ عن الشيطان الذي جعل علىٰ عاتقه غواية من استطاع من بني آدم ، فقد جاء في كتاب ٱلله العزيز ما يبين من تهديدات الشيطان لغواية بني الإنسان ، والبعد به عن الهداية ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [1] . جهل عدوّ ٱلله وجه الحق ، وأخطأ سبيل الصواب ، فكان المانعَ له من السجود ، ومخالفة أمر ربه في ذلك بظنه أنه أشد من آدم أيْدًا ، وقوة ، وفضلاً لفضل الجنس الذي منه خُلِقَ ، وهو النارُ ، علىٰ الذي خلق منه آدم ، وهو الطين ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [2] ، فكان إبليس أول مَنْ قاسَ القياسَ الخطأ ، إذ كان معلومًا أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب وهو الذي حملَ الخبيث علىٰ الاستكبار عن السجود لآدم ، والاستخفاف بأمر ربه ، ونسي أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت ، ونسي الفضل الذي خص ٱلله به آدم علىٰ سائر خلقه من حيث :

- خلقه إياه بيده .

- نفخ فيه من روحه .

---

(1) الإسراء ، 61 ـ 65 .

(2) الأعراف ، 11 ـ 12 .

ـ سجود الملائكة له .

ـ خلقه في أحسن تقويم .

ـ تميزه بالتفكر والتذكر والاتعاظ وتأنيب الضمير .

ـ وتعليمه أسماء كلِّ شيء ، مع سائر ما خصه به من كرامته بما جعله أهلاً للخلافة والولاية في الأرض بالحق .

وعوداً علىٰ بدء ، فالشيطان له طرق في غواية بني آدم التي يجب علىٰ الخليفة أخذ الحيطة والحذر منها ، ومن هٰذه الطرق :

1 ـ **استفزازه لهم بصوته** : وهو الذي جاء في الآية الكريمة : ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ .

2 ـ **جلبه عليهم بالخيل والرجل** : وهو ما يؤكده قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ .

3 ـ **مشاركته لهم في الأموال والأولاد** : قال تعالىٰ : ﴿ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ ، ورب سائل يقول : كيف يشارك الشيطان بني الإنسان في المال والولد . نقول له : نعم ، أما المال وذلك بأن يغريهم بجعل المال الحرام حلالاً وذلك بالطرق الممنوعة كالتعامل بالربا ، وأكله أضعافاً مضاعفة ، والسرقة من المال العام والخاص ، واليمين الغموس . أمَّا مشاركته الأولاد فهي مشاركة من خلال ارتكاب المحرمات بالزنا ، فتختلط الدماء والعياذ بٱلله فلا يعرف الأخ أخته وهٰكذا هي لا تعرفه فيحدث الزواج وهو الحرام الأكبر الممنوع من المانع المطلق جل جلاله ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ

(1) الإسراء ، 32 .

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1] . هـٰذه جملة من الممنوعات حرمها ٱلله تعالىٰ وهي :

- حرمت عليكم أمهاتكم .
- حرمت عليكم بناتكم .
- حرمت عليكم أخواتكم .
- حرمت عليكم عمَّاتكم .
- حرمت عليكم خالاتكم .
- حرمت عليكم بنات الأخ .
- حرمت عليكم بنات الأخت .
- حرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم .
- حرمت عليكم أخواتكم من الرضاعة .
- حرمت عليكم أمهات نسائكم .
- حرمت عليكم رَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ .
- حرمت عليكم حَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ .
- حرم عليكم أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ .

---

(1) النساء ، 23 .

هٰذه المحرمات يمنع منها الزواج مطلقاً ، ومن تعدىٰ ذلك فقد تعدىٰ حدود ٱلله ويوصف من لا يقف عند حدود المحرم بالمنع المطلق بالزاني والزانية . ولذا فالزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وبذلك فهو الممنوع بالمطلق ، والزنا يتعدد :

أ ـ الاغتصاب حتىٰ وإن كان من الحلائل كأن يرغم زوجته وهي بأسباب موضوعية غير راغبة وغير قادرة .

ب ـ زنا المحرمات حتىٰ وإن كان الرضاء بينهما في حالة من التبادل إنه فاحشة وساء سبيلاً .

ج ـ ما ليس معنون بعقد قران .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، فالشيطان يأتي بطرق الغواية بأن يجعل الممنوع مرغوباً فيه كما حدث مع سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام وزوجه عندما أخرجهما من الجنة الخلد ، فوجدا نفسيهما علىٰ الأرض بعدما خالفا التحذيرات الربانية ، وبسبب غواية الشيطان عليه لعنة ٱلله ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز ذاكراً في ذكر قصة سيدنا آدم وزوجته ما حدث بينهما ، كيف أن إبليس لعنه ٱلله أقسم لهما أنه كان باراً بهم وأنه يودهم كل خير : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا

ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1] .

4 ـ **ومن طرقه الوسوسة عليه لعنة ٱلله** : وذلك بأن يكثر من التزيين للإنسان من أعمال الشر بأن تلك الأعمال من صنوف الخير كما جاء في قوله تعالىٰ في الآية السابقة : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

5 ـ **ومن طرقه الغرور بالإنسان** : قال تعالىٰ : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ ، والغرور بتزيين طرق الشر لبني آدم ، وتعتيم الطريق الصحيح ، فيرىٰ الخطأ صواباً ، وكثير من الناس من يقع في محاذير كان في غنىً عنها ، ثم يجد نفسه في غير ما كان يظن ، وهٰذا هو عين الغرور ، فٱلله تعالىٰ يوجه قوله الكريم لبني الإنسان حتىٰ لا يقع في مواقع الغرور وخاصة بعد أن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، قال تعالىٰ فيهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [3] .

6 ـ الإتيان عن اليمين وعن الشمال ومن أمامهم ومن خلفهم ، وخاصة أثناء الصلاة ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

7 ـ **ومن طرقه الأماني والوعود الكاذبة** : قال تعالىٰ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن

---

(1) الأعراف ، 12 ـ 22 .
(2) الأنعام ، 112 .
(3) الانفطار ، 6 ـ 12 .

دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [1] .

8 ـ **ومن طرق إضلال الناس عن طريق الهداية** : وكما جاء في الآيات السابقة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ .

وكل الطرق السابقة التي جاء ذكرها من طرق الغواية الشيطانية هي مانعة للخير ومؤدية للمحرمات والشرور والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وفي مقابل ذلك دون مقارنة أعمال الخليفة المتمركزة علىٰ الإصلاح والفلاح والعمار وقول الحق والعمل علىٰ إحقاقه . ولهـٰذا فالمانع العظيم هو الحافظ لنا من كل وسوسة وانحراف ، فجعل المانع جل جلاله لنا من نعمه علينا حماية إلـٰهية تمنع الشيطان من أن يصل للإنسان بسهولة ويسر ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [2] ، فبمجرد ما يذكر الإنسان ربه يجد نفسه قد خرج من الضلالة إلىٰ الهدىٰ ومن طرق حفظ رب العالمين لمستخلفيه من شياطين الإنس والجن الذين قال تعالىٰ فيهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [3] ، فيكون رد

(1) النساء ، 117 ـ 121 .
(2) الإسراء ، 65 .
(3) الأنعام ، 112 ـ 113 .

الخليفة ممتثلاً في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (1) ، ومن طرق الحفظ الرباني لمستخلفيه :

أولاً : جعله الحفظة الكرام الكاتبين : قال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (2) .

ثانياً : إيتاء الزكاة : وتطبيقاً لأمره قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (3) .

ثالثاً : الصوم : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

---

(1) الأنعام ، 114 ـ 116 .
(2) الطارق ، 4 .
(3) البقرة ، 270 ـ 274 .

كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] .

رابعاً : الحج : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

خامساً : أن يتقي الشبهات : وذلك بأن يبتعد عن الأماكن المشبوهة ، أو الخطوات التي تقرب الإنسان من مواقع التهلكة ، وهو يظن أنه بعيد عن المهالك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] .

سادساً : جهاد النفس : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(1) البقرة ، 183 ـ 185 .
(2) آل عمران ، 96 ـ 98 .
(3) البقرة ، 195 .

وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [1] .

والمانعُ هو العاصمُ وشَهادة أن لا إلهَ إلا ٱلله عِصْمة المؤمن ، فالخليفة بقوله الشهادة يَعْصِمُه المانع من المَهالِك في الدنيا ويوم القيامة ؛ ولأنه هو صاحب العصْمَة والمَنَعة فلا يجوز الاعْتِصامُ والامْتِساكُ بغيره من الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2] .

وتكون العصمة والمنعة بأنْ يَحُولَ المانع جل جلاله بينَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيءِ الذي يُريدُه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴾ [3] ، ومن صور ذلك :

1 ـ قد يرىٰ الإنسان أن شيئاً مَا لَه فيه خير ، وٱلله يعصمه منه ، من ذلك كراهية بعض المؤمنين القتال رجاء منهم في الربح الدنيوي ، قال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

2 ـ كراهية الخليفة بعض التصرفات في المرأة ، ويعاشرها بما تعارفت عليه الناس ، فربما يكون الخير فيما كره البشر حيث لا يعلمون العلم الكامل ؛ وٱلله وحده علام الغيوب ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) الأنفال ، 72ـ75 .

(2) المائدة ، 67 .

(3) سبأ ، 53 ـ 54 .

(4) البقرة ، 216 .

لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

3 ـ ومن ذلك كراهية خروج المهاجرين من ديارهم التي عاشوا فيها وأمضوا فيها سني شبابهم ، وصرفوا فيها جهدهم وأموالهم ، ويرجع ذلك إلىٰ عدم علمهم بما ينتظرهم من الخير ، فيأتيهم النداء الرباني بقوله تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (2) ، كان المؤمنون يرون أن القافلة أسلم وأفيد لهم من الدخول في صراع مع الكفار ، ولٰكن ٱلله المانع هو الذي يعلم ما ينتظرهم من الخير ، وذلك بأن يجعل كلمة الحق تنتشر بأيديهم وهي خير مما كانوا ينتظرونه من الدراهم من تلك القافلة ، وهٰذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة من النظر البعيد للأشياء ، والمسائل لا تؤخذ بصورة سطحية قريبة بل بدراسة عميقة بعيدة تبحث في أغوار المستقبل الذي ينتظر أجياله الطموحة وليلحق بهم ركب الحضارة وليبن بهم الدين القويم المبني علىٰ العزة والرفعة دون حاجة إلىٰ غيرهم من الأمم ، وبما يقدمونه من العلوم النافعة ، والذي يكون نتيجته البناء الصحيح السليم .

والمنعة تكون بالحِمَايَةِ الربانية لخلفائه من الأعداء ، وما يلحق بهم من العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

(1) النساء ، 19 .
(2) الأنفال ، 5ـ8 .

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (1) .

وقد يُرادُ بالمنع العكس أي يكون بعكس ما أمر به ٱلله تعالىٰ ، من ذلك ما يأتي بعكس ما أمر ٱلله به وهو :

1 ـ **منع الماعون** : ما جاء في سورة الماعون قال تعالىٰ : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (2) .
في هـٰذه الآيات الكريمة يوضح ٱلله جل وعلا صور المنع البغيضة التي لا يرضىٰ المانع الجليل أن تكون سيرةً ونهجاً للخليفة في أرضه والتي يجب أن يكون علىٰ حذر منها ، وهي :

2 ـ **التكذيب بالدين** : ورأس التكذيب الكفر بهـٰذا الدين القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهل كان الكفر إلا نتاج الحسد لخلفائه في أرضه ، أو كان جهلاً بسبب التبعية العمياء ، أو بسبب ما زخرفه لهم الشيطان من الأكاذيب والترهات ؛ إيفاءً بوعده الذي لا يبطل عن فعله إلىٰ يوم الدين .

(1) هود ، 61ـ68 .
(2) الماعون ،2 ـ 7 .

3 ـ **إهمال اليتيم** : وتضييع حقوقه ، وسوء معاملته ، فالخليفة هو الذي يراعي حقوق الضعفاء والمساكين واليتامىٰ ، حتىٰ إذا ما بلغوا فيدفع لهم حقوقهم ومع ما يلزم من التوجيه والإرشاد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (1) .

4 ـ **ترك إطعام المسكين** : أولئك الذين قال فيهم جل جلاله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (2) ، وقال جل جلاله : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (3) ، فالخليفة من واجبه أن يهتم بمستخلفيه الضعفاء ويرفع من هممهم ويحثهم علىٰ العمل ليرفعوا بأنفسهم وبالتالي يكون نهضة للمجتمع ونصرة للدين الحنيف .

5 ـ **منع الماعون** : ويراد به تقديم العون لمستحقيه ، وذلك :

ـ يكون باختيار الوقت المناسب له .

(1) النساء ، 2ـ6 .
(2) الحاقة ، 33 ـ 34 .
(3) الفجر ، 17 ـ 18 .

ـ حسب حاجة صاحبه دون زيادة أو تفريط ؛ لتصل بذلك الفائدة إلىٰ أكبر عدد ممكن من المستحقين .

ـ أن يكون عن حسن وطيب خاطر منه فلا فائدة لمن يتصدق ابتغاء الرياء والسمعة ولمجرد القيل والقال ، والذي يؤدي بصاحبه للخروج من دواعي الخلافة الحقة فيجد نفسه في أماكن الزيف والخسران ، والعياذ بٱلله .

6 ـ **منع الخير** : قال تعالىٰ جل جلاله في ذلك : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (1) . ومنع الخير له صور منها :

1 ـ **الاعتداء علىٰ غيره من الناس** : وقد نهىٰ المانع عز وجل عن كل أنواع الاعتداء ، وذلك في مواضع كثيرة من كتابه العزيز والتي بين فيها وجوه الاعتداء :

أ ـ منع الاعتداء علىٰ الأرزاق بأكل الحرام ، ويكون ذلك بالتقوىٰ والابتعاد عن كل ما هو محرَّم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

---

(1) ق ، 25ـ35 .

(2) المائدة ، 87 ـ 88 .

ب ـ **منع الإفساد في الأرض بعد إصلاحها** : وذلك بالتوجه إلىٰ ٱلله تعالىٰ بالدعاء حتىٰ يلهمهم ٱلله تعالىٰ إلىٰ الصواب وحسن الختام ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

ج ـ **منع الإسراف في القتل** : وذلك لمن يتخذ الأعذار في دار الحرب بأن الحرب جائز فيها كل شيء ، فليكن الخليفة منتبهاً لكل ما هو مخل لقوانين الحرب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (2) ، وليكن قصاصه علىٰ قدر القتل والجرح علىٰ قدر الجرح ، ويكون الحر بالحر والعبد بالعبد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (3) .

2 ـ **زرع الريب والشك في قلوب الناس** : والمريب : هو ذو ريب وشك في الدنيا والآخرة ، ولا يعطي الزكاة لأنه في ريب من ثواب الآخرة ، والمريب هو الذي يوقع غيره في الريب بإلقاء الشبهة .

3 ـ **الشرك** : فيمنع نفسه وغيره من الخير الذي يكون بسبب الإيمان ، ويلقي بنفسه وغيره بسبب الكفر في الهلاك مع ما جاءهم من النذر ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ

(1) الأعراف ، 55 ـ 56 .
(2) البقرة ، 190 .
(3) البقرة ، 178 ـ 179 .

أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ، أما الخليفة الذي يرجىٰ خيره وهو بطبيعة الحال هو أهل لذلك فإنه يأمر بكل ما يقرب للخير ويحث عليه ، فهو يبحث عن المروءة ويعمل لها ومن أجلها ، فيكون جزاؤه كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

4 ـ **منع النميمة والزنا** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (1) .

5 ـ **منع الجزع والبخل** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (2) ، أوجد ٱلله المانع جل جلاله الجزع والهلع والمنع ولـكن ذلك ليس من صفات المؤمنين الخلفاء ؛ لأنه جل جلاله بيَّن لهم العلاج قبل أن يقعوا في الجزع والهلع ، والعلاج يتمثل في :

1 ـ **إدامة الصلاة** : قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ .

---

(1) القلم ، 10ـ15 .

(2) المعارج ، 19ـ35 .

3 ـ **التصدق بالمال بالزكاة المفروضة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ .

2 ـ **الإيمان باليوم الآخر** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

4 ـ **الإيمان بالجنة والنار** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ .

5 ـ **الابتعاد عن الزنا** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

6 ـ **حفظ الأمانة والعهد** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ .

7 ـ **إقامة الشهادة لله** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ .

8 ـ **إقامة الصلاة والمحافظة عليها** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

ومن أوفىٰ بهـٰذه الشروط فإن ٱلله جل جلاله يحرم عليه النار ، قال تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

من مظاهر منعه :

1 ـ **منع الكفار من أن يصلوا المؤمنين وهم المانعون بالإضافة** : المانِعُ جلَّ ذِكْرُه هُو الّذِي يَمْنَعُ منِ اسْتَحقَّ المَنْعَ ، فيحُوطُ المؤمنين الخلفاء في أرضه ويَنْصُرُهُمْ ، ومن أمثلة ذلك :

أ ـ ما حدث مع المسلمين يوم بدر ، فقد نصرهم ، وهم قلة ، وذلك :

ـ بأن كثرهم في أعين عدوهم ، وقلل عدوهم في أعينهم ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ

ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (1) .

ـ قتال الملائكة معهم : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (2) .

---

(1) الأنفال ، 41ـ45 .

(2) الأنفال ، 7ـ16 .

ب ـ نصره لطالوت علىٰ جالوت : قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، فمن دواعي نصرته تعالىٰ لنبيه طالوت :

ـ زاده بسطة في الجسم والمال : قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وذلك بعد أن احتج قومه بأنه لا يملك المال أو الجسم .

ـ زاده بسطة في العلم : قال تعالىٰ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ

(1) البقرة ، 247ـ251 .

﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ ، وذلك ليكمل فيه شروط الولاية والخلافة في الأرض ، ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن للولاية والخلافة شروطاً يجب توافرها في كل من يريد أن يكون خليفة ووالياً في الأرض منها :

أ ـ أن يكون قدوة حسنة في المهارة والمسلك .

ب ـ أن يكون مصلحاً في الأرض لا مفسداً فيها أو سافكاً للدماء بغير حق .

ج ـ أن يكون مؤمناً بٱلله واحداً أحداً لا شريك له .

د ـ أن يكون مؤمناً بٱلله ورسله وكتبه وحسابه وعقابه ويوم بعثه والجنة والنار .

هـ ـ أن يكون تقياً في أقواله وأفعاله .

و ـ أن يكون مُقدِماً علىٰ ما يجب الإقدام عليه ، ومنتهياً عما يجب الانتهاء عنه .

ز ـ أن يكون قوياً قادراً علىٰ حمْل الأعباء مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾ (1) .

ح ـ أن تكون نفسه مطمئنة .

ط ـ أن يكون غني النفس عدلاً يحق الحق ويزهق الباطل .

ي ـ أن يكون صادقاً في النية والقول والفعل والسلوك والعمل .

3 ـ الصبر علىٰ مواجهة العدو : قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا

---

(1) الأحزاب ، 72 ـ 73 .

صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ .

4 ـ الثبات في القتال : قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

5 ـ النصرة الربانية : تلك التي تجعل المؤمن يثبت ويصبر أمام عدو ٱلله ، وهٰذا الذي يجب علىٰ الخليفة أن يدعو به عند المواجهة أيا كان نوعها كما جاء في الآيات السابقة ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [1] ، ننظر من هٰذه الآيات العناية الربانية التي لم تأت صدفة بل بعد أن تقلب فؤاد النبي إبراهيم

---

(1) الأنبياء ، 51ـ70 .

عليه الصلاة والسلام زمناً وهو يفكر في من أوجد هـٰذا الكون العجيب ، الضخم المتنوع الذي لا يختلف فيه شيء مع شيء ، بل يسير كل شيء فيه بنظام ، وفي غاية الدقة فهو جل جلاله هو الذي منع أن تصدم الخلية بالخلية كما منع أن تصدم الكواكب ببعضها ، وسيدنا إبراهيم انبهر بهـٰذا التنظيم ، فظل يفكر ليل نهار ، فمرة يظن الشمس حتىٰ إذا خانته ، ظن في القمر ، وينتقل إلىٰ النجوم ، ومن ثم انتقل إلىٰ ربه الذي لا يخون ولا يترك من لجأ إليه ، فيمنعه من أن يضل في الأرض تائهاً حيران تستهويه الشياطين ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، وسلَّم سيدنا إبراهيم نفسه لربه ، فسَلِمَ من أن يشقىٰ في الدارين ، وألهمه ربه رشده بعد أن كان حائراً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ ، فقام بواجبه عندما علم بمنعة ربه له ، وعاش في صراع مع قومه الذين عاشوا دهراً مع الأصنام ، وبدأ بأبيه الذي كان يشتغل بصناعتها ، وكان حواره معهم علىٰ علم رباني وهبه إياه ربه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ، ولـٰكن ضلوا في عنادهم ومكابرتهم له ، وأراد أن يضعهم في واقع الحق وأن يريهم ما هم فيه من الباطل ، وخاصة أنه يعلم أن ربه لا يتركه بل ينصره نصراً عزيزاً لا طاقة لهم به لرده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ

(1) الأنعام ، 71 .

لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، ومع ذلك أرادوا أن يثبتوا له أنهم علىٰ حق وأن أصنامهم سوف تنصر نفسها ، ظناً منهم أنها قادرة علىٰ حمايتهم من طوارق الزمن ومن كل الفتن ، فإذا بها لا تدفع عن نفسها نفعاً أو ضراً ، فكيف بها تدافع عنهم ، وعندما رأوا أنها لا تفعل ما كانوا يظنون بها أنها ستفعله ، ورأوا أنفسهم قد صاروا مكان السخرية بتبعيتهم لمن لا ينفع نفسه فكيف يكون نافعاً لغيره ، ووجدوا أنفسهم سخرية أمام الأمم الأخرىٰ ، وزين لهم الشيطان عملهم ، وأرادوا بعد أن يظهروا أمام الأمم الأخرىٰ أنهم علىٰ حق ، وأنهم قادرون علىٰ نصرة آلهتهم متىٰ شاءوا ، وليس لآلهتهم ذلك ، وقرروا أن يحرقوه بالنار ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ، وجمعوا ما قدروا علىٰ جمعه من الحطب ولأيام متوالية حتىٰ يبقىٰ آية وعبرة لغيره إذا أراد أحد أن يقترب منها ، وجمعوا بعضهم ، ووضعوا قيوداً محكمة غاية في الشدة والقسوة حتىٰ لا يتمكن من الهرب أو الفرار ، وهٰذا التشديد يدل علىٰ شيء خفي يكمن داخلهم ، ولٰكن لا يريدون البوح به لبعضهم خوفاً من أن يضيع ملكهم الذي كسبوه بهٰذا الطريق المضل ، فكيف إذا انكشف ، فإنه سيجعل غيرهم يصعد في مكانهم ، ورموه في قلب النار ، وهم علىٰ يقين أن النار ستأكله ، وهنا تدخلت العناية المانعة من أن يكون غير ما أراد المانع جل جلاله أن يكون ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، وخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار فلا هو محروق ولا هو في حالة من البرد بل خرج سالماً كأن لم يدخلها ، وأهلكت الإرادة الإلٰهية أحلامهم وخسروا خسراناً مبيناً ، وكان ذلك بسبب المنعة التي أحاط ٱلله بها نبيه ، والتي

يجب علىٰ الخليفة أن يكون مانعاً بتقوىٰ ٱلله ؛ لأنه المانع بالإضافة الذي يجب عليه أن يكون :

1 ـ جاداً في الدعوة لله .

2 ـ عاملاً عليها ليل نهار دون رهبة أو خوف .

3 ـ أن يكون علىٰ يقين بأن ٱلله ينصره ، وهـٰذا ما حدث مع سيدنا إبراهيم عندما جاءه ملك من السماء سائلاً إبراهيم النصرة فكان الرد : إن كان منك فلا ، وإن ٱلله يعلم ما أنا فيه فإذا كان يريد بي ذلك فلا تستطيع أنت ولا غيرك أن يمنعه ، فذهب الملك من حيث أتىٰ ، فهـٰذا خير مثال لمن أراد أن يستند علىٰ ربه ويكون خليفة ناجحاً في الدنيا والآخرة .

ولأنه المانع منع أهل الولاية من أن يصل إليهم أحد مادام ٱلله أراد لهم الولاية ؛ إنه جل في علاه هو الذي يجعل الخلافة والولاية في يد من يستحق ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

ومنعه للأرض من النيازك والشهب أن تدمرها ؛ وهـٰذه من الأشياء التي ظهرت وأكدتها العلوم الحديثة ، فقد وجدوا أن لكل كوكب جاذبية ، وتزداد قوة جاذبية الكوكب بزيادة حجمه ، ووجدوا أن الكوكب المسمىٰ بالمشتري ، وكوكب نبتون ، وكوكب بلوتو ، من أكبر كواكب المجموعة الشمسية ، فكوكب المشتري يزيد حجمه عن كوكب الأرض ثلاثمائة مرة ، يعني بذلك أن قوة جاذبية هـٰذا الكوكب تزيد عن كوكب الأرض ثلاثمائة مرة ، وقد وجد

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .

العلماء في مدار كوكب المشتري أجزاء لنيازك وشهب متناثرة ، وآخرها ما كان يتوقع العلماء اصطدامه بالأرض وفجأة تغير مساره إلىٰ كوكب المشتري ليصطدم بأحد أقماره الستة عشر ، وهـٰذا يدل دلالة واضحة علىٰ أن هـٰذه الكواكب الضخمة كانت موجودة لحراسة كوكب الأرض بمنع أن تصطدم النيازك به ، ولذلك نرىٰ المانع جل جلاله يقسم بما وضعه فيها من مواضع ومواقع ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [1] .

1 ـ منعه للمؤمن من المعاصي ومن ذلك :

1 ـ منعه لخليفته يوسف عليه الصلاة والسلام من أن يغويه الشيطان . قال تعالىٰ : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [2] .

2 ـ **منع المؤمن من ذهاب عقله** : وذلك بمنع الخمر عنه ، ولما كان سبحانه رحيماً كريماً عالماً بأحوال عباده جعل تحريمه للخمر بالتدرج فيه لحكمة يعلمها والظاهر منها أنه رأفة بعباده ورحمة لهم من عنده ، وأنهم ليسوا بقادرين علىٰ التوقف فجأة عن التعامل معه ، ولذلك جاء توضيح ما لهـٰذا الشراب من أثر بالغ علىٰ العقل وأنه مهما رأوا فيه من المنافع فإن ذلك كله لا يساوي الإثم الذي يلحق منه فقال تعالىٰ : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ

---

(1) الواقعة ، 75 .

(2) يوسف ، 23 ـ 24 .

تَنفَكَّرُونَ ﴾ [1] ، واقترن الإنفاق بآية الخمر رجاء أن يكون ذلك في الوجه الذي ينفعهم وليس فيما يضرهم ، من ثم جاءت آية الاجتناب عن الشراب بعد أن جاءت آية توضح لهم ما فيه من الآثام ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] ، ومن ثم جاءت الآية صريحة وصحيحة بالانتهاء عن التعامل به ومعه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] . فالمانع بالإضافة هو الذي يعرف كيف يمنع مستخلفيه من أن ينفروا عن أوامره ونواهيه تعالىٰ والتي بلا شك هي في صالح عباد الرحمـٰن ، فلا يشرط مالا يقدر عليه المستخلف ؛ لأن ذلك يؤدي إلىٰ الفرار والعصيان والبعد عن فهم الحقيقة ، فالقاعدة تقول : (إذا أردت أن تطاع فأمر بما هو مستطاع) ، فلولا هـٰذا التدرج الذي رأيناه في منع الخمر ما استطاع تنفيذه إلا القليل ، ومن ثم تكون من المشقة الاستجابة لأمره تعالىٰ ، والحمد لله رب العالمين .

3 ـ **منع المؤمن من السرقة** : قد وعد الذين يقومون بسرقة ما يمتلك بعض الناس من ثروة وأموال ، ويقومون بأعمال باطلة ليست من حقهم ، فإن ٱلله تعالىٰ قد وعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فقال : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ

(1) البقرة ، 219 .
(2) المائدة ، 90 .
(3) المائدة ، 91ـ93 .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

4 ـ **منع المؤمن من الحرابة** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) .

5 ـ **منع الخلفاء من الجهل بالتعلم من العلماء** : وذلك لغاية الحفظ والسلامة ، ومثال علىٰ ذلك مرافقة سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام لسيدنا الخضر ليتعلم منه أموراً يجهلها في الحياة ، والتي يمكن له أن يمتنع عن فعلها ، ومنها :

أ ـ **منع الملك من أخذ السفينة بخرقها** : قال تعالىٰ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ (3) ، فكان الرد بتعليمه كيف يتعامل ما يحدث بالصبر والأناءة وأن كل شيء

---

(1) المائدة ، 38ـ40 .

(2) المائدة ، 33ـ35 .

(3) الكهف ، 65ـ73 .

جاء لمنع حدوث أي شيء يضره وربما لا يكون واضحاً في وقته وحينه بل بنظرة لما سيقع في المستقبل القريب أو البعيد ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (1) .

ب ـ **منع عقوق الوالدين بقتل الغلام** : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ (2) ، فكان الرد أشد من الأول بأن الفرصة الأخيرة لعدم التزامه بقواعد التعلم المتفق عليها ، وأن السبب كان لعلم غيبي لم يكن ليحصل عليه إلا برفقة ذلك الرجل الصالح ، وأن المنع إلـٰهي من المانع جل جلاله بما يضمن منع العقوق للأبوين المؤمنين بأن يكون التبديل علىٰ يد المستخلف الصالح لما ينتظر فساده بما يرجىٰ خيره بإذن ٱلله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (3) .

ج ـ **منع ضياع مال اليتيم بإقامة الجدار عليه من جديد** : وذلك ليقاوم الفترة المتبقية من الزمن المتبقي علىٰ بلوغ الغلامين ، ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (4) ، كان الرد حاسماً هـٰذه المرة بمنعه من استكمال الرحلة معه ؛ لأنه لم يستطع الوفاء بما عاهد عليه من السير وفق قواعد

(1) الكهف ، 79 .
(2) الكهف ، 74ـ76 .
(3) الكهف ، 80 ـ 81 .
(4) الكهف ، 77 ـ 78 .

الاتفاق المنصوص عليه في أول الرحلة ، وهـٰذا المنع الذي لم يستطع أن يعرف أساسه لما يحمل من أسس غيبية ليس له القدرة علىٰ تحملها ، وما في طياته من منع ذهاب أموال الغلامين اليتيمين اللذين يرجىٰ صلاحهما ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [1] .

أولاً : منع المؤمن بالتقوىٰ :

قال تعالىٰ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [4] ، وعلىٰ الخليفة أن يكون تقياً وذلك باتباع الآتي :

ثانياً : أن يكون حذراً من الشيطان :

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ

---

(1) الكهف ، 82 .
(2) البقرة ، 197 .
(3) الأعراف ، 26ـ27 .
(4) الفتح ، 26 .

عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثالثاً : أن يجعل التقوىٰ لباسه أي ملازمة له كملازمة ثيابه لجسمه :

وبذلك يكون متقياً من كل محذور أو ممنوع ، امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

رابعاً : منع الشر عن الإنسان بالحفظة :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ (1) .

خامساً : منع المحرمات :

منع المانع جل جلاله المحرمات من الفواحش ما ظهر منها وما بطن بلطفه اللطيف وبعلمه العليم وبقدرته القادر وبقهره القاهر فوق عباده ، وما منع المانع جل في علاه ما نراه وما لا نراه إلا لحكمة يعلمها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

(1) الأنعام ، 60ـ62 .

وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (1) ، علىٰ الخليفة المانع بالإضافة أن يعرف ما هو محرم وما هو حلال فمن المحرمات التي يكون التحريم فيها قطعياً مؤبداً هي :

1 ـ الإشراك بٱلله تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً : قال تعالىٰ : ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ .

2 ـ **عقوق الوالدين** : قال تعالىٰ : ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ .

3 ـ **قتل الأولاد خشية الفقر** : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ .

4 ـ **الفواحش ما ظهر منها وما بطن** : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ .

5 ـ **قتل النفس بغير حق** : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ .

6 ـ **القرب من مال اليتيم وأكله** : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ﴾ .

7 ـ **التطفيف في الميزان** : قال تعالىٰ : ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ .

8 ـ **الجور في الحكم بين الناس** : قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ .

9 ـ **نقض العهد والمواثيق** : قال تعالىٰ : ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ .

---

(1) الأنعام ، 151ـ153 .

10 ـ **البعد عن الصراط المستقيم** : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ولٰكن ترك المحرمات التي ذكرت أو لم تذكر لا يعني أن نترك الطيبات من الرزق تحت داعي التقشف والرهبنة والتفريط في المنع تحت اسم المنع منه تعالىٰ ؛ ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

11 ـ **منع السؤال عن الذات الإلـٰهية** : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [2] .

12 ـ **منع النهرين الحلو والمالح بالبرزخ** : قال تعالىٰ : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [4] ، وهـٰذا الذي يجب أن يكون عليه

---

(1) الأعراف ، 31ـ33 .
(2) المائدة ، 101 ـ 102 .
(3) الرحمـٰن ، 19ـ22 .
(4) الفرقان ، 52 ـ 53 .

الخليفة من الحجز بين الحق والباطل ، وتوضيح ذلك للناس حتىٰ يهتدوا إلىٰ طريق الحق وطريق الخلافة التي جعلها ٱلله جل جلاله في عنق بني آدم ؛ لأن الحق واضح ولٰكنه يحتاج إلىٰ من يوضحه ويسهله للناس حتىٰ يروه سهلاً ، وعلىٰ عكس ما يعمل الشيطان يكون عمل الخليفة في الأرض ، فإذا كان الشيطان هدفه الغواية والضلالة والعياذ بٱلله فإن هدف الخليفة في الأرض هو الهداية ، ولمثل ذلك فليكن نهج الخليفة .

13 ـ **منع عقوق الوالدين** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴾ [1] .

14 ـ **منع التبذير** : قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ [2] ، من واجبات الخليفة أن يمنع التبذير ؛ لأن التبذير لا يكون نتاجه خيراً ، لذلك عد من أعمال الشيطان فالمبذر يكون الشيطان أخاه بما يوقعه من الفساد الذي نهىٰ ٱلله عنه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [3] ، ومن أمور التبذير التي جاء النهي عنها :

أ ـ تبذير الأموال في غير الوجوه التي أمر ٱلله أن تصرف فيها .

---

(1) الإسراء ، 23ـ25 .

(2) الإسراء ، 26 ـ 27 .

(3) محمد ، 22 .

ب ـ تبذير المياه وإن كان الإنسان علىٰ ضفاف نهر .

ج ـ تضييع الوقت في غير مصلحة النفس أو المجتمع .

د ـ تضييع الجهد في غير وجه حق بما يخدم الأمة وينصر الدين .

هـ ـ تضييع الفكر في غير محله فعلىٰ الخليفة أن يفكر فيما يبني مجتمعه وأمته ودينه ، فيكون ناصراً معيناً فيحصل له من الأجر والثواب ما يقربه إلىٰ ٱلله زلفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (1) .

15 ـ **منع المؤمنين من الكفر بإرسال الرسل** : فالرسل أرسلها المانع لتمنع الناس من الشرك الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ الهلاك وهو النار والعياذ بٱلله ، وهـٰذه الرسل كلها بعد التكذيب الذي أساسه ما يحرض به الشيطان بني الإنسان من الكفر والشقاق والذي يؤدي بصاحبه إلىٰ الثبور والهلاك ، وكل الرسل الخلفاء جاءوا ليخوفوا الناس من هول يوم النشور ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾ (2) .

16 ـ **منع الفساد** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

---

(1) النساء ، 124ـ126 .

(2) الإسراء ، 59 ـ 60 .

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] ، في هـٰذه الآيات الكريمة نداء واضح للخليفة لأن يمنع الفساد في الأرض بل يدعو ٱلله وهو علىٰ خوف من عذابه ، وعلىٰ وجل رجاء في أن يكون شاكراً علىٰ ما أولاه من النعم التي لا تحصىٰ ، وليكن في معلومه أن رحمته قريبة من المحسنين ، الذين يدعونه وقلوبهم وجلة ، لعلمهم أن ٱلله عز وجل هو الذي أكرمهم بما منعه عنهم من الشرور ، فيكون عملهم خالصاً لوجهه الكريم المانع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [2] .

المانع علىٰ ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : للمانع المطلق الذي بيده الأمر هو مالك الملك جل جلاله ، يمنع الشرور والأضرار عن عباده الصالحين ، حتىٰ وإن ابتلاهم بما يجعلهم علىٰ اليقين ثابتين ، إنه مانع الظلم والكفر والشرك علىٰ من خلقهم في أحسن تقويم ، وهو مانع الفسق والزنا أي محرم كل ما من شأنه يلحق ضرراً بالعباد ، وهو مانع الفساد في الأرض ومانع سفك الدماء فيها بغير حق ، إنه العادل في ملكه والمهيمن علىٰ أمره ونهيه وهو العليم الحكيم الذي له الأسماء الحسنىٰ التي يدعوه الخليفة بها في كل حين إنه ربي جل جلاله .

الوجه الثاني : **الخليفة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا

---

(1) الأعراف ، 55 ـ 56 .

(2) المؤمنون ، 60ـ62 .

عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

الإنسان الذي كرمه ٱلله بالإيمان هو خليفته في الأرض وهو الوارث في الجنة بما عمل في الأرض من أعمال حسان فثقلت بها موازينه حسنات حتىٰ كان من المفلحين . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (3) ، والمفلحون هم المصلحون في الأرض الذين لم يفسدوا فيها ، ولم يظلموا أحداً ، يتقون ٱلله في كل كبيرة وصغيرة وهم طائعون . قال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ (4) .

الوجه الثالث : المناع للخير : وهو المفسد في الأرض وسافك الدماء فيها بغير حق ، وهـٰؤلاء منهم شياطين الجن والإنس ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ

(1) البقرة ، 30ـ37 .
(2) الأعراف ، 8 .
(3) المؤمنون ، 102 .
(4) القارعة ، 6ـ11 .

ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴾ (1) ، هـٰؤلاء هم المانعون للخير المعتدون علىٰ أصحاب الحق بغير حق ، وهـٰؤلاء هم الذين تملأهم الشكوك والظنون فيشركون الولد والصاحبة لمن هو واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له مثيل ولا شبيه ولم تكن له الصاحبة ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ (3) . مانعوا الخير هم الذين يلقون أثاماً ، وهم الذين خفت موازينهم ، ومن تخف موازينه فأمه هاوية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ (6) .

وعليه ، علىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يكون عليماً بما فيه خير نفسه ومن حوله ، وأن يكون متيقناً من أن في منع ٱلله تعالىٰ لحاجة من حاجاته خيراً له فلا يقنط ولا ييأس من رحمته الواسعة وفضله غير المتناهي ، حتىٰ لا يمنع

(1) الأنعام ، 112 ـ 113 .
(2) ق ، 25 ـ 26 .
(3) القلم ، 10 ـ 12 .
(4) الأعراف ، 8 ـ 11 .
(5) المؤمنون ، 103 .
(6) القارعة ، 8 ـ 11 .

بذلك دخول الشك والتذمر نفسه فتمتنع بذلك عن سماع صوت الحق والهدىٰ ، ولـٰكن خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض يعلم أن كل الأمر أوله وآخره منه تعالىٰ ، وهو لا يعطي ولا يمنع إلا عن علم وخبرة وهو مؤمن بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

المانع هو الحفيظ :

ما دام الإنسان سائراً في طاعة ٱلله وحبه فٱلله حافظٌ له ، وحفظه تعالىٰ مطلق إذ أنه يمنع عنه كل أذىً وشر ، ومن كان في حفظ الحافظ جل جلاله من ذا الذي يستطيع أن يؤذيه أو يمنع عنه خيراً مقدّراً له .

إن في حفظ ٱلله تعالىٰ لعبده أماناً له في الدنيا والآخرة من شر نفسه وغيره ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (2) ، وفي حفظه رحمة للإنسان بمنعه مما يهلكه ويفسده ، فإذا وصل الإنسان بحبه وطاعته وإيمانه إلىٰ أن يكون في حفظ ٱلله فسيكون ٱلله بالتالي مانعاً له ممن يعاديه ويبغضه ، فلا يتمكن منه أعداؤه ولا ينتصرون عليه .

ولا يمنح المولىٰ عز وجل نعمة حفظه ومنعه إلا لمن استحق أن يكون خليفة في الأرض يسعىٰ بالإصلاح ويدعو للخير ويمنع الفساد والرذائل أن تسود فيها ، فلا يمسك رحمته تعالىٰ عن هـٰذا الإنسان شيء لأنه تعالىٰ القادر والعليم بمن يستحق رحمته وحفظه ومنعه من بين خلقه جميعاً ، لذلك نجد أن الأنبياء والمرسلين والصالحين هم دائماً في حفظ ٱلله جل جلاله ، فكم من أذىً وبلاء أصاب رسله وأنبياءه وكم من مكيدة دُبِّرت لهم لكنّ المانع حفظهم بحفظه ، كما حدث مع سيدنا يوسف ﷺ عندما كادت له زوجة العزيز فمنع عنه المولىٰ

---

(1) الشورىٰ ، 12 .
(2) يوسف ، 64 .

شرها بحفظه له ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ [1] ، فالحفظ فيه نجاة للمؤمن ورحمة من جميع الشرور التي تؤدي إلىٰ خسارة الإنسان في الدنيا والآخرة ، ونحن نرىٰ كثيراً من المواقف التي يقع فيها حفظ ٱلله علىٰ عباده من مصائب وكوارث مختلفة ، فيمنع أن تصيب من يشاء من عباده ولا يمنعها عن غيرهم .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون حافظاً لنفسه أولاً من الوقوع في المهالك والمعاصي بمنعها من اتباع الشهوات وشراء الحياة الدنيا بالآخرة فيكون من الخاسرين ، وأن يمنع أذاه عن الناس بحفظ لسانه ويده عنهم . عَنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ ٱللهُ عَنْهُ » [2] .

وخليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض عليه أن يحفظ ٱلله في كل قول وفعل ، فبذلك يكون مانعاً نفسه من الزلات والنقائص ، فمن حفظ ٱلله لابد أن يحفظه ٱلله ويمنع عنه كل أذىٰ .

---

(1) يوسف ، 23 ـ 28 .
(2) صحيح البخاري ، ج1 ، ص15 .

المانع هو الرحيم :

ٱلله جل جلاله سبقت رحمته كل شيء ، لذلك فقد كان في كل أمر من ٱلله للإنسان رحمة وخير حتىٰ وإن كان الظاهر له غير ذلك ، ففي ضيق الرزق رحمة للإنسان من ذنب آخر أو اختبار له لصبره وثباته فيُثاب عليه ، وأيضاً في اعتلال صحة الإنسان وإصابته بمرضٍ ما فتح باب رحمته ومغفرته عز وجل لذنوب هـٰذا الإنسان ومنحه الرضا والود ، فالرحيم يحيط عباده بحفظه ورعايته ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [1] .

والمانع رحيم بعباده بعدة صور منها :

1 ـ منع المرض بالصحة :

لقد أعطىٰ ٱلله تعالىٰ للإنسان كثيراً من النعم ، ومن ضمنها نعمة الصحة التي قد لا يملكها جميع البشر بنفس النسبة والقدر ، فمن الناس من يتمتع بصحة تامة ، ومنهم من يملك مقداراً أقل ، ومنهم من هو عليل .

ولـٰكن من رحمته بالمريض إعفاؤه من التكاليف الشرعية ، قال تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] ، فبالرغم من لزوم قيام العباد بالتكاليف الشرعية تدخل هنا رحمة ٱلله تعالىٰ لترفع هـٰذه التكاليف عن المريض بذلك يكون ٱلله تعالىٰ مانعاً لتفاقم المرض أو طول مدة شفائه ، لذلك فقد كان منعه رحمةً للمريض .

---

(1) يوسف ، 64 .
(2) البقرة ، 185 .

2 ـ منع الجهل بالعلم :

بدأت الدعوة الإسلامية في بدايتها بالدعوة للعلم والمعرفة لكي يصل الإنسان إلىٰ معرفة الحق والاقتناع بما هو صحيح وصائب ، ولا وسيلة للهداية بغير العلم ، ولا وسيلة لمنع الجهل والكفر والعصيان بغير العلم ، وأول آية نزلت علىٰ الرسول ﷺ من القرآن الكريم هي كلمة (اقرأ) ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (1) ، وكما في الآية الكريمة وضّح ٱلله تعالىٰ أن القراءة الحق تكون مانعة للكفر والجحود بقيادتها للعقل البشري نحو الرقي في التأمل والتفكر فيما يدور حوله في الدار الدنيا ، والعلم الحق المانع للجهل هو ما كان متجهاً نحو ٱلله ومن ٱلله وفي ٱلله ، فكم من عباقرة وعلماء وصلوا إلىٰ درجات رفيعة من العلم في المجالات العلمية والأدبية ، ولـٰكن لم تمنعهم هـٰذه الدرجات الرفيعة من الوقوع في الضلال والفساد والجهل ، فخسروا آخرتهم بمنعهم علم الحق والهداية من الدخول إلىٰ قلوبهم ، لذلك فقد تعددت الآيات الكريمة التي تخاطب العقل البشري وتدعوه أن يكون مانعاً للجحود والكفر وداعياً للتأمل والإيمان بما حوله بعد التحليل والتفصيل فلا بد أن تكون النتيجة لصالح الإنسان في دينه ودنياه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(1) العلق ، 1 ـ 5 .

بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، ومن الآية السابقة يتضّح لنا ما يلي :

أ ـ أن في خلق الكون كله آيات للعقل مانعة للعقل البشري من السقوط في مستنقع الكفر والعصيان ، بما فيه من إبداع ونعم .

ب ـ التأكيد علىٰ دور العقل البشري في منعه للجهل باعثاً للإنسان علىٰ الاهتمام به لينأىٰ عن الفواحش والمفاسد إذا أحسن استعماله كما أراد خالقه عز وجل .

ج ـ صحيح أن العقول البشرية جميعها تفكر ، ولٰكن هناك أنواع للتفكير فمنها تفكير إيجابي وتفكير سلبي ، فالتفكير الإيجابي من قاد صاحبه إلىٰ النور والهدىٰ فيكون بذلك مانعاً للجهل بحقائق الأمور ، أما التفكير السلبي فهو الذي يقود صاحبه إلىٰ الظلمات والضلال فيكون بذلك مانعاً للعلم بحقائق الأمور .

وعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يكون علمه حصنه المنيع ضد التخلف والجهل ، فلا يمنع وصول الحقيقة لعقله وقلبه ، بل عليه أن يتركهما طليقين في هٰذا الكون ينطلقان حيث الفائدة والرجاء ، فيكون بذلك الخليفة مانعاً للجهل المؤدي للهلاك ، الجهل بدينه وأمور دنياه فتختلط عليه السبل ، من هنا كان علىٰ خليفة ٱلله أن يكون مانعاً للانجراف وراء الخرافات والأوهام التي قد توقع في أحد أنواع الشرك والكفر ، وأن يكون ذاكراً حافظاً لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (2) ، فإذا لزم الخليفة السعي وراء العلم النافع منع عنه ٱلله الكثير من الأوهام والشرور التي تجر الإنسان إلىٰ الضلال والهلاك .

---

(1) الرعد ، 2ـ5 .
(2) المجادلة ، 11 .

وقد يتساءل البعض : كيف يكون خليفة ٱلله بالإضافة مانعاً للجهل بعلمه .

أولاً : أن يكون كريماً في إفادته للآخرين مما يحمله من علمٍ ومعرفة ، بنشره بقدر استطاعته بين المسلمين ، فلا يسكت عن مفسدة أو خرافة قد تتفشىٰ بينهم وقد تؤدي بهم إلىٰ الجهل أو التخلف ، لأن من شأن الخرافات أن تجر المجتمع وحتىٰ المتعلمين منهم إلىٰ الامتناع عن الالتجاء إلىٰ ٱلله أولاً ، بل يكون لجوء هـٰؤلاء الناس إلىٰ بعض الدجالين والسحرة بحجة أنهم مانعو الضرر والخوف عنهم ، فيكون دور خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يمنع بعلمه تفشي هـٰذه الظاهرة وغيرها بين الناس بدعوته للإصلاح ونشر ما لديه من حقائق وتوعية بين المسلمين لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

ثانياً : أن يساعد في تثبيت الدعائم الأساسية في تكوين شخصية الإنسان منذ الطفولة فيكبر علىٰ مفاهيم صحيحة ويضع لحياته المعايير والمقاييس التي يراها مناسبة للمضي في الحياة دون أن يكون عُرضة للفشل والضياع ، فيكون دور الخليفة إذا كان معلماً إرساء هـٰذه المعايير وتثبيتها ، وإذا كان والداً خلق حب التفكير والإبداع في نفوس أبنائه ، وغير ذلك من أدوار متباينة في المجتمع من الممكن أن تمكّن خليفة ٱلله في الأرض من منع الضعف والهوان اللذين إن تمكنا من جيل بأكمله يعيقانه من الإنتاج والرقي والنجاح .

ثالثاً : أن يكون مانعاً لانتشار بعض الأمراض الاجتماعية من التفشي بين المسلمين كالنميمة والظن والسخرية ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ

رَّحِيمٌ ﴾[1] ، فمن شأن هـٰذه الأمراض الاجتماعية أن تكون مانعة للثقة بين الناس والصدق والتواضع وهـٰذا ما يمنع من سيادة المحبة والأخوة بين المسلمين ، وذلك بدوره يكون مانعاً لهم من تكوين أمة أرادها الخالق أن تكون ، أمة شعارها المحبة والتعاون والإخاء ، لا ضغينة بين أبنائها ولا عداوة ، فيصلوا بذلك لقول الرسول ﷺ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ »[2] ، بهـٰذه الرحمة والأخوة تكون الأمة المانعة للضعف والتخلف والشرور والضياع ، وهـٰذا يكون في رقاب عباد ٱلله العلماء والمثقفين الذين يخترعون ويبدعون بعلمهم الوسائل المانعة لانتشار تلك الأمراض الفتاكة ، فيكون خطابهم للعقول والأفئدة ، مانعة إياها من التمادي في السقوط في مستنقع المفاسد ، بتصحيح المسارات وتقويم النفوس ومخاطبة العقول بالشكل والوقت الملائمين .

3 ـ منع الشهوات بنضوج العقل :

خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان وأسكنه الأرض التي تمتلئ بالمتع والإغراءات التي من شأنها أن تقود بعض الأنفس البشرية للانجراف وراء شهوات النفس التي خلقها ٱلله تعالىٰ ، ولـٰكن خلق معها مانعاً مباشراً يقوم بمنع هـٰذه الشهوات من التحكم في الإنسان ، فعند نضوج العقل تكون الشهوات داخل نفس الإنسان قد بدأت بالظهور ، فيقوم العقل بدور المنظم لها والحائل بينها وبين سيطرتها علىٰ الإنسان ، ولـٰكن قد نجد في بعض الأحيان أن هـٰذه الشهوات هي التي تقوم بمنع العقل من التحكم فيها وذلك حسب إيمان وتقوىٰ الإنسان وانقياده وخضوعه لله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

---

(1) الحجرات ، 11 ـ 12 .

(2) صحيح مسلم ، ج 12 ، ص468 .

وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (1) .

4 ـ منع الفساد بسن العقوبات :

لا يمكن أن نَجِد من الجرائم والفساد بدون وجود رادع يمنع أولئك الناس من المضي في جهلهم وشرهم ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ مانع لانتشار ذلك بسن العقوبات والقوانين التي تمنع المجرمين من التمادي في ذلك ، ولقد كان لنا في رسول ٱلله ﷺ أفضل مثل وقدوة ، إذ أنه كان يقيم الحد في أيٍّ كان بدون النظر والاعتبار لأي رابط أو صلة ، مانعاً بذلك الوساطة التي تمنع انتشار العدل والمساواة ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ : « أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رسول ٱلله ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَىٰ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رسول ٱلله ﷺ فَقَالَ أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ قَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ ٱلله فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ ٱلله خَطِيبًا فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ ٱلله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ثُمَّ أَمَرَ رسول ٱلله ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَىٰ رسول ٱلله ﷺ » (2) .

وقد يتساءل آخر : كيف يكون المنع من عند ٱلله دائماً لخير الإنسان .

في منع ٱلله سبحانه وتعالىٰ لعباده محبة ورحمة كبيرتان ظاهرتان ولٰكن لا يصل إلىٰ فهم جوهرهما إلا من ارتقىٰ بنفسه وفكره وخلقه عن توافه الأمور وقشورها ، فنأىٰ بروحه عن النقائص والضعف النفسي ، فيمنع الخالق عز

(1) آل عمران ، 14 .

(2) صحيح البخاري ، ج 13 ، ص201 .

وجل الخير أحياناً للخير ، فمنعه كله خير ومنفعة للعباد ، وليس أدل علىٰ ذلك أنه أحياناً يؤخر أو يمنع نزول الأمطار علىٰ بلدٍ ما حباً بهم وبنفعهم ، ولا يكون هـٰذا المنع نفوراً منهم وبغضاً ، لأنه عند تأخر نزول الأمطار يلجأ المسلمون إلىٰ صلاة الاستسقاء التي تمثّل لجوء المسلم إلىٰ الخالق الرزاق وتُشْعِره بقدرته وقوته ، فيتوكل عليه ويثق به ، وهـٰذا من شأنه أن يدعم صلة المسلم بربه ، حين يدرك أنه لا منقذ إلا هو ولا مجيب لدعواته إلا هو عز وجل ، بذلك يمنع هـٰذا العبد اللجوء لغير ٱلله في أموره وحاجاته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

ولله تعالىٰ عدة سبل لمنع انتشار الباطل بين الناس فمنهم من اهتدىٰ ومنع نفسه عن الفساد ، ومنهم من كفر وعصىٰ ومنع نفسه من الإيمان ، ومن هـٰذه السبل :

1 ـ بعث الرسل والأنبياء :

لم تأتِ أمة وترحل إلا وكان ٱلله تعالىٰ باعثاً فيهم من يرفع عنهم الحجة والجهل بالحق ، فمنذ تمرد الشيطان وعصيانه لأمر رب العالمين بالسجود لآدم توعد بإغواء البشر ضعاف النفس ومنعهم للوصول للحق ، ومن هنا كان سبيلاً من السبل بعث الرسل والأنبياء لتوضيح ما يرضاه ٱلله تعالىٰ وما يأمر به ، ولتوضيح طريق الهداية من الضلال ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ

(1) البقرة ، 164 .

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] ، فكان ٱلله تعالىٰ عليماً بما سيكون عليه حال البشر من ضياع وعصيان إذا تركهم بلا علامات للاهتداء في هٰذه الأرض ، لذلك بعث الرسل والأنبياء مبشرين بالحق والجنة ومنذرين من النار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [2] .

2 ـ تقديم النصح :

النصيحة عادةً لا تأتي إلا من محب ، فلن تجد يوماً عدواً لك يقدم لك ما تستفيد منه ، وٱلله عز وجل خلق البشر بحب ورحمة لا يبغي لهم العذاب والنار ، فكان مقدّماً لهم كل سبل الهداية واليقين ، ليكون بذلك مانعاً لهم من التمادي في الكفر والعصيان ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا

(1) الأعراف ، 11 ـ 18 .
(2) النساء ، 164 ـ 170 .

تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فالودود المطلق يعلم مسبقاً بعلمه المطلق أن هناك بعض النفوس البشرية التي تتخذ الشيطان حاجزاً بينها وبين الحق والإيمان ، فكان رحيماً بنصحه لهم ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

والمانع لا يسلّط عذابه حتىٰ علىٰ الكافر والعاصي من عباده إلا بعد إقامة الحجة والدليل بتوضيح طريق الهداية والحق ، فالخالق خلق العقل للتمييز والاهتداء للحقيقة ، الذي من شأنه أن يمنع اتباع طريق الشر والفساد إذا أُحسِن استعماله ، فلا يكون تابعاً جاهلاً لأي فكر أو اعتقاد ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، فإذا أُلْغيَ العقل بالجهل والضلال من الإنسان أصبح بلا نفع ولا جدوىٰ .

وأرسل الرسل والأنبياء بالتبشير والتنذير ، لأن المانع عز وجل منزه عن الظلم لذلك فقد خرج من دائرة العقاب من حُرِم من نعمة العقل لعدم قدرته علىٰ التمييز ، بذلك فإن ٱلله تعالىٰ كان مانحاً ومعطياً للبشر سبل الهداية والرشاد ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (4) ، وبعلم ٱلله المسبق وقدرته المطلقة كانت حكمته

(1) النور ، 21 ـ 22 .
(2) آل عمران ، 28 ـ 29 .
(3) البقرة ، 170 ـ 171 .
(4) النساء ، 165 .

في عدم استمالة قلوب العصاة الكافرين للهدىٰ لعدم استحقاقهم تلك النعمة ، فلا يمكن للعادل المطلق أن يساوي بين الطيب والخبيث ولا بين الحسن والقبيح ، فهو يعطي كل ذي حقٍّ حقه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

ولله المثل الأعلىٰ إذ علىٰ كل راعٍ أو مسؤول أن يخاف ٱلله في حقوق العباد ، فلا يأخذ حق هـٰذا ليعطيه لذاك ، ولا يبخس العاملين حقوقهم بل عليه أن يكون مثالاً للاستقامة والعدل كي لا يجعل من رعيته أصحاب نفوسٍ حاقدة عليه لظلمه ، لا تتمنىٰ له إلا السوء فينشر بذلك الحقد والبغضاء والعداوة ، لذلك من كان في مقام يمكّنه من منع الفساد والظلم فعليه أن لا يتأخر عن القيام بما يلزم لردع المفسدين والظالمين فيمنع بذلك وقوعه في الهلاك والضلال ويمنع أن يكون مستحقاً لغضب ٱلله تعالىٰ عليه .

3 ـ سرد القصص للعبرة :

القرآن الكريم مليء بقصص الأمم السابقة ، التي أوجدها قبلنا فعاقب من عاقب منها سواء كانوا أشخاصاً أو أمماً وأقواماً ، ذلك لنستخلص مصيرها وعاقبتها ، فيكون ذلك مانعاً لنا من الوقوع في ما وقعوا فيه . قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ

(1) يونس ، 61 .

كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [1] ، فقد بلّغ ٱلله نصحه للبشر بلسان رسله ، الذين بعثهم رحمةً للناس ومنعاً لهم من اتخاذ طريق الشيطان منهجاً لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [2] ، فالنصح من ٱلله يصل إلىٰ العباد عن طريق الأنبياء والرسل والصالحين ، كي لا تكون حُجَّة لأي كافرٍ أو عاصٍ علىٰ ٱلله ، فاستخلاص العبر والموعظة هي نتاج العقل الصائب الذي يصل إلىٰ الحقيقة بأسرع وأبسط الطرق ، هـٰذا العقل الذي إذا استعمله الإنسان بالشكل الصحيح كان منارة للتبشير بالحق ، وطريقاً للهداية مانعاً للكفر والعصيان .

4 ـ أخذ الحيطة والفائدة :

قد يمنع ٱلله تعالىٰ الخير والعطاء علىٰ المسلمين ليكون ذلك في صالحهم وخيرهم ومنفعتهم ، وليس أدل علىٰ ذلك من منحه النصر للمسلمين في غزوة بدر مع قلة عددهم وعتادهم ، إلا أن قوة إيمانهم وحرصهم علىٰ شراء آخرتهم استحقوا به نصر ٱلله لهم مع التخلص من رؤوس الشرك والكفر ، في حين أن المسلمين كانوا في غزوة أحد أكثر عدداً وعدة منهم في غزوة بدر إلا أن المانع

(1) الأعراف ، 59 ـ 64 .
(2) الأعراف ، 74 ـ 79 .

منع النصر عنهم ذلك لقبولهم علىٰ متاع الدنيا ومخالفة أوامر رسولهم الكريم ﷺ فيكون بذلك منع ٱلله النصر لهم رادعاً ودرساً لهم استفادوا منه فيما بعد ، فكان المنع لصالح المسلمين ورادعاً لأصحاب النفوس الضعيفة منهم .

وقد يتساءل بعض الناس ما الحكمة من منع انتصار المسلمين علىٰ أعداء ٱلله .

هناك عدة أسباب قد تخفىٰ علىٰ بعض المسلمين ومنها :

1 ـ وصول الأجر والثواب لعباده المسلمين لصبرهم علىٰ هـٰذا البلاء ، فيواصلون الجهاد لحبهم لنيل الأجر العظيم .

2 ـ زرع الثبات والثقة بقدرة الخالق علىٰ كل شيء ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [1] .

3 ـ تمييز واختيار عباده الصالحين المتقين من بين المسلمين جميعاً ، فيصفي خيرة المسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [2] .

4 ـ الإحساس بجمال النصر ، ومنع دخول اليأس والغم إلىٰ قلوب عباده المخلصين .

ولـٰكن كيف يكون الخليفة مانعاً للفساد .

أولاً : بالعبادة :

العبادة هي منتهىٰ الحب والطاعة والخوف من الخالق عز وجل ،

---

(1) آل عمران ، 126 .

(2) آل عمران ، 179 .

والمقصود بالعبادة هنا ليست العبادات المألوفة كالصلاة والصوم وغيرها ، بل العبادة هي حب اللجوء لله والتوكل عليه واستشعار هـٰذا الحب في كل جوانب الروح والجسد وطاعته التي من شأنها أن تمنع أية رذيلة أو مفسدة قد يقع فيها الإنسان بابتعاده عن طاعة خالقه ، بذلك يصل الإنسان إلىٰ الاستقامة ، التي بها يصل إلىٰ ذروة الاقتراب من العزيز الخالق .

فالاستقامة إذا وُجِدت في الإنسان فقد أوجدت معها مكارم الأخلاق التي دعا إليها الرسول ﷺ فقد كان المثل الأعلىٰ للخلق الكريم الذي إذا تحلىٰ به الإنسان كان مانعاً للباطل والفساد أن يسودا نفسه وروحه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ألا أدلكم علىٰ مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة . « قالوا : بلىٰ يا رسول ٱلله ﷺ ، قال : « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » [1] ، فمن كان واصلاً لرحمه ومعطياً لمن منعه وعفواً عمن ظلمه كان مانعاً للشر والضلال في نفسه .

وهناك نوعان من المنع يقوم به الإنسان : منع إيجابي ومنع سلبي .

أولاً : المنع الإيجابي :

في هـٰذا النوع من المنع يكون الإنسان مانعاً لانتشار الشرور في نفسه وفي المجتمع بصفة عامة ، وله عدة أحوال منها :

أ ـ أن يكون مانعاً للجهل :

لأن الجهل هو أساس الضلال والكفر ، فإذا تُرك العقل البشري لظلمات الجهل والضلال تاه في الشرور والمفاسد ، هنا يأتي دور الخليفة بمنعه لذلك عن طريق محاربة هـٰذا الجهل بالعلم الصحيح الذي يقيم الحجة علىٰ الجهل والتخلف ، فلا يبخل بعلمه علىٰ أحد ، ولا يستغله من أجل مآرب أخرىٰ ،

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 17 ، ص 118 .

وأن لا يوجّه علمه في وجوه الشر والفساد ، عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ رسول ٱلله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ ٱللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » [1] ، لأن العلم قد يُسْتغل في غير وجوه الخير والإصلاح ، فبدل أن يكون منارة يستهدي بها الناس يكون مستنقعاً للظلمات والتيه فلا يدري الإنسان ما هو صحيح وما هو خاطئ .

ب ـ أن يكون مانعاً للظلم :

الظلم يسود حينما يمنع الناس انتشار العدل ، فيكثر الظلم ويتفشىٰ في جسد الأمة ، والظلم نوعان :

أحدهما : ظلم الإنسان لنفسه بأن يسعىٰ إلىٰ الشهوات والمفاسد فلا يحافظ عليها من الضياع ، وبمنع نور الهداية بالتسلل إلىٰ جنبات روحه لتضيء عتمتها ، فٱلله تعالىٰ لا يمكن أن يظلم عبداً من عباده ، بل هو الرحيم بهم والهادي والرؤوف ، ولـٰكن اختيار الإنسان لولائه للشيطان فإنه يمنع الخير عنها بمنعها من صلة الرحمـٰن بها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [2] ، إذاً الظلم يقع علىٰ العبد من نفسه بسماحة لسيطرة الشيطان عليها ومنعه وصول الحق والنور إليها .

وآخرهما : ظلم الناس لبعضهم البعض يأتي من تفاوت البشر فيما بينهم في المكانة العلمية والمادية والاجتماعية ، وهـٰذا التفاوت كان مانعاً لسيادة العدل والمساواة بين الناس ، بالرغم أن ٱلله تعالىٰ كانت دعوته وأمره واضحين في هـٰذا الشأن ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي

---

(1) صحيح البخاري ، ج 1 ، ص176 .
(2) يونس ، 44 .

ﵟٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَﵞ [1] ، فالخالق عز وجل مانع للظلم بأمره بالعدل ، فلا يمكن أن يجتمع كلٌّ منهما مع الآخر ، بل جعل من أسباب رضاه ودخول جنته العدل كما جاء علىٰ لسان رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، عَنِ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ ٱللهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ ٱللهَ فِي خَلاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي ٱللهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا قَالَ إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ » [2] .

ج ـ أن يكون مانعاً لقطع الرحم :

صلة الرحم بين المسلمين من أكبر الأسباب المانعة للحقد والعداوة والبغضاء ، لأن واصل الرحم لابد أن يكون يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً ودوداً مانعاً للكراهية والقسوة ، لأنه من وصل رحمه فقد وصل صلته بٱلله ومنع نفسه من الوقوع في إحدىٰ الكبائر ، فمهما كان الأقرباء وصلة رحمنا علىٰ خطأ لابد أن نكون راعين لهم ولحقوقهم علينا ، لدرجة أن ٱلله تعالىٰ أوصىٰ بعدم قطع الرحم حتىٰ وإن كان ذلك بسبب الدعوة لترك توحيده وعبادته ، قال تعالىٰ : ﵟوَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَﵞ [3] ، فقد اجتمع في الآية الكريمة السابقة أمران من شأنهما أن يمنعا قطع الصلة :

---

(1) النحل ، 90 .

(2) صحيح البخاري ، ج 21 ، ص 74 .

(3) لقمان ، 15 .

أ ـ الأمر الأول عدم طاعة الوالدين في منعهما وصل الصلة بٱلله العلي العظيم ، وبذلك يمنع ٱلله تعالىٰ الإنسان من الخضوع والاستسلام للكفر بأمر من الوالدين .

ب ـ الأمر الثاني عدم قطع صلة الإنسان بوالديه قطعاً نهائياً بمنعه له أن يرعاهما بالمعروف ، فيكون بذلك الخالق عز وجل مانعاً لقطع صلة الرحم .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون واصلاً لرحمه بما أمر ٱلله ، فلا يمنع رحمه منه ولا يمنع طاعة ٱلله بقطع هـٰذه الرحم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] التي من شأنها أن تجعل الأمة متماسكة قوية ذات إحساس موحد ، تمنع دخول الضعف والانحلال الاجتماعي فيها ، فلا قيمة لإنسان بلا رحمه ولا عمل طيب يُقْبَل منه وهو قاطع لرحمه ، لأنه خالف أمر المولىٰ عز وجل في ذلك حين قال : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [2] ، وأن يكون واصلاً لله بصلة رحمه فيمنه بذلك قطع صلته بالخالق عز وجل ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ ٱللهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ ٱللهُ » [3] .

د ـ أن يكون مانعاً لليأس :

إذا احتل اليأس مواطن الأمل في الإنسان كانت حياته بلا فائدة ونهايتها

(1) الروم ، 38 .
(2) الإسراء ، 23 ـ 24 .
(3) صحيح مسلم ، ج 12 ، ص 407 .

الضياع والخسران الكبير ، لأن الإيمان الصادق يدعمه ويقويه الأمل والثقة بالمولىٰ عز وجل ، فلا تهتز قلوبهم من وقع هم أو حزن ولا يتراجع إيمانهم بمنع ٱلله لنعمة من نعمه أن تحل بهم أو زوال نعمة كانت بهم ، بل يزدادون إيماناً وحباً لله بصبرهم الذي يمنع عنهم بلاءً عظيماً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) ، فالأمل والثقة بٱلله منبعهما الإيمان القوي به جل جلاله ذلك الإيمان من شأنه أن يمنع اليأس من التمكن من نفس المؤمن التقي المتأمل دائماً بكرم ورحمة ٱلله تعالىٰ .

وخليفة ٱلله هو من حمل الأمل بٱلله معه في كل خطوة من خطوات حياته فيكون مانعاً رادعاً لليأس ، مغلّقاً الأبواب في وجهه بالثقة بالمولىٰ عز وجل .

هـ ـ أن يكون مانعاً لتغلب شهوات النفس :

وهناك حالتان للإنسان مع الشهوات :

الحالة الأولىٰ : تغلب النفس علىٰ الشهوات بأن يمنع الإنسان نفسه من التدهور واللهث وراءها ، فلا يكون كل همه هو إرضاؤها وإشباعها بكل الوسائل والسبل ، فيصل إلىٰ حالة من التوازن بهٰذا المنع ، ويحقق السعادة والرضا والقناعة به ، فلا ينجرف خلف هٰذه الرغبات متناسياً أمر ٱلله لنا بالاعتدال والتوازن ، عاملين بنصح الخالق لهم كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (2) .

---

(1) البقرة ، 155ـ157 .
(2) فاطر ، 5ـ7 .

الحالة الثانية : تغلب الشهوات علىٰ النفس فيكون بذلك الإنسان تابعاً لها لاهثاً عليها ، ففي هـٰذه الحالة تكون الشهوة مانعة للعقل من السيطرة والتفكير في الصواب وفيما ينفع ويضر ، فتمنع عن الإنسان كل خير بقيادتها له نحو الهاوية ، لأنه من المستحيل إذا تحكمت الشهوة علىٰ النفس البشرية أن تجعله إنساناً راقياً مطيعاً لله ، بل إنها تمنع هـٰذه الصلة النبيلة التي يجب أن تكون بين العبد وربه ، وتجعل صلته بالشيطان حائلاً بينه وبين الهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [2] .

و ـ أن يكون مانعاً للتذمر وعدم الرضا بالقدر :

علىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يكون مسلِّماً بالقدر فيستسلم لإرادة ٱلله تعالىٰ لعلمه بأنه تعالىٰ المانع النافع الضار المعطي وحده ، فهـٰذا الإيمان واليقين من شأنهما أن يجعلا من المسلم عبداً راضياً مطيعاً متوكلاً علىٰ ٱلله في كل أموره ، فلا ييأس مع حلول مصيبة ولا يلجأ لغير ٱلله في التخلص منها ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [3] ، وبهـٰذا اليقين يتحقق الشعور بالعزة والحرية داخل نفس المسلم ، فنصل بذلك إلىٰ القضاء علىٰ كثير من الظواهر الاجتماعية الفاسدة والمتخلفة التي تزيد منها شعور المسلم بالإحباط والفشل داخل نسيجه الاجتماعي الذي ينتمي إليه .

---

(1) مريم ، 59 .
(2) آل عمران ، 14 .
(3) الأنعام ، 17 ـ 18 .

ثانياً : المنع السلبي :

أ ـ أن يكون مانعاً للخير ، فقد نصادف من الناس نوعاً محباً لمنع الخير بين الناس ، فيسعىٰ بينهم بالشر والفساد فلا يجعل للمعروف مكاناً ولا للمودة محلاً ، أولئك فتنة تمشي علىٰ الأرض من شأنها أن تمنع اجتماع المسلمين علىٰ الخير والمعروف ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ (2) .

ب ـ أن يكون مانعاً للحب ، فالحب بصوره المتنوعة والمتعددة يحتاج للرعاية لكي ينمو ويزداد ، لأنه بالحب نمنع وقوع الكثير من الكوارث الاجتماعية ، كالخصام والعداء والقسوة وقطع صلة الرحم وغيرها ، والحب الذي يستطيع أن يمنع كل هٰذه الآفات هو حب الخالق ، فإذا انغرس حبه عز وجل في قلوبنا منع تسلل أي شر أو كره إلىٰ القلب البشري الذي يفيض بحب خالقه سبحانه وتعالىٰ ، فطوبىٰ لمن كان حبه لله ولنفسه ولمن حوله عنواناً لعلاقته وبرهاناً لآدميته ، فبهٰذا الحب يرقىٰ الإنسان ويمنع دخول المفاسد إلىٰ روحه وإلىٰ مجتمعه ، لأن هٰذا الحب الصادق يمنع صاحبه من البحث وراء الرذائل والضلال ، بل يدعوه للسعي وراء مرضاة الخالق ومرضاة نفسه ومن حوله ، فمن يمنع مثل هٰذا الشعور النبيل فإنه يمنع الإحساس بما حوله من جمال وإبداع ، فلا يستطيع مع هٰذا المنع أن يعطي أي شيء لأي أحد حتىٰ وإن كان من أقرب الناس إليه ، فمثلاً نجد بعض الآباء والأمهات يمنعون عن الأبناء جزءاً كبيراً من حقهم في الرعاية والحنان والدلال بحجة الفساد ، مع أنها

---

(1) النور ، 19 .

(2) الحج ، 77 .

حاجات ضرورية لبناء شخصية الأبناء إذا أُعْطيت بالشكل المعتدل والسليم ، فتراه قاسياً جافاً مع أبنائه ، فبهـٰذا النوع من الجفاف يمنع الأب الشعور بالحب الصحيح بينه وبين أبنائه .

ولـٰكن خليفة ٱلله لابد أن يصل إلىٰ المفهوم الصحيح للحب البنّاء الصادق الذي يجعل منه إنساناً معطاءاً ، ينشر الحب بتنفيذ أوامر الودود المطلق ، لأن حب المولىٰ إذا تملّك من القلب منع عنه كثيراً من المفاسد ، وجعله مستحقاً لخلافة الأرض وذلك بمنعه للبخل والشح ، قال تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (1) ، فحب ٱلله يدعو صاحبه إلىٰ حب الإنفاق في سبيله دون الشعور بالخسران والندم ، بل عطاء هـٰذا الإنسان يكون بحب ورغبة تمنع من الوقوع في حب تكديس المال وكنزه .

حب طلب المغفرة : من شأن هـٰذا الحب أن يجعل الإنسان محباً لطلب المغفرة من الخالق عز وجل ، فلا يهمه من الدنيا شيء أو من متاعها لأن حبه لله يمنعه من التطلع لتوافه الأمور ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (2) .

حب الغير علىٰ النفس : فهـٰذا النوع من الحب النبيل يمنع الأنانية وحب الذات عن أي شيء آخر ، لأن من أحب ٱلله تعالىٰ زرع ٱلله في قلبه الطيبة والإيثار والزهد في الدنيا ، فلا يطمع في مال لنفسه ، أو في غيره من متاع الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ

(1) آل عمران ، 92 .
(2) آل عمران ، 147 ـ 148 .

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

حب الرسول ﷺ : لأن حب الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ من حب الخالق ، وهٰذا الحب ينتج عنه اتباع ٱلله وطاعته مانعاً انقياد القلب لأي جهة أخرىٰ يعطيها حبه وطاعته ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2] .

وفي اسم ٱلله المانع درس عظيم لعباده المسلمين ، فيتعلم المسلم المنع في الوقت المناسب لما يستطيع منعه في خير ، ولو كان هٰذا الخير مؤجلاً ، فقد يضطر المؤمن أن يكون مانعاً في موقف معين ليصل إلىٰ هدف أسمىٰ وأرقىٰ ، ويتعلم المؤمن التوازن بين العطاء والمنع في الوقت المناسب ، فتكون مسئولية هٰذا الإنسان تجاه غيره متوازنة بالعطاء والمنع الإيجابيين ، والمعتدلين .

وفي منعه عز وجل لفت لنظر بعض الناس الذين كُلّفوا بالقيام بمسئولية الغير ورعايتهم ، لأن المنع والعطاء بحق وبدون ظلم يجعل أصحاب المسئولية يراعون الرعية في حقوقهم وواجباتهم ، فيعطي هٰذا الراعي والمسؤول كل ذي حق حقه بالعدل والمساواة ، كما أمر ٱلله تعالىٰ ، فالإفراط في العطاء خطأٌ فادح والمنع الجائر أيضاً خطأٌ فادح ، وإذا توصل الراعي وولي الأمر إلىٰ حقيقة العطاء والمنع لوقفوا علىٰ حدود العدل والإصلاح ، فلا يعطي رب العمل مثلاً منصباً لرجلٍ غير مستحقٍّ له في الوقت الذي يمنعه مستحقه منه ، فيؤثر ذلك سلباً في سير العمل والإنتاج ، فأحياناً أنت نفسك تجد نفسك أمام موقف يمنعك من التساهل والعطاء ، فتأخذ موقف المانع لأحب الأشياء عن أحب الأشخاص إليك وأقربهم إلىٰ قلبك ، ويكون الدافع لهٰذا المنع هو خيره

(1) الحشر ، 9 .
(2) آل عمران ، 31 ـ 32 .

ومنفعته حتىٰ ولو أدرك هـٰذا الشخص الحبيب ذلك ، فمثلاً عندما يقف الأب موقف المانع والرادع لولده ، حين يدرك أن في انجرافه وراء أمرٍ ما ضياعه وفساده ، فلابد أن يمنع الوالد ذلك بالحسم والقوة ، كاستعمال ابنه للإنترنت والنقال وغيرها استعمالاً سيئاً لا طائل منه إلا الفساد والضياع ، عندها سيجد الوالد نفسه يقف موقفاً صارماً كي يمنع ابنه من الانجراف وراء هـٰذه المفاسد ، وكذلك الأم تجد نفسها أحياناً مجبرة علىٰ منع ابنها أو ابنتها من السقوط والانحراف عند ملاحظة ذلك ، وكذلك الزوج للزوجة وكل ولي أمر ومسئول عن رعية لابد أن يتعلم العطاء والمنع المتوازن والعادل لكي نصل بالمجتمع إلىٰ أعلىٰ درجات الرقي والإصلاح .

فبمنعه عز وجل لفت لنظر بعض الناس لحقوق الغير عليهم ، فلو أن كل فرد في المجتمع حصل علىٰ حقه من غيره لأصبح كبيراً في نظر نفسه أولاً مكتفياً بتلبية حاجاته ، فيشعر بقيمته وانتمائه لهـٰذا المجتمع الكبير الذي هو جزءٌ منه لا يمكنه الانفصال عنه ، فيكون جزءاً فعالاً فيه منتجاً سوياً ، لا مكان للحقد والبغض علىٰ من أخذ حقه ، ولا يستشعر الضعف والمهانة في مجتمعه ، وبالتالي فإن هـٰذا الفرد لن يفكر في اللجوء لأخذ حقه بطرق مؤذية وقاسية تؤدي إلىٰ نتائج سيئة ومهلكة وخاسرة ، ولكانت نسبة الجريمة بكافة أنواعها والانحراف السلوكي قلت بنسبة كبيرة جداً ، وبذلك يرقىٰ هـٰذا المجتمع الإسلامي ويكون رائداً بين باقي المجتمعات الأخرىٰ .

فبذلك يكون هـٰذا المنع علاجاً لكثير من الأمراض الاجتماعية ، التي أصبحت تتزايد في مجتمعنا الإسلامي ، فيأتي المنع لإصلاح وبناء مجتمع سليم وراقٍ ، فنتفادىٰ بهـٰذا المنع الكثير من ضحايا الفساد من شباب وأطفال قد لا يجدون من يردعهم ويمنعهم من السقوط في مستنقع الفساد والرذيلة ، بمنع زيادة الدلال والعطاء في غير محله وعدم الاهتمام بأمور الشباب والأطفال بالانشغال في أمور الدنيا .

ولا ننسىٰ دور المجتمع بصفة عامة في منع وحد الفساد والانحراف ، بمنعه لدخول الأفكار الهدامة من أي مكان كانت التي من شأنها إفساد النفوس ، ومنع الجهل من التزايد بين أبنائه بتوفير كل سبل تلقي العلم ، فيمنع المسئولون أفراد المجتمع من الهروب من تلقي ضروب العلم والمعرفة ، وبوضع شروط محددة لاستعمال الوسائل المتطورة والأجهزة الحديثة .

وإذا وصل الإنسان إلىٰ الغاية من خلق ٱلله له أدرك عطاء الخالق له ، فاستخلاف الإنسان في الأرض يمنع ضياع حياته سدىً وعبثاً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1] ، لأن رجوع الإنسان لربه يوم القيامة للحساب تجعل من حياته في الدنيا ذات قيمة وهدف لكل إنسان مفكر عاقل فيمنع هو بدوره الضياع والعبث في حياته ليكون بذلك مستحقاً لما منحه ٱلله وكرّمه به ، فلولا خَلْق الإنسان عاقلاً متدبراً لكانت حياته كالدواب لا نفع منها ولا فائدة ، يأكل ويشرب ويتناسل فقط ، فيعيش حياته لاهياً ضائعاً دون هدف أو غاية ، ولكنّ ٱلله تعالىٰ منع ذلك بوجود حكمة لخلقه وغاية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2] ، لذلك لابد أن يكون الإنسان مدركاً لحكمة خلقه وغاية استخلافه في الأرض ليمنع خسارته في الدنيا والآخرة بطاعته وتوحيده وإخلاصه للخالق عز وجل ، بذلك فالإنسان مكلف بالشكر والحمد والتسبيح لله تعالىٰ وذلك لا يتم إلا بالعلم والوعي اللذين يتممان أخلاق الإنسان ويمنعانه من سوء الخاتمة .

وعلىٰ من استخلفهم ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يكونوا مانعي أنفسهم من الرذائل والمفاسد بتذكير أنفسهم بالموت فيكون ذلك مانعاً لهم الضلالة والفساد ، لا أن يكون هـٰذا التذكير لكي يتقوقع الإنسان داخل نفسه خوفاً ورهبةً

---

(1) المؤمنون ، 115 .

(2) الذاريات ، 56 .

منه ، منتظراً قدومه وهو في غاية الانزواء ، بل من شأن هـٰذا التذكير أن يجعلك أكثر إنتاجاً وعطاء ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخَذَ رسول ٱلله ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » (1) .

وعليك أيها الخليفة بالتوبة الصادقة النصوح عند ارتكابك لذنبٍ ما ، إذا أردت أن تمنع نفسك من التمادي في الذنوب والآثام ، فتمتنع بذلك رحمة ٱلله لك ومغفرته ، ولـٰكن بتوبتك يفتح ٱلله تعالىٰ باب الخير والعطاء والبركة عليك ، لما في التوبة منع لتدهور وانحلال الأمة وفساد أخلاقها ، فلو عمت التوبة قلوب المذنبين لما وجدنا هـٰذا العدد الهائل من الفاسدين والمجرمين والظالمين الذين تمادوا في الآثام ممتنعين عن سماع صوت الضمير الناطق بالحق ، فيمنع بذلك الخالق عز وجل عليهم رحمته وبركته ، ولـٰكن في التوبة إصلاح للنفس البشرية وللأمة بشكل عام ، ولها كثير من الفوائد منها أن التوبة سبب من أسباب منع الخالق تنزيل عقابه وعذابه علىٰ عباده المذنبين ، إذ أنها ترفع هـٰذا العذاب وتمنعه توافقاً مع رحمة الخالق بهم ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوٓاْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (2) . بل إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يعطي لعباده التائبين والمستغفرين من ذنوبهم السابقة الرحمة والخير والمغفرة ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (3) ، فالاستغفار والتوبة يفتحان أبواب الخير لينهمر علىٰ نفوس التائبين ناشراً السكينة والطمأنينة والخير .

(1) صحيح البخاري ، ج 20 ، ص 39 .
(2) يونس ، 98 .
(3) هود ، 52 .

إذاً منع ٱلله تعالىٰ يكون في الدنيا والآخرة ، وفي أغلب الأحيان يكون المنع منطوياً علىٰ عطاء ، لذلك فإن مفهوم اسم المانع يكون له وجهان بالنسبة لعقول البشر وهما :

المفهوم الأول :

منعٌ يجعل القلب يتعلق بالمانع عز وجل ، فيكون المنع هنا نعمة علىٰ الإنسان ، لأن من رضي وفهم منع ٱلله تعالىٰ في الدنيا بالشكل الصحيح ، أعطاه المانع الخير كله في الآخرة فكان من الرابحين ، ففي اسم ٱلله المانع معنىً عميق للشعور بالأمان والود من الخالق لعباده ، فإذا كنا نحن العباد نشعر بالقرب والحب لمن حولنا في الحياة ، فمثلاً الزوجة تشعر بالثقة والأمان لوجود زوجها القوي الحامي لها والمانع عنها الأذىٰ والخطر فتعيش في كنفه وهي تشعر بالطمأنينة والحماية في ظل قوته وحبه ، وينعكس هـٰذا الشعور في تربية الأبناء الذين ستنتقل إليهم هـٰذه المشاعر الإيجابية ، فيكوّنوا بذلك الأسرة السوية التي هي نواة المجتمع القوية الصحيحة نفسياً التي لا تحتاج إلىٰ مصحات للأمراض النفسية ولا لمؤسسات إعادة التأهيل ، لأن الشعور بالأمان والحماية لم يتزعزع لدىٰ الإنسان منذ ولادته ، ويكبر هـٰذا الشعور بالشكل السليم لدىٰ الأبناء فإنه سيصل إلىٰ المصدر الأساسي للأمان والحب وهو الخالق عز وجل .

المفهوم الثاني :

منعٌ يجعل قلب الإنسان مليئاً بالحسرة والغضب ، كأن يُنْقص ٱلله من ماله أو ولده أو أي نعمة أخرىٰ هو سبحانه وتعالىٰ كان قد أنعم عليه بها سابقاً ، بذلك يكون هـٰذا الإنسان منع نفسه من النعم في الدنيا والآخرة .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن لا يكون ممن يمنعهم جهلهم من شكر وذكر المانع في حياته ، حتىٰ لا ينقطع عن الخير بهـٰذا المنع ، فالخير يزيد بصلتك بٱلله تعالىٰ

وقربك منه فلا يلجئون لغيره ولا يطلبون إلا رضاه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ بأن يكون هـٰذا الخليفة علىٰ يقين بأن ٱلله وحده هو المعطي والمانع ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (2) ، فيمنع نفسه عن الطمع والشرور واتباع الأهواء ، فإن أعطاه ٱلله تعالىٰ جعل هـٰذا الخليفة عطاءه في طاعة ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) ، وإن منع عنه فذلك لخيرٍ هو غير مدركه ، وإن فُتِحت أبواب الرزق له ثانيةً رد ذلك الخير إلىٰ المعطي الذي بيده منعه منه في أية لحظة ، وإن حال بينه وبين رزقه أحد من العباد فلابد أن يكون مدركاً أن الذي حال بينه وبين رزقه ليس هـٰذا الإنسان الماثل أمامه والذي يفوقه سلطة ونفوذاً بل المانع هو ٱلله تعالىٰ ، فلا يتجه إلا لله تعالىٰ ولا يتضرع إلا له ولا يطلب إلا منه عز وجل القادر علىٰ المنع والعطاء ، فمن فضل ٱلله علينا أنه هو المانع فبذلك من آمن بهـٰذا الاسم وأدرك أسراره وصل إلىٰ أن ٱلله جل جلاله هو وحده المتصرف والمقدّر لأمورنا نحن العباد ، فيرتاح الإنسان بهـٰذا الشعور ويتخلص من أن يكون تابعاً لغيره من العباد ، فيصبح الإنسان سيد نفسه وهـٰذا الشعور بحد ذاته فيه متعة كبيرة فتتجه لله بالعبادة والتوحيد والثقة برحمته

(1) فاطر ، 2 .
(2) الزمر ، 38 .
(3) آل عمران ، 133 ـ 134 .

وقدرته لأنه المنزه عن النقائص فلا يحتاج للخلق بل هم في حاجة لا تنقطع إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [1] ، من هنا ينشأ الشعور بالعبودية لله وحده ويمنع عبوديته لأي إنسان ، ويمنحه شعوراً بالأمان والحرية والقوة والثقة ، هـٰذا ما يجب أن يكون عليه الفرد المسلم النموذجي علىٰ سطح الكرة الأرضية .

ولابد للخليفة أن يكون متذكراً أن ٱلله قد يمنع عنه نعمة أو رزقاً أو غيرهما لـٰكنه في الوقت نفسه قد أسبغ عليه جل جلاله بنعم أخرىٰ لا تُحصىٰ ولا تعد ، فلا يطمع ولا يمد نظره إلىٰ ما عند غيره من البشر من عطايا المولىٰ عز وجل من جاه ومال وسلطان وغيرها من النعم الدنيوية الفانية ، فهي نعمٌ زائلة وامتحان عسير لمن امتلكها ، فكما حدث مع قارون حين طغىٰ وتجبر بما أنعم الخالق عليه فكانت هـٰذه النعمة نقمة عليه ، فيدرك الخليفة أن ٱلله تعالىٰ حتىٰ في منعه خير ومصلحة للإنسان ، فلا ييأس الفقير من فقره ، ولا المريض من مرضه ، لأنه معطٍ وكريم ولا يمكن أن يحرم عباده مما هو خير لهم .

وليكن في خلق الكون أكبر دليل علىٰ حب الخالق لنا في منعه ومن ذلك :

أ ـ لو تخيلنا أن البحار والمحيطات لم يكن ٱلله مانعاً لها من الحركة علىٰ هواها في مدها وجزرها ، فماذا ستكون النتيجة بالنسبة للإنسان . أكيد ستدمر هـٰذا الكميات الهائلة المختلطة ببعضها البعض كل ما فيه نفعٌ للإنسان من أراضي زراعية ومن دواب وحتىٰ الإنسان نفسه لن ينجو من قوة تدميرها ، ولـٰكن ٱلله تعالىٰ منعها من ذلك بقدرته وجعل لكل منها سيرها ونظامها الذي لا تستطيع أن تخرج عنه إلا بمشيئته عز وجل ،

---

(1) فاطر ، 15 ـ 17 .

كما يحدث في بعض الأوقات من فيضانات تؤدي إلىٰ كارثة إنسانية .

ب ـ الإنسان نفسه يحمل أكثر من عدد سكان الكرة الأرضية من الفيروسات في جسده والميكروبات المتنوعة ، ولـٰكن في نفس الوقت زوّد المولىٰ عز وجل هـٰذا الإنسان بدروع طبيعية تصد هـٰذه الفيروسات والميكروبات عنه ، فتحميه وتمنع تغلبها عليه ، بوجود مضادات داخل جسم الإنسان وجهاز كامل مانع لسيطرتها علىٰ الجسم البشري ، وبرحمة ٱلله تعالىٰ وحبه لا يكون الإنسان فريسة لأي فيروس أو ميكروب وإلا لقضىٰ حياته عليلاً يتمنىٰ الشفاء والصحة ، فإذا لم يكن ٱلله مانعاً لذلك من الحدوث فمن الذي سيمنع الأمراض عنه . وكذلك حتىٰ عند إصابة الإنسان بمرضٍ ما فإن ذلك يكون خيراً له في كل حال ، لأن الإصابة بمرض أحياناً يقوّي من مناعة وحصانة الجسم ضد الإصابة به مرة أخرىٰ أو الإصابة بأمراض أخرىٰ فيمنع بذلك الجسم من الاستسلام لأكثر من نوع من الفيروسات المسببة لأمراض مختلفة ، وقد يكون اختباراً لصبره وحبه لله تعالىٰ فيمنع عنه الشفاء أو يؤخره بهدف تكفير عن ذنب أو زيادة في الأجر .

وإذا لاحظنا نجد أن أغلب الأمراض التي بدأت تنتشر وتتزايد هي من صنع البشر أنفسهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (1) ذلك أن ما يقوم به الناس من تجارب علمية ومن حروب ودمار تسببت في تلوث الجو وفساد البيئة المحيطة به مما أدىٰ إلىٰ انتشار أمراض جديدة وكثيرة في الحياة ، ولـٰكن ٱلله تعالىٰ منع سيطرتها علىٰ الإنسان بإعطائه العقل والعلم اللذين يمنعان سيادة المرض عليه .

ج ـ من الطبيعي أن يكون في نزول الأمطار الخير الوفير ، وفي الأحوال العادية يكون الناس في حالة انتظار لها لما تحمله من خير ورزق ، ولـٰكن

---

(1) الشعراء ، 80 .

أحياناً يمنع ٱلله المطر عن بعض الأمصار أو بعض الأماكن رغبةً من ٱلله في لجوء هـٰؤلاء الناس إليه بالصلاة والدعاء فيستشعرون قدرته ويرجع مذنبهم إلىٰ الطاعة وناسيهم إلىٰ الذكر ومتكبرهم للتواضع .

وخليفة ٱلله في الأرض هو من منع سوء الظن بٱلله ، ووثق بقدرته وإرادته وحكمته ، فمن شأن سوء الظن بٱلله أن تمنع صلتك به عز وجل ، كما هو شأن من أشرك بٱلله ولم يوحده في العبادة والطاعة وهـٰذا ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) ، فالخالق جل جلاله له العزة والقوة متوحد في القدرة والإرادة بيده مفاتيح كل شيء وهـٰذا ما يجب أن يكون واثقاً منه كل مؤمن مطيع لله عز وجل ، فلا يخالجه أدنىٰ شك في قدرة وحكمة خالقه الكريم ، فتنقطع صلته به لمنع الثقة والتوكل عليه ، فثقة العبد بربه هي التي تحدد صلته وعلاقته بخالقه إذ إنه يلتجئ إليه ، ويحتمي به ، ولا يطلب إلا منه ولا يخضع لسواه ، ومن قطع صلته بٱلله فقد قطع صلته بالرحيم والكريم والرزاق والمانع فمن الذي سيرحمه ويكرمه ويعطيه ويمنع عنه البلاء والشرور .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، فإذا وصل المسلم إلىٰ هـٰذه الثقة بخالقه فقد وصل إلىٰ بر الأمان في الدنيا والآخرة ، فلزم طاعة ربه ومنع نفسه من الانقياد للخرافات والأوهام علىٰ يد الدجالين والسحرة طلباً لتحقيق غاياته وطموحاته ، فيبحث عن رزقه عندهم وعن ذرية هو فاقدها أو مركز هو منتهىٰ طموحاته لعلهم يحققون له ذلك ، وهو لا يدري بأنه بذلك

---

(1) الزمر ، 67 .
(2) يونس ، 107 .

يمنع وصول الخير والبركة من ٱلله إليه ، وكيف يصله الخير وهو يطلبه من سواه .

وعليك أن تكون صابراً علىٰ البلاء ، فائزاً في امتحان المولىٰ لك في الدنيا لأنها دار ابتلاء وفناء ، فالصبر يمنع الضعف والاستسلام ، ويدفعك لأن توكل الخالق في كل أمورك متيقناً من قدرته ورحمته بك ، بذلك فقط تستحق أن تكون خليفة ٱلله في الأرض كما أرادك المولىٰ عز وجل فتحقق الهدف والرسالة المنشودة من خلقك ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

أنت أيها الإنسان يا من كرّمك ٱلله واستخلفك في أرضه ، كن مانعاً عن اتباع الأهواء يعطيك ٱلله الخير الكثير ، كن مانعاً للفساد والضلال يعطيك ٱلله الجنة ، كن مانعاً للظلم والرذائل يعطيك ٱلله حبه ورضاه .

إن المانع سبحانه وتعالىٰ يمنع عنا عظيم الأذىٰ بجملة واحدة إذا نطقها المؤمن بقلبٍ خاشع ونية صادقة ألا وهي (أعوذ بٱلله من الشيطان الرجيم) فيمنع عنا وسوسة الشيطان الرجيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (2) ، فالمانع عز وجل لا يكلّفنا إلا ما نستطيع أن نتحمله ، ولا يمنع عنا إلا ما هو ضار بنا في الدنيا أو في الآخرة بعلمه وحكمته المطلقين ، فكيف أيها المسلم تمنع عن هـٰذا الكريم طاعتك وحبك وخضوعك .

اللهُمَّ يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا ، وطهِّر قلوبنا من الغل والحسد

---

(1) الأعراف ، 128 ـ 129 .

(2) المؤمنون ، 97 ـ 98 .

والبغض والنميمة والتكبر والحقد ، وامنع عنا شرور الناس ، وأحفظنا منهم واهدهم واهدنا سبل النجاة والفلاح !

اللهُمَّ يا المانع امنع عنا الاغترار بالدنيا وحبها والوقوف عند بابها والتشبث بها ، ولا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم منها !

اللهُمَّ امنع عنا عذابك وارحمنا إنك أنت الرحمـٰن !

اللهُمَّ امنع عنا نار جهنم وامنع عنا كل ما يقربنا إليها ، وحبب وزين لنا كل ما يقربنا منك يا المانع يا الحفيظ يا ألله !

اللهُمَّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، اللهُمَّ امنع عنا شياطين الإنس والجن ، وأرسل علينا حفظة يحفظوننا من كل سوء وشر !

اللهُمَّ إننا نسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ ، فلا تمنع ذلك عنا ، ولا تحرمنا منه !

اللهُمَّ امنع عنا الظمأ والجوع والألم والحسد والضرر واجعلنا في نعيمك نعيش الرحمة !

اللهُمَّ يا المانع لا تمنع عنا التواد والتراحم والإصلاح وامنع عنَّا كل فساد !

اللهُمَّ إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وجميع سخطك !

اللهُمَّ أنت المانع فامنع عنا جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء !

اللهُمَّ أنت ربنا لا إلـه إلا أنت ، عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم !

اللهُمَّ إننا نعوذ بك من شر أنفسنا ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها فامنع عنا شرورها يا المانع إنك بنا رؤوف رحيم !

اللهُمَّ يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا واهدنا كمن هديت بجاه من رفع قواعد البيت وبجاه من طاف عليه وصلىٰ وصليت !

اللهُمَّ يا المانع امنع عن قلوبنا وأنفسنا الغل والحسد والبغض والنميمة والحقد واجعلنا إخوة متحابين في محبتك ، وامنع عنا شرور الناس ، واحفظنا منهم ، واهدهم وأهدنا سبل النجاة والفلاح يا أرحم الراحمين !